موسوعة العلوم الإسلامية

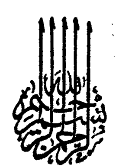
الفكر الإسلامي والثقافة العربية المعاصرة

في مواجهة تحديات الاستشراق والتبشير والغزو الثقافي

- مرجليوث لم يُبحث عنه

أنور الجندي

دار الاعتصام



مدخل إلى البحث

عبر القرآن الكريم تعبيرا واضحا جليا عن معركة التغريب والغزو الثقافى التى حاولت احتواء الفكر الاسلامى والثقافة العربية فى عبارة جلية واضحة فى قوله تعالى : (كذلك يضرب الله الحق والباطل فاما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض) .

ولذلك كان لابد من استقصاء كامل لما وجه للفكر الاسلامى والثقافة العربية من شبهات واتهامات فى محاولة لكشف هذه الوجهة امام الشباب المسلم ، هذا ما شاء الله تبارك وتعالى ان يوجهنى اليه منذ عام (١٩٦٠) بعد ان انتهيت من اعداد (موسوعة) معالم الأدب العربى المعاصر والصحافة العربية كان لابد ان انتقل واوغل بعونه تعالى الى افق اوسع وارحب هو مجال الفكر الاسلامى المعاصر فى مرحلة الغزو والتغريب ايمانا بان الأدب العربى ليس فى حقيقته الا فرعا من فروع المنظومة الفكرية الاسلامية وانه مرتبط بها خاضع اساسا لمفهوم الاسلام الجامع وذلك ايمانا بتكامل القيم السياسية والاجتماعية والتربوية والأدبية فى محيط جامع تحت راية التوحيد الخالص وتكامل التاريخ واللغة والحضارة والثقافة .

ومن هنا جاء التشكيل الذى يبدو الآن بعد ثلاثة عقود (١٩٨٨) وكانه اشبه بمدخل الى هذه القضية الكبرى التى توسعنا فيها بعون الله من خلال دراسات كثيرة عن الاستشراق والتبشير والتغريب .

واليوم نرى وكان افق المؤامرة على الفكر الاسلامى وهى تتسع وتمتد حتى تتشكل نهرا له ثلاث روافد ، الليبرالية والماركسية والقومية ونرى الاستشراق وهو يعمل فى ميادين ثلاث : الفكر الغربى والفكر الماركسى والفكر الصهيونى ، ولا تخدعنا تلك المقولة التى تتردد عن ان الاستشراق يطوى اوراقه والحقيقة انه يقدم الآن على المسرح بدائل من قومنا ولساننا اشد قسوة فى مواجهة الاسلام منه هو واشد اقتحاما وتمويها ، هؤلاء المغربون الجدد تعرفهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول : هؤلاء هم بدائل الاستشراق .

ومن هنا نجد غلمان المستشرقين يواجهون الموقف بدهشة بالغة لتنامى هذه الموجة : موجة الصحوة التى تحمل راية الأصالة ولواء العودة الى المنابع ، ويعجبون كيف استطاعت ان تنتزع البساط من تحت ارجلهم وقد ظنوا فى فترة سابقة انهم قد بلغوا مبلغ التمكن وقد عجزوا عن تفسير هذا الأمر، الذى هو أبسط من البساطة ، فهذه الأمة التى استجاشت بعد نكسة ١٩٦٧ قد آمنت بان الطريق

الذى ســـارت فيه غشيته الظلمـــات وان الوعود الخلابة الكاذبة بان النصر ياتى للمسلمين عن طريق تقليد الغرب والانصهار فيه قد انهـــارت ولم يعد امام المسلمين الا طريقهم الاصيل الذى رســـمه لهم القرآن الكريم :

((وان هــذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله .))

مصدر الدهشة هو كيف استطاع المســلمون بعد ان اســـتسلموا وخضعوا ان ينتقضـــوا على مفهوم الغرب ، وواقع الأمر أن الاسلام نفسه كان قادرا دائما على استعادة اهله واخراجهم من المازق متى التمسوه وعادوا اليه .

واليوم نجد ان جهودا جبارة تبذل فى ندوات جامعية وحلقات دراسية على مختلف اطراف العالم الاسلامى من اجل دمج المسلمين فى الحضارة الغربية تحت اسم الثقافة العالمية واخراجهم من حضـــارة التوحيد .

((ود كثير من اهل الكتاب لو يردوكم من بعد ايمانكم كفـــارا حسدا من عند انفســـهم من بعــد ماتبين لهم الحق .))

ان اختلاف المنطلق هو اساس الخلاف حيث تقوم الثقافة الاســـلامية اساسا على الدين ، على الاســـلام بمفهومه الجامع فهو المحرك الفـــاعل فى الصراع بين الامم والثقافات بل هو الفاعل فى حركة التاريخ البشرى كله وهو فى نفس الوقت غير القابل للفصل بين الدين واللغة فى كل ثقافة فاذا تقرر هذا المعنى وهو مقرر ، فمن الزيف القول بوجود ثقافة عالمية يشترك فيها جميع البشر على اختلاف لغاتهم ومللهم ونحلهم واجناسهم واوطانهم ويتطلب هــذا وجوب التمييز بين الثقافة والعلوم .

فالثقافة متعددة بتعدد الملل والنحل والعلوم ميراث مشاع بين خلق الله جميعا — على حد تعبير (محمود محمد شاكر) .

ولقد كانت ابرز عناصر الثقافة الاسلامية التى كانت المؤثر الفعال فى حركة التاريخ : هو الايمان الذى يتغلغل فى اعماق النفس المسلمة لتحقيق غاية وجوده ورســـالته وكيـــانه الحضـــارى بين الامم والاسلام يصل الانسان المسلم بالحياة وصـــلا عضويا وعقائديا تعبديا ليكون له دور ايجابى فعال فى بناء التقدم العلمى والثقـــافى والحضارى . على حد تعبير دكتور فتحى الدرينى فغاية وجود الانسان من اجل تعمير الكون (العمران المادى والمعنوى) من منطلق الاعتقاد انه من صميم الدين .

وقد اكتملت مفـــاهيم الاسلام قبل الاتصـــال بالفـــكر الوافد ومن ثم كان قادرا على رد الفـــكر المعارض لمفاهيمه وقيمه .

ومن هنا نجد ان الثقافة الاسلامية لها جذور واصول ووجود يختلف عن الثقافات التى حاولت ان تغزوه او تحتويه فى مرحـــلة انطوت فيها الثقـــافة الاسلامية على نفسها حماية لها من الاحتواء بعــد مرحلة حملات المغول والصليبيين ، ثم اســـتعادت قدرتها على تصحيح مسارها من خلال عامل داخلى اصيل ، هو امتداد طبقات المصلحين والدعاة على مدى تاريخ الاسلام ومن خلال قاعدة اساسية هى قدرة الاسلام على تصحيح مساره من الداخل .

وقد بدات هذه الحركة قبل الحملة الفرنسية التى ينتســـبون اليها — ظلمـــا وكذبا وعدوانا —

اليقظة الاسلامية باربعين عاما من خلال صيحة العودة الى المنابع وتحرير مفهوم التوحيد الخالص ومن خلال ثلاثة من البارزين (محمد بن عبدالوهاب والشوكانى والعالم الذى وقف امام مسجد المؤيد (فيما روى الجبرتى) ولقد حاولت حركة الغزو الفكرى والتغريب اختراق ثقافتنا الاسلامية وفرض مفاهيم واحدة مستمدة من ثقافة اخرى مرتبطة بدين آخر هو المسيحية الغربية تختلف فى اصولها عن الاسلام من عدة نواحى . وكان عمل التغريب قائما على اساس تفريغ العقل المسلم والنفس المسلمة من عناصر القوة والايمان والصلابة والاصرار والقدرة على المقاومة .

اذن لم تكن الحملة الفرنسية منطلق اليقظة الاسلامية وليس هناك ما يسمى ثقافة عالمية اساسا يفرض وجودها على المسلمين .

ولقد حاربت فكرنا قوى عدة :

١ ـ الفكر الماسونى اساسا ٢ ـ الفكر التبشيرى التنصيرى فى اثوابه المختلفة وآخرها الحوار . ٣ ـ الفكر الاستشراقى بمراحله الثلاث الغربى والماركسى والصهيونى . ٤ ـ فكر التغريب الذى يقوده المغربون الجدد : بدائل الاستعمار .

وتشكلت مؤامرة هذه القوى فى فرض مفهوم زائف قوامه :

١ ـ انكار ما سوى الحس (اى انكار الغيب ـ والوحى والنبوة) .

٢ ـ نسبية الأخلاق مما يجعل الاخلاق ليست من القيم الثابتة المرتبطة بالعقيدة . ٣ ـ وضع الطبيعة بديلا عن الله تبارك وتعالى . ٤ ـ بروز نظرية الاستعلاء بالاستغناء عن توجيه الأديان الوصايا . ٥ ـ اعتماد مفاهيم وقيم تخالف النص القرآنى مخالفة صريحة .

(ونظرية دارون ، نظرية فرويد ، نظرية ماركس ، نظرية سارتر ، نظرية دوركايم) .

هذه المرحلة الخطيرة التى بدات بكلمة (حرب الكلمة) التى قالها لويس بعد هزيمته فى المنصورة والتى فتحت الباب واسعا امام حملة التزييف والتشكيك التى وجهتها هذه المؤسسات التى اختضنتها الكنيسة ثم احتضنها الاستعمار من اجل اختراق الاسلام والعقل الاسلامى ، واحتوائه والسيطرة عليه وصهره فى بوتقه عالمية الثقافة او عالمية الحضارة او الفكر الأممى وهو ما تأبى عليه الاسلام وفكره وتاريخه ولغته منذ عصور طويلة وفى التجربة السابقة التى قادها الشعوبيون والباطنية تحت عنوان الفلسفة اليونانية دعاة الزنج والقرامطة ، هذه الدعوة التى تتجدد اليوم بصورة أشد عنفا من اجل ازالة التميز الاسلامى الخاص والقضاء على الذاتية التى صنعها القرآن والاسلام فى حملة شرسة على الشريعة الاسلامية والتاريخ والسيرة واللغة جميعا .

ولقد جاهد الأبرار من اعلام اليقظة فى المقاومة وكشفوا خطة المؤامرة وزيفوا تلك الشبهات والشكوك والمحاولات التى صنعها كرومر ودنلوب وزويمر ولافنجرى ، ثم اسلمت قيادتها لطه حسين وعلى عبد الرازق وحسين فوزى ولويس عوض وسلامة موسى ثم جاء دور من

تعرفون من أسماء لا تخفى هويتها اليوم تحاول أن تخدع الأمة بدعاوى باطلة ، زكى نجيب محمود وفؤاد زكريا وغيرهم .

ولكن حركة اليقظة التى استطاعت كشف هذه المخططات تقف اليوم على مفترق الطرق ، فهى تعرف تماما أبعاد المخطط ولا تثق بأى من هذه الأسماء اللامعة ولا ما تقدمه العلمانية والشعوبية والباطنية والماركسية من خطط أو مفاهيم أو مقررات ، فقد انتهى عهد الخداع وبدأ عهد الصحوة القادرة على رفض الزيف والكشف عن ركام السموم .

وهى ترد الشبهات فى كل موقع وموقف وتحاول أن تجد البدائل الاسلامية الأصيلة لما حملته العلوم الانسانية والاجتماعية من أوزار وأخطاء .

ولا تزال تمضى فى طريقها الى غايتها بخطى ثابتة بإذن الله وحوله وقوته .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

حركة التغريب والغزو الثقافى
مخططاتها ودعاتها وقضاياها

هذا الكتاب (حركة التغريب: مخططاتها ودعاتها وقضاياها) كان مقدمة لمرحلة جديدة فى حياة كاتب هذه السطور حين صدر عام ١٩٦٧ أى منذ عشرين عاما تحت عنوان (الاسلام والثقافة العربية) فقد انتقلت به من دراسة للأدب العربى (الشعر والنثر والقصة والترجمة والمعارك) خلال مرحلة ممتدة امتدت قرنا كاملا حتى عام ١٩٣٩ تعريبا الى دراسة الفكر الاسلامى نفسه بعد أن تبين لى أن الأدب العربى هو قطاع من قطاعات الفكر نفسه ، وأنه أصبح من الضرورى على الباحث أن يعمل فى أفق أشمل يضم مختلف قضايا الفكر الاسلامى من عقيدة وفلسفةوحضارة واجتماع وتراث ، هكذا أوصلتنى دراستى للأدب والصحافة منذ أواخر عصر اسماعيل ومع النهضة التى بداها جمال الدين الأفغانى الى أن افق الأدب والصحافة وحده لا يمثل النظرة الشاملة وان علينا أن نواجه عالم الفكر الاسلامى كله الذى كان قد بدأ يستفيق من مرحلة ضعف وتخلف وكان أبرز ما لفت نظرى فى اطار الفكر الاسلامى هو عملية الهجوم الكاسح الذى قام به الاستشراق والتبشير وكتاب الغرب المتعصبين للاسلام فى اطار الخطة التى كانت قد رسمت تحت اسم (حرب الكلمة) لتزييف مفاهيم الاسلام توطئة لاحتواء المسلمين فى بوتقة الفكر الغربى نفسه : هذه هى المؤامرة الحقيقية التى تكشفت لى بعد أن عشت سنوات طويلة أدرس الأدب العربى (من المحيط الى الخليج) وأدرس الخلافة وآثارهم ، وقد وجدت أن الأدب العربى ليس الا لسانا من السنة الفكر الاسلامى يركز عليها التغريب والغزو الفكرى لاخراجه من أصوله وقيمه ، وكان أخطر ذلك كله هو : نزع هذه اليقظة الفكرية الاسلامية من أصولها وتاريخها والحديث عن فكر عربى وحضارة عربية ، ونهضة عربية منفصلة عن سياقها الاسلامى الأصيل الممتد منذ فجر الاسلام .

***

وكان من الضرورى أن نركز على هذه الخطة الخطيرة وأن نكشف ابعادها والعاملين لها والقضايا التى اثارتها بهدف تشكيك المسلمين فى حقائق الاسلام .

كان جمال الدين الأفغانى أول من تنبه الى هذا الخطر حين كتب (الرد على الدهريين) فى مواجهة دعاة الالحاد والمادية ، ولم يلبث الشيخ محمد عبده انه دخل المعركة بالرد على هانوتو — والرد على فرح أنطون بكتابيه (الاسلام والرد على منتقديه) و (الاسلام والنصرانية فى العلم والمدنية) ثم جاءت المعركة مع كرومر (حيث رد عليه فريد وجدى ومصطفى الفلانينى) ثم جاءت ترجمة كتاب (الغارة على العالم الاسلامى) ليكشف مخططات التبشير ، وتوالت الدلائل على المخطط المرسوم لما أسموه (تغريب الاسلام) أو تغريب الشرق أو تغريب المسلمين وكان لابد من تعقب هذا كله على النحو الذى يجده القارىء فى هذه الدراسة التى اعتبرها بحق منطق نحو دراسات واسعة أجريناها بعد ذلك حول الاستشراق والتبشير ، والتغريب ، ومعارك الفكر وقضاياه بحيث يمكن أن يقال وبحق أن هذا الكتاب هو مفتاح لهذه الدراسات جميعا ييسر للقارىء الانطلاق الى فهم هذا المخطط وكشف أخطائه ومؤامراته .

واذا كان لنا أن نتحدث عن العصر الذى كتب فيه ، فقد كان عصرا تتموج فيه الصراعات بين المنهج الغربى الليبرالى الوافد وبين المنهج الماركسى الذى كان يتأهب لينقض على الثقافة الاسلامية والفكر الاسلامى حيث لم يلبث أن سيطر على دوائر الصحافة والأعلام والمسرح فكان لابد لدعاة الاسلام من حشد الهمم لكشف المخططات والتماس الطريق الصحيح لتقديم مفهوم الاسلام الجامع بين فكر يجنح الى الفردية المفرطة وفكر يجنح الى الجماعية الغالية ، بينما يقدم الاسلام منهجه السمح الكريم جامعا بين الفردية والجماعية فى توافق عجيب وتكامل رائع .

ويكفى هذا الكتاب أهمية أنه أول كتاب قدم للمثقف المسلم مخطط حركة التغريب التى لم يكشف أمرها الا حين صدر كتاب (وجهة الاسلام) للمستشرقين الذين قادهم هاملتون جب والذين حاولوا التصور فى الثلاثينات أن الاسلام قد قضى عليه وأن الفكر الغربى قد حاصر المجتمعات الاسلامية وأنه فى الطريق الى تذويبها فى بوتقته وقد غفل جب وزملائه على أن الصحوة الاسلامية الوليدة اذ ذاك لم تلبث أن تنامت ومدت جناحيها وحمت العقل الاسلامى من الأضواء وواجهت فى قوة واصرار هذه الشبهات فكشفت زيفها وما تزال هذه الأقلام المؤمنة منذ ذلك الوقت الخطير حين تداعى حصار الليبرالية والشيوعية على الفكر الاسلامى ، صامدة حتى انكسرت هذه الأزمة ، واستطاع صوت الاسلام أن يبرز من جديد ليدعو الى الأصالة والعودة الى المنابع على النحو الذى يجده المثقف المسلم فى عديد من الدراسات المتكاملة باذن الله ، هذا وبالله التوفيق .

أنور الجندى

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

منذ عام ١٩٦٠ وسعت ابعاد دراستى فلم تعد قاصرة على الأدب العربى المعاصر والصحافة العربية (تاريخها وتطورها واعلامها) واوغلت فى مجال أوسع افقا وارحب مجالا : ذلك هو مجال الفكر الاسلامى المعاصر فى لقائه مع الفكر الغربى بشقيه ومن هنا أصبحت دراساتى تضم الاجتماع والدين والفلسفة والحضارة والتراث .

وكان لابد من استقصاء كامل لماوجه للفكر الاسلامى من شبهات واتهامات تتمثل فى هذه الدراسة .

والحق أننى احس بأن الفكر الاسلامى المعاصر يعيش اليوم فى ضوء التاريخ واننا فى خلال هذه المرحلة من اليقظة الفكرية نستطيع أن ننطلق بحرية لتعليم المرحلة الماضية من حياتنا الفكرية حيث بدأ وضوح (الخط الفاصل) بين عصر وعصر .

بين عصر الاحتلال والنفوذ الاستعمارى والمقاومة والدفاع وبين عصر جديد تنطلق منه شعلة الدعوة الاسلامية لتضىء الخافقين .

وقد امتلكت الأمة الاسلامية ارادتها وبرزت فى التاريخ المعاصر كقوة فعالة قادرة فى مواجهة بقايا النفوذ الاستعمارى وعوامل الاستعمار الفكرى والاقتصادى التى تحاول أن تستبقى من نفوذها ما ليس باقيا .

وفى مواجهة هذه التيارات الضخمة المتعددة التى انطلقت من كل مكان سواء منها ما ارتبط بالفكر او الثقافة أو ما قذفت به أوربا عالم الاسلام من دعوات ومذاهب مادية او روحية ، اقليمية ضيقة ، أو قومية أو شرقية أو اسلامية أو طائفية ، سواء منها ما يرمى الى التحلل من العقيدة أو التحلل من قيد الفصحى أو بناء التصور العربى بعيدا عن الاسلام أو عن الدين جملة أو فصل الاسلام عن القومية ، هذا الصراع بين المدارس المختلفة فى الفكر وما القى اليه من ثقافات فرنسية وانجليزية وأمريكية ، أو اسلامية عربية صادرة عن فهم جزئى ، أو متصل بمدارس المرسلين أو الجامعات أو الأزهر أو دار العلوم ، أو ما يتصل بالدعوات الى الفرعونية او البربرية او الفينيقية أو الخلاف بين الأديان هذه الدعوات التى عاشتها الفترة السالفة « فترة الفعل ورد الفعل ، بالاستجابة أو التحدى بين الاستعمار والتغريب وبين الأمة وفكرها فى مقاومة تحديات الاستعمار وشبهات التغريب» كانت فى اغلبها ردا مرحليا لهجوم مركز مقصود من النفوذ الغربى الاستعمارى الذى بعث الخلافات القديمة ، واحيا الشبهات المدفونة ، وأعاد اذاعتها والهب النفوس بالاتصال بها أو معارضتها .

ولقد كان على هذه الأمة أن تنظر فى يقظة وحرص الى كل هذه الدعوات وتفهم بواعثها وغاياتها ومصادرها فالى جوار كتابات المئات من المؤمنين بأمتهم وفكرها ، فان هناك عشرات من كتابات الكتاب قد انطلقت لتعبر عن غرض ذاتى من حقد أو خصومة أو كراهية او ولاء ، دون أن تعتمد اساسا على مفهوم علمى .

كل هذا كان فى حاجة الى دراسة ونظر ومراجعة ، كان علينا أن نكشف للمثقفين بعد أن انتهت هذه المرحلة أن النفوذ الاستعمارى لم يكن يهدف من هذه المعركة الضخمة الا خلق البلبلة والتفرقة والتمزيق الفكرى والروحى للأمة الاسلامية عن طريق الفكر والثقافة ، ذلك أن الوحدة كانت ولا تزال هى الخطر الأساسى الذى يواجهه الاستعمار ، ووحدة الأمة لا تتم الا فى ضوء « وحدة فكر » . وما دامت الأمة ممزقة الى عشرات المذاهب والدعوات والعقائد فانها ستظل ممزقة لا تجتمع على وحدة حقيقية .

ولقد كان علينا ان نعيش هذه المرحلة من وطننا العربى ، وفكرنا العربى من خلال دراسة « الاسلام والثقافة العربية فى مواجهة تحديات الاستعمار وشبهات التغريب » .

وقد استطارت الشبهات فى مختلف مجالات الثقافة العربية الاسلامية فشملت الاسلام ورسول الاسلام والقرآن والفكر العربى والحضارة العربية الاسلامية وقيم الفكر العربى والسنة واللغة العربية والتشريع الاسلامى والأدب العربى والتاريخ . استطارت هذه الشبهات منذ بدأ الاحتلال والنفوذ الغربى يسيطر على العالم الاسلامى والأمة العربية كوسيلة من وسائل الحرب النفسية ، والقضاء على المقومات الأساسية التى كان مصدرها الفكر العربى الاسلامى ، والتى كانت ولا تزال تحمل طابع المقاومة لكل دخيل وغاز ، مع الجرى فى نفس الوقت على سنة الاسلام والفكر الاسلامى الأساسية فى التفتح على الثقافات المختلفة مع الحركة والايجابية والنمو ، ولم تكن سيطرة الاستعمار الأوربى على العالم الاسلامى الا حلقة من معركة طويلة ممتدة بدأت فى القرن الخامس الهجرى (القرن ١١م) بالحروب الصليبية ، حيث استطاع الفرنجة اقامة مملكة على الشريط الساحلى للشام استمرت حوالى قرنين من الزمان ، وقد قاومها العرب والمسلمون مقاومة فعالة مستمرة حتى قضى عليها . وكان لهذه المعركة دوافع مختلفة أبرزها ذلك الصراع بين فكر الشرق وفكر الغرب ، بالاضافة الى دوافع الاقتصاد وما التمسته هذه الحروب من شعار لها وهو الدفاع عن بيت المقدس وتخليصه من أيدى المسلمين والعرب .

وانتهت الحروب الصليبية بهزيمة الغرب ولكنها أمدته بقوة جديدة ، فقد أولع المغلوب بتقليد الغالب فنقل حضارته وثقافته . ونظمه وتقاليده ، وبدأ فى ترجمة ذلك التراث الضخم والانتفاع به على النحو الذى هيأ لعصر النهضة الأدبية فجره الذى استطاع أن يسيطر من بعد على العالم الاسلامى الذى كان قد أصيب بالجمود والضعف وأقفل أبوابه متخليا عن أبرز مقوماته الفكرية وهى القدرة على الحركة واليقظة والقوة وحماية الثغور والتجدد ، حتى بدأت يقظة العالم الاسلامى من داخله ، ومن أعماق الأمة العربية بالدعوة الى التوحيد كوسيلة لتحرير الفكر الاسلامى من شبهات الجمود والتقليد .

ولعل أبرز الاتهامات التى توجه الينا أن يقظة العالم الاسلامى انما جاءت نتيجة للبعثات التبشيرية والحملة الفرنسية ، ونحن نرى ومعنا كل الأدلة على أن اليقظة الفكرية قد سبقت هذا الغزو بأمد طويل ، بدعوة التوحيد التى كانت تستهدف التحرر من زيف التقليد وأن هذه الدعوة بدأت قبل وصول الحملة الفرنسية والبعثات التبشيرية الأوربية بمائة عام على الأقل .

وقد كانت يقظة الفكر العربى منصبة على تأكيد الحقائق الأساسية للفكر العربى الاسلامى وهو ما قامت عليه الحضارة العربية الاسلامية التى عم ضياءها العالم كله واستمرت تؤثر فيه الى اليوم ، وهى فى خلاصتها تتمثل فى مبادىء محددة صريحة ، أبرزها كرامة الانسان وحريته ، وامتزاج الروحية المادية ، وسيادة العقل (قل هاتوا برهانكم) مع تجدد الفكر بالغربلة واقصاء القشور والاجتهاد والموائمة مع التطور والزمن والبيئة ، وحمل لواء الحضارة والزيادة فيها . وحماية الوطن والحضارة والتسلح واليقظة للعدو ، والمقاومة واعتبار الدفاع عن الوطن دفاعا عن العرض وتغليب السلام والأخوة والمحبة والدعوة الى العدل الاجتماعى ومساواة الأجناس والمفاضلة بالعمل والتضامن والشورى .

وقد غاضت هذه الأسس فى ظل امتداد الحكم العثمانى وجموده فى مراحله الأخيرة ، وفى خلال فترة الجمود التى حلت بالعالم الاسلامى ، وكان أبرز ما سيطر على فكر الأمة العربية فى هذه المرحلة فقدان الثقة بالنفس والاحساس بالهوان وكانت الدعوة الى « التوحيد » علامة على اليقظة ، ومعنى هذا أن يقظة الفكر العربى الاسلامى قد انبعثت من أعماقه وصدرت عن فهم صادق لضرورة استعادته دوره فى الصدارة ، وكانت تلك سنة الفكر العربى الاسلامى منذ فجره ، ينهض ويتحرك ثم تدخل اليه عوامل الانحراف ثم يستعيد كيانه ويجدد مفاهيمه ، ويعاود الحركة .

ومن هنا كانت محاولة الغرب فى السيطرة على العالم الاسلامى والبلاد العربية ، مرة أخرى ، مزودا هذه المرة بسلاح جديد ، هو سلاح القضاء على مقومات الفكر العربى الاسلامى أساسا بوصفها القوة التى هزمته فى الحروب الصليبية وردته على أعقابه ، ومن هنا كانت معركة الاسلام والثقافة العربية « أساس » فى تأكيد سيطرته على العالم الاسلامى والأمة العربية وتثبيت قوائم سلطانه وامتداده .

وهدف « التغريب » فى تقدير دعاية هو « وحدة الثقافة العالمية » وهى عبارة خلابة المظهر ، براقة الصورة ، ولكنها تخفى فى أعماقها التعصب ضد الثقافات الانسانية وشجبها ومحاولة صهرها فى بوتقة الثقافة الغربية ، وقد كانت « الثقافة العربية الاسلامية » التى تتميز بطابعها الواضح البارز المعالم أهم الثقافات التى حرص التغريب على تذويبها والقضاء عليها ، وقد يسمى التغريب بالدعوة الى التمدين والتحضير للأمم المختلفة ، أو رسالة الرجل الأبيض الى العالم الملون ، ولكن الهدف

الكامن فى أعماق الدعوة هو ســوق الناس جميعـــا الى الولاء والعبودية لســيادة الفكر الغربى واحلال قيمــه ومفاهيمه محــل القيم الفكرية والثقــافية التى يدين بها الشرق والعالم الاسلامى والعرب وأفريقيــا ، وهى قيم ومفــاهيم تختلف فى جوهــرها عن قيم الفــكر الغربى ومفاهيمه ، وهنــاك عشرات من الايماءات الواضــحة الدلالة سواء من الثقافةالفرنسية أو الانجليزية أو غيرهما من ثقافات الفكر الغربى بشقيه .

والهدف من التغريب كما صوره دهاة الاســتعمار والنفوذ الغربى يتمثل فى انشــاء عقلية عامة تحتقر كل مقومات الحياة الاسلامية بل الشرقية ، وابعاد العناصر التى تمثل الثقافة الاســلامية عن مراكز التوجيه وبذلك يستغنى عن مواجهة الشعور الدينى بالعداوة السافرة »

ومن هنا كانت محاولة اثارة قضايا التشكيكوبعث اليأس واذاعة روح القصــور والحيرة والقلق فى محــاولة لدفع الفكر العربى الى مجالالتبعية والانقياد للروح الغربية ، والقضاء على المثل الأعلى للشخصية العربية الاسلامية ، وخلق جو من فقدان الثقة بقيم القرآن والاســلام واللغة العربية والتاريخ والتراث ، واحتقارها واثارة الشبهات حولها .

* * *

وقــد حرص التغريب على القضــاء أساسا على «الوحدة» : وحدة الفكر ووحدة الأمة وتمزيق الشعوب والأمم من خلال اثارة الدعوات القديمة المدفونة ، واثارة الخــلافات المذهبية والدينية والســياسية والفــكرية والقبلية ، هذه الخلافات التى قضى عليها الفكر الاسلامى العربى فى (توحيــد) المفــاهيم والأذواق والمشــاعر والعقليات . وكانت عبارات كل الســياسيين الغربيين المعنيين ببقــاء النفوذ الأجنبى تشير الى ضرورة ابقــاء العرب والمســلمين بلا وزن ولا تأثير ، وذلك عن طريق القضاء على كل عوامل الوحدة أو الالتقاء ، ومن هنا قول القس سيمون « ان الوحدة تجمع آمال الشعوب السمر، وتساعدهم على التخلص من السيطرة الأوربية ، ولذلك كان التبشير عاملا مهما فى كسر شوكة هذه الحركة ، ذلك لأن التبشير يعمل على سلب حركة الوحدة من عنصرى القوة والتمركز اللذين هما فيها » .

ومن هنــا كانت الدعوة الدائبة على خلق الفوارق بين اجزاء الكيان العربى بمغايرة لمناهج التعليم والثقافة، وبالابقــاء على الفوارق بين البدو والحضر ، وتعــزيز اللهجات ، واثارة النزعات القبلية والمذهبية ، وقد أشار الى هذا المعنى (موريس برتو) حين قال : « ظهر لى أن معظم الضعف فى الشرق منبعث من تخلفهفى مضمار تنظيم نفسه وتوحيد كلمته » .

وقد أشــار الدكتور كرتسيان ســنوك هرجزنج الهولندى الذى أمضى سبعة عشر عاما فى الهند الشرقية الهولندية مســتشارا لحكومة هولندا ، واســتطاع أن يدرس قضايا الاسلام وأن يواجهمشاكل النفوذ الهولندى مع ٣٥ مليونا من المسلمين فى (أندونيسيا) . وساح فى البلاد الاسلامية خلال ربع قرن يراقب الحركات الاسلامية .. قال : أن المبشرين لا يزالون يتوقعون انضــمام كل الأديان اليهم ، أما بالنسبة للاسلام فلا تتحقق أحلامهم ، لان الدين الاسلامى سيظل دينــا قويا نشيطا ، ذلك أن للاسلام شرائع تتعلق بالحياة فى كل اطوارها ، شخصية عمومية ، وفردية اجتماعية ، ومن الحق أن الاســلام فى القرن الماضى تعرى من استقلاله السياسى باعتداء الدول الأوربية عليــه ، ونتج عن ذلك أن الاســلام اضطر أن يعدل آرائه وأعماله ، وقد استنتج الباحثون أن القضايا المادية فى الاسلام ، قد تؤدى الى سقوط الاسلام نفسه ، ولكنى لا أوافقهم على هذا الرأى ، واذا كانالاسلام قادرا على احتمال ذلك التغيير ، بقــدر أن يطبق نفســه على قضــايا الحياة الحديثة بطريقة يســتطيع بها تابعوه أن يكونوا فى مقدمة الصــفوف فى ارتقــاء العالم ومدنيته ، والمسلمون لا يقصدون أنيغيروا دينهم وقد احتاطوا أعظم الاحتياط لهذا الأمر الذى أدركه كل المبشرين المتنورين فى أرض الاسلام ، ولا أعتقد أن الدين الاسلامى يسقط أمام الأديان الأخرى ، لأن المسلم محتاط أشد الاحتياط لمقاومة النفوذ الغريب ، وقد يرى أن تدينه بدين سابق ، خطوة الى الوراء ، وقد تغلغلت الأفكار الأوربية فى كل جهة من الأراضى الاسلامية ولكن لم يجد فيها الشــعور الغربى مركزا ، ولهذا أتجرأ على القول بأن المسلمين سيستمرون فى دينهم مهما اتخذوا منالتهذيب والمدنية الغربيين ولايمكن أن يتم انحطاط تدريجى فى الاسلام لأنه توجــد بواعث خارجة تمنعه بالاسلام قوى لم يضعف ، وقد قتلت فيه الانشقاقات الداخلية ، ورد على ذلك فان الاسلام يربح أكثر من غيره تابعين له من الوثنيــة » ومع هذا الرأى الذى يبديه أحد أقطاب حركة التغريب فان هذه الحركة لم تتوقف .

وقــد استغلت حركة التغــريب قوى التبشــير والاســتشراق والتغريب والشــعوبية الاستعمار لقتل المقومات التى تحاول أن تجاهد نفوذه أو تحطم قوائمه ، وقد اصطنعت فى هــذه المعركة أساليب غاية فى المرونة والذكاء والمــكر والدهاء والبراعة ، وكان لابد القــوى

اليقظة أن تكشف هذه الأساليب وما أدت اليه من مؤامرات فى مجال تشكيك العرب والمسلمين فى دينهم وفكرهم ومعتقداتهم وتاريخهم ولغتهم ، واثارة الشبهات حولها جميعا ، وهى شبهات تتجدد مع الزمن ولا تنتهى ، وتصطبغ كل ساعة بلون جديد ، ولكنها فى صميمها تتمثل فى الشبهات الأساسية التى أثارها كرومر فى مصر وليوتى فى المغرب والتى رددها دائما زويمر وريفان ودنلوب وغيرهم .

وقد عنى عشرات من اعلام الباحثين بدراسة هذه القضايا منفصلة خلال مراحل اثارتها ، ودراسة اخطاء المستشرقين وكتاب الغرب فى هذه المسألة أو تلك ، غير أن هذه الشبهات والرد عليها لم تقدم كوحدة كاملة قبل هذه الدراسة .

ولقد كان النفوذ الأجنبى يفهم أنه يستطيع حين يطبق فى العالم الاسلامى والأمة العربية منهج التغريب ان يجد فى ذلك وسيلة للقضاء على مقومات الفكر العربى الاسلامى ، غير ان الذى حدث كان عكس ذلك تماما ، فقد افاد من ذلك الاحتكاك قوة ، وجدد نفسه واصطنع المناهج الحديثة فى ابراز معالمه ، واستطاع أن يبعث من اعماقه قوة قادرة على الحركة ، ومن خلال النفوذ الاستعمارى المسيطر عسكريا وثقافيا لم يتوقف الفكر العربى عن التجدد والحركة ، وكانت قضيته الكبرى هى الدفاع عن مقوماته ، وازاء تلك الحملة الضخمة التى وجهت اليه ، واستطاع فى نفس الوقت أن ينفتح على الفكر الانسانى فيهضم ويسيغ منه ما يزيده قوة وحياة . ولقد كان من أبرز عوامل الغبن والعقوق فى الفكر الغربى أن أصر على أنه ليس متصلا بالفكر العربى وأن الحضارة الغربية الحديثة التى برزت فى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى انما كانت امتدادا للحضارة الرومانية التى هوت فى القرن الرابع الميلادى وأن المرحلة بين الحضارتين قد أطلق عليها فترة **القرون الوسطى المظلمة** .

والحق أن فترة القرون الوسطى كانت فترة ظلام وانحطاط بالنسبة للغرب وحده أما بالنسبة للعالم الاسلامى فقد كانت مرحلة هامة فى التاريخ الانسانىكله ، بظهور الأسلام وتوسعه فى خلال قرن واحد من الزمانمن حدود الصين شرقا الى حدود فرنسا غربا . وزحفه على أوربا نفسها حتىكاد يطوقها لولا توقفهذا التمدد بمعركة بلاط الشهداء عام ٧٣٢ م .

فقد قام المسلمون والعرب فى ظلمات بربرية القرون الوسطى (الأوربية) باشعال مصباح الحضارة والمدنية ومن ثم برز تنهضة فكرية وحضارية امتدت ألف عام .

فقد كانت أوربا عبارة عن أبراج يسكنها سادة نصف متوحشين ، يفاخرون بأنهم أميون لا يقرأون ولا يكتبون ، وطال عهد الجهالة فى أوربا ولم يبن منها بعض الميل للعلم الا فى القرن الحادى عشر ، وبعبارة أصح فى القرن الثانى عشر ، ثم طرقوا أبواب العرب يستهدونهم ما يحتاجون اليه (وهذه عبارة جوستاف لوبون) ، ولم يدخل العلم أوربا فى الحروب الصليبية بل دخل بواسطة الأندلس وصقلية وايطاليا وفى سنة ١١٣٠ م (القرن الخامس الهجرى) انشئت مدرسة للترجمة فى طليطلة اخذت تترجم الى اللاتينية أشهر مؤلفات العرب وعظم نجاح هذه الترجمات وعرف الغرب عالما جديدا ، والحق أنه « ما عرفت **القرون الوسطى المدنية الا بعد أن** مرت على لسان أتباع محمد » كما قال لوبون .

* * *

ومن القضايا التى بدأ فيها الغبن والعقوق واضحا لمكانة الفكر العربى فى الحضارة الحديثة ، انكار فضل العرب والمسلمين على المنهج العلمى فى البحث الذى يقوم عليه الفكر الانسانى اليوم ، والادعاء بأن هذا المنهج من ابتداع الفكر العربى وحده ، والحقيقة المؤكدة ان العرب والمسلمينعرفوا المنهج التجريبىوقدموه ووضعوا قواعده وأسسه وطبقوها تطبيقا منصفا فى كل ما اتصل بهم من قضايا الفكر ، وأن الفكر العربى الاسلامى قد استمد هذا المنهج أساسا من القرآن الذى أصر على تقديم البرهان « قل هاتوا برهانكم » ومن ثم نشأ فى مجال الفكر العربى ما يسمى بالبحث عن الدليل والنهى عن التقليد وعدمالثقة بالنص الا بعد مطابقته العقل واقرار مصدره ، وقد وصل الفكر العربى الاسلامى فى ذلك الى غاية النضج والقوة ، وعندما ترجمت آثار اليونان والاغريق — تفتحا من الفكر الاسلامى وقدرة على الاستيعاب والانتفاع بآثار الفكر الانسانى — لم يأخذها المفكرون المسلمون قضايا مسلما بها ولكن ناقشوها وراجعوها وقبلوا منها ورفضوا ، ثم أضافوا اليها اضافات حية مهدت لفنون التطور التى بلغتها من بعد . ومن وثائق أعلام الفكر العربى الاسلامى : ابن الهيثم والبيرونى والقاضى عياض وجابر ابن حيان والجاحظ وابن حزم ، تكشف هذا المعنى واضحا فى اكتمال منهج البحث العلمى على أساس : قصر البحث العلمى على المشاهدة والتجربة وجمع المشاهدات ونتائج التجربة وربطها وتبويبها ، وتمحيص هذه النتائج وربط تلك الحقائق على النحو الذى يجعلها تصبح قانونا طبيعيا أو نظرية علمية واستنباط النتائج التى تقضى اليها وبحث صحة تلك النتائج وتأكيد مطابقتها للواقع .

وقد استطاع الفكر العربى الاسلامى الحديث فى

مجال الدفاع عن مقوماته أن يؤكد هـذه الحقائق ومن ثم فقد التزم بها بعض العلماء الغربيين المنصفين . ونبع تيار جديد من النظرة المحايدة والمنصفة للفكر العربى الاسلامى غير أن هذا التيار ما زال مجراه ضـعيفا ، ازاء القوى الغازية الضخمة المتسلطة على الفـكر العربى ، مؤيدة بسلطان النفوذ الاستعمارى الذى كان يحـاول أن يحقق هدفين :

(١) الأول : انتزاع مقومات الفكر العربى الاسلامى من العالم الاسلامى والبلاد العربية وذلك بالتشكيك فيه واثارة الشـبهات حوله كوسـيلة لفرض منطق فـكره ومقومات ثقافته وبذلك تسيطر الثقافة الغربية وتصهر فى بوتقتها مختلف الثقافات ، وفى مقدمتها الثقـافة العربية الاسلامية التى تختلف أساسا فى جذورها ومقوماتها عن الثقافة الغربية المستمدة من الوثنية اليونانية والشريعـة الرومانية والمسيحية الغربية .

(٢) محاولة اسقاط نفوذ الفـكر العربى الاسلامى المستمد من القرآن والاسلام وحياة النبى محمد ، هـذا النفوذ الذى استطاع فى خلال قرن من الزمان بدافع من مقوماته أن يسيطر على عالم ضخم واسع ، وان هـذا الفكر قادر على الانبعـاث مرة أخرى فى جولة جديدة اذا عاد الى تمثيل مفاهيمه الانسانية وقيمه الأصـيلة والى التماس القوة العسكرية والصناعية وتمكينه من الحصول على مقومات التكنيك .

ومن هنا كان الخطر الذى يواجهالغرب والحضارة الغربية ، الذى توسع بالاستعمار وسـيطر على أغلب مناطق العالم الاسـلامى والأمة العربية وامتص مقدراتها الاقتصادية ، وحاول أن يذيبها فى بوتقـة النفوذ الغربى الفكرى والاجتماعى ، هذا الخطر يتمثـل فى قدرة الأمة العربية التى هى القوة الصامدة للدفاع عن مقومات الفكر العربى الاسلامى وحمايته والكشف عنه ، كمقدمة لمرحلة تالية هى التعريف بهذا الفكر وهذه الثقافة كقوة دافعـة للانسانية وتحريرها من الاسـتعباد والتفرقة العنصرية وبناء الكيان الانسانى بناءا يجعله قادرا على حمل أمانة الحضارة وانتزاعها من براثن الاباحة والتحلل ، وتحرير العقل الانسانى من الالحاد والوثنية .

فى ظل المفـاهيم يبدو أهميـة مواجهة تحـديات الاستعمار وشبهات للتغريب فى مجال الاسلام والثقـافة الغربية كوسيلة الى تحرير الفكر العربى الاسلامى ودفعه الى الأمام ليكون قادرا على حمل أمانة اليقظة والنهضـة الثورية العربية التى تزدهر اليوم فى قلب الأمة العربية ، وتمتد الى مختلف اجزاءه بل وتتعداه الى أطراف العـالم الاسلامى ، هذه النهضـة التى تحمل لواء أمانة الفـكر العربى الاسلامى ومقوماته مع السيطرة على عوامل القوة العسكرية والصناعية والتكنيك ، لاقامة مجتمع جـديد قادر على العمل لاعادة هذه الأمة وهذه الثقافةالى مكانها الحق ، مكان الصدارة والتفـاعل وتقديم جوهر الفـكر العربى الاسلامى الى الانسانية .

* * *

الكتــاب الأوّل

تحديات الاســتعمار

واجه « العالم الاسلامى » المعركة مع الغرب منذ تسعة قرون فى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : عن طريق الحروب الصليبية فى حملات متصلة ، فقد خرجت جحافل الفرسان الأوربيين فى تسع حملات اتجهت الى العالم الاسلامى ميممة شواطىء تركيا والشام وفلسطين ومصر والمغرب منذ عام ١٠٩٨ حتى عام ١٢٥١ ثم كانت حملة المغرب عام ١٢٧١ .

المرحلة الثانية : على اثر قيام الدولة العثمانية فى تركيا ، واستهدفت القضاء على الاسلام فى الأندلس واجلاء العرب المسلمين منه منذ عام ١٤٩٠ حتى عام ١٦١٠ حيث حققت اجلاء العرب المسلمين عن أسبانيا بصفة نهائية .

المرحلة الثالثة : بالقضاء على الدولة العثمانية وقد بدأت المعركة على أثر هزيمة الأتراك فى معركة (سان جوتارد) فى حصار فينا عام ١٦٦٨ وهى المعركة الكبرى التى امتدت حتى قضت على الامبراطورية العثمانية عام ١٩١٧ .

وقد كانت المراحل الثلاث للمعركة الكبرى بين العالم الاسلامى والغرب تمثل العمل الكبير الذى استهدف السيطرة على العالم الاسلامى والقضاء عليه كقوة فعالة لها وزنها فى المجال العالمى .

هذا بينما كان للعالم الاسلامى دوره الفعال فى القضاء على حملة التتار التى امتدت فى مدى مائة وثلاث وسبعين عاما (١٢١٤ — ١٣٨٧) وكادت أن تزحف الى أوربا لولا مقاومة المسلمين وهزيمتهم لها على حدود مصر وفى خلال هذه المرحلة الأخيرة كانت أوربا قد زحفت فى صورة الكشف والتجارة الى شواطىء العالم الاسلامى .

وسبقت البرتغال دول أوربا الى المحيط الهندى . وارست مراكبها على شواطىء الهند فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ، وتلتها هولندا فاستقرت فى الخليج الفارسى ومصائد اللؤلؤ . ثم اقتحمت فرنسا هذه الشواطىء بعد لأى فاستقرت فى الهند الى ان زاحمتها انجلترا واستطاعت بعد قليل اجلاءها . وبدأت بريطانيا الحرب مع الهند سنة ١٧٥٦ وفى عام ١٨٥٨ تحولت شركة الهند الشرقية التى اسستها انجلترا فى الهند الى حكومة . وقبل هذا بقليل فى عام ١٧٩٨ تحرك نابليون من شواطىء فرنسا الى حوض البحر الأبيض ميمما « الاسكندرية » تملأ نفسه مطامع ضخمة وآمال واسعة فى أن يقيم امبراطورية فى الشرق . وظهر الانجليز عسكريا وسياسيا فى البحر الأحمر عام ١٧٩٢ وفى عام ١٨٢٦ احتلوا عدن ، وفى عام ١٨٣٠ وضعت فرنسا يدها على الجزائر .

وتوالت الأحداث عام ١٨٧٠ : فتحت قناة السويس للملاحة الدولية وبدأ الصراع بين فرنسا وبريطانيا يأخذ صورة جديدة . وفى نفس العام وقف « غلادستون » فى البرلمان الانجليزى وهاجم المسلمين ووصف كتابهم بأنه الحائل دون سيطرة النفوذ البريطانى .

وكانت « الدولة العثمانية » هى النقطة التى ركز عليها الاستعمار الغربى ، باعتبارها القوة المسيطرة فى العالم الاسلامى . فقد ظلت تركيا تتوسع فى أوربا الى عام ١٦٦٨ فى عهد السلطان محمد الرابع عندما هزمت أمام أوربا فى معركة (سان جوتارد) بعد حصار (فينا) وارتداد المسلمين عنها . ثم توالى انتزاع الغرب لأقطاره التابعة للامبراطورية ، فسقطت المجر وسلمت بلغراد ، والى عام ١٦٨٥ استعاد البنادقة كريت والمورة . وأخذت روسيا أندروف . وسيطرت على الملاحة فى البحر الأسود بعد سنوات فى أوائل القرن التاسع عشر .

وكان التوسع التركى فى أوربا قد بدأ عام ١٣٦١ م وامتد حتى عام ١٥٢٢ عندما بلغ (بلغراد) فى نفس الوقت الذى كانت اسبانيا تشن حملتها على المسلمين والعرب فى الأندلس . وقد بدأت دعاية واسعة ضد الأتراك العثمانيين فى أوربا ، أخذت مسحة دينية .. فلما بلغت القوات التركية أبواب فينا ، زاد الفزع وبلغ مداه وارسل لويس الرابع عشر ملك فرنسا ستة آلاف جندى لمقاومة الزحف العثمانى ، وبدأت فرنسا فى نفس الوقت ضرب تونس والجزائر بالمدافع .

ومضت الدول الأوربية فى زحفها نحو مركز القيادة فى العالم الاسلامى . تطلعت روسيا الى السيطرة على البسفور ، وزحفت انجلترا وهولندا وغيرهما لبسط نفوذها عن طريق قناصلها بواسطة الامتيازات ، وأثارت الدول الأوربية فتنا وقلاقل متواصلة فى البلقان والمجر وبولندة واضطرد النفوذ الأجنبى واتصل ، حتى بلغ اقصى مداه حتى كانت تركيا العثمانية فى سنواتها الأخيرة منطقة نفوذ لكل دولة .

أما فرنسا فقد أججت الفتن فى شرق البحر الأبيض وتفاقمت الثورة حتى أدت الى المجازر العنيفة التى انتهت بتوقيع المعاهدة الفرنسية العثمانية عام ١٥٣٥ ، التى اعترفت تركيا فيها بحق فرنسا فى حماية النصارى اللاتينيين وحماية المنشآت الكاثوليكية والأماكن المقدسة كذلك وتشمل حماية الروم واليونان والكلدان والأرمن والموارنة .

ولم يلبث قيصر روسيا الا قليلا حتى استطاع عقد معاهدة (تيتازجة) عام ١٧٤٠ بحق حماية النصارى الأرثوذكس أى الروم الكاثوليك والأرمن ، ونالت روسيا بهذه المعاهدة أراضى واسعة فى شمال القدس وعملت على معارضة البابوية فى مساعيها المتواصلة لتوحيد الكنيسة الشرقية .

وتضمن مؤتمر برلين اعترافا بحقوقفرنسا التقليدية فى الشرق ، واعتبر الامبراطور غليوم نفسه بعد زيارته للقدس عام ١٨٩٧ حاميا للكاثوليك الألمان .

ومضت فرنسا وانجلترا تؤججان الصراع الطائفى عملا على ايجاد ثلمات واسعة فى جسد الدولة العثمانية فقد ساعدت فرنسا الموارنة وساعدت بريطانيا الدروز على النحو الذى ادى الى فتنة ١٨٦٠. رغبة فى زيادة التدخل وفرض السيطرة ثم توالت البلقان واليونان والهرسك ثم وقعت ثورة الأرمن وحوادث كريد .

وكانت هزيمة الأتراك العثمانيين عند أبواب فينا على يد سوبيسكى ملك بولندة علامة على تحطم خط المقاومة ، وتقدم الغرب فى زحفه نحو الاستيلاء على العالم الاسلامى .

٢ — وفى الهند اخذ الزحف الأوربى طابع الكشف الجغرافى والتجارة فقد بدأ باقامة مراكز تجارية فى الموانى أصبحت من بعد شركات . وقد احتاجت هذه الشركات الى قوات تحمى تجارتها ، وبدأ احتلال الهند بالفرنسيين أولا فى النصف الثانى من القرن السابع عشر ثم تطورت البعثات التجارية الى بعثات حربية وسارع الانجليز فاحتلوا مراكز هامة فى هدراسوبومباى وكلكتا واضطرت فرنسا تحت ضغط ظروف حروب أوربا الى التخلى لبريطانيا عن مراكزها هناك .

وبدأ الانجليز الحرب فى الهند عام ١٧٥٦ مع امبراطور دلهى المسلم . ومن ثم عمل الانجليز على اضعاف سلطان المسلمين الذين قاوموهم مقاومة ضخمة حتى قال لورد النبرو : أن العنصر الاسلامى عدو أصيل العداوة لنا وأن سياستنا الحقة يجب أن تتجه الى تقريب الهندوك .

٣ — وفى فارس ظل الصراع قائما بين النفوذين الروسى والبريطانى . وفى أوائل القرن التاسع عشر تحالفت ايران مع بريطانيا حيث عقد الشاه محالفة سياسية مع مندوب شركة الهند الشرقية تعهدت فيها الشركة بامداد فارس بالأسلحة والمال فى حالة الاعتداء عليها من جانب الأفغان أو فرنسا وذلك على الا يعقد الشاه صلحا مع الأفغان ما لم تنزل عن مطامعها فى الهند .

وفى عام ١٨٥٦ عقدت ايران محالفة عامة مع بريطانيا تعهدت فيها بالغاء جميع الاتفاقيات مع الدول المعادية لبريطانيا ثم تحول الموقف عند ما شهرت انجلترا الحرب على فارس عام ١٨٥٦ بعد مهاجمتها هرات (الأفغانية) والاستيلاء عليها ثم بدأ السباق بين انجلترا وروسيا على كسب الامتيازات فى ايران وأمدت الحكومة الروسية بالقروض كما أمدتها بريطانيا فى مقابل حصول كل منهما على بعض الامتيازات كالدخان ورهن المكوس والبترول .

وقد ظل هذا الصراع قائما حتى حسم بالاتفاق الودى الذى عقد بين بريطانيا وروسيا عام ١٩٠٧ حيث اعترفت روسيا بمصالح الانجليز فى الخليج الفارسى واعترفت بريطانيا باعتبار الجزء الشمالى من ايرانمنطقة نفوذ لروسيا .

٤ — وزحف البرتغال فالهولندون والفرنسيون والانجليز الى « الجزر الأندونيسية » ، وكانت هذه المنطقة أول ما اتجه اليه الزحف الغربى على آسيا والعالم الاسلامى ، ففى نهاية القرن الخامس عشر وصل

البرتغاليون الى هناك ثم تبعهم الهولنديون ثم الانجـــليز فالفرنسيون .

وقد هزمت هولندا فى أوائل القرن التاســـع عشر وانسحبت من المنطقة ، غير انها عادت بعد هزيمة نابليون فى « واترلو » فاستعادت مستعمراتها وتم الاتفـــاق عام ١٨٢٤ على تسوية مع بريطانيا اقتسمتا بها النفوذ .

٥ — وفى العالم العربى بدأت بريطانيا سيطرتها عليه بحجة انه طريق الهند . وأخذت تنفذ خطتها بعـــد الحملة الفرنسية مباشرة بمحاولة الاســـتيلاء على مصر عام ١٨٠٧ (حملة فريزر) فلما تم حفر قنـــاة السويس ســـنة ١٨٦٩ تأكد العمل لدعم النفوذ بالاســـتيلاء على اسهمها سرا بواسطة صفقة دزرائيلى المشـــهورة التى حققت لبريطانيا نفوذا واضحا فى هذا المجرى النهرى ثم كان احتلال بريطانيـــا لمصر عام ١٨٨٢ والاستيلاء على السودان عام ١٨٩٩ .

وقد أولت بريطانيا اهتمامها للخليج الفارسى والبحر الأحمر واســـتولت على ســـلطناته وأماراته وربطتهـــا بمعاهدات وأقامت حراسة بحرية على هذه المشـــيخات والامارات .

وبدأ صراع تقليدى بين فرنسا وبريطانيا على مناطق النفوذ فى الوطن العربى وقاومت بريطانيا بالاشتراك مع الغرب اية قوة جديدة ناهضة ، وبالرغم من أن فرنســـا وقفت فى صف محمد على وخاصمته بريطانيا ، فان أوربا كلها تجمعت للقضاء على اسطول مصر فى « نافارين » ثم قضت الدولتان على محمد على نفسه بمؤامراتهما عليه فى الشام .

ولم تلبث بريطانيـــا أن زادت شـــقة الخلاف بين الأتراك والعرب لمصلحتها ثم مزقت وحدة العرب ثم عقدت مع فرنســـا اتفاقا وديا اعترفت فيه كل منهما للأخـــرى بنفوذها ، بريطانيـــا فى مصر وفرنســـا فى تونس . وبعد الحرب العالمية الأولى وضعت بريطانيا يدها على العراق وفلسطين والأردن .

٦ — أما فرنســـا فقد بدأت جولتهـــا فى العـــالم الاسلامى بحملة نابليون ثم ركزت عملها فى منطقة المغرب العربى وبدأت باحتلال الجزائر عام ١٨٣٠ وتوسعت فى تونس والجزائر . واســـتطاعت بعد الحرب العـــالمية الأولى أن تستولى على سوريا والبنان .

وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى دخلتها تركيا فى صف ألمانيا ، فى نفس الوقت الذى آزر العرب بريطانيا وفرنسا . وكانت هزيمة ألمـــانيا هزيمة لتركيا ونهـــاية الامبراطورية العثمانية . وتقسيمها لمناطق نفوذها . فلم يلبث العالم العربى كله أن سقط تحت النفوذ البريطانى والفرنسى ما عدا ليبيـــا التى احتلتها ايطاليـــا وجزءا من المغرب الأقصى احتلته اسبانيا . وبقيت الحجـــاز ونجد واليمن غير محتلة .

وهكذا أوفت مرحلة الغزو الغربى للعالم الاسلامى على أعلى درجة من درجات السيطرة . ولم يكن صدور « وعد بلفور » بجعل فلسطين وطنا اليهود الا خاتمة هذه الخطة الخطيرة .

وبعد ، فماذا كان موقف العالم الاسلامى من الغزو الاستعمارى الغربى الذى اســـتمر أكثر من قرن ونصف قرن حتى أخذ صورته الكاملة بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ باجراء التقســـيم له عن طريق الاحتـــلال والانتداب والمعاهدات العسكرية وتوزيع النفوذ فى مناطقه المختلفة .

هل اســـتسلم العـــالم الاسلامى لمعركة الغـــزو والتوسع الغربى ؟ أم واجهها بكفاح ونضال بالغ الاصرار والعزيمة فى ســـبيل المقاومة وهو الأعزل ، مقـــدما دمه وروحه فى معركة غير متكافئة .

* * *

— ٢ —

مقاومة الاستعمار

هاجم الغرب العالم الاسلامى والح عليه بالفتح والاستعمار وبسط النفوذ باسم التجارة مرة وباسم المعاهدات مرات ، فى معركة طويلة الأمد ، بدأت فى شواطىء الهند وخليج العرب وسواحل الاسكندرية والجزائر ثم امتدت حتى استقرت فى أواخر الحرب العالمية الأولى على تقسيم كامل للعالم الاسلامى بين قوى الاستعمار .

ولكن هل استسلم العالم الاسلامى لمعركة الغزو والتوسع المغربى ؟

الواقع أن العالم الاسلامى لم يستسلم مطلقا ، ولم يذعن ، بل واجه المعركة بقوة ، ورد على التحدى بالمقاومة ، لم تكن المعركة متكافئة ، كان الغرب فيها يحارب بالأسلحة الحديثة والعلم والحملات التبشيرية وأساليب المكر ومخطط كامل مدروس من الوعود والأكاذيب والاغراء بالمال والمرأة ، بينما كان الجانب المعتدى عليه لا يملك غير الأجساد المتراصة ، يقدمها فداء لوطنه ، والدماء الزكية يسكبها مضحيا بها على مذبح الحرية .

وكان الغرب قد استيقظ ونهض من غفوة القرون الوسطى ، مسلحا بالعلم الذى حفظه العرب وزادوا فيه فى مختلف مجالات الكيمياء والطب والفلك وزيادة البحار ، بينما كان العالم الاسلامى قد غرق فى ظلمات الجمود والتأخر وانفصل عن العالم ، وضعفت قوته العسكرية ، وتسلط عليه الملوك والأمراء ، وتحول العلماء الى خدام للحكام الظالمين .

ومع ذلك فان «ناقوس اليقظة» فى العالم الاسلامى لم يدقه الغرب كما ردد كتاب الغرب حين ادعوا أن هذه اليقظة انما جاءت على أثر الحملة الفرنسية على مصر .

ذلك أن أول صيحة لليقظة والحرية انما كانت هى دعوة (محمد بن عبد الوهاب) الى تجديد الاسلام والعودة الى منابعه الأولى حوالى عام ١٧٤٠ وبذلك سبقت حملة نابليون بأكثر من ستين عاما .

أما الحملة الفرنسية (١٧٩٨) فقد نبهت العالم الاسلامى الى مدى الخطر الذى بدأ يتعرض له ، والذى توالى فيما بعد فى صور مختلفة من الاحتلال للأجزاء الحساسة فى البحرين الأبيض والأحمر وخليج العرب .

هنا هبت المقاومة تواجه النفوذ الغربى قوية جارفة ، وكانت راية الجهاد تحمل طابع الاسلام من أجل حماية الأوطان . ويمكن أن توصف هذه الفترة حتى أواخر الحرب العالمية الأولى بأنها « الجهاد الوطنى ذو الطابع الدينى » فان كل الحركات التى قامت كان قادتها من العلماء المؤمنين بحق وطنهم فى الجهاد ، الفاهمين لمهمة الحاكم ، وحق الشعب : أمثال عمر مكرم فى مصر ، ومن هذه الدعوات السنوسية فى ليبيا والمهدية فى السودان ، وحركة الشيخ شامل فى القوقاز . فقد امتزج فى هذه الحركات الطابع الدينى بالكفاح الوطنى وكان الباعث الاسلامى بعيد المدى فى انجاح هذه الحركات ودفعها بقوة ، وفى ظل بطولة الأبطال واندفاع المئات الى الاستشهاد نجحت حركة المقاومة نجاحا هز المستعمرين ، واستطاعت هذه القوى المجردة من الأسلحة الحديثة أن تقاوم فى عنف وصرامة ، وأن تنال من القوات المحاربة المغيرة وفى هذه الفترة تبدو عشرات من صور المقاومة الرائعة :

ففى مصر صعد عمر مكرم الى القلعة ، عندما علم بقدوم الفرنسيين الى سواحل الاسكندرية — حيث أنزل ما أسمته العامة « البيرق النبوى » وصار به حتى بلغ بولاق شاقا قلب القاهرة وقد تجمع حوله الألوف من الشباب حيث بدأت معركة لم تتوقف ثلاث سنوات كاملة ، ومضى يستنفر الناس فى قوة لمقاومة القوة الغازية ، فاندفع الناس تاركين أعمالهم وبيوتهم ، وقد عمدوا الى اقامة المتاريس ونصب المدافع ، وحفر الخنادق ، وتحصين المدينة ، وكان السيد عمر مكرم فى خلال المعركة

ينتقل بين أبواب الحارات ومراكز التكتلات يشجع المحاصرين ويرفع من روحهم المعنوية .

وفى خلال هذه السنوات الثلاث للحملة لم يذعن الشعب يوما . أقام لهم نابليون المهرجانات فقاطعوها ، ووضع على أكتاف العلماء الأوشحة فرفضوها ، وألقوا بها الى الأرض وداسوها ، ومضوا فى الثورة والمقاومة .

وفى الاسكندرية كان « محمد كريم » يقاوم ويغذى القوى المختلفة للتدرب على السلاح ويسبق الحملة الفرنسية الى كل قرية يحرض أهلها على المقاومة ويمنعهم من تموين الجيش الفرنسى بالماء أو الدواب أو الأنفار ، وكان محمد كريم قد رفض أن يسلم المدينة دون دفاع ، وأراد نابليون أن يكسبه الى صفه فأعاد له سيفه ، ولكنه لم ينجح فى اغرائه ، لم يلبث أن واصل العمل يثير الأهلين فى شمال الدلتا ونظم من عربان البحيرة فرقا للمقاومة والاغارة على الجيش الفرنسى أثناء تحركاته .

وصمد الشعب صمودا عجيبا فى ثورات القاهرة الثلاث . وقدم ضحاياه بالألوف . الألوف الذين فتكت بهم القنابل الفرنسية ، ومضى يقاوم فى ثبات . ولم يستسلم : كانت صرخة عمر مكرم تدوى فى أنحاء البلاد : « ان السلاسل شر من الحراب » وفى احدى الثورات زحفت الجموع صوب مخازن الفرنسيين على ساحل النيل فى امبابة فاشتبكوا فى معركة خاطفة انتهت بانتصار الثوار واستيلائهم على المخازن . ومضى الأهالى الى غزو الفرنسيين فى قلاعهم .

وبدأت المعركة فى عنف . وتوالت القنابل على الثوار . وجرت الدماء وتهدمت المنازل ، ولم يكف الشعب عن المقاومة . وقضت القاهرة يومين فى جحيم ، وهاجم الثوار المحافظ مصطفى أغا لأنه تواطأ مع الفرنسيين وقتلوه .

ولقد صنع سكان القاهرة القنابل من حديد المساجد ، وفعلوا ما لا يمكن تصديقه وهم العزل من السلاح . وعندما أرسل كليبر للتفاهم مع العلماء لانهاء الثورة هاج الأهالى وسبوا العلماء وشتموهم وضربوا الشرقاوى والسرى ورموا عمائمهم — على حد تعبير الجبرتى .

وتوالت الثورات فى كل مكان : الشرقية والدقهلية وميت غمر . وكانت الثورة لا تخمد فى مكان الا لتندلع فى مكان آخر . ولم يلبث نابليون أن فر ، ولم يلبث كليبر أن قتل بيد سليمان الحلبى ، وبدأت الثورة من جديد .

وفى بولاق ، اندلعت الثورة بقيادة الحاج مصطفى البشتيلى الذى هيج العامة فخرجوا يحملون السيوف والبنادق والرماح والعصى . واتجهوا صوب قلعة قنطرة الليمون لاقتحامها فردوا هجومهم بنيران المدافع ، وقتل ثلاثمائة من الثوار . وعمت الثورة أنحاء المدينة . واتجه الثوار نحو معسكر الفرنسيين بالأزبكية — وكان عددهم عشرة آلاف ثائر — فردتهم المدافع على أعقابهم . ولكنهم لم يستسلموا فقد ذهبوا يحرضون جموعا أخرى حتى بلغوا خمسين ألف ثائر ، وعاودوا الهجوم ، وعادت مدافع القلاع ضربها للمدينة بعنف . فلما حاول الناس الهرب من المدينة الى خارجها ، أغلق الثوار باب النصر .

وهناك على ضفاف بحيرة المنزلة كانت قصة أخرى من قصص المقاومة تكتب ! كان « حسن طوبار » يتزعم أربعين رئيسا وخمسة آلاف من مراكب الصيد فى منطقة المنزلة ليناصب الفرنسيين العداء وليعد أسطولا من ماله الخاص يرابط به فى المطرية ويتأهب لمهاجمة دمياط وانتزاعها من أيدى الفرنسيين الذين احتلوها .

هذه هى صورة المقاومة فى هذه الفترة . وهناك صورة أخرى فوق جبال الأطلس أشد روعة ، امتدت خمسة عشر عاما . هى صورة شعب الجزائر وعلى رأسه المجاهد عبد القادر الجزائرى . مقاومة لا تهدأ ولا تتوقف . تقدم الصف بعد الصف . بدأت المقاومة اثر الاحتلال الفرنسى للجزائر ، وامتدت . جمع عبد القادر الأمير ذو الخمسة والعشرين ربيعا القبائل حوله ، ومضى يقاتل ، يصنع الأسلحة وصب المدافع والبارود . ويحاصر الجيوش الفرنسية ، وينال منها سنوات . ثم تتآمر فرنسا مع سلطان مراكش ليظاهرها ، ويظل عبد القادر والشعب الجزائرى فى المعركة مقاتلا . لا يتوقف ولا يتراجع خمس سنوات أخرى يضع الخطط وينفذها ، لا يبالى اغراء فرنسا للقبائل بالذهب . وينتصر فى عديد من الواقع بجيشه القليل العدد وأسلحته المصنوعة فى الجزائر . ويصطنع عبد القادر أساليب القتال فى فجر الاسلام فيذهل العدو ، وكان يخرج بنفسه ليقاتل قادة الجيوش ، وفى خلال هذه السنوات الخمس عشرة ، كانت الجزائر كلها تحارب فى عنف واصرار يدفعها ايمان عميق بأن الوطن والعقيدة تجمعهما وحدة واحدة .

وفى كل جزء من أجزاء العالم الاسلامى كانت المقاومة على هذه الصورة ، شباب يتقدم ليحمل السلاح ، ويجاهد وأبطال يتصدرون الحرب ويقدمون أرواحهم ودماءهم .

وفى ليبيا صورة أخرى ضخمة عاتية امتدت سنوات طويلة تقاوم الاحتلال الايطالى فى عنف ، كانت الدعوة السنوسية ، مصدرا أساسيا من مصادر الكفاح بصلابته وصموده منذ بدأ الاحتلال ١٩١١ حين ضرب الطليان بمدافعهم موانىء برقة فاحتلوا طبرق . ثم نزلوا درنة ثم بنغازى . وعمل مجاهدوا السنوسية فى مقاومة العدوان شبرا شبرا يلتحمون فى معارك كبيرة فينتصرون وهم قلة . وعندما انهزمت تركيا وسقطت ليبيا فى يد ايطاليا فى ١٢ يوليو ١٩١٢ ازداد جهاد السنوسيين فى سبيل الدفاع عن الوطن . كان أحمد السنوسى وعمر المختار يعملون فى عناد واصرار ، وظل الكفاح حتى نشبت الحرب العالمية الأولى ، ثم تجدد من بعد واستمر .

وفى العراق وفى سوريا وفىفلسطين وفى مراكش وفى مصر وفى السودان كانت الثورات تتوالى بعد الحرب العالمية الأولى ، تؤمن الحق الأسمى فى الحرية ، وتطالب به ، لا تقبل المساومات ولا المعاهدات ولا الاستقلال المكتوب على الأوراق دون ان تجلو الجيوش .

ولم تقم الثورات فى الوطن العربى وحده ولكنفى كل أجزاء العالم الاسلامى : كانت روح السخط على النفوذ الأجنبى واضحة فى الهند وايران واندونيسيا وتركيا .

وكانت هذه الثورات المختلفة فى الوطن الاسلامى دافعا قويا لأن يغير الغرب أساليبه وان بدأ عسيرا أن يتنازل عن أطماعه فى القضاء على الكيان ، فان ذلك لم يكن ممكنا بالمواجهة . هنالك مال الاستعمار الى الخديعة فغير الألفاظ ، والغىالاحتلالوالحماية والانتداب وقال : الحكم الذاتى . وسمى صكوك الاحتلال : معاهدات صداقة . واختفت كلمة « الجلاء » وحلت محلها كلمة خداعة هى « الاستقلال » . وكان معنى هذا أن تقوم برلمانات ودساتير وأنظمة نيابية مقلدة فى ظل جيوش الاحتلال القائمة المسيطرة على الأوطان والتى تفرض كلمتها باسم « نصائح المندوب السامى » .

وفى خلال سنوات ما بين الحربين لم يكف الشعب عن المقاومة : كانت فرنسا وانجلترا تتقاسمان العالم الاسلامى ما عدا هولندا فى أندونيسيا وايطاليا فى ليبيا وأسبانيا فى جزء من مراكش . كانت عوامل القوة والمقاومة واعداد الثورات تتجمع فى الخفاء ثم تهب فجأة لتزلزل كالرعد والصواعق ، ثم يتقدم الاستعمار لسحقها فى عنف فتسيل الدماء الغالية ، وتذهب الأرواح الطاهرة ثم تظهر صفوف أخرى تتقدم لتقاتل وتقاوم .

كان أخطر ما حدث فى هذه الفترة ظهور استعمار جديد هو « الصهيونية » فى فلسطين . لقد زحف هذا الاستعمار ليستولى على أعرق بقعة مقدسة فى العالم الاسلامى ، فى ظل سلطان الاستعمار البريطانى الذى كان يحميه ويمهد له ليركز أقدامه ، كانت فلول اليهود ترد من أنحاء العالم مهربة الى المنطقة متأهبة لاقامة الوطن القومى الذى وعد به بلفور اليهود ثمنا لخدمة أداها له (وايزمان) فى الحرب العالمية الأولى ، ولميتوقف العرب فى فلسطين عن النضال والكفاح والاستشهاد . لقد توالت الثورات وأعمال المقاومة حتى أشرفت على صورة رائعة فى ثورة ١٩٣٦ التى استمرت ستة شهور كاملة ، حتى هزت الصهيونية وافقدتها الأمل فى البقاء لولا الخيانة خيانة ملوك العرب لثورة فلسطين ودعوتهم الى القاء السلاح وفك الحصار وفض الاضراب .

ولا شك كانت الخيانة عاملا من عوامل الهزيمة فى معارك المقاومة : هزم عرابى ١٨٨٢ بالخيانة . وهزم عبد القادر الجزائرى بالخيانة . وهزم عبد الكريم الخطابى بالخيانة . وهزم عمر المختار بالخيانة . وهزم يوسف العظمة بالخيانة . وهزم ثوار فلسطين بالخيانة . ولولا الخيانة لما استطاع الاستعمار أنيوطد نفوذه وان يثبت أقدامه .

وقدم العالم الاسلامى شهداءه ، بالملايين . وكانت هناك صور غاية فى القسوة . وصورة الاستعمار الايطالى وما صنعه بأهالى برقة وطرابلس لا يمكن أن توصف لبشاعتها ، كانوا يلقون بالأطفال والشيوخ من الطائرات .. وكانوا يبقرون بطون الحبالى . وفرنسا فعلت أشد من ذلك فى الجزائر فى معركة سطيف عام ١٩٤٥ حيث قتلت ٤٥ ألفا وسجنت ٦٠ ألفا وأحرقت ٤٥ قرية ودكتها بالطائرات . ومذبحة الدار البيضاء فى مراكش عام ١٩٤٧ قتل فيها ٦٠٠ مراكشى . أما حرب التحرير الجزائرية فقد قدمت مليونا من الشهداء .

وليس من شك فى أن هذه المقاومة التى حرصنا على رسم صورة موجزة لها فى بحث يتصل بالثقافة ، وانما كانت تستمد قوتها من منابع الثقافة العربية الاسلامية التى تحمل لواء الحرية والمقاومة ورد العدوان وعدم الاستسلام للظلم الاستبداد . وهذه المنابع التى كانت عاملا أساسيا فى مقاومة الاستعمار هى التى دفعته الى القضاء عليها والتشكيك فيها واثارة الشبهات حولها من هنا كانت حملة التغريب تسير جنبا الى جنب مع الاحتلال ، اذن لم تكن المعركة فى ميدان القتال وحده ، بل كانت هناك فى ميدان الفكر والثقافة معركة أشد خطرا لأنها المعركة التى أوجدت بديلا للاستعمار يستطيع أن يعمل بعد أن تجلو قوات الاحتلال .

(٣)
معركة الفكر

تألق الفكر العربى الاسلامى خلال القرون الخمسة الأولى للدعوة المحمدية وبلغ مدى بالغ الأهمية والخطر ، فقد استوعب الثقافات المعاصرة له من فارسية ويونانية ورومانية ، واستطاع أن يصهرها فى بوتقته ويحولها الى كيانه فزاد بها قوته الذاتية وسار بها الزمن وقد اعانه على ذلك « منهج الإسلام » نفسه ، وهو منهج متطور متجدد قابل للتفاعل والالتقاء مع كل حضارة وثقافة مرن نابض بالحياة يساير كل بيئة وزمن ، ولقد ترجم الفكر الإسلامى علوم اليونان وثقافتهم ثم أضاف اليها وطورها فى خلال القرون الوسطى — التى وصفت بالقرون المظلمة — لأنها كانت فعلا مظلمة بالنسبة لمن أطلق عليها هذه التسمية وهو الغرب .

ففى خلال هذه القرون حيث كانت أوربا تعانى صراعا بربريا قاسيا ، وتعيش فى أجواء غارقة فى الجهل باعتراف مفكريها ومؤرخيها ، كانت الحضارة والثقافة العربية الاسلامية قد انتقلت من دمشق وبغداد والقاهرة الى الأندلس حيث برزت معالم النهضة الفكرية والثقافية فى جامعات قرطبة واشبيلية وغرناطة ، ولن يستطيع منصف أن يتجاهل الدور الضخم البعيد المدى الذى قطعته هذه الثقافة العربية الاسلامية فى سبيل النمو والتطور ، وما حققت فى مجالات العلم المختلفة من نهضة بعيدة المدى ، كانت هى الأساس الذى قامت عليه الحضارة الأوربية المعاصرة ، والخيط الوحيد الذى بدأ به « عصر النهضة » فى القرن الخامس عشر ، وقد ظل هذا الأثر ممتدا خلال قرنين من الزمان . وتلك حقيقة اعترف بها كثير من كتاب الغرب .

وعن طريق « الحروب الصليبية » وعن طريق « الأندلس » وعن طريق « تركيا العثمانية » استطاعت أوربا أن تحصل على أكبر قدر من آثار الفكر العربى الاسلامى حيث أسرعت بترجمته وتحصيله لتحقق من بعد هذه الخطوات الجبارة التى أطلق عليها « حضارة الغرب الحديثة » .

وليس غريبا أن يقع « العالم العربى الاسلامى » تحت سلطان الظلام والتخلف فى أواخر حكم الدولة العثمانية التى تجمدت وانعزلت عن العالم تماما .

ولا شك أن نقطة البداية فى « سقوط » الدولة العثمانية هى هزيمتها عند أسوار فينا عام١٦٨٣ ، هزيمة كانت مقدمة لهزائم متوالية بدأ الغرب يسيطر بعدها على أجزاء العالم الاسلامى بالنفوذ والقناصل والامتيازات كمقدمة لعمليات الاحتلال والسيطرة التى تمت فى الهند والخليج العربى والجزائر ومصر .

وقد حمل الغرب معه فى غزوه للعالم الاسلامى العربى ثقافته ، وكان أبرز ما فى ثقافته التى حملها الينا عوامل التشكيك فى قيمنا وتاريخنا وتراثنا ومقومات شخصيتنا ومجتمعنا .

وتبدأ مرحلة الغزو العسكرية بحملة نابليون عام ١٧٩٨ وليس أدل على هدف الغرب فى القضاء على الثقافة الاسلامية العربية من أن أول معالم النفوذ الفكر الأجنبى فى العالم الاسلامى انما كانت البعثات التبشيرية والجمعيات والارساليات ذات الطابع العلمى والتعليمى .

بدأت هذه البعثات عملها فى عام ١٨٣٠ وهو تاريخ له دلالة ، ففى هذا العام احتلت الجزائر وسقطت فى يد فرنسا ، وكان سقوطها يعنى بالنسبة لفرنسا رد اعتبار انتقامى لمقتل القديس لويس فى حملته الصليبية التاسعة على تونس بعد حملته الثامنة على مصر التى أسر فيها . وبذلك حملت المعركة طابع « التعصب » وامتد هذا الطابع ليصبغ كل صور الفكر والثقافة والعلاقات بين الغرب والعالم الاسلامى .

أما البعثات التبشيرية فقد وصلت الى المركز الاساسى لها فى الشرق العربى — وهو لبنان — عام١٨٤٧

حيث وصلت البعثات الفرنسية وفى عام ١٨٦٨ وصلت البعثات الأمريكية وحملت هذه البعثات لواء مناهج التغريب وفرضتها على أبناء العالم الاسلامى جميعا .

وقد حاول بعض كتاب الغرب أن يغزو « اليقظة الفكرية والثقافية » فى العالم الاسلامى الى قدوم حملة نابليون ثم الى البعثات والارساليات الفرنسية والأمريكية ولا شك أن هذا الرأى مردود بدليل واحد يؤكده السبق التاريخى فان دعوة محمد بن عبد الوهاب المولود عام ١٧٠٣ والتى ظهرت حوالى عام ١٧٣٠ موقظة العالم الاسلامى ، انما تكسف هذا الرأى ، وتصور كيف أن العالم الاسلامى استفاق وبدأ يفكر فى أمره ويعيد تنظيم ثقافته قبل نابليون بأكثر من ستين عاما وقبل البعثات التبشيرية بمائة عام على الأقل .

وقدكانت فكرة الشيخ «عبدالوهاب» ممثلة لكل عناصر اليقظة والتجدد والحركة ، فقد انصبت على العودة بالاسلام الى منابعه الأولى فى بساطته ويسره وكانت فى صميمها معارضة حقيقية للجمود العثمانى والضعف الذى ساد المجتمع الاسلامى وحربا على الحكم الاستبدادى ذاته .

وكان قيام هذه الدعوة من قلب الجزيرة بالذات عاملا ضخما فى هذه الفترة الدقيقة ، أما اذا كانت هذه « الدعوة » قد اضطربت حين تحولت الى «حركة» فذلك جانب آخر لا ينفى عن الدعوة نفسها أثرها العميق الذى امتد بعد ذلك الى العالم الاسلامى كله ، وكان « قاعدة الأساس » فى معالم اليقظة الفكرية ، فجمال الدين الأفغانى وهو أكبر قوة موقظة فى الفكر الاسلامى المعاصر كان متأثرا الى حد كبير بهذه الدعوة وما اتصلت به من عصارة طيبة سبقتها عن أحمد بن حنبل وابن تيميه وابن القيم ، وكذلك امتدت بعدها حركات السنوسى والمهدى ومحمد عبده ومختلف الحركات الفكرية الاسلامية التى عمت العالم الاسلامى والتى حملت لواء الجهاد من أجل الحرية فى الوطن ، كما حملت لواء التجديد فى الفكر .

وكان مضمون هذه الحركة كله منصبا على ضرورة فتح باب الاجتهاد أمام الاسلام بحيث يستطيع تقبل الحضارة الحديثة ومواجهتها على النحو الذى واجه به الاسلام الحضارات السابقة التى اتصل بها ابان فجره وخلال تاريخه كله .

ولما كان الاسلام فى جوهره يحمل بذور القدرة على تقبل الحضارات والجرى فى أفق التطور ، ومن دعائمه الحرية والقوة والوحدة والمثل العليا ، فقد حملت اليقظة الفكرية الاسلامية هذه العناصر مؤكدة اياها على أنها حقائق أساسية .

وتتمثل هذه الثقافة الاسلامية العربية فى : كرامة الانسان وحريته ، وامتزج الروحية بالمادية والعمل لليوم والغد معا ، وتقديم البرهان فى كل قضية ، وسيادة مبدأ العقل وحفظ التراث وزيادته ، وتجديد الفكر بالغربلة واقصاء القشور والاجتهاد والموائمة مع الزمن والبيئة .

وحمل أمانة الحضارة والزيادة فيها وتكريم الطوائف والأديان المختلفة ورعايتها ، واقامة عملية الصهر والوحدة من أجل بناء الكيان الموحد وحماية الوطن . والحضارة والتسلح واليقظة للعدو ، والمقاومة واعتبار الدفاع عن الوطن دفاع عن العرض وتغليب السلام والمحبة والأخوة وعدم العدوان والدعوة الى «العدل الاجتماعى» ومساواة الأجناس والمفاضلة بالعمل والتضامن الاجتماعى والشورى .

وكان بروز معالم هذه الثقافة الاسلامية العربية ويقظتها من جديد يعنى اعلان الحرب على الاستعمار نفسه وعلى أعوانه من الملوك والأمراء والحكام ، ولذلك كان الاستعمار حفيا بأن يناقض هذه الأسس ويشكك فيها ما استطاع وأن يخلق تيارات أخرى ذات كيان اقليمى يظاهرها النفوذ والصحف والمال من أجل القضاء على مقومات الفكر العربى الاسلامى والقضاء على ملامح الشخصية العربية الاسلامية .

ومن هنا قامت دعوات مختلفة : التبشير والتغريب والالحاد والتشكيك فى التاريخ والقيم ومحاربة اللغة والدين بصفة عامة وكانت هدف كل هذه الأفكار التى كانت تسمى بالاقليمية أو الفرعونية أو العامية أو الشيوعية أو البهائية ، القضاء على الثقافة الاسلامية العربية ، ذلك لأن الاستعمار كان يفهم جيدا أن يقظة الفكر الاسلامى العربى واحياء مقوماته الفكرية وبعثها من جديد وجلاء الزيوف والقشور عنها انما تعنى مقاومته أساسا ، لأن المعنى الأكبر لهذه الثقافة هو الحرية والكرامة وكان يفهم تماما أن « القرآن » والفكر الاسلامى كله ممثل فى الحديث والسنة والتشريع والأدب والشعر وكلها ذخائر كبرى تموج بالحياة والحركة والتطور لها من قدرتها على التجاوب والتأقلم والتأثير ما حقق لها البقاء والتفاعل .

وقد فهم هذا فهما صحيحا مستر « غلادستون »

رئيس وزراء بريطانيا ابان احتلال الانجليز لمصر ووقف فى البرلمان الانجليزى يعلن أنه طالما يظل « القرآن » باقيـا فى الأرض فانه لن يمكن أن يستعبد المسلمون نقول وسيبقى .

ومن هـذه النقطة انطلقت الحملة الضـخمة على الاسلام واللغة العربية والتاريخ العربى والتراث العربى على نحو بالغ التعصب والاثارة . وحمل لواء هذه الحملة ثلاثة عناصر : المبشرون وكتاب الغرب وكتاب التغريب ممن تعلموا فى أوربا أو تابعوا كتاب الغرب فى آرائهم .

ظلت الدعوة الفكرية الاسلامية التى بدأت فى «نجد» بصيحة محمد عبد الوهاب تمتد وتتطاول حتى بلغت قمتها السياسية فى أعمال « جمال الدين الأفغـانى » ووصلت ذروتها الفكرية فى المخطط الذى رسمه « محمد عبده » . وفى أعمال المغرب العربى كانت آراء محمد عبده فى تحرير الفكر الاسلامى من قيود التقليـد ومن زيوف جمـاعات الطرق التى كانت عونا للاستعمار وعاملا فعالا فى حرية الحـركة السياسية . وفى الوطن العـربى كانت دعوة الشوكانى والألوسى والادريسى ذات أثر فكرى بعيد المدى .. ولذلك يمكن القول بأن أبرز ملامح الفكر الاسـلامى العربى المعاصر هى : المقـاومة أو الرد على التحدى . وقد برز هذا واضحا فى موقف « عمر مكرم » فى مقـاومة نابليون ثم فى مقاومة الوالى التركى خورشـيد وعزله ، واعلانه بأن من حق الشعب أن يعزل الحاكم اذا ظلم ، وفى مقاومة محمد على بعد طغيانه والنفى من أجل هـذه المقـاومة . ولا شك كان « للأزهر » دوره المـزدوج الكبير .

١ — « دوره الثقافى » فقد كان معقل الاسـلام واللغة العربية ، فى خلال فترة الظلام التى مرت بالعـالم الاسلامى منذ عام ١٥١٧ حين اسـتولى العثمانيون على مصر وسوريا حتى خرج منه أمثال حسن العطار وحسن الطويل ورفاعة الطهطاوى ومحمد عبده والمراغى .

٢ — « دوره الوطنى » فقد كان معقل كل حركات المقاومة السياسية والثقافية . وحمـاية الشعب من ظلم الأمراء ، وباسمه وقع الأمراء المماليك أخطر وثيقـة فى التاريخ المعـاصر تنص على حق الشـعب ومنه خرجت فيالق مقاومة نابليون وثورة ١٩١٩ .

واذا ذكر الأزهر فى مجال الثقافة الاسلامية العربية فاننـا نذكر جامعات اسـلامية متعددة منها القرويين فى المغرب والزيتونة فى تونس ومعـاهد النجف الأشرف وجامعة أحمـد خان فى الهنـد والخلاوى فى السـودان والزوايا فى ليبيا وعشرات من المساجد فى العالم الاسلامى كانت مقرا للغة العربية والقرآن والثقافة الاسلامية وكانت فى نفس الوقت معسكرات المقاومة للاستعمار ، ولا شك كان للبعثات التى صدرت من العالم الاسلامى العربى بعد سقوطه فى يد الاحتلال الغربى بالاضافة الى الارساليات التى وردت اليه من فرنسا وأمريكا وانجلترا وغيرها أثرها فى التطور الذى تحول به العالم الاسلامى عن « الثقـافة الاسلامية العربية » الى الثقـافات الغربية حيث جرت محاولة تغليب هذه الثقـافات بحكم اتساع التعليم المدنى وظهور الجامعات الحديثة وتجميد التعليم القديم .

غير أن عشرات من الأعلام الذين ذهبوا الى أوربا أو تعلموا فى مدارس الجزويت والبروتستانت والأمريكان استطاعوا أن يتحرروا من قيود المدرسـة الغربية ونفوذ الفكر الأوربى ، وأمكن أن تكشف لهم الأحداث والظروف فى ظل التحرر العقلى والثقافى عن حقائق الأمور .

وكان ما وصلوا اليه هو أن «الفكر الغربى» الذى شرع المذهب الحديث فى التفـكير والبحث وهو المذهب الذى يدعو صاحبه أن يجرد نفسه من كل هوى أو تعصب أو غرض وأن يدرس الحقائق التى تقع بين يديه دون أن يربطها بما يعرفه فى الماضى . ثم يصدر حكمه صادقا ، هذا المذهب الذى ادعاه الغرب لنفسه منذ أوائل النهضة والذى هـو فى الأصـل مذهب الفكر الاسـلامى الذى التزمه عبـاقرة الفكر العـربى أمثال ابن تيمية والغزالى وابن حزم وغيرهم — وقد تبين بالدلائل القاطعة أن الفكر الغربى لم يلتزم هذا المذهب فيما يتصل بالاسلام واللغة العربية والشرق . وأن كبار المفكرين الغربيين قد وقعوا تحت سـيطرة التعصب والحقـد ، ودفعتهم عوامل من مخطط الاستعمار أو من الخصومة المذهبية الكنسية الى تجاهل الحقائق والخضوع للأهواء فى كثير مما كتبوا عن الاسـلام والنبى والعرب وما عـرفوا له من تاريخهم أو تشريعهم أو ثقافتهم .

هذا فضلا عما كشف عنه الغرب — الذى ادعى أنه يحمل مبادىء الاخاء والمساواة والحرية — من خصـومة حاقدة لطلاب الحرية فى العالم الاسلامى ومقاومته لأبرز مبادىء الاسلام : الحرية والوحدة والقوة .

وقد بدا هذا واضحا عندما تحول هؤلاء المفـكرون عن آرائهم القديمة وكشفوا زيف الغرب فى تفكيره ومنطقه وقد فعل ذلك كثيرون فى الشرق أمثال ، شكيب ارسلان وأحمـد زكى باشا ومحمد حسـنين هيكل وزكى مبارك

ومنصور فهمى ومحمد فريد وجدى ومحب الدين الخطيب وعبد الرحمن عزام وعبد الوهاب عزام .

* * *

وقد عنيت أن أذكر هنا أسماء الكتاب الذين سافروا الى الغرب أو تثقفوا ثقافته على مستوى عال ، ولم أذكر غيرهم من أمثال مصطفى صادق الرافعى وعبد العزيز الثعالبى وعبد الحميد بن باديس ورشيد رضا مخافة أن يتهم هؤلاء بأنهم متعصبون للفكرة الاسلامية بحكم دراستهم أصلا .

ومعنى هذا كله أن « الفكر العربى الاسلامى » استطاع أن يشق طريقه مجددا حياته وفكره منذ بدأت صيحة محمد عبد الوهاب فى الجزيرة العربية قبل أول حملة عربية حربية أو فكرية على العالم الاسلامى بأكثر من سبعين عاما ، وأن هذا الطريق قد تعمق فعلا فى خلال هذه السنوات الطويلة واستطاع أن يقاوم «المدرسة الأوربية التغريبية » التى حمل لواءها دعاة التبشير والاستشراق ثم جرى فى ركبهم مجموعة من كتابنا العرب والمسلمين مخدوعين مضللين أو مدفوعين برغبة الظهور أو الشهرة أو التعصب .

* * *

وقد غمت هذه الغمة على العالم الاسلامى فترة من الزمن ثم انكشفت الحقيقة عندما ارتد عن الدعوة التغريبية بعض أساطينها ورجعوا الى المعسكر الاسلامى العربى يحملون اقلامهم بنفس الحماسة أو أشد .

وقد أمكن كشف كثير من المغالطات التى دعا اليها الغرب من أجل القضاء على « الفكر العربى الاسلامى » وظهر عدد كبير من أعلام التجديد الدينى ، فمن هم هؤلاء الأعلام وما هى الدعوات التى حملوها .

* * *

(٤)
التجديد والبعث وفتح باب الاجتهاد

ضعفت جذوة الفكر العربى الاسلامى خلال أربعمائة عـام تقـريبا .. وذلك عنـدما غلب التقليديون علـى العالم الاسلامى وسيطروا عليه وجمدوه فى حدود الحياة السياسية الضيقة القائمة على سلطان الخلافة ، وجرى بعض علماء المسلمين فى ركب الولاة والحكام من أجل دعم مراكزهم واجبار الشعوب على الولاء لهم . هنالك وقفت دعوة الاسلام عن التجديد واغلق باب الاجتهاد ، وانحسر الاسـلام عن مجاله الطبيعى ، وضـعفت مفاهيمه عن مواجهة الحياة وأصابه ذلك الركود العجيب . فقد تخلى المسلمون فعلا فى هذه الفترة عن العمل الايجابى بالاسلام ولم يبق الا رمزا وشـعارا لا يحمـل من ورائه حقيقة واضحة .

فالشورى وحق الأمة فى اختيار الحـاكم قد اختفت تماما حين غلب الحكام المستبدون ، وتوقفت قدرة الاسلام على التجـاوب مع التطور حينمـا أغلقت الأبواب أمام الحضارة والتقدم ، أما مفهوم الاسلام فى الجهاد فقد تجمد حين توقفت الدولة عن تجديد جيشها وحمـاية ثغورها فهزمت مرة ومرة بفضل تقدم الغرب وتوقفهـا هى عن التطور ، وهكذا غلب الجمود كل مظاهر الحياة وانحسرت ايجابية الاسلام ودارت المجادلات الكلامية حول المسائل الشكلية والفقهية الفرعية . وتوقفت اللغة العربية عن النمو فغلبت العجمة ولم يعد القرآن هو كتاب المسـلمين الحيوى بقدر ما أصبح الكتـاب الذى يقرأ على القبور ويكتب بحروف جميلة على ورق صقيل بماء الذهب ، وهو ما اشتهر به الأتراك .

غـير أن الصيحات لتجـديد الدين وعودته الى منابعه الأولى وتأهيله مرة أخرى لكى يحمل رسالته القادرة على التجاوب مع الحضارة والتطور وتلقى كل مظاهر الحياة ونهضات الأمم من حوله ، بدأت تعمل عملهـا على نحو واضح قبل نهاية القرن الثامن عشر حيث أخذت ظواهر اليقظة تدب فى عدد من رجال الفكر الذين أحسـوا بمدى الجمود الذى بلغــه الفــكر الاسلامى والتخلـف الذى وقع فيه .

وقد كانت نقطة البداية هى « تصــحيح العقيدة » والاتجاه الى اله واحد ، وانكار التوصل والتعبد للأولياء أو الأموات ، وكان ذلك طبيعيا اذ ذاك حيث كانت العودة الى « التوحيد » فى الفكر الاسلامى هى نقطة القوة ، فان التعبد للأموات والأوليـاء كان أشبه بالخضـوع للولاة والحكام والملوك المستبدين الظلمة ، والتحرر من هذا هو تحرر من ذلك على التأكيد . وقد توالت هذه الصيحات وترددت فى جوانب العالم الاسـلامى ، ولم تتوقف عند ظهورها فى وطن واحد . ففى عام ١٧١١ م على ما يروى الجبرتى قام رجل فى القاهرة أمام مسجد المؤيد يدعو الى الاصلاح على النحو الذى دعا اليه « ابن تيمية » فأنكر ما كان يفعـله أهل مصر من تقبيل أعتاب القبـاب من الأموات وقصدهم لقضاء الحاجات ، ثم أنكر بناء القباب على من الأموات وقصدهم لقضاء الحاجات وحكم بوجوب هدمها . وقد اتخذ مسـجد « المؤيد » مقرا لدعوته ، وتبعه خلق كثيرا من الناس وتعصبوا له ، ووقف ضده علماء الأزهر . وفى نفس القرن ظهر «ابن عبد الوهاب» فى الدرعية فى قلب الجزيرة العربية ، وقـد قام بدعوته حوالى عام ١٧٥٨ تقريبا ، وهو تاريخ يسـبق الثورة الفرنسية بحوالى عشرين عاما — التى قامت عام ١٧٨٩ — ولذلك فان الدعوى التى حملها بعض دعاة التغريب من أن اليقظة فى الوطـن العربى انبعثت صـدى للثـورة الفرنسية انما تتجاهل هذه الحقيقة التاريخية الواضحة. وفى نفس القرن ظهر « صالح بن محمد بن نوح القلانى » — نزيل المدينة — صـاحب كتاب (ايقـاظ همم أولى الأبصار) . ثم ظهر السيد مرتضى الزبيدى صاحب التاج فى شرح القاموس . وقد حمل هؤلاء الدعاة لواء الدعوة الى فكرة واضحة صريحة ، هى :

أولا — العودة الى التوحيد والمنابع الأولى للاسلام فالتوحيد هو أساس الاسـلام .. وقد دخله كثير من الفساد فى خلال فترة الركود التى أصابت العالم العربى الاسلامى تحت حكم العثمانيين ، مما أثر فى نقاء التوحيد وذلك عندما توسع المسلمون فى البدع التى تتصل بالتقرب الى الأولياء والنذر لهم ، وبناء الأضرحة وزيارتها ، وقد حملت هذه الدعوة لواء عبادة الله وحده ورد البدع وابطال التوسل والشفاعة .

ثانيا — فتح باب الاجتهاد . وقد كان اقفـال باب الاجتهاد بعيد الأثر فى الجمود الذى أصاب الفكر العربى الاسلامى . وقد أقام محمد بن عبد الوهاب دعوته على أساس أن مسألة « التوحيد » هى عماد الاسلام . وأن الانحراف فى العقيدة هو سبب ضعف المسلمين وسقوط همتهم ، ولم يلبث عبـد الوهاب أن حول دعـوته الى برنامج سياسى ودعا لمقاومة استبداد الحاكم والتحرر من سلطان الدولة (العثمانية) التى انحرفت عن المبـادىء الأساسية للاسـلام ، كما هاجم رجال الدين الرسميين الجامدين ، واستطاع أن يحول الدعوة الى حركة لهـا كيانها الذى هز الامبراطورية العثمانية ، غير أن مايؤخذ على الوهابية هو ضآلة الاصلاح وعدم القدرة على الأخذ بأسباب القوة والحضارة . وفى اليمن ظهرت اليقظة فى دعوة محمد عبد الله الشوكانى ، الداعية الاسلامى الذى فتح باب الاجتهاد وحارب التقليد ، وذهب الى تحريمه . وله كتابه الذى صور فيه دعوته (القول المفيد فى حـكم التقليد) ..

* * *

هذه صورة المرحلة الأولى من تجدد الفكر الاسلامى وهى مرحلة (اليقظة) ، ربما تكون محدودة بالدعوة الى تنقية العقيدة كأساس ، غير أن المرحلة التى تلتها كانت أكثر ايجـابية ووضوحا من ناحية الدعـوة الى تطبيق الاسلام فى مجال مقاومة الاستعمار والاسـتبداد ، وفى هذه المرحلة حملت الدعوة السنوسية لواء الجهاد فى أكثر من أربعين عاما فى مواجهة الاسـتعمار الايطالى ، وكان المفهوم الاسلامى أساسا لها فى الصمود للمقاومة وكان الأمير عبد القـادر الجزائرى فى الجزائر يتخذ من التجمع الكتائبى الاسلامى وسيلة الى مقاومة الغزو الفرنسى مدى سبعة عشر عاما .

ثم برز التجدد فى المجال الفكرى على نحو أشـد وضوحا بظهور : خير الدين التونسى (تونس) ، وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده (مصر) ، ومحمود شكرى الألوسى (العـراق) ، وولى الله الدهلوى فى الهنـد .

وكان من رأى « خير الدين التونسى » فى كتابه (أقوم المسالك الى معرفة أحوال الممالك) الذى صـدر عام ١٨٦٧ م أن تمسك المسلمين بالدين لا يمنع من النظر فيما عند الأمم الأخرى والأخذ بأحسـنه فيما يتعلق بالمصالح الدنوية وعنده أن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها . ويقول : أن على المسلمين الاستعداد لمقاتلة العدو بمثل سلاحه وان الأخذ بالعلم هو من أسباب العمران . وعنـده أن الأمة التى لا تجارى جاراتهـا فى معداتها الحربية ونظمها العسكرية توشك أن تقع غنيمة فى أيديهم . وان الاسلام لا يمنع من نقل حضارة الغرب ولايمانع من الأخذ بنظم ادارتهم مع مراعاة الظروف ، وان لهم أن ينقلوا ما يستطيعون هضمه . ثم يوسع هـذا شيئا فشـيئا ينمو أسباب التمدن ، كما دعا الى الأخذ بنظام الشـورى الذى يقيد الحـاكم وقال : ان عوائق التقدم تنحصر فى رجال الدين ورجال السياسـة : أما رجال الدين فانهم يعرفون الشريعة ولا عـلم لهم بأمور الدنيا . أما رجال السياسة فيعرفون الدنيا ولا يعلمون أمور الدين وهم يريدون أن يطبقوا النظم الأوربية بحذافيرها من غير رجوع الى الدين « نقول للأولين اعرفوا الدنيا ، ونقول للآخرين اعـرفوا الدين » .. ودعا الى امتزاج الطائفتين وتعاونهما . وقال : ان البلاد العربية لا يزال حكامها يكرهون الحـكم النيابى وان الرأى العام جاهل خاضع .

ولا شك أن دعوة خير الدين التونسى هى أول نظرة عميقة لمفاهيم الاسلام فى ضوء الحضارة والتطور وهى المرحلة الثـالثة من التجديد ، بعد الدعوة الى تصحيح العقيدة ومقاومة الاستعمار . وقد وسـع هذه النظرة وأشاعها فى العالم الاسلامى « جمال الدين الأفغـانى » الذى يعد بحق الرائد الحقيقى للنهضة . ولعل المجـال الجـديد الذى فتح أبوابه جمـال الدين هو التحرر من الاستبداد وحكم الفرد ، ومن ذلك قوله : « انكم معاشر المصريين قـد نشأتم فى الاستعبـاد ، وربيتم فى حجـر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم ، وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين ، وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين ، تسومكم حكوماتهم الحيف والجور وتنزل بكم الخسـف والذل ، وأنتم صـابرون ، بل راضون تستنزف قوام — حيـاتكم — التى تجمعت بما يتحلب عرق جباهكم ، بالعصا والمقرعة والسوط ، وأنتم صامتــون ، انظروا أهرام مصر ومشاهد سيوه وحصون

دمياط ، فهى ، شاهدة يمنعه آبائـكم وعزة اجدادكم . هبوا من غفلتكم ع اصحوا من سكرتكم ، عيشوا كباقى الأمم احرارا سعداء » .

اما الشيخ محمد عبده فانه يتجه الى جانب آخر من جوانب التجديد والبعث ، وفتح باب الاجتهاد وفى أحكام الشريعة وفى ضوء تطور الزمن . ويرى ان احكام الشريعة ليست شيئا جامدا لا يتحول بتحول الزمن والمصلحة ، بل هى مطاوعة لذلك ، دائرة فى منفعة الناس وجودا وعدما ، وانه — اى الاسلام — يبيح لنا أن نتحول عنه بأحكام الشريعة ونسيرها وفق مصالحنا فنمنع المباح — بحكم الحاكم — اذا وجدنا فى اباحته ضررا . وعنده : أن الشريعة الاسلامية مطاوعة لكل زمان « لتطور الأحوال ودورانها على مصالح الناس » وأنه لا يقصر ذلك على زمن معين يقفل بعده باب الاجتهاد . بل يظل مفتوحا الى نهاية الدهر ..

* * *

(٥)
تياران فى الفكر الإسلامى : الثورة السياسية والتربية

كان العمل من أجل مقاومة استبداد الأمراء وايقاف النفوذ الأجنبى هو ابرز ما اتجهت اليه الحركات الاسلامية فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر وأول القرن العشرين . وذلك الى جوار العمل لتنقية العقيدة ، وقد التمست لذلك عديدا من الوسائل والخطط . وكانت التجمعات تحت الوية الدعاة والمصلحين والقادة من العوامل الفعالة فى خلق جبهات قوية يحسب لها حسابها .. وقد ظهرت فى صورتين : احداها التشكيلات الدينية والصوفية فى نطاق الوهابية والمهدوية والسنوسية . ثم فى نطاق التيجانية والقادرية وغيرها — وذلك على اختلاف ما بينها جميعا من الوسائل ، ثم ظهرت هذه التجمعات فى صورة أخرى اكثر تحررا من قيود الجماعات الدينية وتقاليدها وذلك على النحو الذى عرف فى مجالس جمال الدين الأفغانى التى اشتهرت بها قهوة متاتيا والتى ضمت عددا متنوع الثقافة من الأزهريين والمحامين والصحفيين والموظفين . أما فى التشكيلات الدينية فقد غلبت فيها الدعوة الى تصحيح العقيدة وتحرير الفرد من قيود مصارعات البيئة وتحديات المجتمع . أما تجمعات جمال الدين الأفغانى التى عرفت فى كل مكان ذهب اليه وخاصة فى القاهرة خلال السنوات السبع التى قضاها بها ، فقد كان قوامها بث روح اليقظة واثارة الوعى والدعوة الى التحرر من الموالاة غير الواعيةللحكام المستبدين والموالين للاستعمار او النفوذ الأجنبى . وتوجيه النظر الى حق الشعوب فى حكم الشورى على النظام الحديث وذلك بانشاء المجالس النيابية ووضع الدساتير التى تحد من سلطة الامراء . وكان هذا هو الجانب الغالب على دعوة جمال الدين الأفغانى التى حمل لواءها وطوف من أجلها بأطراف العالم الاسلامى فى ايران وأفغانستان والهند وتركيا ومصر .

وكان جمال الدين يرى ضرورة العمل على تحقيق هذا الهدف فى أسرع وقت وبكل وسيلة ممكنة ، وابرز ما يمكن الوصول اليه هو خلق رأى عام واع من المثقفين دون التقيد بأية قيود من ناحية التمسك بالعبادات أو الوسائل التربوية الأخرى التى تجعلها الدعوات الدينية أساسا للعمل . وعنده أن هذه ضرورة عاجلة للقضاء على الحكم الاستبدادى وايقاف النفوذ الأجنبى .

وهذا العمل هو ما أطلق عليه الهاب النفوس واثارة المشاعر ازاء مظالم الأمراء المستبدين ، والعمل على خلعهم كوسيلة سريعة لاقامة حكم اكثر ديمقراطية عن طريق اختيار حكام من الشعب . وقد اتخذ جمال الدين وسيلته الى ذلك انشاء الصحف والكتابة واثارة الرأى العام وتأليف المحافل الماسونية من أصدقائه فى الوزارات والمصالح ، واتخاذ هذه المحافل اداة للسيطرة على الحكومة ، مع الحملة المستمرة على النفوذ الأجنبى والأمراء المستبدين ، وهو فى سبيل عمله هذا يتحدث مع كل من يتصل به ، لا يتخير دعاة بالذات ، ويثير القضايا حول الحرية والشورى ، ويتحدث عن حقوق الأمم ومسئولية الحاكم .. ثم ينشىء جماعة مصر الفتاة .

ومن الناحية الأخرى يجتمع بالأمراء والحكام فى كل بلد يزوره ويطالبهم بالدستور والحكم النيابى .. بل أنه يصل الى ابعد من هذا فيضع الدستور فعلا فى ايران و رسم فيه حقوق الشعب فينقم عليه الشاه الذى يرى نفسه وقد تجرد من كل سلطانه .

وفى مصر يلتقى بتوفيق الذى يعتب عليه ما أطلق عليه « التهييج السياسى » ويقول له الخديوى : ان هذا الشعب خامل جاهل ولا يصلح أن يلقى عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال المهيجة فتلقون أنفسكم والبلاد فى تهلكة .. ويرد جمال الدين فى حماس وايمان : أن الشعب المصرى كسائر الشعوب لا يخلو من وجود

الخامل والجاهل بين افراده ، ولكنه غير محروم منوجود العالم والعاقل ، فبالنظر الذى تنظرون به الى الشعب المصرى ينظر اليكم . وان قبلتم نصح هذا المخلص وأسرعتم فى اشراك الأمة فى حكم البلاد عنطريق الشورى فتأمرون باجراء انتخابات نواب الأمة لسن القوانين وتنفيذها يكون ذلك اثبت لعرشكم وادوم لسلطانكم » .

ويرى الأمير محمد على الهندى فى كتابه عن « الاسلام » أن لكل عصر ما يلائمه من الطباع والعوائد وما يصلح لزمن من الأزمان قد لا يصلح لغيره ، ولا ينبغى أن نحكم على الماضى بمقياس ما نراه فى الحاضر . وأن الأحكام تعدل وتطبق حسب المقتضيات التى تدعو اليها مصالح الناس وتقدم الزمن . وهكذا نجد أن مظاهر الجديد فى التفكير الاسلامى قد وضحت فى دراسات المجددين خلال المراحل المختلفة فى ميادين خمسة : (١) تنقية العقيدة وفتح باب الاجتهاد . (٢) مقاومة المستعمر . (٣) مقاومة الحاكم المستبد واعلان الشورى . (٤) قدرة الشريعة الاسلامية على مسايرة كل زمان ومكان . (٥) النقل من الحضارة مع المحافظة على مقومات الأمة . غير أن هؤلاء المجددين قد اختلفوا فى أسلوب تحقيق النهضة ووسائل الاصلاح » فهناك فريق يرى أن يتم الاصلاح بالثورة والقضاء على المستبدين الموالين للاستعمار . وعلى رأس هذه المدرسة « جمال الدين الأفغانى » . وهناك فريق يرى أن يتم الاصلاح بالتربية والعلم ، فاذا تحقق انشاء جيل قوى أمكنه ان يحرر الأمة ويقيم حياة جديدة على أساس ثابت وعلى رأس هذه المدرسة الشيخ محمد عبده .

ويقف جمال الدين فى ميدان باب الخلق ويرى الفلاحين فى طريقهم الى الحقول فيصيح فيهم : أيها الفلاح ، يا من تشق قلب الأرض بفأسك ، لماذا لا تشق به قلب ظالمك . ويقول للهنود : والله لوكنتم ضفادع وتجمعتم حول الجزيرة البريطانية بملايينكم الكثيرة لأغرقتموها فى المحيط . وكان يردد قوله فى كل مكان : هبوا من غفلتكم ، اصحوا من سكرتكم ، انفضوا عنكم غبار الغباوة والخمول ، وعيشوا كباقى الأمم احرارا سعداء أو موتوا ماجورين شهداء .. ويمضى جمال الدين فى سبيل غايته يرى من كل وسيلة وسيلة الى هدفه ..

يقول تشارلس أدمس فى كتابه «الاسلام والتجديد» .. «أن الوسائل التى تخيرها جمال الدين لتحقيق غاياته كانت وسائل الثورة السياسية ، فقد خيل اليه أنها أسرع الطرق واكثرها فى تحرير الشعوب الاسلامية وتغذيتها بالحرية الضرورية لتنظيم شعوبها . أما وسائل الاصلاح التدريجى والتعليم فكان يرى أنها بطيئة جدا غير محققة الغاية ، كان يريد أن يرى قبل موته تحقيق النتائج فكافح لقلب النظام القائم ، وكان يرى جواز خلع وقتل أمراء المسلمين الذين يشجعون الاعتداء الأوربى أو يرضون عنه فيقيمون بذلك الحوائل بين الناس وبين خلاصهم على ما يرجون .. ويضيف « أدمس » قوله : ان جمال الدين قال مرة فى حديث له مع الأستاذ براون ، أنه لا أمل فى الاصلاح قبل قطع ستة أو سبعة رءوس وسمى بالاسم شاه العجم وكبير وزرائه وكلاهما قتل بعد ذلك .. وأشار « بلنت » فى تاريخه السرى لمصر أنه فى ربيع عام ١٨٧٩ كثرت المناقشة بين انصار جمال الدين فى الوسائل التى يمكن بها خلع الخديوى اسماعيل أو اغتياله اذا استعصى خلعه . ويروى عن كرومر فى كتابه « مصر الحديثة » « ج ٢ » أن محمد عبده قال ان الكلام دار عن خطة معينة لاغتياله لم تنفذ لعدم وجود شخص الذى يتكفل بذلك .

ويضيف أدمس قوله : ومع هذا فقد كان لجميع غاياته المتطرفة والوسائل التى يصطنعها وجه انشائى يبدو واضحا جليا فى أعماله وينبغى الا يغفل حسابه »..

وهكذا أثار جمال الدين ثورة الفكر وربطها بالشورى ومقاومة النفوذ الأجنبى ضمن خطة واسعة للوحدة الاسلامية تقوم على أساس التخلص من الأمراء المستبدين وقيام حكام من الشعب والتقاء هؤلاء الحكام فى حلف أو جامعة أو كيان من نوع ما . وقال « سليم عنحورى » وهو احد الذين عملوا معه أنه « ممن يدعون الى ابدال الحكومة المقيدة بحكومة شورية تحدثه نفسه بتولى زعامتها ، وأنه كان آية من آيات القرن التاسع عشر ، وأنه لو لم يكن ينظر الى المعالى بافراط واعجال مع عجزه عن كتمان مبداه وغايته لرحب به التاريخ . وقال عنه صديقه وتلميذه محمد عبده : أنه كان حاد الطبع فطنا ولطالما هدمت الحدة فيه ما بنته الفطنة . هذه صورة التيار الذى حمله جمال الدين : تيار العمل السياسى ، وقد جرى معه الشيخ محمد عبده شوطا ثم تحول عنه بعد أن أحس عدم جدوى هذا الاتجاه وغلبة النفوذ الأجنبى وامتداد سلطانه وحماية أعوانه من الأمراء وضعف قدرة الشعوب على تفهم حقيقة هذا الاتجاه أو الاستجابة له أو مؤازرته نظرا للجهل الفاشى والعجز عن توصيل دعوة اليقظة الى الناس على الصعيد العام ، وقد رأى محمد عبده أن وسيلة أخرى هى التى تحقق اليقظة وتكتب النجاح لدعوة التحرر من الاستعمار والاستبداد معا . وبناء حركة اليقظة الجديدة على أساس راسخ

وهى « التربية » والاصلاح التدريجى ، وقد اقتنع الشيخ محمد عبده بفشل اتجاه جمال الدين عندما لم يحقق شيئا فى مصر أو تركيا او ايران . واشار على السيد ان يذهبا الى مكان بعيد غير خاضع لسلطان يعرقل سيرهما ثم ينشئان مدرسة للزعماء يختاران لها التلاميذ ممن يتوسمان فيهم الخير ، ويربيانهم على منهج قويم يختارانه ويعدانهم للزعامة والاصلاح .

وقال الشيخ عبده لجمال الدين : انه لاتمضى عشر سنين حتى يكون عندنا كذا وكذا من التلاميذ الذين يتبعونا فى ترك أوطانهم والسير فى الأرض لنشر الاصلاح المطلوب فينتشر احسن انتشار . وقد تلقى جمال الدين هذا الرأى بغضب وثورة : وقال انما أنت مثبط . وكان هذا معقد الخلاف بينهما ، وهو خلاف جذرى له عوامله المختلفة من نفسية واجتماعية عند كل منهما ، فالشيخ محمد عبده الذى كان يتصل بالبيئات الصوفية فى صدر شبابه يرى ان وسيلة التربية أصدق الوسائل فى تكوين الدعاة ، وأن القدرة القائمة على أساس من المعانى الروحية هى أنفذ عملا من التهييج والاثارة للجماعات المنوعة الفكر والرأى والذوق ، والتى لا تلتقى اساسا على معان روحية أو فكرية واضحة .

وقد حمل الشيخ محمد عبده هذه الدعوة فى مصر وفى كل مكان ذهب اليه : فى سوريا ولبنان وتونس والجزائر . والطريق الوحيد عنده للنهضة والموصل الى جمع كلمة الأمة والقضاء على استبداد الساسة هو : التعليم والتربية والاصلاح التدريجى . ومن ذلك قوله : أننى ادعو الى التربية لأننى عرفت أية ثمرة تجنيها الأمم من غراس تغرسه وتقوم على تنميته السنين الطوال . وقد سار فى الطريق الذى دعا اليه محمد عبده المسلمون فى المغرب العربى وكان عمل السيد عبد الحميد بن باديس فى هذا الاتجاه باهرا ، فقد استطاع أن ينشىء ثلاثمائة مدرسة حفظت اللغة العربية والاسلام فى مختلف أنحاء الجزائر ، وكذلك كان عمل أحمد خان بانشاء كلية عليكرة فى الهند ، وشبلى النعمانى فى انشاء ندوة العلماء فى لكنو بالهند . وعمل محمد عبده فى مصر وفق هذه الخطة فآثر نظام التدرج والمراحل ، وذلك بالتوسع فى سلطة مجالس المديريات وتعديل نظم التعليم فى الأزهر وفى المدارس وانشأ دار العلوم لاعتقاده أن تلاميذها أرضى لقبول الاصلاح من الأزهريين .. وفسر القرآن الكريم تفسيرا حديثا يتناسب مع الناس وتطور الزمن .

* * *

(٦)
خطان متوازيان : السلفية والصوفية

عندما ينظر الباحث فى تطور الفكر العربى الاسلامى واتساعه فى العصر الحديث يجد أن هناك حركتين غاية فى الضخامة والقوة هما مصدر هذه القوة الجديدة التى جددت شباب الفكر العربى الاسلامى ، واستطاعت بغير شك أن تقاوم الحملات العنيفة التى وجهت اليه عن طريق الغزو السياسى والعسكرى والثقافى الذى قام به الغرب للعالم الاسلامى منذ أوائل القرن التاسع عشر مستهدفا القضاء عليه ، وقد كانت حملات الاستشراق والتبشير جزءا هاما من هذا الغزو التغريبى فقد ارتبطت هذه الحركة الى حد كبير بالتربية والتعليم والصحافة والكتابة ومختلف وجوه الاعلام ، واستطاعت بمؤازرة النفوذ الغربى والقوى المادية أن تنطلق فى مناطق كبيرة من العالم العربى الاسلامى .

غير أن حركتى (السلفية) و (الصوفية) معا على الرغم من اختلاف الراى بينهما ، قد جددتا شباب الاسلام وأمدتاه بالقوة والحيوية وقاومتا كثيرا من هذه الاندفاعة التبشيرية التغريبية فى مراميها البعيدة ، واستطاعت الحركة الصوفية بالذات أن تكسب للاسلام مناطق نفوذ جديدة بقوة شخصية التاجر المسلم المتنقل من مكان الى مكان يحمل مع بضاعته ، صورة رائعة ومثلا فريدا من الخلق والمعاملة والسماحة يجمع اليه الناس ويدفعهم الى اعتناق دينه . ويمكن القول بأن «السلفية» قد جددت الاسلام تجديدا أفقيا ، من ناحية تصحيح مفاهيم الاسلام بعد أن سيطر عليها كثير من الزيف والخرافات ، وأن « الصوفية » قد جددت الاسلام عرضيا بتوسيع نطاق الدعوة اليه فى المنطقتين الجديدتين : وسط وغرب أفريقيا وجنوب شرقى آسيا . أما « السلفية » فقد بدأت بالحركة الوهابية فى قلب الجزيرة العربية ثم اتسع نطاقها وتطور مفهومها وتطور بحركات متعددة قام بها الشوكانى فى اليمن والألوسى فى العراق وجمال الدين فى ايران وتركيا ومصر ومحمد عبده فى مصر والمغرب وندوة العلماء فى الهند والمنار فى تونس وشمال أفريقيا . وكانت دعوات الخلدونية فى تونس وجمعية العلماء بزعامة عبد الحميد بن باديس فى شمال الجزائر وبيوض ابراهيم فى جنوبها وأبى شعيب الدكالى فى المغرب وكلها لا تعدو فى الحقيقة أن تكون فروعا لدعوة واحدة

هى (السلفية) التى تدعو الى عودة الاسلام الى بساطته الأولى وفتح باب الاجتهاد وتصحيح المفاهيم الخاصة والتوحيد . وكانت كل هذه المؤسسات تؤمن بالحقيقة الكبرى ، وهى أن الاسلام قابل لمواجهة الحضارات والثقافات المختلفة وانه لا ينافى المدنية ولا يعترضها ولكنه يتقبلها ويسيغها ويلتقى بها . ويحولها الى وجهه الواضح وملامحه الصريحة ، دون أن يضيع فيها أو ينصهر فى بوتقتها ، وقد كانت الصحافة جزءا هاما من أركان هذه الدعوة ويمكن القول بأن « المنار »

الذى اصدره الشيخ رشيد رضا (٣٤ عاما) منذ عام ١٨٩٨ كان مدرسة ضخمة تأثر بها مسلمو تونس والمغرب والهند ، وحمل بصدق آراء الشيخ محمد عبده وتفسيره العصرى للقرآن وأن الحركة السلفية التى ظهرت فى المغرب كانت منبثقة من هذه المدرسة ، وقد أطلق أصحابها على أنفسهم اسم المدرسة العبدية — نسبة الى الشيخ محمد عبده — وكان أبرز أعمالها مقاومة الاستعمار الفرنسى والقضاء على المنحرفين من أصحاب الطرق : دعاة الخوارق والكرامات الذين استغلهم الاستعمار واتخذهم وسيلة للسيطرة على الناس وقتل روح الجهاد فيهم . وقد عملت المدرسة السلفية فى ميدانين كبيرين احياء الدين وتصحيح مفاهيمه واجلاء روحه الناصر النابض والكشف عن حقائقه وتجديد اللغة العربية وحمايتها باعتبارها اداة هذا الدين ووعائه .. وكانت « الشهاب » التى أصدرها « عبد الحميد ابن باديس » فى « الجزائر » عملا هاما نشأت فى ظله جماعة العلماء التى كان لها الفضل فى حفظ اللغة العربية فى الجزائر بانشاء ثلاثمائة مدرسة فى المساجد .

وكانت دعـــوة « ابن باديس » انطلاقا مع اليسار السلفى المستنير فى تحرير المفاهيم وتصحيح الأصول . وكان لجماعته أثر فعال فى تنوير الرأى العــام ، ونشر الثقافة العربية ، وتطهير العقيدة الاسلامية من الخرافات واحياء اللغة العربية وتقوية الشعور بالشخصية العربية فى الجزائر فى الوقت الذى كان الاستعمار الفرنسى جادا فى القضاء على (١) اللغـــة العربية (٢) والاســلام (٣) والشـــخصية الجزائرية ، ومن ذلك قول ابن باديس : اننا نرى الأمـــة الجزائرية موجودة ومتكونة على مثـــال ما تكونت به ســـائر أمم الأرض ، وهى لا تزال حية ولم تزل ، ولهذه الأمة تاريخهـــا اللامع ووحـــدتها الدينية واللغوية ، ولها ثقافتها وتقاليدها ، هذه الأمة الجزائرية ليست هى فرنســـا ولا تريد أن تصبح هى فرنســـا ومن المستحيل أن تصبح فرنسا » . وقد أثبتت هذه الدعوة فى مختلف انحاء الجزائر وكانلها مدارسها وصحفها بالعربية والفرنســـية وقد قاومت دعاة الطـــرق الذين اســـتغل الاستعمار الفرنسى بعض رجالها ضد الحركة التحررية ، وخاصة حرب الريف سنة ١٩٢٧ .

وفى مراكش انبعثت الصيحة السلفية على يد « أبى شـعيب الدكالى» الذى تلقى هذه الدعوة فى الشرق ــ كما تلقـــاها من قبل ابن باديس ، وقد جمع حوله عددا من الشـــباب النابغ ووزع عليهم الكتب التى كان يطبعهـــا السلفيون فى مصر . ثم ظهـــر على نفس الخط « محمد » ابن العربى العلوى » وواجهت الحركة فى المغرب ــ كما واجهت فى المشرق أيضا عندما حمل لواءها جمـــال الدين والشيخ عبده ــ حربا من الرجعيين ، كما أحست الحماية الفرنسية أنها موجهة للقضاء على نفوذها ، وقد أثرت هذه المرحلة فى تطوير العقلية المغربية وامتزجت الدعوة الســـلفية بالدعوة الوطنية ، وكان لها من جراء هــــذا الامتزاج من النجاح ما لم يصل اليه جمال الدين ومحمد عبـــده .

وفى المغرب ــ كما يورد ذلك علال الفاسى فى كتابه « الحركات الاستقلالية » حملت السلفية لواء الدعوة الى (١) الاصلاح الشامل ومقاومة الجمود فى كل فروع الحياة (٢) تطهير الدين من الخرافات والعودة الى روح الســـنة المطهرة (٣) أحيـــاء الشخصية الاســـلامية على أساس المبـــادىء التى جاء بها الأســـلام ، كما تناولت المجهود الفردى لصـــالح المجتمع ، وفتح الذهن البشرى لتقبول ما يلقى اليه من جديد وقياسه بمقياس المصلحة العـــامة لارجاع المجد العظيم الذى كان للســـلف الصالح . ومن أهم اثارها : الاعـــداد الفردى لتقـــوية التضــــامن بين الجمـــــاعة الاســـلامية على أساس الاخاء الأســـلامى والانسانية ، والعمل على ان تتوافق أساليب الثقافة فى وسط المســـلمين وجعل اللغة العربية صالحة لأن تكون لسان العالم الاسلامى .

وفى الهند : اتخذت « ندوة الاسلام » نفس الطريق واتجهت الى انشاء مدرسة كبرى للعلوم فى مدينة (لكنو) أمها المسلمون من كل مكان وكان عملها أساسا هو « نشر المعارف واعادة مجد اللغة العربية فى بلاد الهند ، ومحو البدع التى تجرى عليها العامة باسم الدين . وكان السيد احمد خان مؤسس كلية عليكرة وسيد أمير على ، وشبلى النعمانى ومحمد اقبال فى مقدمة هؤلاء الدعاة الذين آمنوا بأن التربية والتعليم والثقافة هى الوسائل الأساســـية لازالة كل داء اعترى الأمة وحجزها عن ســـبيل الرقى ، وعندهم أن أمر التربية أعظم خطرا من التعليم . وقد لقى هؤلاء الدعاة من رجال الدين التقليديين عنتا شديدا .

وهكذا برزت موجة « الحركة السلفية » فى المشرق والمغرب والهند وكانت ذا أثر واضـــح فى تنقية مفـــاهيم الاســـلام ودفعه الى الأمام لمواجهة الحضـــارة والتطور والكشف عن جوهر الثقافة العربية الاسلامية الأصـــيلة القادرة على الحياة فى كل جيل وفى كل بيئة .

أما « الحـــركة الصوفية » فقـــد كانت ذات أثر بعيد فى نشر الاســـلام فمنذ عام ١٧٥٠م تقريبـــا بدأت النهضة الجديدة للاسلام على أيدى مشايخ الطرق ، وكان التصوف يعنى تطهير النفس من الماديات والارتفاع فوق المطامع الخاصة وبذل الروح فى سبيل الفكرة والتســـامى عن الأهواء . وقد كانت هذه النهضة مقابلة للغزو الذى قامت به حركة التبشير فى افريقيا والعالم الاسلامى كله ، كان للقـــادرية والشاذلية والتيجانية أثر كبير فى شـــمال أفريقيا . ثم كانت للحركة المهدية فى الســـودان ١٨٨١ حين تمكن « محمد احمد » من حشد خمسين الف مقاتل من المؤمنـــين المتحمسين لهـــزيمة النفـــوذ الممثـــل فى فى الجيش المصرى ــ اذ ذاك ــ والاستيلاء على قاعدة كردفان وبربر مفتاح بلاد النوبة ومحاصرة الخرطوم التى استولى عليهـــا ١٨٨٥ . وقد امتدت الحركة بعد وفاة المهدى (١٨٨٥) حتى أغسطس ١٨٩٩ عنـــدما تغلبت القوات التى يقودها كتشنر وقضت على حكم الدراويش .

وكانت « الحركة السنوسية » أشـــد قـــوة وأكثر ســـماحة واتصالا بتعـــاليم الاسلام بقيـــادة محمد على السنوسى ١٨٥٦ ، ولما كان السيد الســـنوسى جزائريا أصلا وقد عاش تجربة احتلال الفرنســـيين للجزائر فقد

انصبت دعوته على مقاومة التوسع الغربى فى شمال افريقيا أيا كان نوعه . ولذلك جعل قاعدة الجهاد وجمع كلمة المسلمين على مقاومة العدو الغاصب أساسا لعمله .. ولم تكن طريقته صوفية محضة ، بل كانت مفاهيمه قريبة من السلفية ، وفى برقة بنى الزاوية البيضاء ، وكثر أتباعه فى واحة الفرافرة وفى طرابلس وفى توات وفى السودان . وتعددت الزوايا فى الصحراء وانبثت واتسع نطاق الحركة التى امتدت الى الشرق وجنوب افريقيا ، ومن جغبوب جعل مركز القيادة حيث أصبحت أعظم مدرسة لدعاة الاسلام فى أواسط أفريقيا ومنها امتدوا حتى بلغوا النيجر الأدنى ، وكان لهم أبعد الأثر فى هداية عشرات القبائل الى الاسلام مما جعل بحيرة « تشاد » مركزا عاما للاسلام فى أواسط افريقيا ، وبلغ عدد دعاتهم أكثر من أربعة ملايين ، حيث كانوا يسرحون كل من يتوسمون فيه الخير الى جغبوب ليستطيع بعد دراسات مستفيضة للاسلام أن ينضم الى مئات المبشرين المنبثين فى كل مكان من نواحى افريقيا حتى سواحل الصومال شرقا وسواحل السنغال غربا . وقد استطاعت هذه الحركة أن تضم الى الاسلام أكثر من ٥٠ مليونا .

ويؤكد الباحثون المنصفون أن مريدى الطرق هم الذين سعوا فى نشر الاسلام ووفقوا اليه فى افريقية تارة بهيئة تجار وطورا بهيئة دعاة . وقد أسسوا سلطنات رابح وأحمد وساموري . وقد واجهت « السنوسية » كبرى الحركات الصوفية النقية خصومة عنيفة من الاستعمار الفرنسى الذى خصص مبالغ طائلة لمقاومة سلطانها .

وجعلت السنوسية أساس عملها : الاجتهاد فى فهم الدين ، وفهم الأحكام من الكتاب والسنة ، وتشييد الحصون فى الصحراء ، وصنع البارود وادخار الأسلحة المجلوبة من أوربا . وكان هذا العمل الذى يمزج بين الثقافة الاسلامية واعداد أدوات الحرب وانشاء أول مصنع أسلحة فى العالم العربى الاسلامى فى العصر الحديث للقتال عملا مجيدا . وكان ايمان السنوسية يقوم على أساس أن الدفاع عن الوطن جزء من الدفاع عن الدين . وقد كان محمد على السنوسى غاية فى الذكاء والنبوغ ، فقد اجتهد فى الدين ولم يتقيد بمذهب من المذاهب وعمل وفق أسلوب يناسب الصحراء وجمع بين الدين والسياسة بالاضافة الى دراسة أصول حركة احياء الأرض وغرس الأشجار واقتناء السلاح والاستعداد للمدافعة والمقارعة عند الحاجة . وقد أخذ من السلفية والصوفية معا ومزج بينهما ولم يستطع أحد أن يتهم هذه الحركة بأنها والت المستعمر ، فقد ناهضته دوما وكان دورها فى العمل بعد ذلك شاقا عندما هاجمت ايطاليا سواحل طرابلس عام ١٩١١ وهب السنوسيون للقتال العنيف وادالوا من الغزاة وهزموهم فى عشرات المواقع .

واذا كان هذا هو الدور الضخم الذى قامت به الحركات الصوفية فى نشر الاسلام فان بعضا من « رؤساء » هذه الطرق قد انحرفبها تحت ضغط الاغراء لموالاة الاستعمار . وقد كان ذلك فى مصر والمغرب وتركيا . وقد كانت الدعوة السلفية عنصر مقاومة لهذه الانحرافات ، واذا وجه الاتهام الى بعض رؤساء الطرق فان ذلك لا يشمل الحركة الصوفية النقية وانما ينصب على الانحراف الذى أدخله بعض هؤلاء بالمغالاة فى الخوارق والكرامات من ناحية والتسليم للاستعمار باسم اطاعة ولى الأمر من ناحية أخرى . أما الصوفية الحقة الخالصة فقد كانت تتعالى فوق المطامع والأهواء ، وحربا على الحكام الظالمين ومقاومة للاستعمار والاستبداد معا والدعوة للاسلام ونشره فى كل مكان .

هكذا كانت السلفية عملا ايجابيا للتحرر من القيود التى وضعت فى عصور الاضطراب والظلام وعودا بالاسلام الى منابعه الأولى وفتح باب الاجتهاد ومن هنا كانت كلتا الحركتين أساسا هاما للعمل الايجابى ، احداهما على مستوى الاتساع والأخرى على مستوى العمق . وكما كان بعض الصوفية حلفاء للاستعمار فقد كان بعض العلماء حلفاء للاستعمار والاستبداد وكان أخطر ما دعوا اليه هو اغلاق باب الاجتهاد .

* * *

(٧)
الاجتهـاد والتقليد

منذ بدأت (اليقظـــة) فى مجال « الفـكر العربى الاسلامى » المعاصر كان ابرز معالمها : تحرير الفـــكر من قيد « التقليد » وفتح باب الاجتهاد وكان التفسير العملى لهذا الاتجاه هو ابراز صلاحية « الاســـلام » وايجابيته للتطور الزمنى والالتقاء بالحضــــارات والكشف عن قدرة (الاسلام) للبقاء والحياة والملاءمة مع كل زمان وفى كل مكان .

فقد كانت القضـــية الكبرى التى حاول التفـــكير الغربى اثارتها وترديدها ، وحملها اتباعه وتلامذته ، هو أن الاسلام غير قادر على مســـايرة التطور ومتخلف عن التجاوب مع الحضارة والنهضـــة ، ولعل مصدر هـــذه الدعوى هو أن (الصورة) التى يحيا عليهـــا المسلمون خلال القرن الثامن عشر والتاســـع عشر الميلادى كانت بعيدة كل البعد عن الاســـلام ولذلك لم تكن هى الاسلام نفسه وبذلك كان الحكم عليها بالعجز عن مواجهة التطور أو الالتقـــاء بالحضارة ، انما هو من باب القصـــور عن التفريق بين الصورة الواقعة وبين التعاليم والقيم ، أى بين المســـلمين والاسلام نفســـه . والحق أن الأساس الحقيقى لعجـــز المسلمين عـــن تطبيق روح الاسلام فى الحياة هو توقف العلماء عن الاجتهاد ، وتجميد المعاملات والأنظمة والأحـــكام والأخذ بالتقليد ، والدعوى بأن باب الاجتهاد قد قفل بعد ظهور المذاهب الأربعة . وكان هذا التوقف معنـــاه جمود الاسلام على صـــورة معينة وعدم القـــدرة على القـــابلية لمواجهة التطور وايجـــاد حلول المشكلات التى تعترضطريقها بحيث يمكن الملاءمة الدائمة بينه وبين المجتمع .

ويرجع السر فى هذا التوقف بغلق باب الاجتهاد الى دخول العـــالم الاسلامى فى مرحلة الضـــعف التى زادته الحيـــاة السياسية فى القرون الأربعـــة من حكم الأتراك العثمانيين تعثرا ، وذلك حينما هوى العالم الاســـلامى فى الظلام الدامس ، وتوقف عن التطور والحياة ، والأخذ بأسباب القوة العســـكرية ، حين توالت عليه حكومات مســـتبدة ، وقف العلماء التقليديون الى جانبها ووالوها وايدوا الأمراء والسلاطين وبذلك تجمعت صورة المجتمع الاسلامى .

ويرى رشيد رضا أن العلماء الذين افتوا بغلق باب الاجتهاد كانوا من المقلدين الذين ضعفت ثقتهم بأنفسهم ، وساء ظنهم بالناس وغلوا فى تعظيم السابقين وادعوا أن العقل دائما فى انحطاط ، وعنده أن ضياع المعتزلة (وهى الفرقة العقلية فى الاسلام) وانتصار أهل الحديث عليهم، بالاضافة الى مهاجمة أهل التصوف للفقهـــاء ، وسقوط بغـــداد وكانت مركز الحضارة والثقافة الاسلامية ، كل هذا غلب التشاؤم ورد الفقهاء الى القديم بغية المحافظة عليه .

وكان اقفال باب الاجتهاد يعنى بأنه لم يبق فى الناس من تتوفر فيه شروط المجتهـــد ولا يرجى أن يكون ذلك فى المستقبل . وقد سار « التقليد » خطوات واســـعة بعد وضع كتب المذاهب ، فترك المقلدون أصـــول الشريعة ، وذهبـــوا مع التقليد البحت وانزلوا كلام الأئمـــة منزلة الشريعة ، ودعوا الى العمل بأقوالهم دون معـــرفة دليله من اصول الشريعة . وقد حرموا الاجتهاد ولو فى المسائل التى تدعو اليها الضرورة ، وكان نتيجـــة ذلك أن لجأت الحكومات الاسلامية الى العمل بالقوانين الغربية . كما عملوا فى نفس الوقت على التوسع فى المســـائل الفرعية وبحث المستحيلات والفروض .

ولما كان السلاطين والأمـــراء المستبدون يخشون حرية العلم ، هذه الحرية التى لا تتحقق الا بالاجتهاد فقد شجعوا هذا التجميد . وقد حرصت الحكومة العثمانية على مقاومة كل اتجاه . ففى عام ١٩٠٤ علمت أن بعض علماء الشام يحملون تلاميذهم على ترك التقليد ، والعمل بالدليل ، فقاومتهم . وكانت مجلة المنار وهى تحمل آراء

الشـــيخ محمد عبده منذ ١٨٩٨ ممنوعة فى مختلف البلاد التابعة للدولة العثمانية .

ومن نتائج التقليد وترك الاجتهاد (١) اهمال العقل وقطع طريق العلم والحرمان من استقلال الفـكر (٢) ظهور حصيلة ضخمة من الخرافات والبدع التى ليست من جوهر الاسلام وقد قامت حركة يقظة الفكر الاسلامى على فتح باب الاجتهاد والدعوة الى (الاصلاح) وتجديد الدين يكشـف قدراته على مواجهة الحيـاة فى ظل التطـور والحضارة وحل مشاكلها .

وقد كشف « جمال الدين الافغانى » عن هذا الرأى فى مقاله الشهير « الأمور التى تتم بها سعادة الأمم » حين دعا الى أن تكونعقائد الأمة — وهى أول رقم ينقش على ألواح نفوسـها — مبنية على البراهين القويمة والأدلة الصـحيحة ، وأن تتحـامى عقولهم مطالعة الظنون فى عقائدها وتترفع عن الاكتفـاء بتقليد الآباء فيهـا ، فان معتقـدا لاحت العقيدة فى مخيلتــه بلا دليل ولا حجة قد لا يكون موقنا فلا يكون مؤمنا ، هذا والآخذ على عقـائده بالظن ينصب عقله على متابعة الظنون ، والقانع أن آباءه كانوا مثل عقيـدته فأولى به أن يكون عليها يلتقى مع سابقيه فى مصاب الوهم وفجاج الظن ، أولئك المتبعون للظن القائمون بالتقليد ، تقف بهم عقولهم عندما تعددت اداركه فلا يذهبون مذاهب الفكر ويسلكون طرائق النظر ، واذا استمر بهم ذلك تغشتهم الغباوة بالتدريج ثم تكاثفت عليهم البلادة حتى تعطل عقولهم عن اداء وظائفها العقلية بالمرة فيدركها العجز .

وتابع الشـــيخ محمد عبده الدعــوة الى فتح باب الاجتهاد وتجميد التقليد بخطوة أوسع مدى ، فدعا الى تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الاختلاف . والرجوع فى كسب معـارفه الى ينابيعهـا الأولى ، واعتباره ضمن موازين العقــل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه وتقلل من خلطه وخبطه ، وانه على هذا الوجه يعد صديقا باعثـا على البحث فى اسرار الكون داعيا الى احترام الحقائق الثابتة مطالبا بالتعويل عليها فى أدب النفس واصلاح العمل » وكشف الشيخ محمد عبده عن الفرق بين حقيقة الاسلام وبين تطبيقه وما دخل اليه من زيوف وقشور ليست منه .

فقال : أنه عند النظر فى أى دين للحكم له أو عليه فى قضــية من القضايا يجب أن يأخــذ — أى الدين — ممحصا مما عرض عليه من بعض أهله ، أو محـدثاتهم التى ربما تكون جاءتهم من دين آخر ، فاذا أريد أن يحتج بقول أو عمل لاتباع هذا الدين فى بيان أصوله فليؤخذ فى ذلك بقول أو عمل أقرب الناس الى منشأ الدين أو على أصوله التى ورد بها من صاحب الدين نفســـه . ويرى الشيخ محمد عبده أن احكام الشريعة ليست شيئا جامدا لا يتحول بتحول الزمن والمصــلحة بل هى مطاوعة ذلك دائرة فى منفعة الناس وجودا وعدما . وأنه — أى الدين — يبيح لنا أن نسير الشريعة وفق مصالحنا ، فتمنع المباح — بحكم الحاكم — اذا وجدنا فى اباحته ضررا .

وقال أن ابرز سمة للاســلام هو مطاوعة احكامه ومسـايرتها لكل زمان ومكان . وذلك لتطـور الأحوال ودورانها على مصالح الناس وأنه لا يقتصر ذلك على زمن معين يقفل بعده باب الاجتهاد بل يستمر الى نهاية الدهر . ويقول « أمير على » : أن لكل عصر ما يلائمه من الطباع والعوائد وما يصلح لزمن من الأزمان قد لا يصلح لغيره . ولا ينبغى أن تحكم على الماضى بمقياس ما نراه فى الحاضر وأن الأحكام تعدل وتطبق على حسب المقتضـيات التى تدعـو اليها مصالح الناس وتقــدم الزمن . ويرى فريد وجـدى أن للاسلام أصولا كلية ثابتة لا تتغير بتغـير الأحوال ، وأن هناك أشكالا شرعية وضعت للجزئيات ، وقصد بها التوفيق بين مصالح الناس وحسم النزاع الذى يقوم بينهم من أجلهـا . ولما كانت هــذه المصالح تتغير وتتنوع على حسب الحاجات ، ووجوه النزاع تتباين الى غير حد يقف عنده ، بل ولمـا كانت وسائل التوفيق بين مصالح النــاس ووجوه حسم منازعتهم من الأمور التى تترقى الى ما لا نهاية ، لذلك لا يمكن أن توجد رســوم قانونية مقررة دائمة .

وقال : أن ظاهرة الاجتهاد فى الاسلام انما تهدف الى ايجاد رسوم قانونية تحقق — أصول الاســلام على حسب الحاجات بما تضعه من روح المكان والزمان . وذلك عامل من عوامل ترقية الأمم الاسلامية وانهاضها . وقال : أننا اذا أردنا أن يعود الى شريعتنا شـبابها وأن تكون كما كانت ، دسـتور الأمم الاسلامية فى معـاملتها الدنوية وجب علينا أن نعترف بدوام انفتاح باب الاجتهاد .. وقد كشـفت فتاوى الشيخ محمد عبـده عن قدرة الاســلام على حل مشــاكل العصر ومواجهة التطــور الحضارى دون تخلف وملاءمة الاسلام لكل العصور وكل درجات الثقافة ، ومن ذلك حكمة بجواز التزيى بزى غير المسلمين أو أكل ذبائحهم .

وقد وصف العلماء والباحثون « الاجتهــاد » بأنه

القدرة على استنباط أحكام تســد الحاجات الاجتماعية المتجددة . على أساس أن الاسلام انما جاء بأصول كلية صالحة لأن يستنبط منها ما يلائم كل عصر ومكان ، وهى فى اصــطلاح الأصولين ما يطلق عليه اســتفراغ الفقية الواسع فى تحصيل ظن بحكم شرعى .

والمجتهد شرطان (١) معرفة الله تعــالى وصفاته وتصــديقه النبى بمعجزاته وسائر ما يتوقف عليه عــلم الايمان . كل ذلك بأدلة اجتماعية . (٢) أن يكون عالما بمدارك الاحكام واقسامها وطرق اثبــاتها ووجوه دلالتها وتفاصــيل شرائطها ومراتبهــا وجهات ترجيحهــا عند تعارضــها والتقصى عن الاعتراضات الواردة عليهــا ، فيحتــاج الى معرفة حال الرواة وطرق الجرح والتعديل واقسام النصوص المتعلقة بالأحكام وأنواع العلوم الأدبية من اللغة والصرف والنحو ، وأن يكون صاحب قريحــة يعرف بها عادات الناس لأن من الأحكام ما يبنى عليها .

وجمــلة القول ان اليقظة الاســلامية الحديثة قد كشفت عن هذا الجانب الايجابى للاســلام وبذلك ردت على الادعاءات التى حملها متعصبو الفكر الغربى وتابعهم عليها الباحثون العرب والمسلمون ، وأوضحت الحقائق الآتية :

ان الاسلام دين متطور يطبعه قابل للملاءمة بينــه وبين الحيــاة والحضــارات وأنه لا يجمد عنــد ظاهر النصوص . قابل لمطالب المدنية الحديثة . باب الاجتهاد فيه مفتوح . متجدد دائما وقادر على الأخــذ من محاسن كل حضارة . غير معزول عن تيارات التطور والحياة . ليس به انفصال فى التفكير بين الدين والدنيا أو بين الدين والعلم والقدرة على الصلة بين الدين والعقل واضحة فيه بالاضافة الى واقعية الشريعة الاسلامية فى تناولها شئون الحياة اليومية ، وعدم اقتصارها على مســائل العقائد والأخلاق . لم يكن الاسلام عاملا من عوامل الضــعف والقصور أو عدوا للرقى يوما . الضــعف الذى أصاب الأمة الاسلامية فليس مصــدره الاسلام وانمــا مصدره الجمود واقفال باب الاجتهاد وغلبة البدع وخطأ فهم عقيدة القضاء والقدر وقيــام السلبية والفردية ، والتخلف عن الزمن .

ولقد أثار الفكر الغربى فى مواجهة الفكر الاسلامى كثيرا من الشكوك والقضايا محاولا بها اثارة الشــبهات حول الاسلام ، نرجو أن تكون موضع هذه الدراسة .

* * *

(٨)
الإسلام بين المقاومة والتمدد

بدأت اليقظة الفكرية فى العالم الاسلامى قبيل منتصف القرن الثامن عشر سنة ١٧٥٠ على وجه التحقيق وترتبط مظاهر هذه اليقظة بالدعوات التى ظهرت فى مصر والجزيرة العربية الى العودة بالاسلام الى منابعه الأولى وتحريره فى الزيوف التى دخلت عليه خلال الفترة التى مر بها . وقد كان ذلك سابقا للاحتكاك الغربى بالعالم الاسلامى ممثلا فى الحملة الفرنسية (١٨٩٨) التى جاءت بعد ذلك بأكثر من ثمان وأربعين عاما (حوالى نصف القرن) وقد كشف هذا الاحتكاك بين الغرب المسيحى والشرق الاسلامى عن خطة جرى تنفيذها فى الغزو والسيطرة حققت استيلاء فرنسا على الجزائر عام ١٨٣٠ وهو العام الذى يرتبط فى نظر المفكرين بانبعاث الدعوة التبشيرية الى المسيحية فى العالم الاسلامى وهناك اجماع على ان التبشير بدأ عمله عام ١٨٣٠ بعد أن أقره البابوات ورسموا خطته ، ووضعت الدول الأوربية الاعتمادات المخصصة له .

وقد بدأ فى اكثر من صورة ، كان ابرزها وصول المرسلين الأمريكيين والفرنسيين والانجليكيين الى بيروت فى الأربعينات من القرن التاسع عشر فى الى القاهرة فى الخمسينات من نفس القرن . ثم ظهور المرسلين فى البحرين والهند وشمال أفريقيا وانبعاثهم جنوبا وشرقا وغربا . وكانت هذه بداية (الحملة على الاسلام) كفكرة ودين ونظام اجتماعى وسياسى للقضاء عليه بمختلف الوسائل :

(١) القوة العسكرية : حيث توسع الاحتلال وامتد الى الساحل العربى والمحميات وتوغل فى الهند ثم احتلال مصر وتونس والسودان .

(٢) العمل التربوى والفكرى بالسيطرة على وسائل التعليم والصحافة ومحاولة خلق جيل جديد يتبع فى مفاهيمه وافكاره الفلسفات الغربية القائمة على أساس التشكيك فى القيم العربية والاسلامية والتاريخ واللغة وخلق روح من التعاطف والالتقاء مع الغرب صاحب الحضارة والمدن للشرق الخامل (!) وطبع الشباب على تمجيد العرب واكباره واحتقار العرب والاسلام واللغة العربية والتاريخ الاسلامى .

(٣) العمل التبشيرى القائم على غزو الجماعات عن طريق الكنائس والمستشفيات والمدارس وتقديم الخدمات والاغراء واتخاذ أساليب العنف فى التنصير والخطف واقتحام الأزهر مثلا . وبذلك وضع العالم الاسلامى كله تحت سيطرة مخطط عنيف يقوده جيش مدرب من المثقفين الغربيين تسندهم القوى الاستعمارية والنفوذ والاعتمادات المالية الضخمة التى تمكنهم من الحياة فى الصحراء سنوات طويلة ، ويسندهم هدف واضح هو تركيز نفوذهم فى العالم الاسلامى ابدا .

ومن هنا انبعثت التحديات الكبرى فظهرت معركة المقاومة ورد الفعل التى استغرقت جهود المفكرين المسلمين وحياتهم . وقد واجه هذه المعركة رعيل من علماء المسلمين ومفكريهم وزعمائهم بعد سنوات قليلة من بدء المعركة وفى مقدمتهم جمال الدين الأفغانى (مصر) ومدحت (تركيا) وأحمد خان (الهند) وخير الدين التونسى (تونس) فكان هؤلاء هم طلائع المعركة ، ثم ظهر من بعدهم صف ثان من تلاميذهم ربما كان أعمق فكرا وأعظم أثرا من أمثال محمد عبده (وقد تأثر به الغرب العربى كما تأثر به مسلمو أندونيسيا) والكواكبى والسنوسى وشهاب الدين الألوسى وشبلى النعمانى (الهند) ورشيد رضا ثم توالى ظهور باحثين مجددين من أمثال فريد وجدى وشكيب أرسلان وتوفيق البكرى ورفيق العظم . وطاهر الجزائرى . وطنطاوى جوهرى . وعبد العزيز شاويش وعبد العزيز الثعالبى . وعبد الحميد ابن باديس وعلال الفاسى ومحمود أبو العيون ومصطفى الغلايينى ومحب الدين الخطيب والبشير الابراهيمى ومصطفى المراغى .

وعندما يراجع العمل الكبير الذى قام به هؤلاء

الباحثون فى سبيل مقاومة (الغارة على الاسلام) ورد الحملة التغريبية التى قام بها الغرب ضده فى مجــــال السياسة والفكر والدين نجد محصولا ضخما من البحث الذى هدى ووجه هذه الأجيال المتعاقبة وقدم لها الاجابات الواضحة عن الاستفســـارات المتوالية . وكشـــف عن جوهر الاسلام فى مواجهة الحضارة وقدرته على الملائمة بين الدين والحياة . وحل المعضلات المختلفة .

* * *

ويكشف هذا التراث ــ الذى نرجو أن يتاح لنـــا استعراضه وتقديمه ــ عن خطين واضحين .

(١) الخط الأول : هو الرد على كل ما وجه الى الاسلام من اتهـــامات وما كتبه المتصدرون من مفـــكرى الغرب بدافع التعصـــب أو الجهل أو عـــدم الفهم للقيم الاسلامية أو التاريخ العربى الاسلامى او اللغة العربية.

(٢) الخط الثـــانى : الكشف عن جوهر الاســــلام وحقيقته مع تصـــفيته من الزيوف والأوهام والبدع التى لصقت به فى سنوات الضعف والاضطراب . وقد سار هذان الخطان متجاورين بل ممتزجين تقريبا فى أعمـــال فكرية ضخمة تتمثل فى ٣٤ مجلدا فى المنار (رشيد رضا) و ٣٠ مجلدا من الفتح (محب الدين الخطيب) وعشرات من مجلات اســـلامية أخرى ظهرت فى العـــالم العربى والاسلامى كالأزهر والعـــرفان والشهاب والبصـــــائر والتمدن الاسلامى ومئات من الكتب المختلفة التى تناولت بالبحث تفاصيل هـــذه القضايا وعرضها عرضا ســـهلا مبسطا . وتتسم هذه الأبحاث بأنهـــا تحررت من الطابع التقليدى فى الكتابة ذات السجع والزخرف .

وقد بدأت هذه المعركة ــ على حد ما وصل الى علمنا ــ بكتاب جمال الدين الأفغانى (الرد على الدهريين) للرد على أولى الحملات على الاسلام فى الهند وذلك قبل أن يتخذ من مصر مقرا لدعوته ســـنة ١٨٧١ ، ثم توالت الحملات وقد كان ابرزها حملة دوق داركور التى تصدى لها قاسم أمين (١٨٩٢) ثم حملة هانوتو التى واجهها بالرد الشيخ محمد عبده فى أواخر القرن التاســـع عشر تقريبا وغير ذلك حملات لافيجرى وكرومر وقد تنوعت هذه الحمـــلات فاتجهت الى العقـــائد والقيم ونظم المجتمـــع والتراث العربى الاسلامى وحاولت فرض نظريات مختلفة كالنظرية اليونانية وتتبيع الثقافة والفلسفة الاسلامية لليونان ، أو انكار فضل العرب على الحضارة أو نظريات الجنس وتفضيل الآرية على السامية أو اتهـــام العرب والملونين بالنقص والتخلف وابرز الدعاة لهذه النظرية جوبنيـــو الفرنسى ، وكان هدف الغرب من وراء هـــذه الدعوات تحطيم القوة المعنوية للعرب والمسلمين وللعقيدة واللغة بالذات باعتبـــارهما المقدمات الحقيقية للنهوض . والعاملين الكبيرين اللذين لا يمكن السيطرة والتسلط دون القضاء عليهما ثم ظهرت حملات (التجزئة) والشعوبية فى الدعوة الى الفرعونيـــة فى مصر والفينيقية فى لبنـــان والآشـــورية فى العراق والبربرية فى المغرب ثم التجزئة بالدين والتجزئة بالقوميات الضـــيقة والتجزئة بالأحزاب والقبليات والمذاهب ثم الدعوة الى حضارة البحر الأبيض المتوسط وقد قاوم الفكر العربى الاسلامى المعاصر هذه الدعوات وبذل من اجل ذلك جهدا ضخما وفى نفس الوقت الذى كان الفكر الاسلامى فيه يعمل من أجل المقـــاومة . كان (الاسلام) ينطلق ويتعدد فى هـــذا الكوكب ليزداد نفوذه ويكثر أتباعه فى مناطق مختلفة أغلبهـــا فى أفريقيا وشمال شرق آسيا ومن العجيب أن يحدث هذا ويتسع نطاقه فى ظل هذه المرحلة الحرجة من تاريخه وفى خلال نفس الفترة التى تمدد فيها الغزو الاستعمارى الغربى .

وبمراجعة يسيرة لتعداد المسلمين بين أوائل القرن الثامن عشر وبين النصف الأول من القرن العشرين نجد أن هناك زيادة ضخمة فى العدد . مع انفساح فى الرقعة ووصول الاسلام الى مناطق جديدة . ولم يحدث هـــذا النمو والتمدد الضخـــم عن طريق قوة حاكمة أو ســـلطة سياسية بقدر ما تحقق عن طريق التاجر المسلم والطرق الصوفية ، وقد تحقق فى ظروف دقيقة ، فان الحملات التبشيرية التى صدرت للعمل فى العـــالم الاسلامى كانت تعمل فى هذه الفترة ولا تزال ، بامكانيات ضخمة ومواد هائلة ، ونفوذ ممتد من سلطان الحكومات المســـتعمرة والمحتلة ، بينما لم يجد الاسلام مثل هذه القوى المساعدة وان وجد القوى التى تهاجمه وتحصره ، وقد أزعجت هذه الظاهرة المراقبين المتتبعين لمعركة نقل عشرات الملايين من الوثنيين فى أفريقيا وجنوب شرق آسيا الى المسيحية أو الاسلام ، كيف استطاع الاسلام وهو مجرد من كل القوى والامكانيات أن يسبق فى هذا المجال ســـبقا واضحا وان يحقق انتصارات ضخمة .

ويرجع هذا فى الأغلب الى بساطة الاسلام وسلامة جوهره ، الى القدرة ذات النموذج الواضـــح المتمثل فى صورة التاجر المسلم البسيط السمح ، الصـــادق فى المعاملة والى اقتراب الاســـلام من الفطرة الانســـانية وسهولة تقبلها له . وفى الوقت الذى يواجه الاســـلام

فيه معركتين معا : معركته مع الوثنية والديانات الأصلية كالبوذية والهندوكية بالاضافة الى معركته مع التبشير الغربى ، فانه يحقق انتصارات جديدة بكسب عدد كبير من الوثنيين الى حظيرته . وقد سجل هذه الظاهرة عدد كبير من الباحثين أمثال توماس أرنولد فى كتابه الدعوة الى الاسلام و ك . ك برج فى كتاب (وجهة الاسلام) وهو بيرديشان فى كتابه (الدعوة الى الاسلام) وجان بول رو فى كتابه (الاسلام فى الغرب) وهذه عبارته (اذا نظرنا الى التقدم الاسلامى المسيحى ليس من ناحية الارقام المجردة بل من ناحية النسب المئوية نرى انفسنا ملزمين بأن الاسلام يسجل انتصارات مذهلة) .

وهكذا مضى الفكر العربى الاسلامى منذ فجر النهضة فى خطين متلازمين : هما (١) المقاومة للغارة الفكرية والسياسية التى يشنها الغرب عليه بالأكاذيب والاتهامات و (٢) التمدد والانبساط والتوسع فى أفريقيا وجنوب شرق اسيا .

وهو فى معركته الأولى قد حقق انتصارات متعددة وحول كثيرا من المفكرين الغربيين أنفسهم الى صفة ، فاعترفوا له بقوته الذاتية وأثره الايجابى . كما حول الكثير من دعاة التغريب الذين بداوا حياتهم يعملون فى صف خصومه . واستطاع الاسلام فى نفس الوقت تنقية ملامحه من الزيوف التى ألمت به فترة الضعف . وأن يعود الى المنابع الأولى فيتصل بها ويحقق بذلك عملا تجديديا صالحا يواجه به تطور الحضارة ويكشف عن أصالته وقدرته على الحياة مع كل تطور وعصر ومكان .

وهو فى معركته الثانية يحقق انتصارات توسعية بفضل بساطته ونقاء جوهره فينفذ الى قلوب الملايين ويحررهم من الوثنية ، ذلك بالرغم من مقاومة والقوى التبشيرية ونفوذ الحكومات الاستعمارية .

ولا شك أننا نستطيع أن نفصل جوانب هذه الصورة التى عرضناها سريعة موجزة حين نتحدث من بعد عن حركة المقاومة بالتفصيل كاشفين جوانب هذا العمل الضخم فى سبيل حماية الاسلام ودعوته وتاريخه ولغته من المؤامرة التغريبية الكبرى التى وجهت اليه .

* * *

(٩)
تحديات فى وجه الفكر العربى الإسلامى

عندما واجه الغرب « العـــالم الاسلامى » بحملته الاستعمارية للسيطرة عليه كان يحمل فى أعماقه ومفاهيمه عدة عوامل شكلت خطته فى هذه الحملة : (١) ان القرآن هو مصدر القوة الاســـلامية وانه لا أمل فى اســـتعباد المسلمين ما دام هذا الكتـــاب باقيا فى الأرض . (٢) أن الاسلام دين العزة والقوة والجهاد فلن يستسلم المسلمون ما داموا على هذا الفهم له . (٣) أن اللغة العربية هى رابطة الأمة العربية وقوام الاسلام ومفتاحه فى العـــالم الاسلامى .

وكان الغرب فى طريقه الى الغزو العسكرى يحمل فى أعماقه هذه المفاهيم : (١) تعصبا كاملا ضـــد الشرق والاسلام والعرب رضع لبانه مع مفاهيمه الأولى وتطلعاته الى الحياة . (٢) ايمانا بسيادة الرجل الأبيض على الرجل الملون . (٣) الايمان بالحضارة الأوربية والمادية وتنحية الدين عن مجال الاقتصاد والســـياسة والحكم والفـــكر باعتباره عاملا معوقا . (٤) الايمان بمذهب الغاية تبرر الواسطة . واستخدام الوسائل ، كل الوسائل فى سبيل الوصول الى الهـــدف .

ولذلك اتخذ الغرب خطة استطلاعية شاملة تمهد الطريق أمامه الى الغزو الاستعمارى مجالها الفـــكر ، وعدتها الصحافة والكتاب والمدرسة والبعثة بالاضـــافة الى السينما ومجالات اللهو والمراقص .

ومن هنـــا دخلت الى العـــالم الاســـلامى : (١) الإرساليات الأجنبية بمدارسها ومستشفياتها وأقطارها ومفـــاهيمها . (٢) حانات للخمـــر فى كل قـــرية يديرها (خواجة) يقـــوم هو نفســـه باقراض الأهالى بالربا . (٣) مجالات اللهو فى العواصم ترتبط بكل معـــانى الترف والانفاق المـــادى (٤) صحف (قوية ذائعة) تخضـــع خضوعا تاما للنفوذ الاستعمارى وتحمل لواء الدفاع عن آرائه الرأى العام الى المفاهيم التى يفرضها . (٥) جيل جديد من الشباب يبعث الى أوربا ويربى تربية خاصة . ثم بدأت قوى كبيرة تعمل فى مجـــالات مختلفة منهـــا : بالاستشراق . والتبشير ، الالحاد ، التغريب، الشعوبية والاباحة والكشف .

وشملت هـــذه المجالات التعليم والكتابة ، والأدب والعلم والمدرسة والبيت .

وقد اتصـــلت هذه التحـــديات فى مجالهـــا الاكبر (بالدين) عامة وبالاســـلام خاصة ، فبدأ الهجوم على أصول الاســـلام ، وقيمه وآثاره . واتهم بأنه عقبـــة فى سبيل التقدم ، وجرت زحزحته عن مجال الحـــكم ، ثم مجال القضاء ، ثم مجـــال المجتمع ، ثم جرت محاولات لزحزحته عن الحياة العـــامة ، وخلق روح الاستخفاف بقيمه . وتشجع دعوات منحرفة ترتبط به وتحمل اسمه : كالبـــابية والبهائية ، وظهرت دعوات ترى أن أســـاس الأديان واحد فلابد أن يظهر دين واحد بدلا من الاســـلام والمسيحية واليهودية ، وظهرت دعوات لتوحيد الأديان نفسها ، واتصل هذا بمواجهة القرآن والحديث النبوى والتشـــكيك فيهما ، وامتد مجال هذا من الصـــحف الى الجامعات ففرضت مؤلفـــات منحرفة ، وما تزال بعض هذه المؤلفات فى عديد من جامعـــات بلاد الشرق تفرض نفسها الى اليوم . وبدأت حملة ضخمة من التبشير ، كانت أوائل القرن عنيفة قاسية ، تفرض الاخراج من الاســـلام فرضا ، واتسع نطاقها الى حد كبير ، وذهب ضـــحيتها الكثيرون ووقفت الحكومات التابعة للاستعمار منها موقفا غير كريم ، وساند الحملة كتاب من العرب والمســـلمين أعلنوا استـــخفافهم باخراج اثنين أو ثلاثة ، وتطـــور التبشير بعد أن عجز عن هدفه الأول فى صـــورة متعددة من صور التشـــكيك فى الفكر والمقومات ، وأعلن دعاته وأتوامه بأنه اذا لم يصل التبشير الى نقل المسلم من دينه فلا أقل من أن يشككه فى دينه ويعزله عنه فلا يكون شيئا .. وجرت الدعوة الى الدهرية . وبدت أفـــكار متلاطمة تقول أن الأديان قيود وأغلال التزمها الناس بدعوى أنها منزله ، ووقف كاتب كبير فقال أن الدين نبع من الأرض ولم ينزل من السماء وأنه ظاهرة من الظواهر الاجتماعية

لم يهبط به وحى ، وانما خرج من الأرض كمـــا خرجت الجماعة نفسها . ومضت المحـــاولة فى خلق جو للصراع بين العلم والدين ، فقد أنكر العلم فى مرحلة من مراحله ، فلسفات ما وراء الطبيعة فنقلوا لنا هذا . وفى النــاحية الأخرى أبعد الدين عن مجالات التربية والتعليم ايمـــانا بنظـــرية (ديوى) والغى من برامج المـــدارس وجرت الدعوة الى انكار التوحيد بالدعوة الى التعطيل ونســـبة الانسان الى المادة والقضـــاء على بلاغة القرآن بتغليب العامية والأساليب الركيكة وتحطيم عمود الشـــعر . ثم جرت محاولة تمزيق المسلمين الى فرق ، ونحل ، واعادتهم الى النزعات القديمة والمذاهب البـــائدة وتأكيدها بقوة القانون . كما فعل الاستعمار الفرنسى فى المغرب باعلانه (الظهير البربرى) . واتهم الاسلام بأنه دين غير متطور والدليل هو أن المســـيحيين واليهود أكثر تقـــدما ، وكان الاحتجاج فى ضعف العالم الأسلامى بالمسلمين لا بجوهر الاسلام نفسه الذى أنشأ حضارة وأقام أمة وعاش قويا مئات السنين وانبعثت دعوات تقول بأن التشريع الاسلامى مستقى من التشريع الرومانى بينما أكد كل علماء الغرب المنصفين بأنه لم يقم دليل واحد على ذلك واذا كانت هناك علاقة فان الفقه الرومانى هو المقتبس من الفكر الاسلامى ولذلك تفصيل واهتم كتاب الغرب بزوايا مليئة بالشك ومضى المستشرقون يفرضون الفروض ويحاولون الوصول الى أسانيد لها من آيات تبتر عن أصولها ، أو وقائع تحرف ، واهتم المستشرقون بدراسات الصوفية وبالفئات الخارجة الضالة قصدا لاثارة الشكوك . ثم جرى اتهام الاسلام بأنه دين القوة والسيف ، والادعاء بأن المسلمين لايتسنى لهم التقدم والارتقاء ما داموا مقيدين بنصوص القرآن . ثم كان اتهام الاسلام بالتعصب . وكل نظرية من هـــذه النظريات سهلة النقض اذا رجعنا الى التاريخ فتسامح الاسلام وتعصب غيره واضح من دراسة وقائع التاريخ ، واقصاء الدين عن الفـــكر والمجتمع والدولة فى الغرب له سبب واضح ، فقد حال الدين دون النهضة ووقف فى وجه العلماء والمفكرين . أما الاسلام فقد كان حادى النهضـــة دائما وعاملا هاما فى توسيع نطاق العلم ودافعا للحضارة الى مداها ، ولم يكن فى الاســـلام أنظمة كهنوتية كتلك التى حاربها الأوربيون . أما فى مجـــال المرأة فقد جرت محاولة اتهام الاســـلام فى مجال تعدد الزوجات والطلاق وحقـــوق الزوج ، بينما كان الاسلام أســـبق وأعمق فى تحرير المرأة من التشريعات الغربية ، وبعد هـــذا الزمن الطويل ما تزال الحقوق التى أعطاها الاسلام للمرأة لمـــا تصل بعد المرأة الغربية اليها . أما قيود العفة والطهر فتلك عوامل هى لتكريم المرأة ووضـــعها موضع الانسان ذى الكرامة وليس موضع الرقيق والحريم .

وفى مجال اللغة مضت التحديات فى مهاجمة (اللغة العربية) للقضاء عليهـــا واشاعة اللهجات العـــامية . ومحاولة ادخال الفصحى الى المتحف تشبيها لها باللاتينية الميتة ومحاولة تغليب اللهجـــات المحلية على الكتـــابة وتحويلها الى لغات قومية اقليمية . ثم جرى اتهام الفكر العـــربى بأنه فكر تجـــريدى يفيض بالفروض النظرية والمباحث الجدلية ، كما اتهم بأنه فكر غيبى . كما جرى انكار فضل العرب على المدنية ، ومحـــاولة رد التراث العربى الى أصول بعيدة عن العرب كاليونان والفرس ، فلطالما أعلن كتابهم أن تراث الاسلام تراث يونانى فارسى وأن الثقافة الاســـلامية أساسها ثقافة يونانية ، وكانت دائما الكفة الهابطة فى تقديرهم هى كفة العرب والمسلمين فاذا قيل أن المعرى كان سابقا فى كتابه (الغفران) كل ما كتب عن الجنـــة والنار ، جرى التشكيك فى ذلك بأن هناك كتابا فارسيا قديما قراه المعرى أو راهبـــا لقيه ، واذا قيل أن (دانتى) قلد (المعرى) فى رسالته (رحلة الى الجحيم) حاولوا تبرئته من تقليد العرب والمسلمين وقالوا أنه قطعا لم يقرأ (الغفران) والأدلة أكيدة على أنها ترجمت قبل دانتى بأكثر من مائة عام . وفى هـــذا الاتجاه تبرز النظريات التى تريد أن تتحدى ثقافة الاسلام وفكره ، فتجرى المحاولات لجعل الثقافة اليونانية مصدر الثقافات الانسانية ، مع انكار فضـــل المصريين الأولين على اليونان ، وقد أنكر الغربيون وقائع التاريخ فى هذا، وقال المستشرق (جـــودى) فى محاضرات ألقاهـــا فى القاهرة عام ١٩٢٨ (أن سفر أعلام اليونان الى الشرق للاستفادة من علومه قول منتحل ، وأن مصر وسائر بلاد الشرق لم يكن لها فضل على العلوم والآداب والثقافات التى تنسب الى اليونان) . وذلك لا شك آية التعصب. وظلت نظرة المفكرين الغربيين الى الشرق على أنه بلد السحر والنجـــوم والبخـــور والحـــريم ولذلك فان أكثر اهتمامهم كان موجهـــا الى ترجمة ألف ليلة ونظـــريات الحلاج واللباطنية والمجسمة وغيرها . واتهم أصـــحاب الحملة المتصلة المنظمة على الاسلام ، اتهموا العرب بحرق مكتبة الاســـكندرية . وعملوا دائمـــا على تغيير وقائع التـــاريخ ، والتشكيك فى اعداد الجيوش الاســـلامية فى الغزوات ، وجعل الســـبق لفئة دون فئة ، على طريقة التفرقة والتمزيق ومحاولة القضاء على وحدة المسلمين . وكذلك انقاص عدد المسلمين الأحياء فقد ظلوا الى سنوات قريبة لا يريدون أن يعترفوا بعدد المســـلمين الحقيقى فى العالم ، ولا بمساحة الأرض ، وجرى ادعاؤهم بالتفصيل لايقاع الخلاف ، فالبربر هم أصحاب المدنية فى شـــمال أفريقيا ، وأعلام الثقافة الاسلامية كانوا فرسا أو موالى ولم يكونوا عربا ، وهكذا . واتصـــل بهذا الدعوة الى

الشعوبية وتأكيدها ، يبعث الحضارات القديمة ففى مصر جرى بعث الفرعونية وفى الشـــام الفينيقية وفى العراق الآشـــورية والبابلية وفى المغـــرب البربرية . ثم جرت التفرقة بين الوطنية المحلية والوحدة العربية والجـــامعة الاسلامية والروابط الشرقية ، وقيام كيـــانات لكل دعوة من هذه الدعوات تحارب الأخرى ، وجرى فى هذا الصدد فرض اتجاهات العزلة والقومية والضيقة وانكار العامل الروحى والدينى فى أسس القومية . ثم أغرق العـــالم الاســـلامى بالنظريات الجـــديدة المتضـــاربة بين مادية وشيوعية وجنس وتشكيك وجرت المحاولة لتطبيقهـــا فى مجال التعليم والتربية والحياة العامة . فنظرية (فرويد) تقول أن الدوافع الانسانية جميعها دوافع جنسية مادية، ونظرية (جون ديوى) تؤكد ضرورة فصـــل الدين عن التربية ، ونظرية (لورنس) تدعو الى العرى والاباحة والكشـــف فى الأدب ونظريتـــا ريفان وجينو تفرقان بين الأجناس وتتهمان العرب والمسلمين بكل نقيصه فى الخلق والتكوين العقلى والفـــكرى . وقد أشار (البروتوكول (الثانى) من بروتوكولات صهيون الى هذا المعنى فقال : لم يقف هذا الهجوم عند حدود الاسلام نفسه ، بل امتد وسيكون واضـــحا على تأكيد الأثر الأخلاقى لاتجـــاهات العلوم فى الفكر الأممى . دارون هو صاحب النظرية التى تقول أن الانسان والقرد من فصيلة واحدة ، وماركس هو داعية التفسير المادى للتاريخ ، ونيتشه هو صاحب مذهب القضاء على الفقير والضعيف ومنعهما من التناسل وتعقيمهما لينقرضـــا ــ ولا يبقى الا القوى وهو الانســـان الأعلى . وجرت الدعوة الى ثقافة البحر الأبيض المتوسط كوسيلة لربط العالم الاسلامى بفرنسا وأسبانيا والغرب .. وتابع التغريب خطوة فى مجالات أخرى متعددة ، فى مجال ترجمة القصص الداعرة ، والأدب الماجن ، وبمنطق القوة وسلطان الاستعمار فرضت اللغات الأوربية لايقاف اللغة العربية عن النمو والقضاء عليها ، فرضت الفرنسية فى شمال افريقيا والشام ، والانجليزية فى مصر والسودان والعراق وفلسطين . وكان هدف فرض اللغات الأجنبية القضاء النهائى على اللغة العربية وقد تم هذا الى نحـــو كبير فى الجزائر . وجرت محاولاتاعطاء التعليم العصرى طابع العلمانية وانكار القيم الروحية والدين ، تم ذلك فى ظل الاحتلال وفى ظل الحكومات التى فرضها الاستعمار ، وعاونت على ذلك قوى الجيش المحتل وسلطات الأتباع والعملاء الذين يتولون السلطان والحكم ، وقوة الصحافة والمدرسة عن طريق الدعاة التـــابعين لركب التغريب . وجرى الصراع بين الثقافتين الفرنسية والانجليزية ، غير ان هذا الصراع لم يحل دون الهدف الأساسى لها جميعا ، وهو القضاء على مقومات الفكر الاسلامى العربى وتدمير قيمه واحلال قيم مادية جديدة قوامها القضـــاء على القيم الأساسية والتبعية الكاملة للدول الغربية القـــائمة على الحضارة . ولم تقف هذه المحاولات عند هـــذا الحد بل امتدت . ولم يقف المسلمون ازاء هـــذه التحديات مكتوفى الأيدى ولكنهم قاوموا وكشفوا الزيف وأعلنوا الحقـــائق وجددوا الفكر الاسلامى وكان لهذه التحديات رد فعـــل كبير .

* * *

(١٠)
الدفاع ورد الفعـل

واجه الفكر العربى الاسلامى هجوما عنيفا مركزا ، م يقف هذا الهجوم عند حدود الاســلام نفسه ، بل امتد الى عقليــة العرب والمســلمين والشرقيين واتصــل بالأجنــاس والتــاريخ واللغة وأساليب الفــكر ومناهج البحث . ولم يتخذ هذا الهجوم أسلوب المنهج العلمى بل سلك سبيل التعصب الخالص والهوى الخاص ، ولا تنسى فى هذا المجال كلمة الباحث الغربى الصريح الذى قال : ان الغربيين ربوا فى عاطفة التعصب ضد العربوالاسلام والشرق وأنهم رضــعوا هذه العــاطفة مع لبن الأم فهى ليســت منحسرة عن أنفسهم ومشــاعرهم مهما بلغ بهم الانصاف أو قدمت لهم الأسانيد الدامغة والحقائق الأكيدة وفى الوقت الذى يدعونا الغرب الى الأخذ بمنهجه العلمى فى البحث القائم على نسيان العوامل الخاصة والأهواء الذاتيــة ، وافراغ النفس من كــل ما ســوى الوثائق والأســانيد وما تؤدى اليه ، يذهب كتابه وباحثوه الى أبعد الحــدود فى الاستسلام للهوى ، والانســياق وراء الرغبة الجامحة التى تصدر عن التنكر لكل ما هو ليس غربيــا أو أوربيا ، مع صلف عاصــف قوامه الايمــان بالســيطرة والسيادة ، وفق فلســفة الرجل الأبيض ، وسلطان الرجل المتحضر ، ومع أهواء الخامات الرخيصة والأسواق المفتوحة وضرورة تدمير كل المقومات التىيمكن أن تؤدى بالعرب والمسلمين الىالنهضة واليقظة والمقاومة والتحرر من نفوذ الغرب . هذه هى العوامل التى تسيطر فىالواقع على نفوس المتصــدرين للحملات المختلفة التى وجهت من كتاب الغرب الى المســلمين والعرب والشرق بوجه عام والتى تمثلت فى كتابات دوق داركور فى كتــابه « المصريون » وهانوتو فى حملاته على الاسلام والمسلمين وفى عبارات كرومر التى طالما ادمجها تقاريره وأوردها فى كتابه « مصر الحديثة » ، الى حملات الكردينال لافيجرى على الرقيق فى الاســلام وحملات رينان على العقليــة العربية ، ومطاعن توربان وباسكان وجينزاز وجابنيه ، وكازانوفا من كتاب الفرنسيين على الاســلام والعرب ، يضاف الى هذا حملات الأب لامنس اليســوعى فى كتابه « الاسلام عقائده ونظمه » ومفتريات المبشر زويمــر فى كتابه « الاسلام ماضيه وحاضره ومستقبله » ، وحملات « ليوتى » فى المغرب وهو صنو كرومر فى مصر ، وآراء لويس برتران فى كتابه « امام الاسلام » وصرخات تيودور موريس فى « مجلة القرن التاسع عشر » وكلمات دكتور واطسون مدير الجامعة الأمريكية . فاذا اضيف الى هذا حملات مرجليوث عن مستقبل الاسلام وتريتون فى كتابه « الاسلام عقيدته وعباداته » وحملات جريدة التيمس ، وروم لاندو فى كتابه « البحث عن الغد » ومستر سكوت .. الى عشرات الكتب التى توالى صدورها أمكن تصور جو المعركة المحمل بالظلم والحقد ، منذ الســبعينات فى القرن المــاضى وحتى اليوم وكلها مؤلفــات تتسم بطابع التعصب والعجز عن فهم الحقائق وتقوم على قاعدتى : التحامل والهوى . اضف الى هذا دوائر المعــارف وما تحويه من عبارات عن الاسلام والعرب وما أوردته دائرة المعارف الاسلامية التى يرأس تحريرها مستشرق مبشر متعصب هو « فنســنك » الذى طرد من المجمع اللغوى المصرى عام ١٩٣٢ من مغــالطات ، ومن مثــال ذلك ما أوردته دائرة معارف أكسفورد مثلا عن العربى جاء على هذا النحو . Arab Matine or

ومعناها ان العربى أو العرب : هو الطفلالمطرود أو الطفل المنبوذ الذى لا مأوى له .

Arabis Amorse Homeless

أما عبارات مرجليوث ورينان ولامنس وزويمر فان طابع الحقد والتعصب فيها يجعلهــا ليست أهلا للعرض والنظر . لبعــدها كل البعد عن الطابع العمــلى الذى يحتمل صاحبه امانة الكلمة بحيث يحتــاج الى المراجعة والنقد .

ولقد واجه كتاب الاسلام والعرب هــذه الحملات مواجهة قوية وكشفوا زيفها ونقضوها على أساسعلمى صــحيح ، ولم يكونوا متعصــبين أو مندفعين بالهوى

والحماس العنيف الذى يفسد الرأى ويضع بينه وبين الحقيقة حجابا كثيفا . وقد حمل لواء الدفاع عن الاسلام فى هذه الفترة : محمد عبده وقاسم أمين ومصطفى الغلاييني وفريد وجدى وأحمد شفيق باشا ورشيد رضا ومحب الدين الخطيب وشكيب أرسلان وعبد العزيز الثعالبى ومولاى محمد على أبو الكلام أزاد وسليمان التدوى وطاهر الجزائرى وعلى يوسف واسماعيل عصبرنسكى والدكتور هيكل وعباس العقاد والدكتور الهراوى وأحمد زكى باشا ولطفى جمعة وعلال الفاسى وعبد الحميد بن باديس والبشير الابراهيمى وغيرهم كثيرون . وحملت لواء الدفاع عن الاسلام صحف متعددة كان أبرزها العروة الوثقى والمؤيد واللواء والمنار والفتح والزهراء والاسلام والأزهر ومنبر الاسلام والعرفان والتمدن الاسلامى ، وتكونت فى ظل الدفاع عن الاسلام هيئات كثيرة كان ابرزها الاخوان المسلمين وجماعة المنار والشبان المسلمين فى مصر والندوة فى شبه القارة الهندية وجماعات أخرى فى شمال أفريقيا واندونسيا ووسط أفريقيا وجنوب شرق آسيا . وقد ظلت الصحف الاسلامية الى الأربعينات تقريبا وهى لا تدع كتابا من كتب الغربيين يظهر فى أوربا الا وتنقل نصوصه وترد عليه وتبين زيف ما حمله من آراء منحرفة ، ولقد عاش مثلا شكيب ارسلان فى أوربا أكثر من ربع قرن (١٩٢٢ — ١٩٤٠) وهو يوالى الصحف فى الوطن العربى بأبحاثه وكتاباته عن كل ما يصدر فى أوربا عن العالم الاسلامى ، ولطالما نقد فى جريدتى الفتح والمنار هذه المؤلفات وواجه كتابها ، بل انه نشر مجلة فى سويسرا باسم « الأمة العربية » أنفق عليها الوف الجنيهات من اجل كشف هذه الأباطيل وابلاغ الحقائق الى الغربيين فى ديارهم وبلغاتهم . وكذلك عاش محمد فريد وجدى حياته كلها من أجل الدفاع عن روحانية الأديان ضد مادية الغرب ، حتى لقد تخصص فى ذلك تخصصا كاملا وألف عديدا من الكتب فى هذا المجال .

وكذلك فعل محب الدين الخطيب فى مجلتيه « الفتح والزهراء » التى اتخذتا نفس الخط الذى بدأه جمال الدين ومحمد عبده فى « العروة الوثقى » وكانت مجالا خصبا لمقاومة الشبهات التى وجهت الى الاسلام والعرب والرد على آراء الغربيين وقد عاشت صحفه أكثر من ربع قرن ولا تزال مجموعاتها مرجعا هاما فى هذا المجال . ويمكن القول بأن اكثر من الف مقال للأمير شكيب ارسلان وعجاج نويهض وعشرات من كتاب المغرب العربى والمشرق العربى والهند واندونيسيا ومختلف أنحاء العالم الاسلامى قد ضمتها هذه المجموعات ، ومنها يكتب تاريخ الدفاع عن الاسلام فعلا . فقد كانت فكرة الثلاثينات هى « عقدة المحز » كما يقولون بالنسبة لحملة الهجوم التى قامت على قاعدتين هامتين : (١) أبحاث المستشرقين . واغلبهم يعملون فى مجال خدمة الاستعمار ، ويتبعون وزارات الخارجية والمستعمرات فى بلادهم . (٢) حملات التبشير وكانت تمر فى هذه الفترة بمرحلة مسعورة فى البحرين والقاهرة والهند واندونيسيا ومختلف أنحاء العالم العربى ، فاذا ذهبنا نؤرخ لمعرفة خط « الدفاع عن الاسلام » ورد حملات خصومه ، فلا نستطيع أن نبدأ البحث قبل أن نذكر كتاب « الرد على الدهريين » للسيد جمال الدين الأفغانى عام ١٨٦٩ تقريبا حيث حمل على الماديين وفند آراءهم ، ومهما تكن قيمة الكتاب من الوجهة العلمية فانه علامة على الطريق الذى سلكه من بعده « الشيخ محمد عبده » فى رده على (١) هانوتو (٢) فرح أنطون فى كتابه « الاسلام والرد على منتقديه » و « الاسلام النصرانية وموقفهما من العلم والمدنية » . وقد ظلت كتابات محمد عبده التى تناولت الأصول الشاملة للحرية والعلم أساسا لكل المباحث التى توالت من بعد من أجل الرد على كتابات الغربيين الذين هاجموا الاسلام والعرب والدين والعقلية العربية والجنس . وقد حاولت هذه الحملات فى مجموعها اتهام الاسلام بأنه مصدر التخلف ومهاجمة العرب واتهامهم بضعف الخلق القومى .

ومن نموذج صغير لكتابات واحد منهم هو «كيمون» يظهر معنى التعصب والبعد عن الأسلوب العلمى وتغليب عامل الاثارة والهوى، فهو يصف الاسلام مثلا بأنه «جذام فشا بين الناس واخذ يفتك بهم فتكا ذريعا .بل هو مرض مريع ، وشلل عام ، وجنون ذهولى ، يبعث الانسان على الجمود والكسل والمسلمون وحوش ضارية ومن الواجب ابادة خمسهم والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة وتدمير الكعبة ، ووضع ضريح « محمد » فى متحف « اللوفر » ومن هذه العبارات القليلة تبدو حقيقة الهدف الدافع ، وأسلوب الغرض البعيد كل البعد عن النقد البناء ، أو الجدال الشريف ، أن مناقشة المذاهب والأسس والنظريات . وفى عشرات من كتابات هؤلاء الغربيين تبدو هذه الصورة من صور التعصب . ولعل من أبرز الأخطاء التى وقع فيها كتاب الغرب نتجة لتعصبهم ، هو محاولة فهم الاسلام بصورة الذين كانوا يعيشون فى هذه المنطقة خلال فترة احتلالهم للعالم الاسلامى . وهى فكرة خاطئة أشد الخطأ ، فليس هناك من سبيل لاتخاذ « صورة المسلمين » فى هذه الفترة حجة على الاسلام أو محاولة لفهم الاسلام من خلال حياتهم وتصرفاتهم ، ذلك أن المسلمين كانوا قد بعدوا طويلا عن « روح الاسلام ومقوماته » فى مختلف تصرفاتهم وأعمالهم ، وقد غلب عليهم الوهن وتحطمت قواهم

المعنوية فى ظل الصراع القبلى والمذهبى ، وتوقف كفاحهم من أجــل حماية حدودهم ، وتجــديد جيوشهم ، وغلب سلطان المستبدين من السلاطين والأمراء ، وتطرق الترف الى المجتمعات ، وجرى العلماء الرسميون فى ركب ذوى الجاه ، وأغلق باب الاجتهاد ، وعزلت الطبقة الشعبية ، وأغلقت أبوابها خوفا من ظلم الولاة وانصرفت عن الكفاح الى السلبية ممثلة فى الصوفيـــة والزهد ، وعلا صوت نزعات التواكل والضعف واختفت من المجتمع صــورة الاسلام التى طبقها فى العصر الأول اختفــاء تاما . تلك الصورة التى تتمثل فى محاورات الشعب مع عمر وأبى بكر « اذا أحسنت فأعينونى واذا أخطأت فقومونى » أو فى عدالة القضاة فى مواجهة الحكام والولاة ، أو فى صور عمر ابن الخطاب بالليل أو مواقف عمر بن عبــد العزيز ، أو فتوح خالد وسعد أو استشهاد المسلمين فى المعارك ، أو فى الايثار ممثلا فى المجاهدين والانصار بالمدينة ، أو الحياة العلمية الحية فى عصرى الرشيد والمأمون ، أو جامعات قرطبة أو انكار الذات فى صورة صاحب النقب أو غير ذلك من الصور التى تعطى معالم الاسلام الحقيقية فى تجربته من المجتمع . من أجــل هذا فان التعلل بصورة المسلمين التى عرفها هؤلاء الكتاب على أنها هى الاسلام ليست من الحق فى شيء ، ولا يقبلها باحث نزيه .

٢ — ولــكن الحملة أيضا لم تقف عند حــد هذه المغالطة ، بل ذهبت الى تحريف الصورة الأولى ، صورة الاسلام فى نقائه وسماحته فجرت المحاولات للتشكيك فى كثير من المواقف والمواقع والأحداث المتصلة بالرســول والمسلمين وصــور البطولات والتصرفات التى برز فيها السمو النفسى ، وكان مصــدر ذلك أمران : « أولهما » قياس هؤلاء الكتــاب والباحثين الأمور بالعقلية الغربية المادية التى لا تعرف القضايا الا متصلة بالغاية والمصلحة والمنفعة ولا تفهمها أبدا مجردة خالصة لوجه الله أو الحق أو القيم الانسانية العليـــا « ثانيهما » انكار ما قد يكون مقبولا فعلا من هذه لصورة تحت تأثير التعصب أو الغاية المقصودة من الكتابة نفســـها . ويمكن القول بأن جميع الدراسات التى كتبت عن الاســلام والمسلمين والعرب كانت من مفكرين أو باحثين لهم صلة السياســة الأوربية أو الغربية فى مواجهة العالم الاسلامى ، وكان ذلك مرتبطا عندهم بموقف الاستعمار ومن وجهة نظره ، فضلا عن أن أمثــال هانوتو ودوق داركور وغيرهم كانوا أعضـــاء فى المجالس النيابية فى بلادهم ويمثلون وجهات نظر أصحاب المصالح والمصانع وشركات الاستيراد والتصدير ، ولذلك فان زياراتهم للشرق والعالم العربى كانت مشوبة بروح الاستعلاء ، ولم تكن هذه الرحلات للبحث والدراســـة والمراجعة الشاملة للأمور ، أو الاتصال بذوى الاختصاص من أجل استيضاح الأمور ، وانما كانت زيارات سريعة طارئة ، ومن هنـــا كانت انطباعاتها ضحلة ســـطحية مشوبة بروح التعصب وهادفة فى نفس الوقت الى خدمة الامبريالية الاستعمارية المتطلعة الى السلطة ، وابانة عظمة الغرب وفضل الرجل الأبيض ، وتبرير الاســـتعمار والنفوذ الأجنبى وضرورة السيطرة على هذه الأقطار من أجل تمدينها وتحريرها من قيود الجهالة والظلام . وهكذا كانت دوافع أغلب كتابات هؤلاء الذين كتبوا عن الاسلام المسلمين منذ أوائل هذا القرن ، والتى عنى محمد عبـــده وفريد وجدى وقاسم أمين وشكيب أرسلان ومحب الدين الخطيب بالرد عليهـــا وكشف دخائلهـــا . فقد كانت السيطرة على الامبراطورية العثمانية وتمزيقهـــا وتوزيع أسلابها هى الهدف الأساسى لكل هذه الــكتابات . فلما تحقق ذلك ، وتمزق العالم الاسلامى بعد ســـقوط دولة الخلافة ، تغيرت الأهداف ودخلتها غايات أخرى وحلت فى مجال السياسة كلمات العروبة والقومية وبدأ صراع جديد بينها وبين الاقليمية ، كما بدأت معارك اللهجات العامية وتحريف التاريخ .

وفى نفس الوقت تعـــددت الجهـــات التى تهـــاجم الاسلام . فلم تعد هى أوربا المسيحية صاحبـــة رسالة تمدين آسيا وأفريقيا ، وانما برزت قوى جديدة تصارع فى مقدمتها الصهيونية والماركسية والاســـتعمار الجديد فى مجال الاقتصاد والفكر على السواء . وقد كان عمل هذه الجهات جميعـــا يسير فى نطاق واحد وهدف متحد ، أما النطاق فهو طريق المؤســـسات والمنظمات الاستشراقية والتبشـــيرية ممثلة فى المدارس والارساليات والصـــحف والمؤلفات وأفلام السينما ، وقد اعتمدت الدول المختلفة لهـــذه المؤسسات مبالغ ضخمة ، وأولتهـــا نفوذا كبيرا يحميهـــا ويعينها ممثلا فى الحـــكومات التابعة والحـــكام العمـــلاء . ولم يقف الهجوم عند حــد اتهام الاســـلام بالضـــعف والتدهور ، والاساءة الى مؤســـسه وقادته وتزييف تاريخه ووقائعه ، وانما امتد الى انكار فضـــل العرب والمسلمين على الحضارة الغربية التى قامت فعلا على الأســـس التى بداها العرب والمسلمون ممثلة فيما ترجموه من ثقـــافات اليونان والرومان ، وما أضافوه فى جامعاتهم وعن طـــريق علمائهم من بحـــوث وكشوف فى مجال الفلســـفة والفلك والجراحة والموسيقى والعلوم والآداب .

ولقد بلغ من ظلم الغرب وبعده عن الانصاف أن أنكر فضل هذا العمل الكبير الذى قامت عليه النهضـــة ، والذى ظل أكثر من نصـــف قرن هو قاعدة البحث العلمى

وأساسه الأصيل فى تطوير الحضارة ولا شك ان ما بلغته من ثمار انما يرجع أساسا الى هـذه الحصيلة العربية الاسلامية .

ولقد عمدت «الصهيونية» منذ بدات نشأتها ١٨٩٧ الى عمل كبير فى مجال ثقافى واسع شمل كل موسوعات التاريخ والعلم والثقافة الغربية ، استهدف هـذا العمل تزييف حقائق الفكر الاسلامى والحضارة العربية والثقافة التى ظهرت فى هذا الجزء من العالم ، ووضع عناصر التشكيك لكل القيم والمقومات وفق أسلوب دقيق مليء بالمكر والخداع ، يحمل فى مظهره طابع العلم والانصاف ولـكنه ما يكاد يمضى بالباحث معه حتى يسلمه الى الشكوك والاكاذيب والمداخلات مع التجاهل لفضل العرب والمسلمين وغبن حقهم ، واثارة الاتهامات حولهم الى الحد الذى يصور الفكر الاسلامى على نحو مضطرب قلق ناقص ، هذا بالاضافة الى استغلال النظريات الجديدة حول الجنس والأجناس وأصل الأنواع وغيرها .

أما « الماركسية » فهى تلتقى مع المذاهب الغربية فى النزعة المادية ، وتبرز مذهب التفسير المادى للتاريخ فتقضى به على الجوانب الروحية والانسانية ، وتنظر اليها فى سخرية واحتقار . وتجتمع الى هـذه المذاهب والنزعات فى مقاومة الاسلام ومهاجمته ، مذاهب اخرى تتصل بالأديان الوضعية ، فالبوذية وغيرها فى شرق آسيا تقاوم الاسلام أيضا وتحاربه بأسلحة لا تقل عن أسلحة الصهيونية والماركسية والفكر الغربى المادى .
وقد يرى بعض هؤلاء الكتاب فى « الاسلام » رأيا لا يتفق مع الحقيقة ، فهم قد يطبقون عليه ما طبقه الغرب على الكنيسة حين رأوها تقف أمامهم فى أوائل النهضة لتحول بينهم وبين آفاق العلم ، ومن هنا جاء فصل الدين عن الدولة هناك كوسيلة للتحرر من الجمود الذى كان يفرضه الكهنة وهم حين ينظرون الى العالم الاسلامى والبلاد العربية لا يلبثون أن يخلطوا بين الاسلام هنا والمسيحية الغربية هناك ، وذلك خطأ لا حد له فى العجز عن فهم الحقائق ، ذلك أن الاسلام يختلف كثيرا فى هذا المجال ويكشف عن طابع واضح فى الحرية والقدرة على مواجهة الحضارة وفتح الآفاق لها دون الاصطدام بها ، ولقد كان كذلك منذ بدأت النهضة العلمية فيه ، فقد واجه حركة الترجمة والكشف والعلم فى مجال الطب والفلك بمزيد من التقدير والرعاية ، ولم يصطدم يوما بهذه الاتجاهات ولم يقف أمامها ، ولذلك فان كل محاولة للمقارنة فى هذا المجال ، وهى مقارنة باطلة لأنها تقوم على غير أساس .

ولقد جرى اتهام الاسلام بالتعصب ازاء العلم والعلماء ، ولكن الذين حملوا لواء هذا الاتهام لم يقدموا دليلا واحدا من التاريخ على صدق ما يدعونه ، وفى هـذا المجال كانت كتابات الشيخ محمد عبده الذى كشف عن موقف الاسلام ازاء المدنية والعلماء كتابات رائدة . وقد استطاعت الأقلام العربية ان تصل الى مستوى هـذه المعركة وأن تواجهها فى قوة وأن تكشف زيفها . وقد عملت من أجل ذلك فى ميدانين : فى ميدان الغرب نفسه فقد ألفت عشرات الكتب فى دحض هـذه الاتهامات واستطاعت هذه الكتب أن تروج فى الغرب وأن تجد من يقرأها وأن تترجم معانى كثير من آيات القرآن الكريم ، ولعل اقوى قوة فى هذا المجال هى قوة كتابات المسلمين الهنود من أمثال شبلى النعمانى والندويين (اتباع ندوة العلماء) وغيرهم فقد استطاعوا أن ينقلوا الى الغرب صورة عن الاسلام لا شك فى نصاعتها وفق الأسلوب العلمى الحديث وكتابات محمد اقبال فى مقدمة هـذه الكتابات ، وهناك عدد من مؤلفات الكتاب العرب بالانجليزية والفرنسية تذكر فى هذا المجال مؤلفات مثل الدكتور غلوش وترجمة محمد حسن الموجى للبخارى .

أما الميدان الثانى فهو ميدان المسلمين انفسهم فى العالم الاسلامى وقد تحقق العمل فعلا فى هذا المجال بعشرات الأبحاث والوف المقالات وكان للصحافة الاسلامية دور كبير فى تصحيح الكثير من المفاهيم . ولا شك أن هناك تراثا ضخما فى هذا المجال ، يمكن أن يطلق عليه « أدب الدفاع عن الاسلام » يمكن تقويمه والنظر فيه وكتابة دراسات مطولة عنه ، ولم يكن هـذا الأدب دينيا خالصا وانما كان فكرا اسلاميا متكاملا فيه دراسات عن قضايا الاسلام مع الاستعمار فى المجال السياسى ، وفيه مواجهات للفكر الغربى ولاتهاماته للاسلام ، وفيه أحاديث متعددة فى القرآن والسنة النبوية والفقه والتشريع الى جوار ابراز حقائق اللغة العربية والأدب العربى والتاريخ العربى الاسلامى ، ويبدو ذلك جليا فى الصحافة الاسلامية كالمنار والفتح وفى كتابات رشيد رضا ومحب الدين الخطيب وشكيب أرسلان .

وخلاصة هذا الراى أن الفكر الاسلامى العربى لم ينفصل عن واقع العالم الاسلامى والأمة العربية وانما ظل يكافح فى ميادين أربعة .

١ — العالم الاسلامى السياسى فى خصومته مع الاستعمار .

٢ — الفكر الاسلامى ومقوماته من فقه وتشريع ولغة وتاريخ .

٣ — ميدان التحديات والرد على خصوم الاسلام والعرب .

٤ — بعث الصورة الأصيلة للاسلام فى بساطته ونقائه وتجليتها والكشف عن الزيوف التى اتصلت بهـا وتخليصها من الانحرافات .

ويقسم هذا الفكر الاسلامى فى مجال الدفاع عن الاسلام بسمات واضحة ابرزها :

١ — الانصاف والتجرد الخالص من الهوى ، وفق الأسلوب العلمى العربى الذى كان أساسا مسبقا لما أسماه الغرب الأسلوب العلمى الحديث ولم يطبقه تطبيقا صحيحا فى مجال نظرته الى الاسلام والعرب ، وأفسده بتغليب الهوى والتعصب وعدم التحقق لابلاغه الكامل مرتبة اليقين بالأسانيد والأدلة .

٢ — اتخاذ الأسلوب العربى الدقيق القائم على المنطق والدليل ، البعيد عن العاطفة والصناعة اللفظية أو الكتابة الانشائية العاطفية او الخطابية .

٣ — عدم التعرض لجوانب القصور أو الاتهام للفكر الغربى أو العقائد الغربية فى مجال الانتقاص ، أو التشكيك أو التعصب ، وقامت المقارنة فى مجال الانصاف استنادا على النصوص الفعلية والوثائق الاكيدة . وقد حققت هذه الحملة فى الرد على الاتهامات والتحديات أثرا واضحا فى العقل العربى والاسلامى المعاصرين ، بلغ حد « عدم الثقة » بهذه الأبحاث التغريبية واتهامها بالقصور والهوى . ومن أجل هذا لابد من دراسة المنظمات الغربية التى حملت لواء الحملة على الاسلام والعرب على نحو أوسع ممثلة فى الاستشراق والتبشير وكتابات الغربيين ممثلة جميعـا فى اطار حركة التغريب باعتبارها القوة المحركة والدافعة للاستعمار .

* * *

الكتــاب الثــانى

من الاستعمار إلى التغريب

الاستعمار والتغريب

أن المراجعة الفاحصة لكل الدراسات التى تتصل بالتبشير والاستشراق والشعوبية والطائفية والغزو الفكرى والاستعمار الثقافى والدعوات الهدامة كالالحاد والاباحة تكشف عن أنها ليست فى الواقع الأمر الا شعبا مختلفة لمخطط أساسى هو : «الابقاء على نفوذ الاستعمار فى العالم الاسلامى » ولما كان الفكر العربى الاسلامى يحمل قيما ومفاهيم لا تقبل الاستسلام والخضوع والانطواء فى قيم أخرى ولا لقوى مسيطرة ، فان العمل الأساسى للنفوذ الاستعمارى هو القضاء على هذه المقومات أو اثارة الشبهات حولها وافسادها عن « طريق البحث » الذى يحمل طابع العلم والصحافة والتعليم فى المدرسة والجامعة . ومن هنا يمكن أن يطلق على هذه الحركات كلها اسما واحدا هو « التغريب » ومن هنا تتكشف الرابطة الأساسية الأكيدة بين الاستعمار والتغريب . ومن هنا يفهم كيف تدرج الاستعمار فى هذه المحاولةفكانت أول أمرها « حملة تبشيرية » قوامها المرسلون والمدارس تحمل الدعوة الى اخراج المسلمين من دينهم بالقوة أو بالاغراء ، وقد وقعت خلال تلك الفترة أحداث ضخمة ، وقد اجتاحت هذه الموجة العالم الاسلامى منذ ١٨٣٠ الى ١٩٣٠ تقريبا (خلال قرن كامل) فى صورة حركة تبشيرية سجلتها دراسات وأبحاث ومؤتمرات وجرت من حولها مساجلات وحوار ومعارك فكرية وكانت مصر ابرز حلقة من هذه الحلقات غير أن هذه المرحلة لم تلبث أن انتهت الى عمل أشد تعقيدا وأكثر عمقا وأقل مصادمة وذلك عن طريق نفوذ دعاة التعريب ، هؤلاء الذين استطاع الاستعمار أن يصطفيهم ، وذلك بتخريجهم من معاهده وجامعاته فى العالم العربى أو من بعثانه فى أوربا وأمريكا وقد أتيح لهؤلاء أن يلوا من بعد عودتهم مناصب رئيسة فى وزارات التربية والتعليم والمعارف فاستطاعوا أن يؤثروا فى المناهج والمؤلفات والصحف وأن يقودوا حركة تحويل خطيرة عن طريق تغيير المناهج وحذف كل ما يتصل بالقيم العربية الاسلامية الحافزة على اليقظة أو القوة أو الروحية أو الخلق وفرض مفاهيم غريبة قوامها الاعجاب بالغرب وقتل روح المقاومة والايمان وتمييع الملامح الأساسية العربية الاسلامية هذه المفاهيم التى تدس من خلال الدراسات التاريخية واللغوية والاسلامية . ثم تنمو مع الزمن ويتسع نطاقها فى الجامعات . وبذلك يمكن أن يقال أن دعاة التغريب فى المرحلة الثانية فى الثلاثينات كانوا بديلا ايجابيا شديد الأثر خفى الغرض للتبشير .

وهذه هى المرحلة الأخطر ، وفى هذه المرحلة استقدمت الجامعات المستشرقين كما استقدمتهم مجامع اللغة واضفت على أبحاثهم كثير من التقدير والاجلال ، وتحول الموقف بالنسبة لنقد هذه الاتجاهات ، فقد أصبحت مختلف الصحف القوية ذات الصوت الجهير فى أبدى هذه القوى التغريبية ، وبذلك أمكن ضرب كل صوت يرتفع بمراجعة هذه المواقف أو التشكيك فى اتجاهها وفى ظل حملة التبشير الضخمة التى مرت بالعالم العربى ومصر عام ١٩٣٢ تحول الموقف كثيرا وأمكن أن تظهر أصوات قد تنبهت فى أعماقها الى حركة التغريب فأفسحت صحيفتى البلاغ والسياسة اليومية صفحاتها لمواجهة هذه الحملة التى عرف رجل مثل الدكتور هيكل بواعثها وكان قد صدر فى نفس الوقت كتاب « وجهة الاسلام » لمستر جب وزملائه ... الذى كشف عن محاولة لتقييم حركة التغريب فى العالم الاسلامى وفى نفس الوقت كان العمل لبقاء النفوذ الأجنبى قد أنهى مخطط التبشير وبدأ مخططا أقل حدة فى المظهر وأكثر عمقا فى المضمون هو : « التغريب والشعوبية » يتمثل ذلك فى قول الدكتور صمويل زويمر قطب التبشير فى العالم الاسلامى منذ أوائل القرن . « وان التبشير قد وصل الى اسمى غاياته فى مهاجمة العالم الاسلامى فأدى المهمة على أكملها وانتهى الى نتائج لم يكن احد يحلم بها منذ الحروب الصليبية ، ليس غرض التبشير المسيحى وسياسته ازاء الأسلام هو اخراج المسلمين من دينهم ليكونوا مسيحيين ، أن المسلم لا يمكن أن يكون مسيحيا مطلقا ، والتجارب دلتنا ودلت رجال السياسة على استحالة ذلك ، ولكن الغاية التى نرمى اليها انما هى اخراج المسلم من الاسلام فقط ، ليكون ملحدا أو مضطربا فى دينه ، وعندها لا يكون مسلما ، لا تكون له عقيدة يدين بها ، عندها يكون المسلم ليس له من الاسلام الا اسم أحمد ، والملحد هو أول من يحتقر الاسلام والمسلمين » ..

٢ ــ لا شك أن الاستعمار يفهم جيدا أن (العالم الاسلامى) له قيم أساسية ومفاهيم واضحة تكون فلسفته فى الحياة ورسالته فى العالم . هذه القيم والمفاهيم مستمدة أساسا من « الفكر العربى الاسلامى » وهى فى جوهرها تدعو الى مقاومة النفوذ الأجنبى ، والغاصب والمتسلط والغازى ، وكل من يطمع فى فرض سلطاته أيا كان نوع هذا السلطان . ومن شأن يقظة هذا الفكر ووضوحه ، ووصوله الى دوائر التربية والتعليم والثقافة والصحافة أن يفرض مقاومة ضخمة لنفوذ الاستعمار وبالتالى يؤدى الى زعزعة مكانه واضطراب مصالحه . لذلك فالاستعمار حريص على زلزلة ومفاهيم هذه القيم والقضاء عليها . وذلك باثارة الشبهات حولها ، ومنع وصولها ، وحجب بعضها ، وملأ الجو بمفاهيم جديدة مستوردة ، ليست أصيلة ولا نابعة من البيئة الأصيلة ، وهى مفاهيم معاكسة تماما لتلك القيم ، قوامها المتعة واللذة الحسية ، والترف .

هدف هذه المفاهيم الجديدة ، خلق روح من التحلل ، والاستسلام والاعجاب بالقوى الغازى ، والتسامح معه ، والولاء له ، والصداقة معه ، وقتل عوامل الغيرة ، والمقاومة ، والخصومة منه ، واندحار مفهوم الكيان الذاتى الخاص ، وبذلك تصل الطلائع الجديدة الى التميع والانحلال الضعف والخور والاستسلام . غير أن هذه الخطة لا تنفذ بهذه البساطة واليسر وانما تنفذ فى دقة متناهية ، وقد استبطن الاستعمار فى دهاء جمع مظاهر العنف فيها ، وغلف مظاهرها بطابع العصرية والمدينة والدعوة الى التسامح وتقبل الرأى المعارض وتغليب روح المتعة والترف على روح الكفاح والجد وجعل دخائل أهدافه دقيقة ماكرة ، ووضع لهدفه سعة من الزمن وفسحة من الوقت لا يستعجلها ولا يكشف عنها . ولقد بدأ الاستعمار عمله لمقاومة مفاهيم الفكر العربى الاسلامى والقضاء عليها بالتحريف واثارة الشبهات أول الأمر ظاهرا مسفرا باسم « التبشير » فلما لم يتحقق عن هذه المواجهة الا تزايد الخصومة والمقاومة والتحدى كرد فعل غير أساليبه ومفاهيمه فاختفى وراء منظمات غير مشوهة الظاهر ووراء أساليب غير متهمة ، وقد استبطنت هذه المنظمات دعوته ، واستطاعت عن هذا الطريق الغامض أن تكسب كثيرا وأن تجند القوى للعمل .

وقد اتخذت من المدرسة والصحافة وبرامج التعليم والقصة والمسرح والفن والسينما أدوات لها واستعان فى هذه الأعمال : بالاستشراق وكتاب الغرب المتعصبين ، واذا كان لنا أن نكون أبعد عن التعصب أقرب الى الانصاف فلسنا نحاكم أعمال الاستشراق والمستشرقين وكتاب الغرب الا بقدر ما تحمل من انحراف وبقدر ما تتخذها دوائر الغرب الاستعمارية وسيلة للقضاء على مقومات الفكر العربى الاسلامى . ومن هنا نرى أن هدف الاستعمار والنفوذ الأجنبى بالسيطرة على العالم الاسلامى لا يتحقق الا بالسيطرة على فكره ، هذه الغاية التى تحولت من عمل التبشير « التبشير » المكشوف فى الثلاثينات الى مجال جديد هو التغريب والشعوبية وأصبحت أبرز وسائله هى اذاعة الشبهات المختلفة على ألسنة كتاب جدد لهم أسماء عربية بعد أن كانت هذه الشبهات تذاع باسم رينان وهانوتو ودراكور وكرومر وليوتى ولافيجرى ودنلوب كما أصبحت تذاع فى صحف العالم العربى باللغة العربية باعتبارها منبعثة من دراسات علمية قوامها اعادة النظر فى التراث . وهنا أصبح دور النفوذ الأجنبى دقيقا حفيا أشد خطرا ، فانه مضى يسير هذه الحركة من وراء ستار عن طريق مواصلة اثارة الشبهات حول القيم الاسلامية للفكر العربى الاسلامى ، وقد كانت دائرة المعارف الاسلامية وكتابات مرجليوث ولويس شيخو ولامنس ورينان وفنسنك وجولد تسيهر هى المرجع الأول لأغلب الباحثين .

* * *

ولا سبيل الى الشك فى أن النفوذ الاستعمارى له أدواته وله قواه الضخمة التى يسير بها الأمور فى سبيل تثبيت قواعده وذلك عن طريق اثارة الشبهات حول القيم الأساسية للفكر العربى الاسلامى بمفهوم أن هذه القيم من العوامل الفعالة فى معارضته وما تزال الآراء المنصفة الجادة البعيدة عن التعصب والتحامل تؤكد شبهة الهوى أو الخطأ لأبحاث جانب كبير من كتاب الغرب الذين نسلكهم فى صفوف المبشرين أو المستشرقين أو الباحثين ولا خلو من الاتهام الا فئة قليلة من الباحثين . وحتى هؤلاء الذين خلت بواعثهم من الاتصال بدوائر الاستعمار لا يستطيع اكثرهم أن يسلم من العجز الذاتى فى استيعاب مفاهيم البلاغة العربية أو العجز النفسى عن استيعاب مفاهيم الفكر الاسلامى على النحو الذى يجعله متقبلا لدى أهل هذه الثقافة ، وذلك نتيجة اختلاف القيم الأساسية بين الفكرين الاسلامى والغربى . ويمكن تقسيم صراع هذه المرحلة الى ثلاث مراحل .

(١) حركة التبشير . (٢) حركة الاستشراق . (٣) حركة التغريب .

* * *

(١)
حركة التبـشير

لا شك ان الحرب الذى شنها « الاستعمار والنفوذ الأجنبى» كانت تهدف الى تغيير العقائد العربية الاسلامية اساسا او التأثير فيها ، علىأساس ان الحضارة الغربية المسيطرة لها عقائدها ومفاهيمها ، وهى العقائد والقيم التى افترض انها يجب أن تسود فى المنـــاطق التى تحتلها وهى لو استطاعت أن تحقق ذلك لاستمرت تبعية هـــذه الأمم لهـــا دون متاعب ، واســـتمر النفوذ الاستعمارى مسيطرا ولتحول من الخصومة الى الولاء . وقد فلسف الاستعمار هذا المعنى حين ادعى أنه قادر على تمـــدين الملونين وان الأمم البيضاء هى الأمم التى تســـود ، كما حرص فى مخطط تأكيـــد نفوذه . على أن يعمـــل وأمامه قاعدة أصلية :هى ان بقاء مفاهيم الفكر العربى الاسلامى وقيمه من شأنه أن تحول دون استمرار هـــذا النفوذ ، ويؤدى الى مقاومته الدائمة .

ومن هنا كانت حملات التبشير تعاونها الشـــبهات التى يثيرها الاســـتشراق حين تتجمع فى مخطط تغريبى يحمـــل لواء الشعوبية من اجـــل هدم هذه المقـــاومة واضعافها واحلال مفاهيم غربية بديلا عنها ، ويرى تقى الدين النبهـــانى أن الذى حمـــل الأوربيين الى انشـــاء الجمعيات التبشيرية فى الشرق هو ما عانوه فى الحروب الصليبية من صـــلابة المسلمين وجلدهم على الجهـــاد ووحدتهم فى المقاومة وقد بحثوا عن السر فى ذلك فوجدوه فى « الاسلام » لأن عقيدته هى منشأ هذه القوة العظيمة عند المسلمين . ومن هنا كان مفهوم التغريب هو تشكيك المسلمين فى تاريخهم ودينهم وزعزعة عقائدهم . ويمكن أن يقال أنه بعد فشل الحروب الصـــليبية ، التى كانت أساسا حركة اســـتعمارية ، كانت الخطة هى تحـــويل العالم الاســـلامى عن مقومات فكره باعتبارها القـــوة الأساسية التى هى مصدر المقاومة والانتصار ، فاذا لم يمكن اخضاع العالم الاسلامى كله للمسيحيةالغربية وهى غير المسيحية الشرقية السمحة فاخضاعه للثقافة الغربية كسبيل وحيد أكيد لبقـــاء النفوذ الغربى . وقد تحقق أن اخضاع العالم الاسلامى لا يتم الا عن طريق الثقافة ، ومن هنا وضعت الخطة على مستويين : مستوى التبشير حتى ١٩٣٠ ثم مستوى التغريب بعد ذلك .

وقـــد أثار كثـــير من المؤرخين ان هـــــدف النفوذ الاستعمارى عندما اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح ، كان هو الوصول الى الهند عن طريق الالتفاف حول العالم الاســـلامى وتطويقه ، حيث أن الطريق عبر مصر يجعل التجارة الأوربية بيد المسلمين ، فلما اكتشف طريق رأس الرجاء وجد البرتغاليون أنفسهم أمام الأبواب الخلفـــة للعالم الاسلامى وهى منافذ ضعيفة التحصـــين ومن ثم عملت البرتغال على ضرب العالم الاسلامى من جنـــاحه المهيض ، وكان البرتغـــاليون يأملون من وراء ذلك الى اضعاف المسلمين واستعمار بلادهم ، هذه الخطة ماكانت تتم بالسيف من اجل التفوق الاقتصادى فقط بل للقضـــاء على الاسلام كعقيدة دينية سماوية ، لهذا جاء التـــاجر الأوربى الى الشرق تحرسه المدافع وتشق له الســـيوف الطريق ، ومن وراء التاجر جاء المبشر(١) .

وقد أيد الاستعمار أعمال التبشير وحماها ، بل ان اللورد كرومر فى مصر كان يسجل فى تقاريره الســـنوية خطوات التبشير وأعماله واقتراحاته لتوسيع نطاقه ، كما أعلن بلفور وزير خارجية بريطانيا تأييده لحركات التبشير فى تصريح واضح له جاء فيه : أن المبشرين هم ســـاعد جميع الحكومات المستعمرة وعضـــدها فى كثير من الأمور الهامة ولولاهم لتعذر على تلك الحكومات أن تذلل كثيرا من العقبات .وقد أشار الدكتور مصطفى الحفنـــاوى فى دراساته عن قناة السويس كيف كان لرجال التبشير من مساع وخطوات فى سبيل حض المستعمرين على انشاء قناة تصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر تكون تحت نفوذ فرنسا وبريطانيا وذلك للقضاء على وحدة الوطن العربى وتمزيق كيان العالم الاسلامى .

وفى هـــذه المرحلة عمل الاستعمار على رصد أموال

طائلة فى ميزانيات الدول المستعمرة كما قدمت الكنيسة الرومانية مبالغ لا حد لها ، فقد تم الصلح بين الحكومة الايطالية وبين الفاتيكان فى الثلاثينات وابرمت معاهدة (لا تران) التى ردت الى الفاتيكان الأموال التى كانت الحكومة الايطالية قد حجزتها منذ عام ١٧٨٠ وقد بلغ ما استولى عليه الفاتيكان ٧٥٠ مليون ليرة ايطالية . وكان أول ما عمله الفاتيكان أن ارصد عدة ملايين للتبشير فى الشرق الأدنى ، كما قدمت دوائر وزارات الاستعمار فى الحكومات الغربية فى اوربا وامريكا حشودا ضخمة من المبشرين الذين يلبسون أثواب العلماء والأطباء ، وقد أعان على توسيع نطاق التبشير فى البلاد العربية والاسلامية وجود نفوذ الاحتلال الذى كان لسان هذه البعثات وحامى هذه الارساليات وغيرها بالاعتمادات ورد عنها مقاومة القوى الوطنية لها فى ظل نظام الامتيازات الأجنبية الذى يجعل من الصعب على السلطات الحاكمة أن تراقب حركات المبشرين أو تواجه تصرفاتهم .

كما حمل التبشير زعماء الاستعمار فى الوطن العربى والاسلامى : الكردينال لافيجرى فى تونس والمارشال ليوتى فى المغرب واللورد كرومر فى مصر والقائد غردون فى السودان . وقد عمدت هذه الارساليات والمدارس الأجنبية على وضع التوراة بين ايدى الطلاب المسلمين على انها كتاب تدريس أساسى وفى مادة الترجمة استعملت نصوص التوراة فى الترجمة من اللغة العربية الى الانجليزية ، وقد اثيرت فى أكثر من مناسبة شبهة أن بعض الكتب التى توضع فى أيدى الطلاب تحمل اتهامات وشبهات للاسلام والعرب والتاريخ ، وان اغلب كتب الطلاب لا تختلف عن الكتب الطائفية .

ولما كانت معظم الحكومات فى الوطن العربى خاضعة لنفوذ الاستعمار — اذ ذاك — ونظرا لأن هؤلاء الساسة فى الأغلب كانوا على ولاء مع الاستعمار ، فان هذه الحكومات لم تجد عندها القدرة على مواجهة مناهج هذه الارساليات . ومع أن الاستعمار قد خرج اليوم من معظم هذه الأقطار فان نفوذه الثقافى لا يزال قائما هو فى بيروت والمغرب وتونس . وقد أشارت المبشرة « آن سيمان » الى ذلك فى الماضى حين قالت سنة ١٩٢٦ انه فى كلية البنات فى القاهرة بنات آباؤهن باشوات وباكوات وليس ثم مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ التبشيرى ، ولن يوجد ثمة طريق الى حصن الاسلام أقصر مسافة من هذه المدرسة » .

وقد عاش هذا المعنى دافعا للعمل حتى يطلب لويس ماسنيون بالنسبة للطلاب الشرقيين الذين يأتون الى فرنسا « وجوب » أن يلونوا بالمدنية المسيحية الغربية وقد تعددت هذه الكليات فى بيروت واستانبول والقاهرة واسيوط ولاهور عاصمة البنجاب وفى الغرب كله وفى السودان .

٥ — وقد حمل التبشير لواء الدعوة عن طريق المدرسة والمستشفى معا . وتوسع التبشير عن طريق أعمال البر والاحسان وفى محيط الطبقات الفقيرة والمريضة ففى المستشفيات كانت تقام الصلاة المسيحية فى كافة عنابر المرضى فى الصباح والمساء وتلقى المحاضرات بالفانوس السحرى ، ويقوم موظفون اخصائيون فى التبشير بزيارة كل مريض فى مكانه وتتوالى الزيارات بعد الشفاء فى المنازل .

أما فى مجال المدرسة فكان ذلك عن طريقين :

١ — التأثير فى برامج المدارس الحكومية وتوجيهها عن طريق النفوذ الاستعمارى المسيطر على الحكومات .

٢ — برامج المدارس والمعاهد والجامعات التابعة للمرسلين أنفسهم ، وقد أشار الى هذا «ليوبولدفايس» فى كتابه « الاسلام فى مفترق الطرق » فقال : أن هدف المبشرين هو اضعاف القيم الاسلامية عن طريق شرح تعاليم الاسلام ومبادئه شرحا يضعف المسلم فى تمسكه بالاسلام ويقوى فى نفسه الشك فيه كدين أو كمنهج سلوكى ، ولا شك أن ارساليات التبشير تعجز عن أن تزحزح العقيدة الاسلامية فى نفوس أصحابها ، وان ذلك لا يتم الا ببث الأفكار التى تتسرب مع اللغات الأوربية » .

وهكذا عن طريق التعليم اتخذ التبشير وسيلة الى تغيير المفاهيم الأساسية والقيم وقد أولى التبشير مدارس رياض الأطفال ومدارس البنات أهمية أكبر للتأثير على عقول الناشئة وعلى المرأة التى ستكون الأسرة فيما بعد ، وكذلك فى ميدان التعليم العالى باعتبار أن رجاله هم قادة الفكر وولاة المناصب الكبرى فى بلادهم .

٦ — وقد رسم التبشير أهدافه فى نقاط ثمانية :

١ — توهين قيم الفكر العربى الاسلامى والغض من اللغة العربية الفصحى .

٢ — اضعاف التماسك الداخلى .

٣ — خلق تخاذل روحى ومعنوى ، وايجاد شعور

بالنقص فى نفوس المسلمين والشرقيين عامة وحملهم من هذا الطريق على الرضا والخضوع للمدنية المادية .

٤ — اضعاف العقيدة فى نفوس المؤمنين بها على أساس أن الشعوب التى تنحل عقائدها القومية وتضعف تغدو فريسة يسيرة للغزو الفكرى .

٥ — تقطيع أواصر الوحــدة والاخاء والترابط من اجزاء العالم الاسلامى .

٦— السخرية والتشكيك بمختلف الجوانب التى يعتز بهــا العرب والمسلمون من تاريخ وتراث وقــرآن وبطولات وأمجــاد وموالاة التحقير والازدراء بالعــالم الاسلامى وأممه فى المجــالات المختلفة ووصفه بالضعف والتأخر وتسميته بالأمم المتخلفة .

٧ — تأجيج الخلافات بين الطوائف ، واثارة الفتن والقــــلاقل .

٨ — افساد الخصائص القــومية فى الشعــوب الشرقية والاسلامية والعربية .

تعليمات التبشير كما رسمها زويمر وبابس وشاتليه

١ — يجب أن يكون تبشير المسلمين بواسطة رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها .

٢ — على المبشرين الا يقنطــوا اذا رأوا نتيجــة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة من المحقق أن المســلمين قد نما فى قلوبهم الميــل الشديد الى علوم الأوربيين وتحرر النســـــــاء .

٣ — علـــى المبشرات أن تزور منـــــازل المسلمين وتجتمعن بسيداتهم .

٤ — استعانة المبشرين فى سبيل انفــاذ دعايتهم بالموسيقى والمستشفيات والمدارس والملاجىء .

٥ — على طبيب الارسالية الا ينسى ولا لحظــة واحدة أنه مبشر قبل كل شىء وطبيب بعد ذلك .

٦ — استغــلال فرصة المــرض والسيطرة على المريض وانتهاز فرصة الضعف والحاجة وعدم القدرة على التفهم والاقناع والدس للعقل الباطن بالايحاء .

٧ — الاحسان والتعليم لهما أهمية كبرى فى مخطط التبشير ، ولكن على أن تكون وسائل فقط ، لا غاية فى نفسها .

٨ — ليس هدف التبشير فى الأغلب نشر المسيحية بقدر ماهو هدم الاسلام .

وتدل المراجعــات الى أن أولى محاولات التبشير وبعثــات المرسلين بدأت فى بوسطن ١٨١٠ حيث نشــأ المجلس الأمريكى لمندوبى البعثات البشرية ، وبعد تســـع سنوات ارسلت أولى البعثات البشرية الى الشرق الأدنى واتخذت من « مالطه » مركزا لها منذ مطلع القرن التاسع عشر ، وقــد استعين بالمطبعة عام ١٨١٥ فى اعـــداد المطبوعات اللازمة ، ثم بدأ تجول هذه البعثات فى شمال البحر الأبيض وذهب المبشرين الى القدس ثم امتد التبشير الى بيروت ، واسست المطبعة الأمريكية فى مالطة وفى بيروت عام ١٨٣٤ ثم بدأت أول ترجمة عربية للتوراة .

فمالطه هى أول مركز تبشيرى فى الشرق ، ثم كانت بيروت المركز الثانى ، وقد بدأت منظمة الجزويت عملها فى لبنــان عام ١٦٣٥ . وفى عــام ١٨٦٦ أنشئت الكلية السورية الانجيلية (الكلية الأمريكية) وكلية القــديس يوسف ١٨٧٣ (الكلية الفرنسية) وكان أبرز المرسلين الأمريكيين فى بيروت هو كرنيليوس فان ديك .

وقــد عمــل ثلاثة من كبار الباحثين اللبنانيين مع البستانى — عمل فارس الشــدياق فى تصحيح تراجمهم البستانى عمل فارســـ الشـــدياق فى تصحيح تراجـــمهم العربية ، بدأ عمله فى مالطه ثم استكمله فى لندن وساعد على ترجمة التوراة الى العربية(وقد طبعت التوراة ١٨٥٧ أما اليازجى فقدعمل مع المرسلين سنة ١٨٤٠ وساعدهم على ترجمة التوراة وكذلك عمل البستانى .

وفى هــذا الجو كونت الجمعية العلمية السورية ١٨٤٧ بتوجيه وحماية الأمريكيين وحملت لواء الدعوة الى القومية العربية ولم يكن عجيبا أن يبرز هذا التيار فى مثل هذا المحيط ، فقد كان الهدف هو تمزيق الوحدة القائمة فى ظل الدولة العثمانية ، وقد رافق هذا الاتجاه حملة ضخمة على الخلافة والخليفة والحكم العثمانى ، وكانت هــذه الحركة وهذه الحملة تهــدف الى تمزيق الكتلة المرتبطة باثارة الخــلاف والتفرقة باسم « عرب وترك » واثارة العــداء بدعوى اغتصاب الدولة العثمانية حق العرب ومحاولة اعتبار تركيا العثمانية هى الاسلام نفســـه ،

وفصل مفهوم القومية عن الفكر العربى الاسلامى واحلال الفكرة العثمانية أواللادينية للقومية محل مفهومها الطبيعى وهكذا كانت دعوة القومية العربية على يد دعاتها الأول سلاحا لهدمالدولة العثمانية واسقاطها ثم اسقاط الخلافة وهدم الوحدة بين العرب والمسلمين .

وهكذا تركز الدور الأمريكى فى الثقـافة العـربية الاسلامية منذ ذلك الوقت ، فقد بدأت المطبعة الأمريكية عام ١٨٢٢ وبدأت ترجمة التوراة ١٨٣٧ واستمرت حتى ١٨٦٥ ثم جرى تعريب الكنيسة فى العالم العربى وبدأ دور الثقافة الفرنسية فى نفس الوقت فى بيروت أيضـا واستمرو من هنا حملت بيروت لواء نشر ودعم نفـوذ الثقافتين الأمريكية والفرنسية فى الأدب العربى بينما حملت مصر لواء نفوذ الثقافة الفرنسية حتى ١٨٨٢ ثم نافسها نفـوذ الثقافة البريطانية التى حملتـه مصر والعـراق والسودان من بعد ، بينما حمل المغرب العربى لواء الثقافة الفرنسية وحدها . أما الجامعة الأمريكية فقد بدأت فى بيروت ١٨٦٦ بدأت مع ستة عشر طالبا وبلغ عدد الطلبة المسجلين فى السنوات الأخيرة ثلاثة آلاف وثلاثمائة يمثلون خمسين جنسية وأكثر من أربعين طائفة دينية . فقد أعلن مديروها أنها مفتوحة دون أى اعتبـار للون أو الجنس والدين ، وقال بعض الباحثين أن خريجها يخرج منها مؤمنا باله واحد أو بآلهة عديدين أو غير مؤمن بأى اله . وقد بلغ مجموع خريجى الجامعة الأمريكية فى بيروت الآن ٧ آلاف منهم ١٤٠٠ طبيب وعـديد من رؤساء الوزارات والأساتذة والقضاة والأطباء والصحفيين (١٩٦٣) .

وليست الجامعة الأمريكية فى بيروت الا نموذجا لعشرات الكليات والارساليات فى فرض الطقوس الدينية على مختلف الطلبة ، فلما حاول بعض الطلاب الامتناع عن الاشتراك فى الصلوات : قيل لهم « هذه كلية مسيحية أسست بأموال شعب مسيحى ، ولا يمكن للمؤسسة أن تستمر اذا لم يسندها هؤلاء ، وكل هذا قد فعله هؤلاء ليوجدوا تعليما يكون الانجيل بعض موارده » .

واذا كانت هنـاك شبهة فى أن هـذه المعـاهد والارساليات لم تكن خاضعة للتبشير ، فان اختيار جميع رؤساء هذه الجامعات والمعاهد من القسس يرجح كفة القول بارتباطها بالتبشير . وهكذا تركزت فى لبنان أضخم أعمال التبشير والتغريب منذ ذلك الوقت المبكر وقد كان للبنان ظروفه التاريخية فى ارتباطه بالغرب وفى الصراع بين المارون والدروز ، الذى كان فى حقيقته صراعا بين النفوذين الانجليزى والفرنسى والذى فرض عليها وضعها الخاص ، وقد أصبحت ميـدانا للسباق بين الارساليات الأمريكية والفرنسية وفى مصر تولى ادارة شئون التعليم والتربية دوجلاس دنلوب الذى كان فى أول أمره مبشرا فى احدى مدارس الاسكندرية ، وفى مصر ركز التبشير عمله ، منذ أواخر اسماعيل فى القرن التاسع عشر وتوسع نطاقه بعد الاحتلال ١٨٨٢ ، وفى الثلاثينات من هذا القرن برزت حـركة عنيفة ذات خطـر ، وفى السودان جاهر غردون بضرورة تنصير السودان١٨٧٨ وعندما استردت بريطانيا السودان بعد احتلال مصر نشطت حـركات التبشير وأرسلت الرهوط من المبشرين ١٨٩٩ وفى سنة ١٩٠٥ دعا كرومر المرسلين الى انشاء مراكز للتبشير فى مديريات جنوب السودان وتنصير قبائل الدنكا .

وقد عقدت حركة التبشير عددا من المؤتمرات :

١ — مؤتمر القاهرة ١٩٠٦ .

٢ — مؤتمر هولندا ١٣٥٠ هـ .

٣ — مؤتمر بيروت ١٩١١ .

٤ — مؤتمر لكنو (الهند) ١٩١١ .

٥ — القدس ١٩٢٤ — و ١٩٢٨ .

٦ — مؤتمر القدس ١٩٣٥ .

٧ — المؤتمر الأفخارستى (تونس) ١٩٣٠ .

٨ — مؤتمر التبشير العالمى فى أدنبره ١٩١٠ ، وفى عام ١٩٣٤ عقدت مؤتمرات للمبشرين فى القدس وبرمانا (لبنان) وقسطنطينة (الجزائر) ، وحلوان (مصر) . ومن عجب أن اختير لهذه المؤتمرات ، المناطق الزاخرة بالقوى الاسلامية أمثال لكنو فى الهند وقسطنطينة فى الجزائر .

وقد تناولت هذه المؤتمرات دراسة الخطط الخاصة بالعمل فى مجالات التبشير وأشارت الى الخطوات التى تمت فى سبيل تحقيق أهدافها .

وقد أعلنت فى هذه المؤتمرات حقائق بالغة الأهمية أهمها تأكيد أهداف الاستعمار من اتخاذ التبشير سلاحا من أسلحته ووسيلة من وسائله ، ومهما يكن من أمر حركة التبشير فى تاريخنا فاننا حين ننظر اليها بعد أن

تحولت الى مرحلة جديدة لا نرى الا أنها جزء من حركة التغريب الكبرى التى كانت خطوة فى سبيل الوصول الى أعماق الأهداف الأساسية .

وقد أشارت هذه التقارير الى أهمية الغاء الخلافة وأنها كانت عاملا من عوامل « انحلال الرابطة الاجتماعية فى الاسلام » وأهمية الدعوة القومية؟ على النحو الذى حاول الاستعمار فرضها ، وأنها على حد تعبير « زويمر » تدحر روح الجامعة الاسلامية وتحل محلها ، وان هذا كله قد ادى الى تفكك الوحدة فى العالم الاسلامى ، حيث أصبح التركى مثلا يقدم تركيته على اسلامه ، وكذلك الاهتمام بأثر الحملة على كل قدم وطلب العلوم الحديثة مما يظن انه سيقضى على مقومات الفكر العربى الاسلامى .

والواقع أن هذه النظرة لم تكن نظرة صـــادقة ، ولا عامية وأنها انبعثت أساسا من التعصب ، أو بدافع الدعاية المسبقة لتشجيع المرسلين وحفز هممهم ، والدليل على مانقول هوانه بعد مرور أكثر من اربعين عاما تكشف بوضوح أن الرابطة العربية لم تقض على الاخوة الاسلامية بل ربما زادتها قوة ، وان دعوات التحديد لم تقض على التراث ، وان طلب العلوم يساير مقومات الفكر العربى الاسلامى وقد أشارت تقارير التبشير الى أهمية العمل من ناحيـــة التعليم وأشـــار زويمر الى أثر الاستعمار فى مخططات التعلم ومناهج التربية فى العالم الاسلامى اشارة ذات أهميـــة توضع موضـــع الاعتبار : « ان السياســـة الاستعمارية لمـــا قبضت على برامج التعليم فى المدارس الابتدائية أخرجت منها القرآن ثم تاريخ الاسلام ، وبذلك أخرجت ناشئة لا هى مسلمة ولا هى مسيحية ولا هى يهودية ، ناشئة مضطربة مادية الأغراض لا تؤمن بعقيدة ولا تعرف حقا ، فلا للدين كرامة ولا للوطن حرمة » .

وفى هذا يقول مدير الجامعة الأمريكية «انهم يراقبون سير « القرآن وتاريخ الاسلام » فى المدارس الاسلامية ويجدون فيه الخطر الداهم . والواقع أن بعض الأقطار الاسلامية التى تحررت من نفـــوذ الاستعمار قد غيرت مناهجها كمصر مثلا ، وبعض الأقطار الأخرى ما زالت خاضعة لنفوذ الثقافة الأجنبية وخاصة فى العالم العربى ، فضلا عن حـــرية العمل التى ما تزال تلقاهـــا الجامعات الأجنبية ومعاهد الارساليات فى بعض اجـــزاء العالم العــــربى . .

* * *

وقد اولى التبشير اهمية كبرى للتقسيم السياسى الذى حدث بعد الحرب العالمية الأولى وانحلال الدولة العثمانية ، وقيام دول حكومات مستقلة فى كل جزء من اجزاء العالم الاسلامى ، ورأى أن هذا التقسيم من شأنه أن يعين على توسيع حركة التبشير ، وقد اعترف زويمر فى تقريره عام ١٩٢٤ الى أن الاسلام ما زال هو العقبة فى طريق تقدم التبشير فى افريقيا وأن الشيخ والدرويش هو صاحب النفوذ فى افريقيا وقد أشار غيره الى أن الاسلام قد خطا فى غصون المائة عام الماضية (١٨٣٢ — ١٩٣٣) خطوات واسعة ، فقد اعتنق الاسلام فى الهند وحدها ستة ملايين من الهندوس والمنبوذين وفى افريقيا تضاعف هذا الرقم عشر مرات وقال زويمر فى تقاريره أن الاسلام فى افريقيا قد كشف عن سرعة تقدم الاسلام فى مركزه الواسع فى الشمال ومعاقله التى فى السواحل الى الجنوب والغرب الافريقى ولقد أخطأ المفسرون فى تقديراتهم السابقة لأنه تبين لهم فيما بعد أن بعض البلاد التى كانوا يحسبونها خالية من الأديان المعروفة ، هى اما اسلامية محضة أما أنها على أهبة الدخول فى الاسلام . وقال مستر والتير سكرتير بعثة التبشير فى حوض النيل أن الاسلام لا يزال صلبا كالصخرة وأشار زويمر فى تقريره ١٩٦٤ الى أن المسلمين يزدادون قابلية للالحاد ازديادا هائلا ، وأن هدم الاسلام فى نفوس المسلمين له أهمية فى شىء واحد هو قبول الفكر الغربى كصديق دولى . وأشار الى أن الأحوال فى مختلف البلدان الاسلامية اذ ذاك ملائمة لأعمال التبشير ، وأن الدول القائمة — اذ ذاك — أصبحت صديقة للتبشير وعضده القوى ، وأن الدستور الجديد فى مصر عام ١٩٢٤ اشتمل على نصوص قاطعة تكفل الحرية الدينية وصيانتها وأنه يمكن تقديم المعرفة (أى التغريب) عن طريق :

١ — الكتاب والصحيفة .

٢ — منهج التعليم والتربية فى وزارات المعـــارف والتربيـــة .

٣ — البعثات الى المعاهد العربية ، ومما يذكر أن مؤتمر ١٩٢٦ فى القدس عقد برئاسة (جون موط) الرئيس العام لجمعية الشبان المسيحيين العالمية ، وقد ردد المؤتمر المطاعن القاسية على الاسلام وبنى الاسلام ، وقوبلت هذه المطاعن بحملة عاصفة من احتجاج المسلمين فى مختلف انحاء العــــالم .

* * *

وقد أصدرت مؤتمرات التبشير عديدا من القرارات كان من أهمها :

١ ــ قرار التعليم والتربية « في كل حقل من حقول العمل يجب أن يكون العمل موجها نحو النشء الصغير من المسلمين ، وموزعا فيما بينهم ، ليحيط بهم وليكونوا منه على صلة مباشرة ، ويجب أن يقدم هذا على كل عمل سواء في الأقطار الاسلامية ، فان بزوغ روح الاسلام في الناشيء الحديث يبتديء باكرا من عمره ، فيجب والحالة هذه أن يؤتى بالنشء الصغير من المسلمين قبل أن يتكامل نمو عقليتهم ، وابعادهم عن القوالب الاسلامية فتقسو عقليتهم وأخلاقهم . ولم يزل التعليم التبشيري هو أفضل طريقة للوصول الى المسلمين وأشار التقرير الى ضرورة البحث من «السبب الذى دعا الى كون الاسلام هو الدين الذى نزل في تلك البقاع والبلدان وعاش وعلا وعلو كبيرا أكثر من الف سنة » وقد نظم التبشير خطاه في عملين كبيرين :

١ ــ « المؤلفات » ، وقد وضع المؤلفون الوف الكتب المملوءة بالطعن في العرب والاسلام ، كما ركزوا على طبع التوراة وتوزيعها ، وقد انشئت جمعية التوراة في بريطانيا عام ١٨٠٤ وفي خلال القرن التاسع عشر استطاعت أن توزع ١٦٠ مليون نسخة في ٣٦٤ لغة . كما بدأت في (١٩١٢) م ١٣٣٠ هـ مجلة العالم الاسلامي وهى مجلة أدبية اجتماعية تتحول الى مجلة تبشيرية .

٢ ــ « اعداد الدعاة » وقد أشارت تقارير التبشير الى تخريج دعاة متفقين تثقيفا عاليا في اللغات السامية ؟ مع القبض على ناصية اللغات العامية والفصحى والتخرج الكامل في العلوم الاسلامية وفهم روح المسلم وخصائص عقله ، ودراسة تاريخ الاسلام ، وما هو حي من الاسلام المعاصر في المذاهب والطرق الصوفية » .

كما اعدت برامج خاصة ومعاهد لأعداد المبشرين تصور الشرق بصورة التأخر والضعف ، وقد أنشيء في الفاتيكان معهد خاص لدرس الفقه الاسلامي والعقيدة الاسلامية حتى يتمكن المبشرون اللاتينيون من مهاجمة الفكر العربي الاسلامي . وقد انتدب لهذه المعاهد بعض الدونمة من اليهود والأتراك المدعين للاسلام .

وتبدو صورة الفكر العربي الاسلامي كما تصوره تقارير زعماء التبشير : بلس ، وزويمر ، شاتليه على هذا النحو :

١ ــ ان الألوف يتجهون كل عام الى مكة ويشربون ماء زمزم ، الا أنه بالرغم من وجود كل أسباب الارتباط الخارجي والذى يجعل لفكرة الجامعة قوة حقيقية ، فانه يستحيل أن يكون من المسلمين عنصر حقيقي في استطاعته أن يجمع شمل السنيين والشيعيين معا ويضم الأتراك والفرس والهنود الى العرب ليكافحوا يدا واحدة . (بلس)

٢ ــ في أفريقيا ، التجارة كلها في يد القبائل الاسلامية ومن المحقق أن التاجر المسلم يبث في هؤلاء الوطنيين مع بضاعته التجارية دينه الاسلامي وحضارته الراقية ، وللاسلام في أفريقيا صديق مساعد على انتشاره هو الاستعمار الأوربي .

٣ ــ ان بين الأوربي والافريقي هوة تفرق بينهما ؟ والمسلمون قد تمكنوا من ازالة الهوة التى كانت بينهم وبين الزنوج . (زويمر)

٤ ــ ان التقسيم السياسي الذى طرأ على العالم الاسلامي (بعد الحرب العالمية الأولى) سيمهد السبل لأعمال المدنية الأوربية ، اذ من المحقق أن الاسلام يضمحل من الوجهة السياسية وسوف لا يمضي غير وقت قصير حتى يكون الاسلام في حكم مدينة محلقة بالأسلاك الشائكة وأن الاسلام الآن في سبيل التنازل عن أوضاعه وخصائصه الاجتماعية اذ الضعف التدريجي في الاعتقاد سوف يقضي الى انحلال الروح الدينية من أساسها . (شاتليه)

٥ ــ ليس ثم طريق الى حصن الاسلام أقصر مسافة من « المدرسة» ، أن المدرسة أقوى قوة لجعل الناشئين تحت تأثير الحضارة الغربية ، هذا التأثير يستمر حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون يوما ما ، قادة أوطانهم . (أنا مليجان)

٦ ــ ان كثيرين من المسلمين قد زعزع اعتقادهم حينما تعلموا اللغة الانجليزية أن الكتب المدرسية الغربية تجعل الاعتقاد بكتاب شرقي مقدس أمرا صعبا جدا . (تكلى)

٧ ــ ان على فرنسا أن يكون عملها في الشرق مبنيا على قواعد التربية العقلية وذلك حتى تبث في دين الاسلام التعاليم المستمدة من المدرسة الجامعة الفرنساوية . (شاتليه)

* * *

٨ — ان نشر المدنيــة الغربية فى العالم الاسلامى كفيل بزعزعة العقيدة الاسلامية فى نفوس المسلمين .

٩ — ان عدد المسلمين الذين يزورون باريس سنويا يزيد على عدد المسلمين الذين يحجون الى مكة .

* * *

ولقد كان من ابرز من تصدى للتبشير فى العــالم العربى شاتليه ، وبلس ، وزويمر ، اما شاتليه فيرى أن ارساليات التبشير تعجز عن زحزحة العقيدة الاسلامية من نفوس معتقديها ولكنها تستطيع أن تقصى لبانتها من هدم الفكرة الاسلامية ببث الأفكار التى تتسرب مع اللغــات الأوربية . ويقول : ينبغى ان يكون عمل الاستعمار مبنيا على قواعد التربية العقلية وذلك بالتأثير على عقول أبناء الشرق وقلوبهم . وعلى المدارس الفرنسية أن تبث فى دين الاسلام التعاليم المستمدة من المدرسة الفرنساوية وعنده انه ينبغى لفرنسا ان يكون عملها فى الشرق مبينا قبل كل شىء على قواعد التربية العقلية والتأثير على عقول أبناء الشرق وقلوبهم ، ليتسنى لها توسيع نطاق هذا العمل والتثبت من فائدته ، ويقــول انه يجدر بنــا لتحقيق ذلك بالفعل ، أن لا يقتصر على المشروعات التى يقوم الرهبان والمبشرون وغيرهم بها بالنسبة الى الغرض العام الذى نحن نتوخاه وهو غرض لايمكن الوصول اليه الا بالتعليم الذى يكون تحت نفوذ الجامعات الفرنساوية ، نظرا لما اختص به هذا التعليم من الوسائل العقلية والعلمية ، وانا لنرجو أن نخرج هذا التعليم الى حيز الفعل ليبث فى دين الاسلام التعاليم المستمدة من الجامعة الفرنساوية .

ولا شك فى أن ارساليات التبشير من برتستانية وكاثوليكية تعجز عن أن تزحزح العقيدة الاسلامية من نفوس منتحليها ولا يتم لها ذلك الا ببث الأفكار التى تتسرب مع اللغات الأوربية ، فبنشرها اللغات الانكليزية والألمانية والهولندية والفرنسية ، يتحكك الاسلام بصحف أوربا وتتمهد السبل لتقدم اســلامى مادى ، وتقضى ارساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الاسلامية التى لم تحفظ كيانها وقوتها الا بعزلتها وانفرادها . ولا ينبغى لنا أن نتوقع من جمهــور العالم الاسلامى أن يتخــذ له أوضاعا وخصائص اخرى اذا هو تنازل عن أوضاعــه وخصائصه الاجتماعية ، اذ الضعف التدريجى فى الاعتقاد بالفكرة الاسلامية وما تبع هــذا الضعف من الانتقاض والاضمحلال اللازم له ســوف يفضى الى انحلال الروح الدينية من اساسها لا الى نشأتها بشكل آخر .

والتقسيم السياسى الذى طرأ على الاسلام سيمهد السبل لأعمال المدنية الأوربية اذ من المحقق أن الاسلام يضمحل من الوجهة السياسية وسوف لا يمضى غير زمن قصير حتى يكون الاسلام فى حكم مدينة محاطة بالأسلاك الأوربيــــة » .

وقد كذبت الأيام كل ماذهب اليه شاتليه عام ١٩٢٠ وما بعدها ، فان الاسلام لم يضمحل ولم يستطع الفكر الغربى أن يسيطر على مقومات الفكر العربى الاسلامى او يقضى عليها ، واستطاع فكرنا أن يزداد قوة على طريقته فى الامتصاص والاقتباس دون أن يفقد قاعــدته او مقـــوماته .

اما (بلس) فقد تحدث طويلا عن تاريخ التبشير وقال ان ريمون بول الأسبانى هو أول من تولى التبشير بعــد أن فشلت الحــروب الصليبية فى مهمتها فوصلت ارساليات التبشير الى الهند وجزائر السند وجــــاوة وسواحل افريقيا ، وقد اهتمت هولندا بالتبشير فى جاوه فى أوائل القرن الثامن عشر حتى قسمت جاوه الى مناطق لكل منها كنيسة ومدرسة . وفى ١٧٩٥ تأسست جماعة لندن التبشيرية ثم انتقلت الى نيويورك والمانيا والدنمرك وهولنده وسويسرا ، واشار الى تأسيس جمعية الشبان المسيحية ١٨٥٥ من الانجليز والأمريكان وأن مهمتها هى نشر الانجيل بين ابناء الجيل الحاضر .

واشار بلس الى أن المبشرين الكاثوليك دخلوا ربوع افريقيا منذ القرن الخامس عشر أى فى أثناء الاستكشافات البرتغالية ، ثم تركزت قــواهم فى أفريقية الغــربية ثم توسعت فى افريقيا الشرقية والحبشة وعــززت الدول المحتلة ارســالياتهــا ، وكان اهمهــا مــن الكاثوليك والبروتستانت ، وفى اوغنده بدأت حركة الرهبان البيض الذى الف ارساليتهم الكردينــال لافيجرى . ثم توافــد المبشرون على أفريقيــا الوسطى عقب بعثــة ولفشون وستانلى ١٨٧٨ توسعت ثم ارسالياتهم فى شرق أفريقيــا الى اواسطها حتى الخرطوم والحبشة .

وقال بلس ان الاسلام هو العقبة القائمة فى طريق تقدم التبشير بالنصرانية فى أفريقية وهو العدو اللدود لنا وان خصمنا هو ذلك الشيخ او الدرويش صاحب النفوذ فى افريقية فالشيخ والدرويش يجوبان شواطىء البحــر الأحمر والنيجر والمغــرب ووادا ويبثان فى الأهــالى أن الاسلام سينتشر فى كل الاقطار .

وفى مصر واجهت حركة التبشير معاونة فكرية واضحة شاركت فيها مختلف الصحف الوطنية وكان للدكتور هيكل فيها نصيب ضخم فقد والى مقالاته فى افتتاحيات السياسة اليومية صيف ١٩٣٣ وصور حوادث التبشير على أنها حلقة من سلسلة « الغارة على العالم الاسلامى » . وكتب بعض الكتاب يهونون من قيمة أعمال التبشير هذه الأعمال أمثال الدكتور طه حسين والشيخ على عبدالرازق وقالوا أنها لا تضر الاسلام وكشف هيكل عن أن التبشير قد وصل الى غاياته فى مهاجمة الاسلام ، وأن هدفه ليس اخراج المسلمين من دينهم بقدر ما يهدف الى ان يجعله مضطربا فى دينه ، وهذه هى أسمى مراتب الانتقام من الاسلام وأعظم الغايات الاستعمارية وأشار الى الخطة التى أمكن تنفيذها وصورها زويمر باخراج دراسات القرآن والاسلام من برامج التعلم خلال خمسين عاما ومن ثم أمكن « اخراج الشاب والفتاة الاسلامية من الوسائط التى تخلق فيهم العقيدة والوطنية والاخلاص والرجولة والدفاع عن الحق . وشارك الدكتور هيكل فى هذه الحملة معظم كتاب السياسة وفى مقدمتهم احمد نجيب الذى قال ان اقصاء الاسلام عن مدارس المسلمين هو أكبر واسطة للتبشير وأن ذلك قد حطم النشء الاسلامى تحطيما وهو سبب فساد الخلق والوطنية وموت الرجولة فى نفوس شبابنا . وواصل هيكل حملته فقال ان القصد من هذه الحرب التبشيرية هى الاسلام ذاته فهى ترمى الى اضعاف عقيدة الاسلام فى نفوس المؤمنين بها ، وانها استمرار للنضال التاريخى بين الشرق الغرب والاسلام والنصرانية يتخذ اليوم أساليب الغزو الحديث بطريق الدعوة والاراء والوسائل الاقتصادية والاجتماعية ، ويعتقد خصوم الاسلام أنهم قطعوا فى سبيل اضعاف العقيدة الاسلامية فى نفوس المسلمين خطوات لابأس بها ، على أن اضعاف العقيدة الاسلامية هو الخطوة الأولى لغاية أخطر ، فالشعوب التى تتخل عقائدها القومية وتضعف تغدو فريسة أسر للغزو الدينى والفكرى ومتى تم هذا الوهن المنشود فى عقائد الشعوب الاسلامية استطاع الاستعمار الاجهاز على الفرائس وغاضت الخواص والعقائد القومية التى مازالت تتكسر عليها حراب الاستعمار واذا كان الاسلام ما يزال يناضل بقوة وصلابة فانه انما يرد جيوش الغزاة برسوخه وقوة عقيدته ، ثم يصل هيكل الى الراى بأن المقاومة لا تكون الا بتنظيم التعليم الدينى فى المدارس تنظيما يكفل غرس التعاليم الاسلامية فى النفوس قوية راسخة مستنيرة ويقول : ومن الأسف أن التعليم الدينى ما زال قاصرا غامضا ، وأصول الاسلام تلقى فى صور منيفة بالية ، وتلقن للنشىء اختيارية كأنها عبء غير مرغوب فيه فلاتبقى فى أذهانهم منها غير آثار مشوهة هذا فى حين أن الأمم الأوربية تعنى بنظم التعليم الدينى فى مدارسها بصورة جبرية منظمة ، والكنيسة الرومانية تشرف على تنظيم التعليم الدينى فى معظم الدول الغربية وتخاصم الأمم التى تعتدى عليه » وقد أحصى الدكتور هيكل ما تملكه الهيئات البشرية والارساليات فى مصر فبلغت أربعة عشر ألفا من الأفدنة ، مما يساوى مائة وعشرين مليونا من الجنيهات ، ويرد لها سنويا ما قيمته نحو مليون ونصف مليون من الجنيهات من بضائع ، وتبلغ ايرادات هذه البعثات سنويا أربعة ملايين من الجنيهات . وقال أن السياسة الاستعمارية من يوم أن نزلت بلاد الاسلام جعلت أول أعمالها مناهضة التعليم المدنى والخلق الاسلامى ، وصرف الناس عن التربية الدينية التى تقوم أخلاق المسلمين وبذلك ضعفت المناعة الاسلامية فانفتح الباب أمام المبشرين ووجدوا أرضا خصبة ، وأن سياسة الاستعمار ترى واجبا عليها حماية المبشرين الذين يهدمون الاسلام ، وأن اخراج القرآن وتاريخ الاسلام من البرامج التعليمية من شأنه أن يخرج ناشئه مضطربة مادية الأغراض لا تؤمن بعقيدة ولا تعرف حقا ولا تنكر باطلا . أنهم كما يقول مدير الجامعة الأمريكية يراقبون سير القرآن فى المدارس الاسلامية ويجدون فيه الخطر الداهم ، فالقرآن وتاريخ الاسلام هما الخطران اللذان تخشاهما سياسة التبشير . وهكذا كان أول ما اتجهت اليه جهود هؤلاء الجبابرة هو القرآن اذ ما دام هذا القرآن محترما فى نفوس المسلمين ومعمولا به فالجشع الأوربى لا يمكن أن ينال مأربه من هذه الشعوب الشرقية العظيمة ، اذن فأضعاف المناعة الاسلامية ومحاربة القرآن هى الوسيلة لتعبد الطريق أمام هذا الجشع ، وتمكينه من اذلال هذه الشعوب ، ولكى يقضى على هذا القرآن يجب أن تتضافر القوى ، سواء عن طريق المدرسة ، أو المدارس الأخرى وقد عنوا قديما بنشر دعاية واسعة ترمى الى الاستغناء شيئا فشيئا عن اللغة العربية الفصحى للاستعاضة عنها باللغة العامية ، كل ذلك كيدا للقرآن واضعافا لطريقة تعلمه وفهمه « . ولقد استطاع التغريب أن يحد من الأقلام التى تكتب بالعربية من يسخر من حملة التبشير وأن يصغر من أثرها ، هؤلاء طه حسين وعلى عبدالرازق وقد سمح لعلى عبد الرازق أن يقف فوق منبر الجامعة الأمريكية ليتناول مسألة التبشير وأن يهون من أسرها فى اتجام تغريبى شامل(١) .

---

(١) راجع هذا الموقف فى كتابنا « الفكر العربى المعاصر فى معركة التغريب » .

(٢)
حركة الاستشراق

هل يمكن القول بأن الاستشراق حركة منفصلة عن التبشير ، أو حركة تالية له أخذت مداها وقوتها وحملت نفس أهداف التبشير بعد أن تكشفت خططه وابعد من مجال العمل الظاهر وتحول الى مجال العمل الخفى فى ظل حكومات غربية ، وهل حقا ما يقال من أن دعاة النفوذ الأجنبى والاستعمار والقائمين عليه أساسا وكان مجاله فى هذه المرحلة افريقيا أحسوا بأن عمل التبشير السافر المكشوف من قد أزعج العالم الاسلامى ولقى مواجهة ضخمة ، وانشأ حركة رد فعل قوية ومن هنا تبين أن لا ضرورة له وأن أهدافه يمكن أن نبث بأسلوب أكثر ليونة ومرونة ومكرا .

وهل حقا ما يقال من أن توقف التبشير فى المناطق المتمدينة ، واقتصاره على المناطق المتخلفة ، كان تغييرا فى أسلوب العمل لا فى العمل نفسه ، وأن الأغراض التى حملها الاستعمار للتبشير مضت فى ركب حركة الاستشراق . وأنه قد تبين فى الثلاثينات أن حركة التبشير فى الأقطار المتمدنة قد انتهى أمرها ، وأنه يكفى أن يحل محلها منهج آخر يحمل جذور الشبهات واثارة الخلافات بين الفرق والمذاهب ، واحياء دعوات الشعوبية القديمة وابتعاثها والاهتمام بالجوانب الضعيفة واعادة النظر فيها من أجل نفس الهدف الذى حمله التبشير ، وذلك ايمانا بأن المسلم لا يحول عن طرق الدين ولكنه يمكن أن يحول عن طريق الفكر ، وأن خلق روح الالحاد والاباحة عن طريق دعوات جديدة باسم الحرية والتجديد والتقدم من شأنه أن تقضى على مقومات الفكر العربى الاسلامى ويسقطها ويحل محلها مقومات الفكر الغربى .

هذا هو ما يثار من آراء فى وجه الاستشراق . والاستشراق بعد ذلك عمل له شقين والذين يعملون فيه لا يتخذون طريقا واحدا ولا مخططا واحدا ، فهناك استشراق يتصل بالدراسات القديمة وحدها يجددها ويبتعثها وهناك مستشرقون يحاولون عملا مجردا لوجه العلم غير أن هناك استشراق ومستشرقون يتصلون اتصالا وثيقا بدوائر الاستعمار والنفوذ الأجنبى ويعملون بتوجيه من وزارات الاستعمار فى مختلف دول الغرب التى تحتل المناطق فى العالم الاسلامى أو فى افريقيا وآسيا . وهؤلاء هم الذين نعتبر عملهم من مخطط خدمة النفوذ الأجنبى ، وحركة التغريب وهم الذين يثيرون عشرات من الشبهات فى التاريخ واللغة والاسلام والتراث على نحو دقيق ماكر ، وكثير من هؤلاء يكتبون عن العرب والمسلمين والاسلام على نحو يبدو عليه طابع الانصاف والتقدير ، فى مطالعه وفى غضونه ، ولكنه يخفى على نحو من الدقة شبهات وسموما يراد بها وحدها القضاء على مقومات الفكر العربى الاسلامى وجذوره وأسسه .

ولا يضير هؤلاء المستشرقين أن ينصفوا جانبا أو آخر فى سبيل هدم جانب آخر ، وكل منهم يتخذ وجهته فى هدم شىء معين ولكن واحدا منهم لا يهدم كل شىء ، وهم الى هذا يختلفون حتى لا يتهموا بالاتفاق على رأى ، فالمسألة الواحدة يقال فيها رأى من مستشرق وضده من مستشرق آخر ، وربما لا يكون هذا مقصودا أو متفقا عليه ، ولكنه يكشف عن أن القدرة على فهم الفكر العربى الاسلامى لا تتاح بدرجة واحدة ، أو أن درجة التعصب للفكر العربى ، أو درجة الايمان بالغرض السياسى تختلف بين مسألة وأخرى وبين مستشرق وآخر . ولكنها فى مجموعها تمثل حملة مبلبلة لا حد لها فى اثارة الشبهات واحداث عوامل الاضطرابات الفكرى فى النفس العربية والاسلامية وهذا هو الهدف الأكبر .

واذا كان التبشير داعيا الى تغيير العقيدة وهذا ما هو من المستحيل أساسا فان حركة التغريب عن طرق الاستشراق تحمل دعوة الى التجرد من الدين ، ومن الايمان بالقيم ، ومن الايمان بعظمة التاريخ الاسلامى وبطولاته ، ومن تقدير مكانة اللغة العربية ، فاذا الرأى فى هذا كله يحمل الشبهات التى تصل الى حد الاحتقار والشك والسخرية والاتهام والانتقاص . وهذا العمل أخطر من التبشير نفسه . وهذا العمل هو الهدف الأساسى للنفوذ الأجنبى .

وعندنا أن الاستشراق سلاح فى غمده ، ولكن الاستعمار والنفوذ الأجنبى الذى اختار أن يتخذ من حركة التغريب وسيلته الى تمكين نفوذه وبقائه ، قد استطاع أن يجد من هذه النصوص ومن هذه الكتابات وسيلته ، وانه حين أذاعها حرص على ان تصل الىالعالم الاسلامى على نحو من الأنحاء ، وان يصل منها نوع معين ، وان يجعل لهذا اللون مكانة معينة تدخل فىدراسات الجامعات أو أبحاث العلماء أو كتابات الكتاب ثم تحشد لها الوسائل للتركز عليها واحداث الدوى بها ، كان هذا هو عمل التغريب .

وكم من كتاب حمل تقديرا للفكر العربى والاسلامى وللتاريخ الاسلامى تجوهل وأبعد ، وكم من كتاب حمل هذا التعصب والحقد أذيع واتيحت له فرصة الانتشار والاهتمام ، وابرز مثل ذلك جوستاف لوبون وارنست رينان وكلاهما كاتب فرنسى .

وجوستاف لوبون فى نظر الفكر الفرنسى والعالمى اجل مكانا فهو فيلسوف اجتماعى له ابحاثه المركزة القوية النافذة وقد انصف العرب والحضارة الاسلامية والعقل العربى الاسلامى ، ومع ذلك فان آثار رينان لقيت رواجا ملحد هاجم المسيحية والمسيح والأديان ، وانكر نبوة المسيح ، وكانت له حملة على الاسلام والعرب والعقل العربى الاسلامى تذاع وتردد كأنها أغنيات النصر أو لا حد له ، أذاعها طه حسين واحمد أمين واحمد ضيف ومصطفى عبد الرازق ، بل وأقامت الجامعة المصرية حفلا كبيرا لذكرى رينان وظلت هذه الآراء فى انتقاص العقل العربى الاسلامى تذاع وتريد كأنها أغنيات النصر أو الفتح بينما ماتت كلمات جوستاف لوبون ، وبلغ من أمر بعض كتاب العرب أن انتقصوا لوبون واتهموه بأنه ليس عالما وليس باحثا بينما اشادوا برينان الذى أنكره قومه وانتزعوه من كرسيه فى الكوليج دى فرانس .. ومن هنا ببدو على وجه الدقة كيف تعمل النصوص وكيف تذاع النصوص وما هى القوى التى تعنى بها وتركز عليها وتؤكدها . وهذه هى قوة حركة التغريب التى تعمل من أجل بقاء النفوذ الأجنبى . هذه الحركة التى عمدت عندما كشفت حركة التبشير مخططها أن تستبدلها بحركة اشد قوة هى حركة التغريب عن طريق الاستشراق .

وحركة التغريب تقوم فى خدمة النفوذ الأجنبى وتستخدم فيها ثلاث عناصر :

(١) كتابات المستشرقين التى تتفق مع هدفها . (٢) كتابات الغربيين المتعصبين . (٣) كتابات كتاب من العالم الاسلامى تعلموا فى الغرب من وراءهم نفوذ يحمى ظهورهم ويفسح لهم فى مجال التوجيه عن طريق الصحافة والتربية ويدفع عنهم ما قد يواجههم من صعاب .

* * *

نقد اعمال المستشرقين

١ — وقد وجهت الى أعمال المستشرقين نقدات واعية منصفة لم تصدر عن خصومة بل عن تقدير علمى منهجى ، تقول ان بعض هؤلاء المستشرقين لا يعرفون كلمة واحدة من اللغة العربية ، أمثال سلفستر دى ساس ومن أوائل المستشرقين ١٧٩٥ ، وهو أقوى مستغرب عرفته فرنسا اطلاقا ، كان يجهل الوطن العربى جهلا تاما وكان افليس عرنيادن شارح مقامات الحريرى عاجزا عن أن يتكلم العربية أو يفهم ما يسمع من القول بالعربية ، لم نقل هذا نحن عنه وانماقاله زميلله هو جان غوله أحد أساتذة جامع استراسبورج وكذلك جيرار دى نرفال الذى لم يتعلم من العربية الا كلمة (طيب) ويقول جان غوله أنه لا فلوبير ولا بارس ولا احد من هؤلاء استطاع ان يتصل اتصالا مباشرا بالأشخاص والأشياء فى الشرق، فكان من جراء ذلك هذا العدد الكبير من الأحكام السلبية والتعسفية والنظريات الخاطئة والتأكيدات العجلى مما ادى الى سوء التفاهم بين الشعوب .

٢ — وقال نبيه أمين فارس(١) : ان الجزء الأكبر من مؤلفات الغربيين عن الاسلام قد صدر عن أولئك الذين يتحكم فى تفكيرهم الاعتقاد بأن الاسلام دين متخلف، وقد تقدم كثير منهم نحو فهم الاسلام ومعذلك فلا تزال الأحكام السابقة والآراء المغرضة تلازم موقفهم من الاسلام .

٣ — ويقول آخر ان ما يحول بين الافرنج وفهم الاسلام (١) كراهية الاسلام التى رضعوها . (٢) عدم اتقانهم اللغة العربية وفنونها . (٣) نزعة الأوربيين الى الفتح وتكوين آرائهم من وجهة النظر هذه . (٤) سوء حالة المسلمين واعتبارهم المسلمين حجة على الاسلام . (٤) افتراض الرأى أولا ثم البحث عن أدلة له . (٥) التحكم فى الاستنباط والقياس الجزئى .

٤ — واشار لطفى جمعة فى ذكريات له أن أستاذهم فى التاريخ فى مصر مستر هيل (١٩٠١) كان يعلمهم أن اثنين من رجال أوربا أنقذا المدنية الغربية من السقوط فى أيدى البرابرة المتوحشين ، أحدهم شارل

مارتل الذى هزم المسلمين والعرب فى موقعة بواتيه ، قال لطفى جمعة : وقد كتبنا هــذا بأنفسنا وبأيدينــا باملاء استاذنا الذى مثل لنا أمة العرب التى انجبت مئات الألوف من رجال الفنون والآداب الذين علموا أوربا وهذبوها فى وحشية وقسوة تعــادل وحشية الوثنيين فصدقنا هذا وآمنا به وتعلمناه » .

* * *

وقد اســتهدفت كتــابات المســتشرقين الموالين للاستعمار والنفوذ الأجنبى بعض ما اســتهدفته حركة التبشير ، وكان أثرها ابعد وأعمق فى النفوس لما اصطبغت به دراسات المستشرقين من صبغة علمية ، ومــا أتيح لهم من منزلة وتقدير فى نفوس تلاميذهم الذين أشادوا به وخلقوا لهم جوا من الهيبة والتقدير .

وأهم ما استهدفت هذه الكتابات : تشويه الثقافة العربية الاسلامية للحط من شأن العرب والمســلمين فى نفوسهم ، وقد اتجهت هذه الكتابات فى مظهرها لا الى الدعوة الى دين معين ، أو فكر معين ولكن لتشويه كل دين أساسا وللحط من شأن الفــكر العربى الاســلامى بمقارنته بالفــكر الغربى واختلافه معه فى بعض الجوانب واتخاذ فترات الضعف التى مر بها العالم الاسلامى حجة على التخلف ، ومحاولة اعتبار فكرها وصورة الحياة فيها هى الاسلام أو الفكر الاسلامى نفسه .

* * *

* * *

الاتهامات الموجهة للإسلام

وقد كشفت كتابات بعض المستشرقين عن اهدافها فى خدمة النفوذ الأجنبى والتغريب حين اتفقت فى بعض جوانبها مع مفاهيم دعاة التبشير ، ويبدأ ذلك واضحا فى كتابات المستشرقين أنفسهم فان لورنس بروان يقول مثلا : ان الخطر الحقيقى كامن فى نظام الاسلام وفى قدرته على التوسع والاخضاع ، وفى حيويته ، انه الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الغربى . ويقول ليوبولد فابس : أصبح احتقار الاسلام جزءا أساسيا من التفكير الأوربى ، ومن هنا كان اتجاه الفرنسيين الى العمل على تشكيك المسلمين فى دينهم وتحقيره فى نفوسهم وتحميله تبعة صنيعهم وقد وصلوا فى ذلك الى نتائج اكثر مما كانوا يتوقعون ، وذلك عن طريق تسميم عقول المسلمين بما يقولونه عن الاسلام وتاريخ الاسلام باسم البحث العلمى .. وأن تحامل المستشرقين على الاسلام غريزة موروثة وخاصة طبيعية تقوم على المؤثرات التى خلفتها الحروب الصليبية ، وعنده أن كره الأوربيين نحو الاسلام كره عميق الجذور تقوم فى الأكثر على التعصب الشديد ، وهو ليس كرها عقليا فحسب ، وانما يصطبغ بصبغة عاطفية قوية ، وقد تتقبل أوربا البوذية أو الهندوكية ولكنها تحتفظ أمامها بموقف عقلى متزن ، الا أنها حين تتجه الى الاسلام يختل التوازن ويأخذ الميل العاطفى للتسرب . وقد ظهر من بحوثهم كأن الاسلام منهم يقف أمام قضاته ، وأن ما يبدو فى سير المحاكم من عدالة فانما هو للتعمية والتضليل ، وأن طريقة الاستقراء والاستنتاج التى يتبعها أكثر المستشرقين تذكرنا بوقائع ديوان التفتيش ، هذه الدواوين التى انشأتها الكنيسة الكاثوليكية لخصومها فى العصور الوسطى ، أى أن تلك الطريقة لم يتفق لها أبدا أن نظرت فى القرائن التاريخية بتجرد ولكنها كانت فى كل دعوى تبدأ باستنتاج متفق عليه من قبل قد أملاه التعصب .

ويرى الدكتور محمد كامل عياد أن الاستشراق يعمل فى خدمة الاستعمار بأسلوب مقاومة الاسلام وتأييد الكنيسة ، قال : ان هناك علاقة وثيقة بين الاستعمار والاستشراق وعنده أن مباحث المستشرقين فى النهضة العربية الحديثة قليلة جدا وهى مختصرة وسطحية على العكس من دراستهم عن تاريخ العرب القديم وعن التاريخ الاسلامى فانها كثيرة لا تكاد تحصى ، وهى تتعرض الى عدد كبير من المسائل ولكنها تحوم فى الغالب حول الفتن الأهلية والخلافات المذهبية ومظاهر الانقسام والتفسخ .. ومن الغريب أن نرى المستشرقين يبذلون كل جهودهم للكشف عن العوامل الخارجية والعناصر الغربية التى كان لها بعض التأثير فى نشأة الاسلام والحضارة العربية فى حين أنهم يذكرون باختصار أو يهملون بالمرة مظاهر التطور والتجديد والابتكار عند العرب ولابد أن يؤخذ فى الاعتبار أن المستشرقين المتأخرين أمثال مرجليوث وفاتيانى ولامنس قد استطاعوا أن يوحدوا بين أغراض الاستعمار وأهداف التبشير(1) .

وعند كثير من الباحثين أن التبشير والاستشراق مقدمة أساسية للاستعمار الأوربى وسبب مباشر لتوهين قوة المسلمين ووحدتهم ، وأن أكبر الأهداف للنفوذ الأجنبى والاستعمار مستعينا بالتبشير والاستشراق والتغريب والشعوبية هو الحيلولة دون وحدة المسلمين أو وحدة العرب وفى ذلك يقول لورنس بروان فى كتابه الاسلام والارساليات « اذا اتحد المسلمون فى امبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرا ، أما اذا ظلوا متفرقين فانهم يظلون حينئذ بلا قوة ولا تأثير ، ويرى التس كالهون سيمون : ان الوحدة تجمع آمال الشعوب السود وتساعدهم على التخلص من السيطرة الأوربية ، لذلك كان التبشير عاملا هاما فى كسرة شوكة هذه الحركات فهو يعمل على سلب الحركة الاسلامية من عنصر القوة والتمركز منها » ومن هنا كان العمل يستهدف تغييب الوحدة ودرء خطر هذه الوحدة باستغلال الشعوب الآرية لها واستنزاف ثرواتها .

وعندنا أن الاستشراق قد استهدف توطيد النفوذ الأوربى ومقاومة الثورات والحركات التحررية باثارة الشبهات حول المفاهيم العربية الاسلامية للقيم ومحاولة احلال المفاهيم الغربية محلها .

* * *

---

(1) دراسة له فى كتاب (التاريخ والآثار) الصادر عن المجلس الأعلى للفنون والآداب .

ويرى الدكتور حســـين الهراوى أن المستشرقين يتكلمون فى التـــاريخ العـــام بروح المـــؤرخ ، أما عن سيدنا محمد وعن الاسلام وعن القران فهم يتكلمون بروح المنفر الذى يخيف الناس من الاسلام وبروح المتحـــامل الذى يكيل الدسائس والشتائم من غير وزن .

وكنت أعلم أن المستشرقين ينقصهم فى مباحثهم عن الاسلام : الروح العادلة وان لهم فى الاســـتقصاء طريقة لا تشرف العلم وهى أنهم يفرضون فرضا ثم يتلمســـون أسبابه ، فاذا وجدوا فى القرآن آيات تتناسب فى معانيها مع فرضهم اقتبســـوها واذا وجدوا آيات لا تتناسب مع أغراضهم تجاهلوها ، وقالوا أنها غير موجودة فى القرآن فيخرج القارىء من كلامهم وهو يتهم الاسلام بالتلفيق كما يتهمونه .

ويقول الدكتور حسين مؤنس أنه من النادر أن تقرأ لمستشرق فرنسى شيئا طيبا عن حياة الرسول (ص) لأنه حتى لو هو وجد شيئا طيبا فان لسانه لايطيعه فى كتابته ولو قاله فانه يتحفظ فى قوله تحفظا بالغا حتى يخيل اليك أنه يخشى الوقوع فى النار .

ويرى الدكتور مؤنس أن الاستعمار وســـع نفوذه بالعمل فى مجال الكتب بعد أن كان واسعا فى مجـــــال السياسة وحدها ، وأن كل معاونة فى مجال الحضارة فى الغرب اليوم للدول الناميةفى أفريقيا وآسيا تبدو مشروطة بالمعاونة العلمية بانشاء المعاهد والمدارس وبذلك تفرض لغتها وثقـــافتها ، فهو استعمار العلم والثقـــافة . هذا الاهتمام بطبع كل نص جديد يظهر عن العرب والاسلام ويشير الى أن معظم البيانات التى تجمع عن العالم العربى والاسلامى « مستقاة من غير ذوى الاختصاص من أرمن ويونان ممن أقاموا فى البلاد العربية للتجـــارة » وأشار الى الارتباط بين دوائر المستشرقين وادارات المستعمرات فى الدول الأوربية .

و نشر المستشرق الايطالى جريفينى أبحـــاثا عن الفقه الزيدى ويقول أنه يفيد ايطاليا فى احتكاكها باليمن .

ويرى الدكتور مؤنس أن الاستشراق والاستعمار والتبشير أشبه بالحلقات الثلاث المتداخلة التى تتخذها التعاون شارة له دلالة على قوة التماسك .

وهناك مستشرقون متحاملون أمثال لويس استبرنجر وهنرى لامنس ، وقد كتب ستيفن رونسيمان : كتـــابا كبيرا عن الحروب الصليبية جعله تاريخـــا المسيحية فى الشرق العربى ، ونظر الى هذه البلاد على أنهـــا بلادا مسيحية انتزعها الاسلام ، وأن الحروب الصليبية على هذا محاولة من المسيحية لاستعادة ما كان فى يدها .

ويحـــاول المستشرقون ارجاع الفلســـفة والعلوم العربية الى أصـــولها اليونانية وينكرون فضـــل العرب والمســـلمين . وقد وصف فارس الشـــدياق أحد ثلاثة اشتغلوا بالعمل مع المستشرقين والمبشرين وهم (ابراهيم اليازجى وبطرس البستانى) يقول أن هؤلاء(١) الأساتيذ

لم يأخذوا العلم عن شيوخه ، انما تطفلوا عليه تطفلا وتوثبوا اليه توثبا ، ومن تخرج منه بشيء فانما تخرج على القسس ثم أدخل رأسه فى أصفات أحلام وتوهم أنه يعرف شيئا وهو يجهله ، وكل منهم اذا درس فى احدى لغات الشرق أو ترجم شيئا منها تراه يخبط خبط عشواء، فما اشتبه عليه منها رقعة ، من عنده بما شاء ، وما كان بين الشـــبهة واليقين حـــدس فيه ، وخمن فرجح منـــه المرجوح وفضـــل المفضول . ويقول الدكتور عمر فروخ أن الاستشراق على قدرة فى تاريخ البحث العلمى لم يفقد شيئا من حميته مع تغلب الأحداث على العـــالم ، ذلك لأن الاستشراق بدأ سياسيا فى الأكثر ، وعلميا فى الأقل، وهو ما زال منذ ذلك الزمن يرتدى طابعين : طابعـــا سياسيا استعماريا وطابعا علميا » . ومن الذين اتصلوا بالمستشرقين طويلا وقاموا باعداد مؤلفاتهم الاب انستاس مارى الكرملى الذى يرى « أن علم المستشرقين عرضـــة للنقد والتحقيق ولابد من أن ينتقدوا الانتقاد الصحيح ، ولقد وجدنا هفوات لا تغتفر لهؤلاء المستشرقين فى جميع الأمم وفى جميع التصانيف وما نشروه من الكتب(٢) .

ويروى صلاح المنجد فى كتابه « المنتقى من دراسات المســـتشرقين » أن المســـتشرقين ضروب ثلاثة : (١) ضرب منها لم يملك ناصية اللغة فأخطأ فى نشر الكتب وفى فهم النصوص ولكنه حفل بأمور شكلية لا فائدة لنا منها . (٢) ضرب أثرت فى دراساتهم مآرب السياسة والتعصب للدين فوجهوا الحقائق وفسروها بما يوافق أغراضهم أو ما يسعون اليه ، ومن المؤسف أن يســـخر هؤلاء العلم الذى يسمو به الانسان لاذلال الانسان أو استعباده . أو

---

(١) زيل الفارياق من ؟ .

(٢) المجـــلد ١٤ ص ٢٣٦ مجلة المجتمع العـــلمى العربى — ١٩٣٦ .

الطعن فى تراثه وعقيدته بغير الحق . (٣) فريق أوتى سعة العلم والتمكن من العربية والاخلاص فى البحث والتحرر والانصاف . ويرى نجيب العقيقى فى كتابه « المستشرقون » (٣ مجلدات) أن المستشرقين ثلاث أقسام : (١) طلاب الأساطير والغرائب . (٢) المرتزقة الذين وضعوا أقلامهم فى خدمة مصالح الاستعمار السياسية والاقتصادية . (٣) فئة المتغطرسة الذين أعمتهم الضلالة عن الموضوعية . (٤) فئة تعرضت للاسلام دون أن تقصد الطعن فيه ، وقد درجوا على نقد الكتاب المقدس .

ويصور « فريد وجدى » موقفه من أبحاث المستشرقين بعد دراسته واستيعابه لأغلب آثارهم فيقول : لابد من الحيطة والحذر فى النظر الى البحوث الاستشراقية ، ومما لا شك فيه أن بعض الغربيين المشتغلين بالدراسات الاسلامية لم يعن بدراسة مبادىء الاسلام وعلومه الا ليكون ذلك وسيلة لأن ينقده وطمعا فى استطاعته بهذه الوسيلة أن يرد شيئا من مبادئه . ويرى أن بعض الذين كتبوا بانصاف عن الاسلام ردتهم الكنيسة ومن هؤلاء هاذربان ريلاند (١٦٧٦ — ١٨١٨) أستاذ اللغات الشرقية بجامعة أوترشت الهولندية ، فقد عمد الى تقديم صورة صحيحة لتعاليم الاسلام والى تصحيح الأخطاء التى كانت شائعة فى ذلك الوقت عن مبادىء الاسلام فى كتابين ألفهما وهو أول من أعطى صورة علمية صحيحة للتعاليم الاسلامية من علماء الغرب وقامت ضجة كبرى عند ظهور كتابه (محمد ينز) واتهم بممالأته للاسلام ، ووصف بأنه من دعاة الاسلام المبشرين به ، واتخذت الكنيسة ضده الاجراءات وأثبت كتابه فى قائمة الكتب المحرمة ، غير أن الأستاذ ريلاند لم يكن يهدف من دراسة الاسلام الدفاع عنه ، بل مهاجمته ، يريد أن يقدم صورة صحيحة ثم يحاول بعد هذا ايجاد مآخذ وفتح باب للمهاجمة والنقد ، وعنده « أن الواجب علينا أن نبحث الاسلام ونكشف عن خفاياه كما نبحث عن خفايا الشيطان ونكشف عن حيلته » .

وليس شكا بعد هذا العرض ، أن اهتمامات المستشرقين ما كانت لتصل الى هذا الحد من الاضطراب لو كانت خالصة لوجه العلم ، ولو كانت كذلك لكان لها أن تسلك الطريق الطبيعى ، وأن لا تكون منحرفة فى اهتماماتها بالجوانب الضعيفة والتركيز عليها تاركة وراءها جوانب ضخمة خصبة من القوة والايجابية ، وما كان هذا الاهتمام الا اعتبارها الجوانب التى يمكن أن تثار من ناحيتها الشبهات .

وقد صور أهداف هذه المؤتمرات وزير معارف هولندا فى مؤتمر المستشرقين بها عام ١٨٨٣ فقال ما نصه « ان هولندا لم تقصد التبسيط بأطراف آسيا للتجارة والمكاسب المادية فقط بل قصدت نشر الدين المسيحى » وقال ان اهتمامهم بالأبحاث الشرقية بدأ عندما استعمروا جزر جاوه رغبة الى معرفة نفسية تلك الشعوب ولغاتها وآدابها . ويبدو هذا المعنى واضحا مثلا فى موضوعات مؤتمر المستشرقين فى مراكش (٣١ مايو ١٩٢٨) الذى اشتركت فرنسا وأسبانيا فيه وعقد فى رياض الفتح فقد كان موضوعه دراسة تاريخ المغرب القديم والحديث ، وما يتعلق به من البحث فى دوله وآثارهم وأنواع السكان وأصولهم ولغاتهم ، وقد تناول البحث اللغة العربية واللغة البربرية فى المغرب ، وقد وضع برنامج المؤتمر م. بروفنسال مدير معهد الدروس العليا المغربية بالرباط ولم يحضره عربى واحد ، ومن عصارة أبحاث هذه المؤتمرات خرجت كل النظريات الداعية الى تمزيق وحدة العنصرين : المتزجين : العرب والبربر ، والى ما أذيع من أن الارتباط بين بالرومان أسبق وأقوى من صلتهم بالعرب والمسلمين وأن على المغاربة أن يعودوا الى أصولهم الأولى .

وفى مؤتمر المستشرقين بالجزائر عام ١٩٠٥ آثار مستر فولار أوفولرس الألمانى أثار دعوى الاهتمام باللغة العامية وتقديمها على اللغة الفصحى ، وقال انه لا يرى أن لغة القرآن هى أفصح لغات العرب أو اللغة العربية المحضة ، وقال اذا أردنا أن نطلب اللغة الأنصع فصاحة والأصح أصلا وجب أن نرجع بالبحث الى العصور التى سبقت ظهور الاسلام .

وهاجم مستر (فولار) القرآن الكريم وقال أنه مديح على طراز خاص من النثر وقد تصدى له عبدالعزيز جاويش فكشف عن أخطاء المستشرق المتعصب ، وقال أن هذا المستشرق وأمثاله ليسوا من القدرة والفهم للغة العربية بحيث يمكنهم الحكم على الفصيح والأفصح ، فان صحة الحكم فى اللغة تستوجب وجود اللغة راسخة فى الحس عريقة فى النفس وهو مالا يؤتى بالكسب الا بعد قضاء السنين الطويلة فى مزاولة الدرس(١) كما تكلم فى هذا المؤتمر احد الفرنسيين فطعن فى عادات العرب ونسبها الى تعاليم الاسلام وتصدى له شاب جزائرى وطلب منه أن يقدم على ما يقول برهانا من القرآن والسنة فعجز .

---

(١) الظاهر ٦ مايو ١٩٠٥ واللواء ١٨ مايو ١٩٠٥ وانظر تفاصيل هذا المؤتمر فى كتابنا الفكر العربى المعاصر فى معركة التغريب واللغة والثقافة » : فصل الاستشراق .

وفى مؤتمرات المستشرقين ظهرت بجلاء أهداف الاستشراق وانكشفت مخططاته التىتوجب الحذر والنظر الى أعمال المستشرقين فى ضوء خدمة النفوذ الأجنبى والاستعمار ومقاومة كل ما يحول دون بقائه فى العالم الاسلامى وهو الفكر العربى الاسلامى بقيمه ومقوماته .

وقد بدأ عقد مؤتمرات المستشرقين (سبتمبر ١٨٧٣) بمدينة باريس ، لندن ١٨٧٤ سان بطريبرج ١٨٧٦ ، ايطاليا ١٧٨٧ ، هولنده ١٨٨٣ ، فينا ١٨٨٦ استوكهولم عام ١٨٨٩ لندن ١٨٩٢ جنيف ١٨٩٤ باريس ١٨٩٧ روما عام ١٨٦٩ هامبورج ...الجزائر ١٩٠٥ هامبورج ١٩٠٩ أثينا ١٩١٢ اكسفورد ١٩٣٣ .

وقد شارك فى هذه المؤتمرات كثيرون من العالم العربى ومصر منهم محمود الفلكى ويعقوب أرتين ، وحمزة فتح الله ومحمود رشاد وحفنى ناصف وعبد الله فكرى وأمين فكرى ومحمود عمر الباجورى وأحمد زكى باشا واحمد شوقى وعمر لطفى ومحمد فريد وسعد زغلول واسماعيل رافت وعلى بهجت ومحمد شريف سليم وحسن عاصم ، وحامد والى ومحمد سلطان وعبدالعزيز جاويش وحسين والى ومحمد سالم وعثمان غالب وأحمد السكندرى ومحمد أحمد جاد المولى وطه حسين وأمين الخولى وغيرهم ..

وفى المؤتمرات الأولى استطاع بعض ذوى الرأى ان يدلوا بآرائهم عن اللغة العربية ، وأبحاث حفنى ناصف عن (مميزات لغات قبائل العرب) وعبد الله فكرى وأحمد السكندرى عناللغات العربية ومقارنتها باللهجات العامية وحمزة فتح الله عن حقوق المرأة فى الاسلام .

وكان أمثال أحمد زكى باشا وعبد العزيز جاويش واحمد السكندرى ومحمد أحمد جاد المولى موضع تقدير المستشرقين ، لأصالتهم وقدرتهم على مواجهة انحرافاتهم والرد عليها . غير أن بعض من جاء بعد ذلك لم يكن له من القدرة والقوة ما يمكنه من معارضة آراء المستشرقين، ثم جاء جيل بعد ذلك من أصحاب الولاء للفكر الغربى والاستشراق تابع المستشرقين فى خطواتهم بل واخذ منهم واعتمد عليهم واتخذ كتاباتهم مصادر أساسية بالرغم مما تحمله من الخطأ والخلط والاضطراب .

* * *

(٣)
حملة الغرب على الإسلام والعرب

أن هدف حركة التغريب اساسا هو تثبيت قواعد النفوذ الأجنبى والاستعمار وهى الحركة الكبرى الأساسية التى كانت دعوة التبشير وعمل الاستشراق وحركة الشعوبية وسائل لها . وليس تغيير الدين فى نظرى هو وحدة هدف التبشير ، ولكن الهدف الأساسى هو فرض ثقافة معينة وفكر معين على الفكر العربى الاسلامى حتى يخضع العالم الاسلامى عن طريق الفكر للغرب ويكون تابعا لايحس بتبعته بل يحس بمشاركته ، ولا تكون العلاقة بين التابع والمتبوع الا علاقة ولاء وترابط وليست علاقة صراع وخصومه . فقد كان الغرب يؤمن ولا تزال بأن فكره ومدنيته وحضارته يجب أن تسود العالم كله وأن تختفى كل مقومات فكر الأمم التابعة له أو تنصهر فى ثقافته وهذا ما أطلق عليه حركة « تغريب الشرق » وبذلك يخضع العالم كله للفكر والحضارة العربية ، ولما كان هذا مستحيلا اساسا وتبدو استحالته فى الفوارق الجذرية بين الفكر العربى الاسلامى والفكر العربى لاختلافهما فى الأسس والقواعد والقيم الأساسية، فمن هنا جاء الصراع ومن هنا اخذت حركة التغريب تشهر سلاحا بعد سلاح لتحقق هذا الهدف فكان التبشير والاستشراق . وكان استغلال حملة كتاب الغرب على الشرق ثم كانت الشعوبية ممثلة فى حركات ذات صبغة فكرية أو دينية ، ومن ورائها مجموعة من الكتاب الذين يحملون أسماء عربية من أصحاب التبعية للفكر الغربى والولاء لثقافته والايمان بوجوب نقل ثقافته وحضارته ككل وانه لا انفصال بين الثقافة والحضارة .

ويمكن القول أن حملة التغريب انقسمت الى ثلاث حملات :

المرحلة الأولى : التبشيروقد كانت كتابات التغريب فى هذه المرحلة عنيفة ومتعصبة جامحة وكان يتبعها عمل مباشر عن طريق المدرسة والمستشفى .

فى المرحلة الثانية : انتهى التبشير فى المدن واحل التغريب محله كتابات الاستشراق وفى هذه المرحلة خفت الحده واختفى الجموح . كان الهدف الطبيعى هو القضاء على التحدى وارخاء المفصل ، واسباغ طابع من التخدير حتى يمكن أن تتحقق عملية التغريب فى يسر ، وذلك بالتحويل للمناهج فى مجال التربية والتعليم ، واثارة الشكوك الخفية واثارة الخلافات التى تحول دون الوحدة وتلجأ الى التفرقة والخلاف والقضاء على كل ما من شأنه أن يدعو الى التجمع ونسيان الخلافات ومواجهة الحملة التغريبية .

وليس ما جاء فى المرحلة التالية من انصاف وليونة فى العبارة الا وسيلة لتنفيذ خطة أشد قسوة وأعمق تأثيرا وليس تغييرا فى مفاهيم التعريب وليس تخففا من تعصبه، وليس تقربا فى سبيل الالتقاء على مفاهيم الفكر العربى الاسلامى ، وقبولا لوجهات نظره فى القيم والقضايا الكبرى .

وتمثل المرحلة الثالثة : «حملة الغرب على الشرق» وفى هذه الحالة ظهر كتاب ليسوا مستشرقين وليسوا من أتباع الارساليات أو زعماء الاستعمار وانما هم كتاب غربيون فيهم صلف التعصب للجنس الأبيض وغرور الاحساس بالتفوق . فكان تناولهم لقضايا الفكر والتاريخ فى العالم الاسلامى تناولا صادرا عن هذه الروح ، بالغ التعصب للاستعمار وأوربا والغرب ، حاملا أشد الحملة على الشرق والاسلام والعرب باعتبارها تمثل التخلف والجهل والضعف . وقد استغل التغريب هذه الحملات واستخدامها فى سبيل سحق روح ايمان العالم الاسلامى الوطن العربى بنفسه وحرص على نشر هذه الآثار فى صحف العرب ، وفى خلال مرحلة ما بين الحربين نشرت الصحف عشرات من هذه الفصول وحرصت على ابرازها واستطاعت بعض الصحف غير الموالية للاستعمار أن ترد عليها .

وفى هذا المجال ايضا ظهرت كتب متعصبة منحرفة، وفتح لها الطريق الى الجامعات ، وقد تعالت صيحات فى جامعة القاهرة وفى معاهد القدس وبيروت وسوريا اكثر

من مرة عن مؤلفات تتناول العرب والاسلام والقرآن واللغة العربية بالتحدى واثارة الشبهات ، تدرس فى المدارس والجامعات وتفرض على الطلاب . وقد حمل لواء هذه الحملة رجل السياسة والاستعمار أمثال رينان داركور وهانوتو ، وكرومر ، وجلوب ولورنس ، ونلوب ونيولى وويلكوس ، أما دوق داركور فهو فى مقدمة الذين افتعلوا الضجيج بالحملة على المصريين والاسلام والمسلمين فى كتاب ألفه عام ١٨٩٣ بعنوان

Tgynte ot Los Egydtios

وقد أثار ما جاء فى هذا الكتاب من حملة مغرضة حماس قاسم أمين فرد عليه بكتاب باللغة الفرنسية ١٨٩٤ كما تصدى للرد عليه طلعت حرب باللغة الفرنسية أيضا . وقد أشار داركور فى كتابه الى أن السر فى تأخر الفكر فى مصر كما يراه هو ، مرده الى الاسلام ، فالاسلام هو السبب الأساسى فى هذا التأخر الذى لحظه فى كل بلد اسلامى ، فالاسلام فى رأيه لايحض على البحث فى العلوم غير الدينية ، ولذلك احتقر المسلمون علوم الغرب واعتقدوا أن القرآن قد حوى بين دفتيه علوم الأولين والآخرين وكل ما عداه باطل ، وانكر على العرب أن كانت لهم مدنية خاصة . وقد تناول قاسم آرائه بالتفنيذ ودحض هذه المفتريات جميعا ، ثم ظهر مقال هانوتو عام ١٩٠٠ فى جريدة الأهرام فى الطعن على الاسلام والمسلمين ، وقد دعا قومه الى قتال المسلمين والقضاء عليهم ، وهاجم التوحيد ، وردد قول كيمون الذى دعا الى نسف الكعبة ونقل (النبى محمد) الى متحف اللوفر . وقال أن على أوربا المستعمرة فى الشرق تلقيح أفكار المسلمين بجانب من الأخلاق الأوربية وقطع الصلة بينهم وبين كعبة الاسلام .

وقد تصدى للرد على هانانو الشيخ محمد عبده وعلى يوسف وفريد وجدى . وفى كتاب الفتوحات العربية الكبرى لجلوب حملات على تاريخ العرب والاسلام ومغالطات لا حد لها ، قد حمل « جلوب » على المؤرخين العرب فى كتاباتهم التاريخية واتهمهم بسوء التقدير ، ولا شك قصد جلوب الى رسم صورة فيها تشكيك وتضليل ، وانشأ صورة زائفة عن النبى وقادة الاسلام وقد حرص « خيرى حماد » مترجم كتابه الى اللغة العربية أن يرد على كل أخطائه فى مكانها وكذلك كانت حملة كرومر ودنلوب ولورنس وويكلوكس وليوتى تحمل هدفا محددا :

(١) القضاء على اللغة العربية والقرآن . (٢) التشكيك فى الاسلام . (٣) اتهام العرب والمسلمين بالقصور واتهام فكرهم بالضعف . (٤) اثارة الشبهات حول التاريخ واللغة والدين والتراث جميعا .

وهناك كتاب حملة التعصب أمثال رينان وفولتير ولويس برتران ومنتسكيو . وهم ليسوا من رجال السياسة والاستعمار ولكنهم غربيون متعصبون للغرب ، يملأهم احساس باستعلاء الجنس واللون ، وأحدهم « رينان » يؤمن بنظرية السامية والآرية ، وهو من أكبر دعاة استعلاء الآرية والأوربيين وهو صاحب الحملة على الأديان والاسلام بالذات وعلى العرب وعقليتهم . أما فولتير فهو أحد أحرار الفكر فى رأى العصر كله ، ولكن كتابه عن النبى محمد صلى الله عليه وسلم قد كشف عن تعصبه ، فقد أسمى مسرحيته «التعصب أو النبى محمد» وكل حوادث المسرحية من صنع مخيلته وبها كثير من الأخطاء التاريخية ، ومن هذه الأخطاء اعتباره الزبير زعيما لسادة قريش المناهضين لدعوة محمد عليه السلام .. وقد وجه هذه القصة الى البابا بنوا الرابع عشر ، مصورا انه قد كتبها عن « عقيدة بربرية زائفة » وكان ذلك عام ٧٤٢م ووصف النبى بأنه مؤسس ديانة كاذبة. وقد كشف هذا العمل عن أن فولتير لم يكن الا واحدا من أولئك الطامعين فى صولة أصحاب النفوذ ، وأن عمله لا يمت الى الفكر الحر بصلة ، الا اذا كان الفكر الحر فى نظر الغرب هو هذه الحملات التى تحمل صورة التعصب .. وقد وصف عمله هذا بأنه تمسح بأبواب الملوك وأصحاب الجاه ، وأنه قدم ثمنا لذلك أفكاره الحرة .

من هؤلاء الكتاب لويس برتران صاحب كتاب امام الاسلام أو بازاء الاسلام . وقد وصف الدكتور هيكل هذا الكتاب(١) بأنه أشد ما ظهر فى السنين الآخرة صراحة فى عدوانه على المصريين والمسلمين وأشدها امعانا فى الطعن عليهم والنيل منهم ، وهو فوق ذلك صيحة لاعلان الحرب بين الشرق والغرب والنصرانية والاسلام . والكتاب لا تشتمل على شىء جديد غير هذه النزعة الرجعية التى ادت الى الحروب الصليبية فى القرون الوسطى ، وأشار الدكتور هيكل الى هدف برتران فقال : اذا كان يريد أن يعتقد أن قومه اكرم عنصرا وأشرف مقاما فى الانسانية من الشرقيين ومن المسلمين ، فليعلم أن الزمن الذى أتاح لأوربا أن تحكم العالم ردحا من الزمن قد أتاح ذلك من قبل لأمم آسيا ولأمم افريقيا ومصر التى نالها المؤلف بحقده وكراهيته فقد حكمت العالم عصورا عديدة وقد صبغت العالم بمدنيتها ، ولعل أهلها يومئذ كانوا يعتقدون أن الأجناس التى تقطن أوربا كلها همج وبرابرة متوحشون . والكتاب فى مجموعة صيحة استعلاء فيها اتهام للشرقيين والمسلمين بالتأخر والتعصب وأنه

---

(١) ٢٠ مارس ١٩٢٦ السياسة الأسبوعية .

لا قابلية عندهم للتمدن . وفيه اشارة الى ان أوربا تحمل أمانة تمدين العالم .

وقد حشدت الصحف والمجلات فيما بين الحربين صفحات كثيرة للرد على الكتب المشبوهة التى صدرت فى الغرب عن الاسلام والمسلمين والعرب والمصريين وكلها تحمل طابع الحقد والاحتقار والتعصب والاستعلاء . وقد أشار (م ر . ح . كويت) فى كتاب الاسلام والدول البريطانية الى أن طابع الاستعلاء هذا يصدر عن أساس تربوى قديم يقول : ان الكثيرين منا شبوا على كراهية الاسلام والمسلمين وارتضعوا ذلك مع لبان أمهاتهم ، هذا فضلا عن أن ما لدينا من المعلومات عن الدين الاسلامى تزيد فى بعدنا عن معرفة حقيقته خصوصا لعدم امكاننا الوقوف على أصوله من اللغة العربية .

وقد وجهت الصحف الفرنسية والبريطانية طعونا لا حد لها للفكر العربى الاسلامى وللمسلمين والعرب والمصريين ، ولقد أشار شكيب أرسلان الى أن احدى دور السينما فى شامبرى بفرنسا عرضت فلما يمثل المسلمين فى هيئة رثه رزيه قذرة متوحشة تشمئز لمنظرها النفوس ، ثم كتبت تحت هذه المناظر عبارات تلقى فى أذهان النظارة أن دين الاسلام هو السبب فى جذب هذه الأمم الى الوراء وتعاليمه هى التى قذفت بهم فى أحضان الهمجية(٢) . وقد صدرت عشرات الكتب ضد الاسلام والعرب فى مختلف فروع الكتابة ، سواء فى مجال التاريخ أو اللغة أو القومية أو الوطنية أو السياسية أو الاجتماع تحمل جميعها عوامل التشكيك واثارة للشبهات ، ومازال تصدر ، فاذا كان هناك تغير او اختلاف بين مرحلة الثلاثينيات ومرحلة الخمسينات فانما هو تغير فى الواجهة والأسلوب دون تغير فى الهدف أو الغاية ، فقد خفت قليلا لهجة العنف والهجاء ولكنها تحولت الى طابع من الدس والحقد الخفى ، وغلب طابع الاستشراق على طابع التبشير ، ولا شك أن هذا الطابع الجديد أشد خطرا ، ويمكن القول بأن هذه الحملة الضارية المستمرة تتخذ سبل الصحافة والتأليف والسينما ، وقد كان لجريدة التيمس دورا ضخما فى هذه الحملة طوال أكثر من سبعين عاما بحكم الروابط بين الاستعمار البريطانى والعالم الاسلامى . وقد عاش كثير من الكتاب حياتهم الفكرية فى مراجعة هذه الكتابات والرد عليها أولا بأول ، من هؤلاء : الأمير شكيب ارسلان الذى عرض لعشرات من هذه الكتب وكشف ستار الهدف التى تخفيه . والدكتور زكى على الطبيب المصرى الذى اقام فى سويسرا منذ ثلاثين عاما وقد كتب مئات المقالات فى صحف أوربا ومصر وتركيا والهند فى تصحيح هذه المفاهيم ، وكذلك فى كتابه الضخم الرائع « الاسلام فى العالم » وعجاج نويهض الذى قدم فى مجلتى المنار والفتح عددا من الكتب الصادرة فى هذا المجال وأشار الى هذا المعنى مستر جب وصوره نبيه أمين فارس فى عبارة واضحة : « أن الجزء الأكبر من مؤلفات الغربيين عن الاسلام قد صدر عن أولئك الذين يتحكم فى تفكيرهم الاعتقاد بأن الاسلام دين غير راق » .

ويمكن أن تقسم هذه الكتابات الى مراحل ثلاث اصدرتها طوائف ثلاث :

كتب اصدرها المبشرون وهذه واضحة العنف فى مهاجمة الاسلام والثقافة العربية وهى فى الأغلب لاتحمل اسماء مؤلفيها ، وكتب اصدرها المستشرقون وهى لاتحمل كل الحقيقة ، ولا تبلغ مبلغ التعصب ، ولكنها تؤثر الدس الخفى وتفضل تطعيم كتاباتها بالسموم القليلة المتصلة ، أما القسم الثالث فهو كتابات غير المتخصصين من الأدباء أو السائحين أو كتاب الرحلات والتاريخ والأدب وهذه مؤلفات سريعة عاجلة ولكنها مطبوعة بطابع الاحتقار للشرق والاسلام والعرب .

ومن هذه الحصيلة كلها تستطيع حركة التغريب القوية المندفعة بكل قوتها الى العمل أن تجد المادة الخصبة لحملاتها المتفرقة والمجزاة ، والمنثورة فى صحف الغرب والصحف العربية وعن طريق أقلام كتاب يكتبون بالعربية ، وفى مقدمة هذه الأعمال التى جمعت كل الاتهامات والشبهات (دائرة المعارف الاسلامية) التى يشرف عليها كتاب متعصبون غير منصفين .

* * *

(١) مجلة المجلات العربية (اكتوبر ١٩٠٣) .
(٢) الصحف مارس ١٩٣٨ .

* * *

(٤)
مقاومـة التغـريب

ولم يقف الفكر العربى الاسلامى موقف التسليم أمام حملة التغريب فى مراحلهـا الثلاث : كتـابات المبشرين والمستشرقين وكتاب الغرب المتعصبين ، ولكنه واجههـا فى قوة وحمل لوائها : جمال الدين الافغانى (الرد على الدهريين) محمد عبده (الرد على هانوتو) قاسم أمين (الرد على دوق داركور) فريد(١) وجدى (فى رده على كرومر وهانوتو وعشرات من كتاب الغرب خلال عشرين عاما فى مجلة الأزهر) ، مصطفى الغلاييني (الرد على كرومر) كرد على (الرد على المسـتشرقين) وحمـل عبد العزيز جاويش على المستشرقين فى مؤتمرهم سـنة ١٩٠٥ رادا على شـبهاتهم . ولم يقف الأمر عند تأليف الـكتب فقد حفلت الصـحف المصرية العربيـة بردود ومعارضات على شبهات الكتـاب والمستشرقين ، وقد كتب فى المؤيد الدكتور حسين همت فى ديسـمبر ١٩١٠ كاشفا عن حركة المبشرين فى مواجهة الاسلام ، وصـور تجربته وكيف واجه هـذه الحملة وقد ربى فى مدرسـة اجنبية مسيحية ، كما صور هذه التجربة كثيرون ، كما تناولت الصحف الرد على الحملات التى وجهت الى اللغة العربية والقرآن ، وشارك فيها على يوسف والدكتور شبلى شميل . وبعد الحرب العالمية الأولى برز كتـاب جدد أمثال الدكتور حسـين الهراوى ، والدكتور هيكل والدكتور محمد كامل عياد والدكتور محمد البهى والدكتور محمد محمد حسين ، وظهر كتاب غربيون منصفون كشفوا خطط حملة التغريب أمثال : اتيان رينيه وليوبولد فايس. ولا شك أن هـذه الكتابات وثائق لهـا اهميتها فى رسم صورة شاملة لمعركة التعريب وموقف الفكر العربى منها ، موقف المقـاومة والدفاع ورد الفعـل وفيها يتمثل طابع المعركة .

١ ــ من كتابات الدكتور حسين الهراوى

لـما اشتدت وطأة المبشرين فى الأغواء والايحـاء وغزوة عقل المسلمين بمختلف الطرق ، عكفنا على دراسة شىء غير قليل من طرقهم ومؤلفـاتهم وخرجنـا بنتيجة رسخت فى عقيدتنا رسوخا قويا هى أن المستشرقين هم طـلائع المبشرين ، وانهم هم الذين يمهـدون السـبيل لتشكيك المسلمين فى عقائدهم وانهم يريدون طريق الطعن فى الاسلام وفى نبيه الكريم .

فاذا قلبت اى كتـاب اجتماعى أو عمرانى باللغة الأجنبية يتكلم عن مصر أو الشرق أو الاسلام وجدت أشياء كثيرة لا يقرها عقل ولا يسـتسيغها منطق وليسـت فى الحقيقة من شىء ، ويلفت نظرك بصفة خاصة ما يوصف به الدين الاسـلامى من الصـفات التى لا تنبو فقط عن الذوق السـليم والحقيقة ، بل أن الكتـاب الأوربيون يصورون الاسلام بصورة بشعة غريبة لاتكاد تقرأها حتى يقشعر بدنك من هول ما تقرأ .

كنت أطالع هذه الكتب التاريخية واجد فرقا كبيرا عندما تكتب عن التـاريخ القديم ووصـف مصر القديمة وآثارها وسوريا وتاريخها والعراق وماضيها ، ولكنهـا اذا تكلمت عن التـاريخ الاسلامى أو حياة سـيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أجد تحريفا ظاهرا وكذبا واضـحا وتشنيعا كثيرا ، فالنبى العربى يوصف بأنه مؤسس دين حربى لا صلة بينه وبين الفضيلة وأن عبارة ابن عبد الله تطلق على الوالد المجهول كما يفعل مرجليوت ، وفى دائرة المعارف الاسلامية طعنـا جارحا على النبى ، وفى تقرير لجنة العمل المغربى الذى أعده المستشرقون الفرنسيون تنكشف التقـارير السرية التى يرسـلها المسـتشرقون يطالبون فيها حكوماتهم بمقاومة الاسلام لأن روحه تتنافى مع الاسـتعمار ، مع المطالبة بالتقليل من أهمية اللغـة العربية وصرف الناس عنها باحياء اللهجـات المحلية فى شمال أفريقيا واللغات العـامية حتى لا يفهم المسلمون قرآنهم ويمكن التغلب على عواطفهم . وفى زيارتى لأوربا علمت أن الأوربيين يربون على كراهية الاسلام واحتقـار الشعوب الاسـلامية ، أما المستشرقون فيربون تربية

---

(١) اقرأ « فريد وجدى » لأنور الجندى فى سلسلة أعلام العرب .

استعمارية ليعملوا فى المستعمرات على أسلوب يحذرهم من العطف على الشرق او الميل الى الاسلام .

وهم فى التــاريخ يتكلمون بروح المؤرخ ، أما عن سيدنا محمد وعن الاســلام والقرآن فهم يتكلمون بروح المنفر الذى يخيف الناس من الاســلام ، وبروح التحامل الذى تكيل الشــتائم من غير وزن ، وتنتقصهم فى مباحثهم عن الاسلام : الروح العلمية ، لهم فى الاستقصاء طريقة لا تشرف العلم ، وهى انهم يفرضون فرضا ثم يلتمسون أسبابه ، فاذا وجدوا فى القرآن آيات تتناسب فى معانيها مع فرضهم اقتبسوها ، واذا وجدوا آيات لا تتناسب مع أغراضهم تجاهلوها ، وقالوا انها غير موجودة فى القرآن فاذا وجــدوا فى القرآن ما يهــدم نظريتهم تجــاهلوه ، والتمسوا الآيات التى تتناسب والمعنى المراد ، ولا مانع من بترها اذا اقتضى الحــال او تحريف معنــاها حسب الرغبــة ، والغرض هو تزويد جمــاعة المبشرين والمستعمرين بحجج شبه منطقية يزعزعون بها عقــائد المسلمين وهى احدى الطرق التى وضعها الاستعمار من زمن بعيد .

٢ ــ وقد قدر لى ان ابحث بعض مواضيع تاريخية او اجتماعيــة او دينية فــكنت اعثر فجــأة على آراء المستشرقين فى الشرق والاسلام فتعترينى هزة الألم ، اما لخطأ فاضح او عدم فهم او تعصب ، فالمستشرقون كلهم ممن يكونون اساتذة اللغات الشرقية من الاوربيين . كما انهم يؤلفون كتبا لرواد الشرق من الاوربيين ومهنة كهذه لها الصبغة الاستعمارية فى اوضح شكل وانصــع مظهر لجديرة بأن تتيقظ لما الف فيها وما كتب ، ولذلك لانخطىء ان نســتنتج أن الغاية من وراء هــذا العلم هو المسادة والاستعمار وتقبيح الشرق وعاداته ومظاهره .لهذا فهمت لمــاذا تطعن الكتب الاجتماعيــة الاوربية التى تبحث فى مسائل الزواج وتعدد الزوجات فى الدين الاسلامى طعنا جارحا عن حد القول . فمثلا فى كتــاب (مارشال) عن الزواج يقول : أن الحجاب منتشر فى مصر الى درجة أن الأم لا يسمح لها أن ترى وجه ابنتها الا بعد سن الرابعة عشر : ان اشهر المستشرقين واسمه « مرجليوت » كان فى مصر منذ بضع سنين ، هذا الرجل له مؤلفات كثيرة عن الاســلام ، كلها طعن جارح ، وفكر خاطىء وتعصــب ممقوت ، فهو يتشــكك فى النبى نســبا ، ابا واما ، ثم يتشــكك فى كل ناحية من نواحى الدين ، أما بالطعــن الجارح أو الغمز او اللمز .

فهذه الأمثلة عن جمــاعة المستشرقين فى تاليفهم ، ولما كان الشرق يرزح كثيرا تحت نير الاستعمار ، وكانت التربية الاستعمارية تتجه بالفــكر الشرقى الى أن يكون عبدا للفكر الغربى ، فترى فئة المتعلمين منا ينظرون الى الغرب نظرة الاكبــار والاعظام ، مســتسلمين لآرائه اســتسلاما من غير قيد أو شرط ، ونشــأ عن ذلك أن نفوسهم تشربت التشكيك فى أوطانهم وعقائدهم وأخلاقهم فأخذنا نرى طغيانا هائلا جارفا من الأفكار الغربية استأثر بالفــكر الشرقى والروح الشرقى ، والعــائلة والوطنية الشرقية .

أما أثر استعباد الفــكر الشرقى فنجده واضحا فى المبــاحث الاجتماعية الشرقية فترى مثلا من يبحثون فى الأدب الشرقى يستشهدون بمستشرق ، وهذا المستشرق ليس له فضل غير البحث فى الــكتب العربية مثل التى فى متناول أيدينا ، فلماذا لا ترجع الى المنهل الذى ورد منه ونســتنتج منه بقدراستطاعتنا ، أما فى الاجتماعيــات الشرقية فقد طغى علينــا الكثير من فتنة الغــرب فنرى قصصــنا الاجتماعية وفن الروايات عندنا مترجمــا عن اللغات الأجنبية ، لا يخرج عن موضوع خيانة الأزواج وحب العــذارى والزنا وما اليه من مغريات القــراءة فى الشباب مما يؤثر فى أخلاقنا وقوميتنا ، هذه كلها اثر من آثار الاستعباد الفكرى الذى أدخله الغرب الى الشرق أما فى الغرب فلا زالت النظرة الينــا هى تلك النظرة التى يصورها المستشرقون .

كل ما ذكرنا هو الموجة الهائلة التى اكتسح الغرب بها أفكار الشرقيين ولذلك وجب أن تصادمها موجة أخرى من الشرق ، هذه الموجة الأخرى هى الأنانية القومية فى الأدب والاجتماع والصــناعة والأعتزاز بالنفس وتحرير الفكر الشرقى من اثر هذا التخدير الطويل الأمد ، فاننا نزعم ان الفكر الشرقى لا يقل عن الغربى ولكن ينقصه تلك الأنانية القومية فى الأخلاق والعادات والآداب .

والذى نراه أن أدبنا الحى لا ينهض الا باســتقلال الفكر والانسانية والوطنية ، فليس العلم احتكارا . وان خطأنا الفاضــح اننا نعتمد على الغرب حتى فيما يخصنا من التاريخ القومى وما يخص بلادنا من أدب واجتمــاع فنستمد تاريخنــا من الكتب الأفرنجية بينما كتب المرحوم أحمد كمال باشــا الخطية ما زالت رهينة المكاتب والدواليب ولذلك كانت الأغلاط التاريخية فاشية فى كتبنا مما ستره عنا الأفرنج .

٣ ــ ان راينــا فى المستشرقين انهم ما تخصصوا فى العلوم الاسلامية والمبــاحث اللغوية العربية الا لغزوة العقل الشرقى واخضــاعه واستعباده للعقل الأوربى ،

حتى رأينا أن نهضـــتنا الأدبية والاجتماعية لا تتجه الى غرض منتج ، وعندى أن الاستشراق مهنة وحرفة كالطب والهندسـة والمحـــاماة وهو أقرب الى مهنة التبشـــير . ولا يخفى أن التـــاريخ الاسلامى ينقسم الى قســمين : الاول منه هو « الاســـلام » من حيث هو دين وعناصره القرآن والحديث وحياة محمد صلى الله عليه وسلم وهذا ما يتصدى له المستشرقون ، وترى كلامهم (عنه) مملوءا بالتشـــكيك والاستنتاج الخاطىء والغمز واللمز ، انهم يكيلون التهم جزافا ويرمون الاسلام بما شاعت عقائدهم الخاصـــة ، كيف تقوى أنفســنا أمام المستشرقين الذى يدخلون الشـــك فى عقائدنا ويصورونا فى كتبهم على غير حقيقتنا . لذلك نرى لزاما علينـــا اذن أن نعرض لآراء المســـتشرقين وأن نقف أمامهم موقف النـــد للند ، فان مصادرنا ومصـــادرهم واحدة ، وليس لهم من ميزة غير التهذيب والتحليل وكثير منه خاطىء ومبنى على التشكيك والنزعة التى يراد بها اســـتعباد العقل الشرقى ليحتقر نفســـه . انهم يســـتعمرون العقول ويحتـــلون الأذهان ويشككون فى العقائد . قال ممرجليوث فى كتـــابه تاريخ العالم (فصل ٨٩ ص ٢٣٦٤) عن نسب النبى « وانه ابن عبد الله » ما يأتى :

« اننا نشـــك فيما اذ أننا نعرف شـــيئا عن والد النبى لأن لفظة عبد الله تطلق عن الشخص المجهول وربما كان لها فى هذا المعنى عن اطلاقها على والد النبى . وقال ص (٢٣٩٨) أن اعجاز أسلوب القرآن يفسر اما بأنه لا يمكن تقليده او الاخبار بأمور يمكن التحقيق منها ولم يكن للنبى وسيلة لمعرفتها وأننـــا نعلم من القرآن أن كلا من هذين الادعائين عندما أذيع لم يسلم من النقد ، أن ذوق الأسلوب الأدبى يختلف كباقى الأذواق » . وعندنا : أن هذا القول معناه أن مرجليوث لا يعرف شيئا عن الأدب العربى ، والا لعلم أنه كان فى العرب نســـابون ولو أنه تكلم عنهم وعن مصادر الشك فى أقوالهم وتنسيبهم لكان لنا أن نناقشه بالأدلة العلمية ، واذا كان مرجليوث قـــد حصر اعجاز القرآن فى الأسلوب والاخبـــار بالغيب فقد فاتته ضروب من الاعجاز فى القرآن كثيرة ومنوعة .

أما «فنسنك» فان آراءه مليئة بالطعن عن النبى : فانه يقول أنه لا يعرف شيئا عن شعور محمد نحو الكعبة فى شبابه وبعد الرسالة الى أن هاجر بعام ونصف وأن ما لدينا من تاريخ حياته لا يصح أن يؤخذ أساسا تاريخيا ويحاول فنسنك أن نقول أن محمدا كان وثنيا قبل البعثة.

* * *

---

(١) (الهلال يناير ١٩٣٤ ، المعرفة يونيو ١٩٣٢ ، الأهرام أكتوبر ونوفمبر ١٩٢٣) .

٢ — من كتـــابات الدكتور هيكل

من الأدلة على تأثر بعض المســـتشرقين بحرصهم على هدم المقررات الدينية واسرافهم فى ذلك ، أن مباحث هؤلاء المســـتشرقين تدل على أن القرآن ليس وثيقـــة تاريخية لا محل لريبة فيها وأنه حرف بعد وفاة النبى وفى صدر الاسلام وأضيفت اليه أثنـــاء ذلك آيات الأغراض دينية وسياسية . ويذهب بعضهم الى أن القرآن كتاب وضعه محمد . ومن المستشرقين طائفة تزعم بالفعل فى أمر القرآن ما قيل عنهم ، ولكن زعمهم هذا يدل على أنهم انما تدفعهم اليه أغراض يبرأ منها العلم ولا تخفى على أحد .

وحسبك دليلا على ذلك قولهم : أن عبارة «ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » التى وردت فى الآية السادسة من صورة الصف ، انما أضيفت بعد وفاة النبى لالتمـــاس الدليل على نبوة محمد ورســـالته من الكتب المقدسة السابقة للقرآن ، فلو أن الذين قالوا هذا القول من المستشرقين كانوا يخلصون للعلم حقا ، لما لجئوا الى مثل هذا التدليل القائم عندهم على أن التوراة والانجيل كتـــابان مقدسان بالفعل ، فلو انهم كانوا يريدون العلم للعلم لسووا بين القرآن والكتب المقدسة التى سبقته ، فاما اعتبروه مقدسا مثلها ، فذكره الكتب المقدسة التى عرفها الناس قبله طبيعى لا محل لرفضه ، واما اعتبروا هذه الكتب كما اعتبروا القرآن ، وقالوا فى شأنها ما قالوه فى شأنه ، وقرروا أن أصحابها وضعوها لأغراض دينية او سياسية خاصة ، ولو أنهم قالوا مثل هذا القول لقضى المنطق بفساد ما ذهبوا اليه من تحريف القرآن لأغراض سياسية أو دينية ، فما كان للمسلمين أن يلتمسوا الحجة من هـــذه الكتب الا بعـــد أن اطمأن ملـــكهم ودانت لهم الامبراطورية المســـيحية ، كما دان لهم غـــيرها من أمم الأرض ، وبعد أن دخل المسيحيون فى الاسلام أفواجا بل أمما كاملة ، هذا هو المنطق الذى يقتضيه البحث العلمى النزيه ، أما اعتبار التوراة والانجيل مقدسين ونفى هذه الصفة عن القرآن فأمر لا يســـوغه العلم ، وأما القول بتحريفه التماسا للحجة من التوراة والانجيل فهراء لايقره التاريخ ولا يرضاه المنطق . والذين زعموا هـــذا الزعم الفاســـد من المستشرقين هم قلة بين أشد المستشرقين تعصـــبا ، أما كثرتهم فيرون أن القرآن الذى تتلوه اليوم انما هو بعينه القرآن الذى تلا محمد على المسلمين اثناء حيـــاته ، لم يحرف ولم يبدل ، وهم يحرصون على أن يذكروا هذا وان أضافوا اليه عبارات النقد للنظام الذى جمع « القرآن » به ولترتيب السور فيه .

ولقـــد تأثر كثير من المســـتشرقين فى بحوثهم التى صبغت صبغة العلم بأهواء أمزجتهم ، وليس من اليسير أن يقوم المستشرقون فى بحوثهم الاسلامية بكل هذه الدقة وهـــذا الانصاف مهما تحســـن نيتهم ومهما يتحروا الدقة العلمية ، فعســـير عليهم أن يحيطوا بكل اسرار اللغـــة العـــربية وأن أحاطوا بعـــلومها ، ثم أنهم متأثرون بالنصرانيـــة الأوربية تأثرا يجعـــل أكثرهم ينظرون الى الأديان نظرة ملؤها الريبة ، ويجعل الأقلية المستمسكين بمسيحيتهم يتأثرون بما كان بين المسيحية والعلم من نضال فيخضعون فى بحوثهم الاسلامية لمثل ما خضع له أمثالهم فى بحوثهم الدينية بوجه عام . أقصد التأثر بهذا النضال الهدام ، وهذا أمر لايعاب به المســـتشرقون المنصفون ، فلن يســـتطيع أحد من النـــاس أن يتحرر من حكم بيئته الزمانية والمكانية ، لكنه يجعل بحوثهم فى الأمور الاسلامية تشوبها شوائب تنأى بها عن الحق ، ولو بمقدار .

ومن شأن ذلك أن يلقى على عاتق العلماء من أهل البلاد الاسلامية هذا العبء الجليل العظيم ، عبء القيام بهذه المباحث الاســـلامية بدقة ونزاهة فى حدود الطريقة العلمية .

* * *

٣ — من كتـــابات محمد كرد على

من نظر فى كتب من يعالجون من الافرنج مســـائل المسلمين والاســـلام يقع فيما دونوه على أغلاط مستغربة قد ترد الى سوء الظن ببحثهم ودروســـهم ، وتكثر هذه الأغلاط وتقل بحسب بعد المؤلف وقربه من ديار الاسلام .

ومنها ما ينشأ من جهل الكاتب بموضـــوعه ، كأن يرجع الى كتب ضعاف المؤلفين عنـــدهم من مثل أرباب

الرحلات المرتجلة والقصص الملفقة وكتــابات **المؤرخين المتآمرين والصحافيين المهرجين ممن يهمهم قبل كل أمر أن** يحملوا الى قرائهم كل غريب ، **فان لم يجدوا اخترعوا ما** تمليه عليهم مخيلاتهم **واوردوه فى معرض الحقائق** . ومنها الخطأ العمد وما يسوق اليه التعصب الدينى او الغرض السيــاسى . وهــذا الضرب من الأغــلاط يكثر فى الأمم اللاتينية أكثر من غيرهم وهي منبعثة فيهم عن أحقـــاد قديمــة متوارثة ونتيجة لأزمة لقــلة عنــايتهم بالتحقيق والتدقيق . ومن أهم الأغلاط محاولة الصاق حريق مكتبة الاســكندرية بعمر بن الخطاب ليذهبــوا بذلك الى أن الاسلام دين تخريب . وهذه الخزانة الصقت بالتحقيق قبل الاسلام بقرنين ، وكان واضع هذه الأسطورة الســمجة راهب شرقى فتلقفها دعاة التعصب من الغرب ، وقد رد هذه الفرية جهابذة النقد من الغربيين لعهدنا بعد أن راجت قرونا عند عامتهم . ومن أغلاط الفــكر المعتمدة ما روجه الأباء اليسوعيين للحط من قدر الاســلام ، وكيف ذهبوا يختلقون مالا أثر له الا فى أدمغتهم ، وفى مقدمة من كتب له التميز فى هذا الباب عميدهم الأب هنرى لامنس فانه صرف عمرا طويلا فى الطعن فى الاسلام والعرب حتى دعوة فى أوربا المؤرخ المخرب ، وأصبح العارفون يأخذون كل قول له بتحرز شــديد . ويقول مؤلف تاريخ اســبانيا ان هــؤلاء العرب المتعصبين الذين أمــرهم نبيهم ان حملوا على الكفار ويذبحوهم ليرضى عنهم خالقهم ! قد ساروا مع النصارى من سكان ايبريا (أهل اسبانيا) يتســامح عجيب فأطلقوا لهم الحــرية فى دينهم وكانوا يحترمون معابدهم ويحفظونهم فى اموالهم وأنفسهم . وهو مثال لمــا جرى عليه الفاتحون .

* * *

وقد كذب الكاتب فى حكمه على الرسول وصدق فى قوله بأن المسلمين فى الأندلس عاملوا أهلها معاملة لم تقع لغالب أن عامل بها المغلوبين ، والأرجح انه بنى حكمه فى صاحب الرسالة على ما تلاه فى بعض كتب رهبان القرون الوسطى واخذ يصغر من شأن العرب فى الأندلس ويقول انه لم ينشأ منهم سوى عدد من النبغاء من عيار ابن رشد وليته قال لنا كم من فيلسوف أخرجت أسبانيا النصرانية فى طويل عمرها ولو قرأ المؤلف كتــابا واحدا من الكتب المعتمدة فى التاريخ لخجل أن ينسب ما نســب الى محمد ابن عبد الله الرسول العربى الأمى من الشدة على غير أهل دينه ولعلم أنه أوصى بأهل الذمة فى كل فرصة وكذلك فعل أصحابه من بعدهم .

* * *

٤ — الدكتور محمد كامل عيـاد

ان دراسـات المسـتشرقين فى الاسـلام قليلة جـدا وهى مختصرة وسطحية على العكس مـن دراساتهم عن تاريخ الأدب القديم وعن التاريخ الاسلامى دراساتهم عن تريخ الأدب القديم وعن التاريخ الاسلامى فانها كثيرة لا تكاد تحصى ، وهى تتعرض الى عدد كبير من المسائل ولكنها تحوم فى الغالب حول الفتن الأهليـة والخلافات المذهبية ومظاهر الانقسام والتفسخ ، وهـذه الدراسات كلها تعالج الحياة الاقتصـادية والاجتماعية والحركات الشعبية وتطور الأنظمة السياسية ، وانهـا تتمركز فى المسائل اللغوية والنصوص الدينية وأخبـار قصور الملوك والأمراء والحفريات الأثرية . ومن الغريب أن ترى المستشرقين يبذلون كل جهودهم للكشـف عن العوامل الخارجية والعناصر الغربية التى كان لها بعض التأثير فى نشأة الاسلام والحضارة العربية فى حين انهم يذكرون فى اختصار أو يهملون كل الاهمال مظاهر التطور والتجديد والابتكار عند العرب ان هؤلاء المسـتشرقين الذين يحاولون ارجاع الفلسفة والعلوم العربية الى أصولها اليونانية يعودون من جهة ثانية ويتوسـعون فى اللوم على الشرقيين وبينهم العرب أن يكونوا قد بلغوا مستوى بيان الفروق الجوهرية بين الشرق والغرب وينكرون اليونان القدماء وبالتالى مسـتوى الأوربين الحدثيين فى ادراك فكرة الانسانية ومفهوم العلوم وحقيقة الفن .

* * *

٥ — الدكتور محمد تقى الدين الهلالى

لهؤلاء العلماء الأوربيين الذين يتسمون بالمستشرقين أخطاء ، منشؤها القصور ، لأن أكثرهم اذا لم يكن كلهم يتعلمون الآداب والعلوم الشرقية بأنفسهم بمطالعة الكتب ويستعينون بتراجم أمثالهم ممن سبقهم فيلمون باللغـات والعلوم المـاما ضعيفا لا يمكن صاحبـه أن يجلس على منصـة الحكم ويقضى بالقسطاط المستقيم ، والـكتب وحدها لا تهدى ضالا ولا تقيم جاهلا ، وقد قيل : لايؤخذ العلم عن صحفى ، فأكثر المستشرقين صحفيون فى العلوم الشرقية ، ولنضرب لذلك مثلا (جورج سايل) اول من ترجم القرآن الى الانجليزية . وقد وجدت فى الجزء الأول من القرآن الذى ترجمه أربعون غلطة . مثال آخـر هو رسائل أبى العلاء المعرى ترجمهـا الى الانجليزية عالم انجليزى نسـيت اسمه وطبعت فى أوربا ، طالعتهـا فوجدتها مشحونة بأغلاط ، ومثال ثالث ترجمة مارماديوك العالم الأديب الشهير صاحب مجلة (اسلاميك كلتشر) أى الثقافة الاسلامية وله تصانيف جياد قرات شيئا من ترجمته للقرآن فوجدت فيها أغلاطا واضحة جدا ويرتكب هـذه الأخطاء (١) المسـتشرقون أمثال جورج سـايل ومارجليوث وزويمر ومن على شاكلتهم ، والحـامل على ارتكابها شـدة البغض للاسـلام والشرق كله من أجل الاسلام (٢) السياسيون والمستعمرون (٣) الأدباء الذين يطمعون فى المال الوفير .

* * *

٦ — الفنـان الفرنسى اتيان دينيه

أن الخطأ الأساسى الذى يقع فيه بعض مستشرقى العصر هو محـاولتهم اسـتخلاص معنى حرفى وعلـل مقصودة مرتبطة بعرى المنطق الغربى من أقوال الأنبياء ، على حين أن الأنبياء هم جبابرة الالهام الذين يكاد الوحى ينوب لديهم عن كل تدليل عقلى . وفى هذا كفاية لبيـان أن سلوك طريقة النقد فى درس تاريخ الأنبياء غير منطقى .. وكان حرى بأسلوب النقد هذا بعد جهد ثلاثة قرون أن يهدم الأساطير ويقيم مقامها حقائق لاجدال فيها . ولكنه لم يتبين شىء من ذلك ، فانما اذا قارنا النظريات الحديثة التى أطرقتنا بها مستشرقو الفرنسيين والانجليز والألمـان والبلجيكيين والهولنديين وغيرهم وعارضنا بعضهم ببعض لم نجد الا التباسا واختلاطا لأن النظريات فى « شخصية محمد » متضادة تبطل احداهما الأخرى .

ماذا كان خلق محمد وماذا كان سر تأثيره العظيم على أبناء وطنه ، يقول دوزى : لعل رسـول الله — كما كان يلقب نفسه — لم يكن يشبههم . لقد كان له خيـال على حين أن العرب مجردون من الخيال وكان دينا على حين أن العرب ليسـوا كذلك (مسـلمو الأندلس ج ١ ص ١٨) ويصرخ لامنس ، هذا خطأ ، « كان محمد رغم معايبه أو اذا شئت بفضل معايبه يفتن البدوى الذى كان يتعرف ذاته فى شخص النبى العربى كما يدعوه القرآن « مسايرة » ففى هذا التفاعل أو هذه المطابقة التامة بين البيئة التى صورته نجد أولا سر السلطان الكبير الذى كان له على معاصريه (مهد الاسلام ص ٤ و ٥) .

٢ — ماذا كانت ميول محمـد قبل البعثـة : يقول دوزى : كان محمد سـوداويا ، صـموتا ، يميـل الى النزهـات التى لا انتهاء لها والى التأمـلات الطويلة فى الوديان الموحشة (نفس المصـدر) ويرد الأب لامنس عليه قائلا : « كلا ، ليس ما يثبت حقيقة هذا الاعتكاف فهو لا يتفق مع نفرة محمد من الوحدة وكراهيته المشهورة للنسك (كتاب هل كان محمد صادقا ص ١) .

٣ — ماذا كانت العوامل فى بعثة محمد ورسالته ؟ يؤكد الأستاذ « تولدكه » أنهـا « نوبات الصراع » . ويشير الأستاذ دوغويه الى أن هـذا بعيد الاحتمال لأن الحافظة فى المصروعين تكون مسدودة . على أن المعروف عن محمد كلمـا كان يهبط عليه الوحى هو نقيض هـذا « مباحث شرقيـة ج ١ — ٥ » . ثم يؤكد الأستـاذ « سيرنفر » فى رده أنها نوبات الهسـتريا العضلية التى اشتهرت باسم شونلاين (كتابه حياة محمد وعمله ج ١ ص ٢٠٧) . ويرد الدكتور سنوك هرجرونجه على ذلك قائلا : لندع وهن الأسس التى يقوم عليها التشخيص . يجب أن نقر بأن قيمة محمـد هى فيما يميزه عن سـائر الهستيرين لا فى الحالة المرضية التى كانت مشتركة بينه وبينهم .

٤ — ما هى أسباب مرض الرسول . يقول الاب لامنس : أن محمدا كانت له شخصية غاية فى الجودة : وقد كثفت جسمه الملذات وخدرت أعضاءه فأصبح مهددا بداء السكته . أما الدكتور بنيه سـافغله فيقول : أن رؤى محمد كانت مسببة أحيـانا بخور قواه من الجوع ، فكان يسمع أثناء صومه كمواء القطط ومات بحمى هاذيه دامت يومين . ويقول الأستاذ كلمان هوار أنه بالتهـاب رئوى ، ويقول الأب بارود النـائب الرسـولى أنه مات مسموما بيد امرأة يهودية . ويعلق (اتيان دينيـه) على هذا التناقض العجيب فيقول . أليس اختلاف هذه الأخبار يحير الألباب . وهل يستطيع القارىء أن يأخذ منها رأيا واضحا . من اليسير سرد الأمثلة الكثيرة على المتناقضات الصريحة التى وقع فيها علماء المشرقيات على زعمهم أنهم يؤلفون كتبهم بالاستناد الى مبادىء العلم الثابتة ، ولكن الشـواهد كافية للدلالة على المسـتشرقين العصريين لا يتفقون فى شأن من الشؤون الخطيرة ، وقصاراهم رغم فيض العلم أن يقدموا الينا أشخاصا خياليين هم أبعـد جدا عن الحقيقة . أن على هؤلاء المستشرقين أن يملأوا الهاوية التى تفصل بين عقليتهم الغربية وعقلية أولئك الأشخاص والا تعرضوا الخطأ فى كل المواضع .

***

٧ — الدكتور محمد البهى

عمل « التبشير » هو انكار المقومات التـاريخية والثقافية والروحية فى ماضى الأمة ، والتنديد والاستخفاف بها ، وصياغة هذا الانكار والتنديد والاستخفاف فى صورة البحث وعلى أسـاس من أسلوب الجدل والنقـاش فى الكتابة ، ان التبشير والاستشراق كلاهما دعامة الاستعمار وكلاهما دعوة الى توهين القيم الاسلامية ، والغض من اللغة العربية الفصـحى ، وتقطيع أواصر القربى بين الشعوب العربية والاسلامية . فالقرآن (عندهم) كتاب مسيحى يهودى نسخة محمد ، والاسـلام دين مادى لا روحية فيه ، يدعو الى الدنيا وليس الى صفاء النفوس والمحبة ، وأنه يميل الى الاعتداء والاغتيال ويحرض أتباعه على القوة على غير المسـلمين عامة ، كما أنه يدعو الى الحيوانية والاسـتغراق فى الملذات الدنيا . والفلسـفة العربية فـكر يونانى كتب بأحرف عربية ، وأن اللغـة العربية الفصحى لم تعد صالحة اليوم وبدلا منها يجب أن تستخدم اللهجات الدارجة كما يجب أن تستخدم الحروف اللاتينية عوضا عن الحروف العربية .

وهنـاك الدعوة الى احيـاء الفرعونية فى مصر والأشـورية فى العراق والبربرية فى شـمال أفريقيـا والفينيقية على ساحل فلسـطين ولبنان والى تفضـيل الفارسية — كلغة أدبية — على العربية كلغة سامية . وأن الذى حمل امارات الحياة الأدبية الجديدة فى الشرق العربى فى نهـاية القرن التاسـع عشر وكذا فى الشرق الاسلامى وحمل مظاهر الحضارة عامة ، هم نصـارى لبنان الذين تعلموا من جهود المسـتشرقين الأمريكيين فى سوريا والى البربر وحدهم هم أصحاب المدنية مع شمال أفريقية والأندلس .

والتبشـير والاستشراق فى ذلك سواء ، والفرق بينهما أن الاستشراق اخذ صورة « البحث » وادعى لبحثه « الطابع العلمى الأكاديمى » بينما بقيت دعوة التبشـير فى حدود مظاهر «العقلية العامة» وهى العقلية الشعبية .. وقد استخدم الاستشراق الكتاب والمقال فى المجلات العلميـة وكرسى التدريس فى الجـامعة والمناقشـة فى المؤتمرات العلمية العامة .

أما التبشير فقد سلك طريق التعليم المدرسى فى دور الحضانة ورياض الأطفال والمراحل الابتدائية والثـانوية للذكور والاناث على السواء ، كما سلك طريق العمـل الخيرى فى الملاجىء والمستشفيات .

ولم يقتصر التبشير على استخدام النشر والطباعة وعمل الصحافة فى الوصول الى غايته .

فهناك مؤسسات أخرى لا يرى فيها التبشير ظاهرا وأن كانت لا تخفى هدف الاستشراق . وكلها تخضـع للاتجاه الكاثوليكى فى بحث الاسلام وتراثه وكذلك للنفوذ الفرنسى .

يقول لوارنس براون : فى كتابه الاسلام والارساليات .. « اذا اتحد المسلمون فى امبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرا . وأمكن أن يصبحوا نعمة ايضا ، أما اذا بقوا متفرقين فانهم يظلون حينئذ بلا قوة» ويفضح القس كالهون سيمون عن رغبة التبشير القوية فى تفريق المسلمين التى عبر عنها براون فيما قبل يقول : أن الوحدة الاسلامية تجمع آمال الشعوب السود وتساعدهم على التخلص من السيطرة الأوربية ولذلك كان التبشير عاملا مهما فى كسر شوكة هذه الحركات . ذلك لأن التبشير يعمل على اظهار الأوربيين فى نور جديد جذاب وعلى سلب الحركة الاسلامية من عنصر القوة والتمركز فيها ، فوحدة المسلمين اذن فى نظر التبشير هى التفرقة فى توجيه المسلمين واتجاهاتهم ، والتبشير اذ يرى هدفه المباشر تفكيك المسلمين ، يرى بالتالى درء خطر وحدتهم على استعمار الشعوب الأوربية وعلى استغلالها واستنزافها لثروات المسلمين « ك : التبشير والاستعمار » .

وفى هذا المعنى يقول لورانس براون « الخطر كامن فى نظام الاسلام وفى قوته على التوسع والاخضاع وفى حيويته ، انه الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الأوربى»

وهنا يبدو واضحا أن التبشير مقدمة أساسية للاستعمار الأوربى ، كما أنه سبب مباشر لتوهين قوة المسلمين ، ولقد كان المبشرون يعملون بطرق مختلفة كالتعليم مثلا على تهيئة شخصيات شرقية وعربية لاتقاوم التبسط الأجنبى .

وطريق التبشير لتوهين المسلمين لم يكن الدعوة الى المسيحية وانما كان طريق تشويه الاسلام ومحاولة اضعاف قيمة ثم تصوير المسلمين فى وضعهم الحالى بصورة مزرية بعيدة عن المستوى الحضارى فى عصرنا الحاضر .

ولعل أخطر ما قام به المستشرقون حتى الآن هو اصدار دائرة المعارف الاسلامية بعدة لغات ، ومصدر الخطورة فى هذا العمل هو أن المستشرقين عبئوا كل قواتهم وأقلامهم لاصدارها وهى مرجع لكثير من المسلمين فى دراساتهم على ما فيها من خلط وتحريف وتعصب سافر .. وقد اتجه المستشرقون والمبشرون بمعاونة الاستعمار الى المجامع اللغوية ، ومجال التربية محاولين غرس مبادىء التربية الغربية فى نفوس المسلمين حتى يشبوا مستغربين فى حياتهم وتفكيرهم ، وحتى تخف فى ثقتهم موازين القيم الانسانية . وليس نشاط المستشرقين موجها فقط الى المسلمين ، انهم يفتحون عيونهم لكل الاتجاهات وهم يقظون لكل حركة قد تعوق سيرهم أو تفسد خططهم فان حاول احدهم أن يبدو محايدا أو يتخفف من أثقال التعصب نجد بقية المستشرقين يهبون فى وجهه يطالبونه بأن يكون موضوعيا وأن يستخدم الطريقة العلمية ويلجأ الى النقد ذى المستوى العالى . ولا يعرف العقل ولا المنطق حدا لما يقوم به المستشرقون من تحريف للتاريخ الاسلامى وتشويه لمبادىء الاسلام وثقافته واعطاء المعلومات الخاطئة عنه وعن أهله . وكذلك يجاهدون بكل الوسائل لينتقصوا من الدور الذى لعبه الاسلام فى تاريخ الثقافة الانسانية . وبعض المستشرقين أكثر تعصبا ضد الاسلام وعداوة له من الآخر ، ولكن يصدق عليهم جميعا انهم اعداؤه .

* * *

مصطفى السباعى — لقاء مع المستشرقين

لما زرت أكثر جامعات أوربا عام ١٩٥٦ واختلطت بالمستشرقين ازددت ايمانا واقتناعا بخطرهم على تراثنا الاسلامى كله سواء كان تشريعيا أم حضاريا ، لما يملأ نفوسهم من عصبية تأكل قلوبهم حقدا ضد الاسلام والعرب والمسلمين . وقد أسقط أندرسون فى جامعة لندن احد المتخرجين من الأزهر فى شهادة الدكتوراه فى التشريع الاسلامى لأنه ركز فى أطروحته على أن الاسلام أعطى المرأة حقوقها كاملة ، فلما سألته عن ذلك قال : لأنه كان يقول : الاسلام يمنح المرأة كذا ، والاسلام قرر للمرأة كذا فهل هو ناطق رسمى باسم الاسلام ، هل هو أبو حنيفة أو الشافعى ، حتى يقول هذا الكلام ويتكلم باسم الاسلام .

وفى جامعة اكسفورد وجدنا رئيس قسم الدراسات الاسلامية العربية يهوديا يتكلم اللغة العربية ببطء وصعوبة ، ويلقى تفسير آيات من القرآن من الكشاف للزمخشرى ، وهؤلاء تحس فيهم عبارة بسيطة عن جريدة عادية ، وسألته عن مراجعه فى دراساته وأحاديثه عن البخارى ومسلم فقال : انها كتب المستشرقين أمثال جولد تسيهر ومرجليوث وشاخت . أما فى جامعة كمبردج فكانت رئاسة الدراسات العربية والاسلامية للمستشرق اربرى وقد قال اننا نحن المستشرقين نقع فى أخطاء كثيرة فى بحوثنا عن الاسلام ، ومن الواجب الا نخوض فى هذا الميدان لأنكم أنتم المسلمون العرب أقدر منا على الخوض فى هذه الأبحاث .

* * *

وفى جامعة ليدن بهولندا التقيت بالمستشرق اليهودى شاخت وهو الذى يحمل فى عصرنا رسالة جولدتسيهر فى الدس على الاسلام والكيد له وتشويه حقــائقه ، وقد باحثته فى اخطاء جولدتسيهر وتعمده تحريف النصــوص التى ينقلها من كتبنا ، فأنكر ذلك فضربت مثلا واحدا مما كتبه (تســيهر) فى كتاب الســنة ، وكيف حرف قول الزهرى (ان هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة الأحاديث) الى لفظ (على كتابة احاديث) فاستغرب ذلك . وكذلك تحليله لموقف الزهرى من عبد الملك بن مروان وذكرت له من الحقائق التاريخية ما ينفى ما زعمه جولدتســيهر . وقلت أن جولدتسيهر هو مؤسس المدرسة الاستشراقية التى تبنى حكمها فى التشريع الاسلامى على وقائع التاريخ نفســه ، فلماذا لم يستعمل مبداه هــذا حين تكلم عن الزهرى وكيف جاز له أن حكم على الزهرى بأنه واضع حديث فضل المسجد الاقصى ارضاء لعبد الملك ضــد ابن الزبير ، مع أن الزهرى لم يلق عبد الملك الا بعد سنوات من مقتل الزبير ، وقلت : لقد كانت مثل هذه الأخطاء كما تسميها انت تشتهر فى القرن الماضى ، ويتناقلها مستشرق منكم الى آخر على أنها حقائق علمية ، قبل أن نقرا نحن المسلمين تلك المؤلفات الا بعد موت مؤلفيها ، وارجو أن تسمــعوا منا ملاحظاتنا على اخطائــكم لتصححوها فى حياتكم قبل أن تتقرر كحقائق علمية . وقابلت المستشرقين فى بلجيكا والدنمرك والنرويج وفنلندا والمانيا وسويسرا وباريس ، والسويد وليدن بهولندا ومنشستر بانجلترا وكمبردج واكسفورد وجلاسجو وادنبره واتضــحت لى الحقائق التالية :

اولا : ان المستشرقين فى جمهورهم لا يخلو احدهم من أن يكون قسيسا أو استعماريا أو يهوديا وقد يشــذ عن ذلك أفراد . (ثانيــا) ان الاســتشراق فى الدول الغربية غير الاستعمارية كالدول الاســكندنافية أضعف منه عند الدول الاستعمارية . (ثالثا) ان المستشرقين المعــاصرين فى الدول غير الاســتعمارية يتخــلون عن جولدتسيهر وآرائه بعد أن انكشفت أهدافه الحقيقية . (رابعا)ان الاستشراق بصفة عامة ينبعث من الكنيســة وفى الدول الأوربية يسير مع الكنيسة ووزارة الخارجية جنبــا الى جنب . (خامسا) ان الدول الاســتعمارية كبريطانيا وفرنسا لا تزال حريصة علىتوجيه الاستشراق الوجهة التقليدية من كونه أداة هدم الاسلام وتشــويه لسمعة المسلمين .

ففى فرنسا لا يزال بلاشير وماستينون يعملان فى وزارة الخــارجـة الفرنسية كخبيرين فى شــئون العرب والمسلمين وفى انجلترا نجد الاستشراق فى مكان محترمهن جامعات لندن واكسفورد وكمبردج وادنبره وجلاســكو وهم يحرصون علىان تظل مؤلفات جولدتسيهر وشاخت هى المراجع الأجنبية بصــدد الاســتشراق من الغربيين والراغبين فى حمل شــهادة الدكتوراه عندهم من العرب والمســلمين وهم لا يوافقون أبدا على رســالة لطالب دكتوراه يكون موضــوعها انصاف الاســلام وكشــف دسائسهم .

واعتقد انه قد انقضى ذلك العهد الذى كنــا فيه نعتمد على مصادر معرفتنا بعلومنا وتاريخنا على مصادر الغربيين مع أنهم ليست لهم مصادر الا كتبنا ومدوناتنا . ولئن كنا بها جاهلين من قبل فلقد آن الأوان أن نرفع عن جباهنا خزى الجهــالة بمصادرنا وعار الاتكال فى فهمنا على فهم الغرباء عن لغتنــا ووصمة الاعتقــاد بديننا وعلمائنا على نحو ما يريد منا هؤلاء المســتشرقون أن نعتقده فى حق ديننا وعلمائنا من شك وسوء ظن .

***

الكتـــاب الثـــالث

حركة التغريب

مخططهـــا ودعاتهــــا

لكى نفهم مخطط حركة التغريب لابد من القاء نظرة على هؤلاء الدعاة الذين حملوا لواء العمل فى ميادين التبشير والاستشراق وكتابات خصوم العرب والاسلام من ركائز الاستعمار وزعمائه فى العالم العربى والاسلامى وأصحاب دعوات سيادة العقلية الآرية والايمان بالرجل الأبيض ودوره فى تمدين الملونين .

ومن خلال مجموعة منوعة من كتابات هؤلاء الدعاة نستطيع أن نرسم صورة واضحةلهذا العمل ، فهنا حكام الاستعمار فى مصر والمغرب : امثال : كرومر وليوتى ودعاة التبشير امثال لافيجرى وزويمر وولكوكس وكتاب متعصبون لأوربا والجنس الأبيض امثال دوق داركور وهانوتو ، ولويس برتران وفولتير ومشرفون على التعليم فى البلاد المستعمرة امثال : دنلوب .

ومستشرقون أمثال فنسك ولويس شيخو وهنرى لامنس ومرجليوث ،ورينان من خلال هذه المجموعة : التى تضم الفرنسيين والانجليز ، وغيرهم من الأجناس الأخرى ، فى مختلف أعمالهم ومناصبهم وأجناسهم يجمعهم شيء واحد هو اثارة الشبهات فى وجه الاسلام والثقافة العربية الاسلامية ، والعمل للقضاء على مقومات هذه الأمة عن طريق فكرها ، وهم فى حملاتها يكشفون عن تعصب واضح ، مهما ألبست كتابات بعضهم صورة البحث العلمى وأجل ما تفتقده فى كتاباتهم روح الانصاف أو العدل أو كلمة الحق لوجه الحق وحده .

وقد حملت هذه الكتابات فى فترة من فترات الحياة الفكرية العربية على أنها حقائق او آراء علمية جديرة بالبحث ، وقد وجه الفكر العربى هذه الآراء فكشف عن زيفها وفند أخطاءها وادعاءاتها وشبهاتها ، هذه الشبهات التى ما زالت الى اليوم غذاء كل كتابات التعصب والاتهام للاسلام والفكر العربى الاسلامى واللغة العربية والتاريخ والدين والتراث ، هذه الجذور وضعها زعماء الاستعمار أولا امثال كرومر وليوتى وجلوب ولافيجرى ودنلوب . ونحن لا نفرق هنا بين زعماء الاستعمار والمبشرين والمستشرقين وكتاب التعصب ، من وزراء الخارجية والاستعمار أو أعضاء الأكاديميات ، ولسنا بذلك نحاول أن نثير خصومات جديدة ، أو نجدد اتهامات بادت ، وانما نريد أن نوضح الصورة التى تخفى على الكثيرين اليوم ، حين يرون شبهة من الشبهات تثار هنا او هناك ، فيظن بعض شبابنا أنها أمر جديد ، أو أنه أمر علمى جاد ، أو يجد فيه بعض ما يغريه على اعتناق هذا الراى او ذاك ، دون ان يلم الماما كاملا بأرضية هذه القضية وجذورها العميقة والعوامل التى دعت الى اثارة هذه الشبهات . فالمعروف أن هذه «الشبهات» قد أثيرت للقضاء على مقومات فكرنا وبالتالى على مقومات شخصيتنا ، حتى تصبح صورة مهلهلة ليست من الشرق أو من الغرب ، يمكن بذلك السيطرة علينا سيطرة فكرية ووضعنا فى مجال النفوذ والتبعية عن طريق الاقتناع الفكرى أما الأمر الأهم فان هذه الشبهات اذا عرضت بأسلوب العلم ، فاننا نستطيع ان نكشف عن أنها لم تكن يوما من الأيام صادرة عن أساس علمى أو بحث منهجى ، وانما هى قد صدرت اول الأمر من زعماء الاستعمار ودعاته وأنها رسمت بالصورة التى تحمل طابع التحقير واثارة الشبهات وخلق أجواء من الريبة والاتهامات تعمل على الغض من شأن الفكر العربى الاسلامى والنظر اليه نظرة مشوهة ، ولم ترسم أبدا صورة الانصاف أو النقد القائم على المنهج العلمى الحر ، الذى حاول الغرب دائما أن يدعى أنه موجده ومنفذه ، وتتصل هذه الاتهامات فى مجموعها برد أسباب تأخر المسلمين والعرب الى دينهم والى فكرهم ، والشبهات تحاول دائما أن تعزو الى الاسلام أنه هو عامل التأخر الأول .. والى أن اللغة العربية هى الحائلة دون الابتكار والاختراع . والى أن التاريخ العربى الاسلامى ملىء بصفحات الاخلاف والصراع .

وفيما بين السطور حملات عنيفة مصدرها الخصومة المذهبية والدينية أصلا ، وهى خصومة استغلها الاستعمار ، وحاول دائما التركيز عليها . غير أن الذين واجهوا هذه الحملات من كتاب العرب والمسلمين كانوا أعف قلما وأسمح نفسا وأقرب الى المنهج العلمى فى البحث فلم تثرهم عبارات التعصب والاتهام التى بلغت أقسى ما يمكن أن يوجه من الفاظ واتهامات الى الاسلام والنبى وأصحابه ، وكانوا يستطيعون أن يردوا عليها بمثلها ولكن حماهم من ذلك ادب دينهم ومنهج فكرهم العربى الاسلامى الذى يرتفع على الاتهام والهجاء فضلا عن التكريم الذى يكنه دائما هذا الفكر لكل دين ولكل فكر وكان فى تفنيده للاتهامات والشبهات غاية فى أدب النقد والسجال ، وغلبة فى احقاق الحق ، والادلاء بالحجج والأسانيد التى تهدم كل شبهة واتهام .

ومن شأن مراجعة هذا العمل كله اليوم أن يكشف للذين لم يعاصروا هـذه الحركة فهم جذورها ومنطوقها فلا يرونها الا حيث هى قائمة على التعصب أو الجهل أو مدفوعة بهدف واضـح هو تأكيـد النفوذ الاسـتعمارى والقضاء على مقومات الفكر العربى الاسـلامى التى هى مصدر مقاومة كل غزو فكرى أو خارجى صـورة لفرض فكر دخيل .

(١) فولتير . « تمثيلية محمد » .

(٢) كرومر . « تغريب الفكر العربى » .

(٣) ليوتى . « مهاجمة اللغة العربية والاسلام » .

(٤) الكردينال لافيجرى . « الرق فى الاسلام » .

(٥) دنلوب . « تغريب التعليم والتربية » .

(٦) ارنست رنيان . « الاسلام والتقدم » .

(٧) دوق داركور . « مصر والمصريون » .

(٨) جبرائيل هانوتو . « مصر والمصريون » .

(٩) صمويل زويمر . « التبشير » .

(١٠) مرجليوث . « محمد وظهور الاسلام » .

(١١) لورنس . « الأعمدة السبعة » .

(١٢) هنرى لامنس . « تاريخ العرب والاسلام »

(١٣) لويس شيخو . « أدب العرب والاسلام » .

(١٤) لويس برتران . « أمام الاسلام » .

(١٥) وليم ويلكوكس . « الدعوة الى العامية ».

(١٦) فنسنك . « دائرة المعارف » .

(١٧) جلوب . « الفتوحات العربية الكبرى » .

(١٨) جولدتسيهر . « السنة والتشريع » .

* * *

* * *

(١)
فولتير = تمثيلية محمد

اصــــدر الكاتب الفرنسى المشـــهور بحرية الراى « فولتير » عام ١٧٤٥ م تمثيليـــة أســـماها « محمـــد والتعصب » وهداها الى البابا فى محاولة جريئة تكشف عن حقيقة دعوى حرية الفكر عنده ، وقد واجه « توفيق الحكيم » هذه القصة فقال :

قرات قصــــة فولتير التمثيلية « محمد » فخجلت أن يكون كاتبها معدودا فى اصحاب الفكر الحر ، فقد ســـب فيها النبى سبا قبيحا عجبت له وما ادركت له عمله ، لكن عجبىلم يطل فقد رأيته يهديها الىالبابا بنوا الرابع عشر .

وعلمت ان روسو كان يتناول بالنقد أعمــــال فولتير التمثيلية فاطلعت على ما قال فى قصة (محمد) علنى أجد مايرد الحق الى نصابه فلم ار هذا الفكر الحر أيضا يدفع عن النبى ما الصـــق به كذبا وكأن الأمر لا يعنيه ، وكأن ما قيل فى النبى لا غبار ولا حرج منه ، ولميتعرض للقصة الا من حيث هى أدب وفن ، ولقد قرأت بعـــد ذلك رد البابا بنوا على فولتير فألفيته ردا رقيقا كيسا لا يشـــير بكلمة واحدة الى الدين ، وكله حديث فى الأدب ، فعظم عجبى لأمر فولتير وسألت نفسى طويلا : أيستطيع عقل مثقف كعقل هذا الكاتب العظيم أن يعتقد ما يقول ، دين يتبعه الاف الملايين من البشر وعلى مدى الأجيال ، هو فى نظره حقا دين كاذب ، ومبادىء انسانية كالتى جاء بها الاســـلام هى عنده حقــا مبادىء بربرية ، أم انه التملق والزلفى والنفاق ، وأن الزمن والتاريخ يضعان أحيـــانا أقنعة زائفة على نفوس تزعم انها خلقت للدفاع عن حرية الفـــكر .

منذ ذلك اليوم وانا احس كأنى فجعت فى شىء عزيز لدى : الايمـــان بنزاهة الفكر الحر ، ولقد كنت أحيـــانا التمس الأعـــــذار لفولتير وازعم انه قال ما قال لا عن مجاملة او ملق ، بل عن عقيدة وحسن طويه استنادا على علم خاطىء بأخبار النبى ولكن كتابه الى البابا كان يتهمه اتهاما صارخا ويدع مجالا للشـــك فى دخيلة أمره ، انى قرات لفولتير كتبا أخرى كانت تكشف عن آراء حرة حقا فى مســـائل الأديان وتنم عن روح واسعة الآفاق تـــكره التعصــــب الذميم فما باله عندما عرض لذكر « محمـــد والاسلام » كتب شيئا هو التعصب بعينه ، تعصب دينه ذهب فيه الى حد السجود وتقبيل الأقدام ، لا لرب العزة والخلق ، بل لبشر هورئيس الكنيســـة التى ما أرى أن فولتير كان ذات يوم من خدامها المخلصين . وانمـــا هى الأطماع التى كانت تدفع فولتير فيما أرى الى التمســـح بأعتاب الملوك والبابوات . ولقد قدم ثمنـــا لذلك أفكاره اللحرة احيانا ، منذ ذلك الحين وفولتير عندى متهم ، ولن أبرئه ابدا ، ولن أعده أبدا من بين أولئك العظام الذين عاشوا بالفكر وحــــده ، وللفكر ، وأحسب أن التـــاريخ العادل سوف يحكم عليه هذا الحكم ، فينتقم للحق بمــــا افتراه على نبى كريم ظلما وزورا .

على أن الذى يدعو الى الدهش أكثر من كل هذا أن الشرق والاسلام وقفا من هذا الأمر موقف النائم الذى لا يعى ولا يشعر بما يحدث حوله ، فلم نر كاتبا من كتاب الاسلام قام فى ذلك الوقت يدفع عن دينه هـــذا الهراء الذى قال فولتير . ويقذف فى وجه هذا الكاتب بالحقائق البـــاهرة القاطعة ، أو أن مؤلفا وضع كتـــابا يبرز فيه شخصية النبى الخيرة العظيمة واضحة جلية ، لقد كان الشرق فى ليل هادىء بهيم لم تثر فيه حركة فولتير يومئذ ساكنا .

ولـــكن الأمر قد تغير اليوم ولاحت فى أفق الشرق خيوط الفجر وقام فى هذا القرن كتاب يمجدون عقيدتهم وهم يعلمون أن ذلك تمجيدا للحق والشرق . فان المسألة ليست مسألة دين فقط ، وانما هى مسألة جنس وقومية ، واذ تقول أوربا «الاسلام» فانما تعنى فى غالب الأحيان « الشرق » أن الحرب الصليبية لم تكن فى حقيقها الا حرب الغرب على الشرق ، وهـــذا المد والجـــزر بين الغرب والشرق يفهمه مفكرو الأوربيين تمام الفهم ، ويحسبون له الحساب فالدفاع عن شـــخصيتنا وعقيدتنا دفاع عن حياتنا .

* * *

(٢)
كرومر = تغريب الفكر العربى

يعد افيلنج بارنج (كرومر) من كبار دعاة التغريب والاستعماريين فى العالم الاسلامى وواحدا من الذين وضعوا مخطط السياسة التى جرى عليها الاستعمار ولايزال ، فى محاولة القضاء على مقومات العالم الاسلامى والامة العربية جزء منه ، والايمان بأن هذا العمل الفكرى هو اهم الأعمال القادرة على دعم نفوذ الاستعمار وتركيز قوى الغرب فى قلب المنطقة ، وتمثل كتاباته فى تقاريره وفى كتابه (مصر الحديثة) خطة عمل كاملة ، وايدلوجيا شاملة للقضاء على مقومات الفكر العربى الاسلامى وتمزيق وحدة العالم الاسلامى ، ومقاومة القيم والمفاهيم العربية والاسلامية . ولقد أمضى لورد كرومر فى مصر مالا يقل عن ربع قرن قابضا على زمام السلطات (١٨٨٢ ــ ١٩٠٦) واتيح له من قبل أن يمضى وقتا فى الهند ، درس فى خلالها مناهج الاستعمار البريطانى هنالك ، وقد عمل أول امره فى مصر مندوبا فى صندوق الدين المصرى عام ١٨٧٧ ثم ما لبث أن عين بعد الاحتلال البريطانى مباشرة مندوبا ساميا ومعتمدا لبريطانيا ، ويهمنا فى هذه الدراسة ان نتناول آثاره فى مجال الفكر العربى الاسلامى ومخططه الذى سار عليه من بعده كل دعاة التغريب والذى اتخذته منظمات التبشير ومعاهد الارساليات وكل من اشترك فى مخطط العمل « دستورا » من أجل تأكيد النفوذ الأجنبى عن طريق الفكر .

وقد تبلورت حملات كرومر فى نقاط هامة قليلة :

(١) اثارة الشبهات حول الاسلام ، وذلك بالادعاء بأنه دين مناف للمدنية ولم يكن صالحا الا للبيئة والزمان اللذين وجد فيهما .

(٢) ان المسلمين لا يمكنهم أن يرقوا فى سلم الحضارة والتمدن الا بعد ان يتركوا دينهم وينبذوا القرآن واوامره ظهريا لأنه يأمرهم بالخمول والتعصب ، ويبث فيهم روح البغض لمن يخالفهم والشقاق وحب الانتقام وأن المانع الأعظم والعقبة الكؤود فى سبيل رقى الأمة هو : القرآن والاسلام .

(٣) أن الاسلام يناقض مدنية هذا العصر من حيث المراة والرقيق وأن الاسلام يجعل المراة فى مركز منحط .

(٤) الطعن فى شريعة الاسلام وسياسته ومعاملاته .

(٥) أن الشاب المصرى المسلم أثناء ممارسته التعليم الأوربى يفقد اسلامه أو أفضل قسم منه ويقطع حبل المرساة الذى يربطه بمرفأ ايمانه . وأن الشبان الذين يتلقون علومهم فى أوربا يفقدون صلتهم الثقافية والروحية بوطنهم ، ولا يستطيعون الالتجاء فى نفس الوقت الى البلد الذى منحهم ثقافته ، فيتأرجحون فى الوسط ويتحولون الى مخلوقات شاذة ممزقة نفسيا .

(٦) هاجم القرآن ، وقال انه ينافى العمران وهاجم الاسلام لأنه أباح الطلاق وأنه حرم الربا والخمر .

(٧) قال أن الاسلام خال من التسامح ويغلب عليه التعصب . وأنه يغرس فى العقول الانتقام والكره اللذان يجب ان يكونا أساسا للعلاقات بين الرجل والمراة بدلا من المحبة والاحسان .

(٨) دعا الى اطلاق الحرية للمرسلين والمبشرين فى مصر والسودان ، وأن ينشئوا مدارسهم ، وضمن تقاريره احصائيات عن أعمال التبشير فى جنوب السودان وفى تقريره عام ١٩٠٤ أعلن أنه كتب الى جمعية تبشيرية انكليزية يحضها على بعث مرسليها الى جنوب السودان وقال أن جنوب السودان سكانه وثنيون ، وأن اتصالهم بالمسلمين انما يذكرهم بفظائع الدراويش والنخاسين من العرب . وطالب بأن يتاح للمرسلين أن ينشئوا مدارس فى الخرطوم ويدخلوا ما شاءوا من التعاليم الدينية ، وقال أن أعمال المبشرين فى الجنوب (جنوبى كردوك ــ فاشوده) سائرة سيرا مستمرا ، وقال أنه لم يطلب منه حتى الآن اى ترخيص لانشاء مدارس فى جنوب السودان تعلم فيها فرائض الاسلام .

(٩) دعا الى خلق طبقة من المتفرنجين المستغربين من الوجهة الأوربية والمدنيــة الحديثة ، وقال أن هؤلاء جديرون بكل تنشيط ومعاونة يمكن أن تعطى لهم ، وقال أن هؤلاء هم حلفاء الأوربى المصلح ومساعدوه ، وسوف يجد محبو الوطنية المصرية احســن أمل فى ترقى اتبــاع الشيخ محمد عبده للحصول على مصر مستقلة بالتدريج.

وهذه النصوص المنقولة من كلمــات كرومر تمثل جماع ما دعا اليه المبشرون والمستشرقون دعاة التغريب والشعوبيون وما يزالون يدعون اليه حتى الآن ، وهى مجموعة من الأكاذيب المنبعثة من التعصــب واستخدام سلاح الشبهات للقضاء على مقومات الأمة وقيم فكرها . بعد أن تأكد الاســتعمار والنفوذ الأجنبى من أن هــذه المقــومات هى مصدر القــوة فى العالم الاسلامى لمقاومة كل ضغط أجنبى .

وقد استهدفت هذه الحملة اساسا قتل روح المقاومة والحملة على الاســتعمار وخلق روح تدعو الى تقبــله والرضى به والاستسلام له ، على أساس أنه أمر لايمكن مقــاومته ، ومن المصلحة الانتفــاع بالمستعمرين وقبول فكرهم وحضــارتهم ، وتقبل الحرية والاســتقلال على مراحل ، وهذا التيار الذى دعى فيما بعد بتيار التعتيل أو الالتقاء مع الانجليز فى منتصف الطريق ، وقد ارتفع هــذا الصوت فى السنوات الأخيرة لكرومر وحاول خلق فلسفة قوامها تقبل الاستعمار وصداقته وعدم معارضته ، وذلك بتصوير الاحتلال على أنه حقيقة واقعــة ، وكانت حجة دعاة هذه الحركة التى تعد خطوات التغريب والشعوبية القائمة الآن فى العالم الاسلامى امتدادا لها ، كانت حجة هذه الحركة فى « الاعتدال » أو التعقيل على أساس فهم سلبى قوامه أن التخلص من الاحتلال يحتــاج الى قوة ليست موجودة لدى المصريين وان الدعوة الى مقــاومة الاستعمار هو انفاق للوقت فيما لا طائل تحته ، وما دام الانجليز هم الذين يمسكون زمام الأمور وحدهم فلا سبيل الى الاصلاح الا بمصادقتهم والتفــاهم معهم وقبول ما يتنازلون عنه . وقد أشاد كرومر بهذه الدعوة التى حمل لوائها لطفى السيد فى الجريدة .

ومن هنا تعمقت الحملة على الوطنيين وعلى دعاة الجلاء والحرية وعلى أصوات الدعوة المتحمسة وهوجمت أبشع هجوم ، وقد حملت هذه الدعوة : الايمان بالفــكر الغربى ايمانا كاملا ونقله ، والتشيع له ، وتحقــير كل مقومات الفكر العربى الاسلامى ورميه بالضعف والجمود والتخلف ، كما حملت لواء التقدير لأمثال كرومر ووصــفه بالبطولة والاعجاب ببريطانيا وأوربا واعتبــارها راس الأمم العظيمة ، وبذلك انحرف ميزان المفاهيم بين القيم الأساسية والمفاهيم المستوردة .

وقــد أيد كرومر هذا الاتجــاه وأطلق عليه اسم « المدرسة » وتمثل هذا الاتجاه فى كتابات الجريدة ، التى انشأها الباشــوات والاقطاعيون والموالون للانجــليز ، وأصبح شــعار هذه الدعوة : « الاعتدال ، المحاسنة ، التعقيل » .

ثم كان أن اتجه المخطط التى نهايته فى ظل هــذه الحركة وكانت الدعوة الى :

(١) الاقليمية الضيقة ، مصر للمصريين ، لســنا نحن عربا وليس لنا بالمسلمين اى روابط ، ولا دخل لنــا فى أمورهم ومن هنا لا يجوز لنــا أن تشارك فى معــارك طرابلس التى وقعت مع ايطاليــا فى سبيل مقــاومة الاستعمار .

(٢) التعليم ، لا يكون الا لطبقــة معينة من الأمة هى الطبقة الثرية التى تتأهل لولاية الحكم وأن ابنــاء الطبقات الفقيرة لا يجوز أن يتعلموا الا « فك الخط » .

(٣) اللغة الفصحى هى مصدر التخلف ولذلك لابد من تحسين اللغة العامية حتى تصبح لغة الكلام والكتابة معــا .

(٤) الانجليز يعملون لتمديننا وحمايتنا ، فلاخصومة بيننا وبينهم ولكن موردة وصداقة .

(٥) الوطنية لا تكون اندفاعا عاطفيــا ، ولا ينبغى أن يتعلق أوهام الجامعة الاســلامية أو الرابطة العربية وانمــا تقوم على سياسة المصــالح فمصر أولا وقبل كل شىء .

وبذلك حقق كرومر هدفه فى خلق تيــار واضح فى تعميق دعوته ونشر سمومه وقبول آرائه فى ازدراء الفكر العربى الاســلامى واحتقار الاســلام والعروبة واللغة العربية والشك فى صلاحية هــذه المقومات لبناء أمة أو نهضــة . فاستطاع أن ينشر هــذه الآراء عن طــريق صحيفتين : صحيفةلها طابعها العلنىفىتأييد الاستعمار : (المقطم) وصــحيفة لها طابعــا المجرى الغــامض : (الجريدة) .

وقد مضى كرومر خلال فترة اقامته فى مصر الى آخر المدى فى تنفيذ مخططه الاستعمارى التغريبى الذى يتركز على عدة أعمال أساسية :

(١) الحملة على مركز الرابطة التى تجمع العـالم الاسلامى وهى السلطنة العثمانية والخلافة والسلطان عبد الحميد وتأييد خصومها وفتح أبواب مصر لهم واتاحة الفرصة بهم للحملة على الجامعة الاسلامية والخلافة والدولة العثمانية .

(٢) الحملة على الاسلام باعتباره تركيا نفسها وباعتبار أن الكيان القائم فى تركيا بكل أخطائه ومساوئه هو « الاسلام » والتركيز على الخلافة الاسلامية باعتبارها نقطة الالتقاء للعالم الاسلامى رغبة فى القضاء عليها .

(٣) الاتفاق مع فرنسا وتوقيع الاتفاق الودى وذلك حتى لا يجد المصريون مجالا للحملة على بريطانيا ومقاومة نفوذها ، وقد كشف ذلك عن ان الاستعمار ملتق على هدف واحد هو السيطرة على العالم الاسلامى .

(٤) استقدام عديد من الأجانب ومن السوريين واللبنانيين خصوم الدولة العثمانية ليصبحوا « ركائز » فى دعم الحكم واتاحة الوسائل الكفيلة لهم بالكتابة والتجارة والسيطرة على مجالات الاقتصاد والفكر والصحافة .

(٥) نشر اللغة الانجليزية والثقافة الانجليزية على حساب اللغة العربية والثقافة الفرنسية فى محاولة القضاء على الفكر الاسلامى العربى وبذلك أمكن تجميد اللغة العربية فى المدرسة المصرية والجامعة وتجميدها عن النمو فى العالم العربى والاسلامى كله .

وقد حاول كرومر تنفيذ تجربة الاستعمار البريطانى فى الهند للقضاء على اللغة العربية بها ، وذلك بنشر اللغة الانجليزية حتى تكون لغة تخاطب ، ففرض التدريس بها ، ولقد كان الاسلام هو العامل الأساسى الذى استطاع أن يحمى اللغة العربية بوصفها لغة القرآن ولولاه لانتهت اللغة العربية فى مصر .

(٦) خلق روح الاقليمية وتمصير القيم بعد ان كانت عربية او اسلامية وذلك لعزل كل قطر عن القطر الآخر واقامة حدود فكرية بين أجزاء الوطن العربى والعالم الاسلامى . وقد استطاع هذا التيار أن يبتعد عن جذور الفكر العربى الاسلامى وأن يشجبه شجبا كاملا ، ويجعل الحديث عنه جهودا رجعية ، كما انتشرت الحملة العنيفة المستمرة على رجال الأزهر ووصفهم بأنهم رجال الدين والقاء اتهامات الاكليروس على علماء المسلمين ، كما نقلت الاتهامات التى وجهها الفكر الغربى الى المسيحية الغربية على الاسلام . ولم تمر حملات كرومر دون ان تواجه بمعارضة ونقد وتشريح وكشف لما بها من أخطاء ومغالطات وتعقيد .

وأبرز ثلاثة تناولوا كتابات كرومر بالرد هم : فريد وجدى ومصطفى الغلايينى ورشيد رضا . وعندما صدر كتاب مصر الحديثة (مارس ١٩٠٨) نشرت اللواء والمؤيد ردودا تفصيلية ، مما جاء فيها قول المؤيد « لم يكن كرومر من رجال العلم والفلسفة ولا من رجال التأليف ، انما كان جنديا يؤمن بمجد الامبراطورية ، تعود بحكم وظيفته أن يكتب ، ونظرته استعمارية تنبع من وجهة نظر سيطرة بريطانيا ، وهى قائمة على كراهية للشرق والعرب والمسلمين واحتقارهم والايمان بأن الرجل الأبيض له حق تمدينهم » .

٢ — وقال فريد وجدى فى رده على كرومر انه مما لا خلاف فيه أن الاسلام كان وحده سبب يقظة الأمة العربية والروح التى بعثتها لتكون وحدتها الاجتماعية والسياسية وأنها باسمه وبتأثير تعاليمه اتصلت من بين شعابها وهضابها الرملية لمنازعة دولتى الرومان والاعجام حق السيادة الأرضية ، وباسمه اسست تلك المملكة الباهرة فى الأندلس التى كانت سببا فى ايصال نور المدنية الى أوربا فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين فهل يصح أن توصف المبادىء التى كونت هذه الدول بأنها مبادىء تميت الشعوب التى تسود فيها .

(٣) أما مصطفى الغلايينى فقد أصدر كتابا فى ٢٢٤ صفحة باسم « الاسلام روح المدنية صدر ١٩٠٨ فى بيروت وأعيد طبعه فى مصر بعد ذلك » .

وقد رد فيه مفصلا على راء كرومر عن . (١) التعصب فى الاسلام . (٢) الرق فى الاسلام . (٣) المرأة فى الاسلام . (٤) المدنية الاسلامية وأجاب على ثلاث أسئلة هى : (١) هل الشريعة الاسلامية لا توافق هذا الزمان . (٢) هل الاسلام مدن الانسانية أم آخرها . (٣) هل القرآن منا فللعمران .

(٤) أما الشيخ رشيد رضا فقد رد فى المنار مجلد ١٠ (١٩٠٧) على ما ذكره كرومر وأعاد الى الذاكرة ما وجهه الى المستشار الانجليزى عام ١٩٠٥ عندما هاجم الشريعة الاسلامية وقد جاء فى ذلك قوله الى كرومر : « هل عنيت بما قلت فى تقريرك الأخير عن الحكم بالشريعة التى وضعت منذ أكثر من ألف سنة الدين

الاســـلامى نفسه الذى هو عبـارة عن القرآن الـكريم والسـنة النبوية أم عنيت بذلك الفقه الاســلامى الذى وضعه الفقهاء » .

وقد رد كرومر فى مكر ولؤم ، فقال انه انما قصـد الفقه ولم يقصد الدين الاسلامى نفسه .

رد فريد وجدى على اتهامات كرومر وشبهاته

غير خاف فى أن الاسلام كان وحده سبب يقظة الأمة العربية والروح الذى بعثهـا لتكوين وحدتها الاجتماعية والسياسية ، وانها باسمه وبتأثير تعاليمه انفلتت من بين شعابها وهضابها الرملية لمنازعة دولتى الرومان والاعجام حق السيادة الأرضية . وباسمه أسست الخلافة الأموية التى مدت ملـكها الى حدود الصين شرقا ثم الى حدود فرنسا غربا ، وباسمه أسست الخلافة العباســية التى حفظت كنوز العلم اليونانى من الأفكار وباسمه اسست تلك المملكة البـاهرة فى الأندلس والتى كانت سـببا فى ايصـال نواة المدنية الى أوربا فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، فهل يصح وصف المبادىء التى كونت كل هذه الدول وكانت باعثة لكل هذه المدنيـات الفاخرة فى مدى فترة قرون متتابعة بأنها مبادىء تميت الشعوب التى تسود عليها . نعم طرأ على المسلمين فساد اجتماعى بعد قرون من ظهـور الاسلام وبعد بلوغ مملكته ومدينتـه أشدهما ، فهل يليق بباحث أن يلقى تبعة ذلك الفســاد الطارىء على الاسلام نفسه ، أم الأولى أن يقال ان ذلك الفساد سببه حلول مبادىء مناقضة لمبادىء الاســلام الحقة ساقت الأمة الى لوازمها ومقتضـياتها أن مبادىء الاسلام شىء غير آثارها التاريخية .

(٢) ان الشريعـة الاسلامية لم تبتكر ارق بل كان موجودا قبل ظهورها بألوف السـنين ، وهى لم تحتمه وانما أجازته مراعاة للحكمة التاريخية .

ان الاسلام علق أمر الاسترقاق فى الحرب بارادة الحكومة تمهيـدا لابطاله حينما تدرك الجمعيـة البشرية بواسطة الحوادث المهذبة ضرورة ذلك ، لذلك لما توصلت المدنية لابطال هـذه العادة كان المسـلمون من أول من لباها ، ولم يسمع أن عالما من علماء الاسلام قام فى بلد من البلاد وطعن على مبطلى الاسترقاق زاعما أن ابطاله مما ينافى الدين .

(٣) أما من جهة العلاقة بين الرجل والمرأة فليس فى الاسلام منها ما ينقض أعلى المبادىء المدنية بل هو قد سبقها الى تقرير حقوق للمرأة لم تصل اليها مدنية أوربا الى الآن ، فالاسلام قد اعترف للمرأة بأن لها روحا كروح الرجل وهو احق اذى ابته أوربا عليها زمنا طويلا وقـرر بأنها شريكة الرجل فى الحياة وانها كائن ممتع الخصائص الانسانيـة اتى تؤهلهـا لأرقى مراقى البشرية وقـد اباحت لها الشريعة الاسلامية ان تلى القضاء بين الرجال وأن تلى الافتاء فى شؤون المسلمين ، وهـذا من الحقوق التى لم تنلها المرأة فى العالم الغربى الى الآن ، وأجازت لها أن تتصرف فى أموالها استغلالا وايجارا ورهنا وبيعا، وهذه أيضا من الحقوق التى لا تتمتع بها المرأة الأوربية تمتعا تاما ، وحث الشارع على أن تحضر المجامع الدينية والنوادى الشورية العامة عند طرؤ حادث على المسلمين وصور لهـا أن تبدى رأيها فى وسـط الجموع ، وعلى الحكومة أن تحله محل الاعتبار ان كان حقـا ، والمرأة بنص الكتاب شريكة الرجل فى الحياة شركة رباطها المودة والرحمة ، ولا توجد شريعة فى الدنيا لا توجب على المرأة خدمة زوجهـا ايجابا قهريا غير الشريعة الاســلامية ، فالمرأة فى نظر الاســلام شريك محترم له حـق الرعاية والاكرام لا زميل ممتهن وممـا يعد مدهشـا فى احترام الاسلام لحرية المرأة أن لا يوجب عليهـا ارضاع ولدها ولها أن تجبر زوجها على استرضاعه بواسطة وضـع ما صوره .

فهل كل هذه الحقوق الممنوحة للمرأة التى لم تصل الى بعضـها المرأة الغربية مما يمكن أن يحتقـر فى نظر الباحث الأوربى ويعلن عنه على رؤوس الاشهاد انه مما ينافى الفـكر العصرى . لعل جناب اللورد يرى ما عليه العامة من المسلمين الآن من الخشونة فى معاملة النسـاء فيظن أن ذلك عملا بشريعتهم واذا كان كذلك قلنا لا يصح أن تتخذ حال العامة فى اية صورة صحيحة لشريعتها والا لرأينا فى عامة اهل أوربا ما يجعلنا نحكم على أصول من بيئتهم بأنهـا من أحط الأصول وأبعـدها عن العواطف الكريمة .

ويعيب اللورد كتاب الاسلام (القرآن) بأنه جمع فى دفتيه بين القوانين المدنية والجنائية والدينية واكد بأن هذا الجمع هو السبب الفعال فى انحطاط كل الأمم التى تدين بهذا الدين . فلم يفهم وجه ارتباط الانحطاط بذلك الجمع ولم نقف فى تاريخ البشر على مايقوى شبهة اللورد ويؤيدها ، بل رأينا أن كتب كل المدنيـات القديمة التى كانت ولم تزل احدى مفاخر النوع البشرى كانت جامعة بين القوانين المدنية والدينية وهذه بين أيدينا كتب قدماء المصريين والبابليين والأشوريين والهنديين والعبرانيـين واليونانيين والرومانيين تشهد بما نقول وما من أمة من

هذه الأمم الا ولها صرح قائم فى عالم المدنية الانسانية . ومما يصح اتخاذه برهانا عمليا على أن اجتماع كل تلك القوانين فى كتاب واحد لا يعطل سير النهضة المدنية ولم تعد بالنفوس عن بلوغ أرقى شأن من الترقيات .

ولعل اللورد كرومر يريد مبدأ جمع الاســلام بين الدين والسياسة وهو المبدأ الذى حاربته أوربا من بدء القرن الثامن عشر ولم تزل بقاياه الى اليوم قائمة لتبرز سياستها ملحدة بلا دين من كل وجه وهو على راى بعض السياسيين مطلوب الروح العصرية الحافزة .

أن تشبيه اختلاط الديانة والسياسة فى كتابنا لقيام امر حكومتنا على هذا المبدأ المشـــترك بما كان حاصلا فى الأمم الأوربية قبل قر ن من الزمان هو تشبيه مع الفـــارق الجسيم ، ذلك لأن كتب الديانة النصرانية اعتبرت الأمة مكونة من طائفتين متميزتين ، رجال الــكهنوت وطائفة الشــعب ووهبت للأولين من الامتيازات ما علا بهم عن مستوى العامة والخاصة معا . ومدت فى سلطتهم على الانتاج والأرواح حتى جعلتهم فوق الملوك نفوذا فحدث من ذلك من التقــارير بينهم وبين الملوك ما جر الى أقسى الحرو بوافظعها قرونا مستطيلة . كانت أوربا فى أثنائها كحدوة بأرجلهن واســتمر النزاع حتى توصلت فرنســا لوضع حد لتلك السلطة الدينية الخطرة ، أما فى الاسلام فالأمر على خلاف ذلك لأن الاسلام بحكم مبادئه الحرة لم يعترف بوجود طائفة ممتازة تدعى طائفة رجال الدين فلم توجد فيهم الامتيازات الكهنوتية ولم تقم فيه طائفة قوية تنازع الحكومة سلطتها الزمنية . وما علمــاء الاسلام فى نظر الكتاب الا أفرادا انقطعوا لدراســة الدين بمحض اختيارهم وليس لهم امام القانون الاسلامى أدنى اعتبار مدنى أو دينى وليس لشكل الألبسة اوامر دينية تجبرهم عليه . وعلى أن الشكل الذى يحــافظ عليه علماء مصر تشــاركهم فى اكبر التجــار والمزارعين فى جميــع البلاد المصرية .

* * *

ليس لدى المسلمين مسألة يقال لها مسألة فصــل الدين عن السياسة ، بل ولا يتصور حدوث ذلك فى يوم من الأيام ، وذلك لعدم اعتراف كتــابنا بأى امتياز لأى طائفة من الطوائف ، وانما اجتمعت هذه الأصول عندنا فى كتابنا لتكون سياستنا ذات دين لا يفارقها العطف ولا الرحمة ، ولا يزايلهــا اللين ولا المروءة فعــلاقة الدين بالسياسة عندنا علاقة اخلاقية روحانية لا علاقة ضغط ولا جبرية ومتى خلت السياسة عن الأخلاق الدينية كانت مجتمع حيــل واكاذيب وليس لأحــد ان يعيرنا بامتزاج سياستنا بالدين ما دام التاريخ يشهد لهذا النوع السامى من المدنية بالسبق الى باحات الكمال البشرى .

لقد ارتنا الحوادث مقدار الضرر الذى حصــل من فصل الأخلاق الدينية عن السياسة ومبلغ الخطر المتوقع حدوثه لدوام الحال على هذا المنوال ، ونحن اذا كنا ندعو للرجوع لديننا فانما ندعو لذلك بعد أن طفنا من التاريخ والحوادث الحاضرة على كل ما يمكن علمه من الشئون الخاصة ، فرأينا رأى العين ان كتاب الاســلام الجامع لسائر القوانين بين دفتيه هو أثبت ما يمكن أن يقوم بناء الاجماع عليه وليس فى هــذا ما ينافى مبــادىء المدنية العصرية .

(٢) وكان كرومر فى تقريره عام ١٩٠٦ قد هاجم الاسلام والفكر العــربى الاسلامى فى ثلاث مواضع . (١) اباحة الاسترقاق . (٢) المرأة . (٣) اجتماع الأصــول المدنية والقانون فى الاســلام . وقد رد عليه كثيرون فى مقدمتهم فريد وجدى ، ومصطفى الغلايينى والدكتور شبلى شميل .. وقد نشر فريد وجدى رده باللغة الانجليزية فى جريدة اجيبشيان ستندر حتى يهيىء للورد كرومر فرصة قرائته بنفســه وبلغته ، غير أن كرومر لم يلبث بعد عامين بعد خروجه من مصر أن أصدر كتابه « مصر الحديثة » وعاد فاتهم الاسلام والثقــافة العربية الاســلامية مرة أخرى باتهــامات جديدة فعاد فريد وجدى الى الرد عليه مفندا رأيه بأدلة جــديدة فى بضعة وعشرين مقــالا نشرها فى جريدة الدستور عام ١٩٠٨ ثم جمعها فى كتابه : (اللورد كرومر والاسلام) .

ومما جاء فيها قول فريد وجدى : صــغر فى عينى جدا من حيث معــارفه التاريخية والاجتماعيــة والدينية وكنت أظن انه بعــد أن قرأ ردى عليــه فى اجيبشــان ستندارد الانجليزية يؤوب الى الحق ، فيتنازل عما اختزنته ذهنه عن الاسلام عن طريق الوراثة والتقليــد فاذا به ازداد تعسفا وجنى على الحقيقة . ويظهر أن السياسة قطعته عن العلم فلم يدرس فى فلسفة الأديان كتابا واحدا .. ويسوءنا أن نجاريه فى تعديه على الاسلام فنكيل له الصاع بالصاع ونريه من أقوال قادة الفلسفة الأوربيــة مبلغ ما أتت به المسيحية للعلم والمدنية ، ولكن يردنا عن ذلك أدب اسلامى أفاضه علينا القرآن فتمتنع عن تناول النصرانية بالقول تفاديا من استياء الآخذين بذلك الدين .

ولــكن ذلك لا يمنعنــا من ان نذكره بقول العلامة « دراير » أن المسيحية لبثت فى أوربا ألف سنة فلم تنجب عالما واحدا ولم يلبث الاسلام غير سنين معدودة حتى نبغ

فيه ألوف من أراكين العلم وأساطين الفلسفة .. ان المصرى يعتبر من أكثر العالمين أدبا وظرفا وكرما وماذا رأى كرومر من سوء آدابنا حتى يحط من قدرنا الى هذا الحد، أن ذنب الاسلام فى نظر أهل السياسة من أوربا أنه دين يحمل الآخذ به على الاباء والشمم ، ويحميه من أن يكون مضغة للمستعمرين من الأمم ، مم يكفر المسام المعتصم، أيكفر من وجدان دينا لا يجافى العقل ولا يحجز عليه ، دينا يفتح باب الحرية المعقولة فى وجه كل ميل من أميال جسده وبصر دينا يدعو للقوة الدنيوية كما يدعو للمنزل الأخروية . لابد أن يكون من الذين يحومون حول كرومر رجل أو رجال دسوا له الدسائس ، فما كان كرومر يستطيع أن يقول هذا الكلام ما لم يقم قوم من المسلمين يدعون أنهم آخذون فى اصلاح الاسلام وكلمة اصلاح التى هى فى لنتهم Refcrm تذكرهم بانقلاب أساسى للدين من نوع الانقلاب الذى أحدثه لوثر وكالفان من مؤسسى البروتستانية ، فلما رأى كرومر أن فى مصر رجالا يدعون هذه الدعوى ولم تثمر أعمالهم سنين ثمرة تذكر ، زعم أن الاسلام غير قابل للاصلاح . أما الاسلام فى ذاته فلايعوزه اصلاح ما ، وكل ما يشاهد فى أهله من آثار الحيدة عنه، أسبابه الجهل والبعد عن أصوله وفروعه ، فبنشر العلم بين طبقات المسلمين تنتهى كل هذه الخرافات . فثم يطلب الاسلام الاصلاح . هل يحجر على المتعلم العام . هل يصد الباحث عن البحث ، هل يأمر باحراق المتكلمين فى الطبيعيات هل يزجر أهله عن السعادة المادية هل يكبح الآخذين به عن الملذات البدنية المعتدلة ، هل يقيم لهم الوسطاء والشافعين من الكهنة ، هل يأمر الناس بالذلة والمسكنة ، هل يحسن للانسان قتل الناس بمجرد مخالفتهم الله فى العقيدة ، هل يبيع فى حملته الجنة والرحمة الالهية .

كل ما فى الأمر أن جهال المسلمين غلوا فى تعظيم الصالحين وفى استعمال البيارق والطبول فى الأذكار ، وأفرط أغنياؤهم فى كثرة التزاوج والطلاق ، وهى أمور سببها الجهل ، وأوجبها سكوت العلماء وغدا تنتبه العقول فلا يوجد لها عين ولا أثر .

يقول اللورد أن الاسلام فشل فى تكوين نظام اجتماعى وهذه كلمة تضحك الصخر وتبكيه فى آن واحد ، فياليت شعرى اذا خاب الاسلام فى تكوين نظام اجتماعى فكيف جمع العرب المشتتين وكون منهم أمة دحرت الرومان والفارسيين وما زالت تمتد حتى بلغت أقصى ما بلغته دولة الرومان فى قرون وصار ملكها أكبر من ملك انجلترا اليوم ، ألم يقرأ نظام الأندلسيين فى غرب أوربا فى القرن السابع والثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر من الميلاد حيث كانت أوربا تتعلم منهم العلوم وتقتبس منهم المدنية . أتريد دليلا على فساد مزاعم اللورد كرومر أقوى من قوله ان الاسلام خاب فى تكوين نظام اجتماعى فى الوقت الذى أجمعت فيه التواريخ أن الأمة الاسلامية اجتمعت بالاسلام . وارتفعت به وكونت لنفسها فى ممالك متعددة مدنيات باهرة تفضل مدنية اليوم من أكثر الوجوه . ولكن الأغرب فى كل ما مر من تعايلات كرومر لاخفاق النظام الاجتماعى الذى وضعه الاسلام قوله : انه حط من قدرة المرأة ، كيف حط الاسلام من قدر المرأة وهو الذى أثبت لها روحا وقد نفتها عنها أوربا فى مجمع دينى مقدس ، وأثبت أن لها أن تضحك وأن تأكل اللحم وأن تلبس ما تشتهى وقد حرمت عليها الكنيسة الأوربية ذلك فى العصور الوسطى ، وأباح لها حق التملك والتصرف بما لها والتكلم فى شؤون المسلمين العامة وتولى القضاء والافتاء وفرض لها فى بيت زوجها كل كرامة حتى لم يكلفها بارضاع ولا بخدمة منزلية . هذه المرأة الأوربية المعطاة قشور الحرية دون لبابها ، ولم تزل ، لا تمتلك حرية التصرف بما لها (وليس لها حق الانتخاب لحكومتها) وقد نسى كرومر بأى جهاد نالت المرأة الأوربية بعض ما هى فيه اليوم .

العلة الثانية : خلط العلماء المقلدون الشريعة بالدين حتى أفقدها مرونتها . وهو قول عجيب لا يصدر الا ممن لا يدرى ماهية التشريع الاسلامى ولا التشريع على وجه العموم وهو لمجىء الأصول الشرعية من خلال آيات القرآن ، ولاعتقاده بأن الاسلام دين وضعه النبى من تلقاء نفسه يندهش كلما سمع أن شريعة المسلمين التى يريدون الرجوع اليها قد ألفها رجل بدوى فى القرن السابع الميلادى لا عهد له بشرع ولا نظام ، فهو كلما يذكر ذلك يكاد يتميز تعجبا من انحطاط عقل المسلمين لتبولهم شريعة واضعها على هذا الحال . ولو أنه طالع القرآن ولو مرة وتلا بعض السنة الصحيحة فى التشريعات ثم ألقى نظرة على مرونة الأصول الشرعية الاسلامية التى وضعها الأئمة واباحة الاسلام للاجتهاد والاستنباط فى كل عصر ، ولم يقيد فكره ببعض من أخذ عنه هذا القول من المترجمين المتملقين أو المسلمين المتفرنجين أو العلماء الجامدين لعلم أن أصول الشريعة الاسلامية هى اصول خالدة لا تقبل النقض وأنها مرنة غير قابلة للتحجر ، وأنها أرقى وضعا وأجمع لمصالح البشر من كل شريعة وضعية الى اليوم ، ويعبرنا اللورد بالمفتى الذى أفتاه بقطع يد القاطع للطريق ورجله وهو حد يوجبه الله ايجابا ، بل خير القاضى بينه وبين النفى ، وما خيره الا لاختلاف أحوال الناس باختلاف الأوساط . وليته قرأ أنواع تعذيب السحره والسراق والمجرمين فى أوربا ، حيث كانوا يعلقونهم فى أعمدة جماعات ويوقدون تحتهم نار هادئة تسيح منها لحومهم وشحومهم ويتركونهم يموتوا على هذه

الصورة بعد ايام كثيرة ، وليته ذكر انهم كانوا فى أوربا يأتون بالمرأة المتهمة فيربطون كلا من يديها ورجليهـا فى بغل قوى ثم يضربون البغـال فتجرى الى كل جهـة ، فتتمزع المرأة وهى عارية الجسد على هذه الصورة الفظيعة ، ترات كل هذه الأنواع فى كتبهم . ولها عندنا رسوم وصور يتفطر قلب من يراها ، فهل يريد كرومر أن ابرز له تلك الرسوم ليراها بعينه فيعرف أن الفرق بين عقوبات الاسلام وعقوبات الغرب بعيدا جدا .

* * *

٢ ـ أما الاسترقاق فقد كان عند ظهور الاسلام مقررا فى جميع الشرائع الوضعية والسماوية وكان حظر الرقيق لا يفترق عن خطر الجهادات فى كبير شىء ، فكان انفراد الاسلام بابطال الرق وهو مشروع فى جميع الأديان والقوانين البشرية مما يقابل بالنفور العام ، وليس هذا من الحكمة العلمية فى شىء ، فكان موقف الاسلام ازاء هذه المسألة الخطيرة كموقفه ازاء كل مسألة فى النفوس فابتدأ بتضييق دائرة الاسترقاق فجعله لا يصح الا بالحروب الشرعية ضد الأمم المتحدة ، لا كما يفعله النخاسون فى افريقيا ، ثم اخذ بعد ذلك فى تلطيف حالة الأرقاء بالتأثير على عقول المسلمين . فقرر بأنهم اخواننا جعلوا تحت أيدينا لا لنمتهنهم او نكلفهم مالا يطيقون بل نعاملهم معاملة الاخوان فى الانسانية ، ثم كافأ ضعفهم فى الهيئة الاجتماعية بأن وهبهم من جهة القانون من الامتيازات بما لم يسمع له فى تاريخ العالم للآن ، فقرر أن تكون عقوباتهم نصف عقوبة الأحرار .

وجملة القول أن الشريعة الاسلامية لم تنكر الاسترقاق اذ كان موجودا قبل ظهورها بألوف من السنين وهى لم تحتمه وانما أجازته مراعاة للحكمة التاريخية . وأن الاسلام علق أمر الاسترقاق فى الحروب بارادة الحكومة تمهيدا لابطاله . حينما تدرك الجمعية البشرية بواسطة الحوادث المهذبة ضرورة ذلك .

ويصور الدكتور سامى النشار دور اللورد كرومر فى تغريب الفكر العربى الاسلامى على نحو أشد وضوحا وقوة وذلك بعد مرور أكثر من ثلاثين عاما على كتابات فريد وجدى يقول : ان كرومر قد أتى وكان اليه جماع الحروب الصليبية ، وفيه حقيقتها ، أضغان الصليبيين القدامى واحقادهم وسخائمهم العتيقة ، انه حين أتى أعلن انه سيهدم فى مصر ثلاثا : القرآن والكعبة والأسرة الاسلامية ، وظن هذا الصليبى الصغير انه بقادر على هدم حقيقة الكون الكبرى ، وأنه اله صغير فى يده الأمر والنهى ، ولكنه حاول وحاول ، واستخدم ببراعة نادرة حلقة معينة وقد استطاعت هذه الحلقة أن توجه الفكر الاسلامى الا الاتجاه الذى أراده كرومر .

* * *

(٣)

المارشال ليوتى : مهاجمة اللغة العربية والإسلام

لا تستطيع أن نقرأ تاريخ المغرب الحديث دون أن ترى اسم المارشال « ليوتى » بارزا واضح الأثر بوصفه الرجل الذى مهد للاحتلال الفرنسى للمغرب وقعد قواعده مثله مثل كرومر فى مصر ، فهو أول حاكم للمغرب (ديسمبر عام ١٩١٢ (ويعده موطنوه الفرنسيون انه منشىء المغرب الحديث ، وأبرز اعماله هو خلق الخصومة وتأريثها بين عنصرى الأمة المغربية العرب والبربر ، كما خلق كرومر الخلاف بين المسلمين والمسيحيين فى مصر ، وقد حارب اللغة العربية وحارب جامعة الزيتونة وظل يعمل فى همة حتى عام ١٩٢٥ حينما بلغ السبعين من عمره وقد استطاع أن يكسب بعض شيوخ الطرق الصوفية الى صف الحماية واستعان بهم على تركيز النفوذ الفرنسى عن طريق الفكر والدين ، وكان ليوتى بارعا فى استغلال الحزازات القبلية ، واستطاع أن يكسب الى صف الاستعمار أرباب الطرق الدرقاوية التى حملت لواء تثبيط مقاومة الشعب للاحتلال ، فقد أوصى دعاتها الأهالى بالطاعة والتسليم للسلطات الفرنسية ، وقد بلغ مولاى عبد الرحمن غاية ما أملت فرنسا فى هذا وقد ربط مستقبله بمستقبل فرنسا على حد يعتد روم لاندو فى كتابه (تاريخ المغرب فى القرن العشرين) فى أنه لم تكد جنود الخلفاء تنزل المغرب حتى اتصل شيخ الدرقاوية بهم وطلب أن يصبح مواطنا ، وقد قام الطرقيون بدورهم فى استسلام الأمير عبد الكريم فى حرب الريف عام ١٩٢٦ وقد أشار لاندو الى أن الطريقة التيجانية هى ايضا قد نفعت فرنسا بنفوذها القوى فى جنوبى المغرب وموريتانيا والريف ، وكذلك الطريقة الكتانية وكان الفضل فى ذلك الى المارشال ليوتى الذى كان عمله الفكرى من اكبر الأعمال التى مهدت للنفوذ الغربى الفرنسى فى العقل العربى الاسلامى المغربى وقد أولى ليوتى اهتمامه الأكبر الى مقاومة جامع الزيتونة حتى قال لأحد أعوانه أنه : اذا تم لفرنسا القضاء على القرويين فقد ضمنت فرنسا لنفسها الخلود فى المغرب ، ذلك لأن خريجى القرويين كانوا أهم عنصر فى المقاومة التى واجهت الاستعمار الفرنسى .. وقد تعرضت جامعة القرويين منذ أواخر القرن الثامن عشر الى حملة ضخمة قادها كتاب الافرنج وطعنوا فى معارف أهلها وكفاءاتهم وكان هذا تمهيدا للتدخل فى مناهجها ومحاولة اماتتها والقضاء عليها .

وأبرز أعمال ليوتى هى حركة الفصل بين العرب والبربر ، وقد صور هذا الدور فيكتور بليه فى كتابه (الشعب المغربى أو العنصر البربرى) فقال : لما حفظنا للقبائليين (البربر) فى الجزائر حالهم . اتخذوا اللغة الفرنسية بدلا من العربية ، ولابد لبربر المغرب أن يتبعوا تلك الخطة ، ومن الواجب علينا اعانتهم على ذلك وقانونهم الخاص لا علاقة له بالقرآن ، فيجب أن نثبته ونتممه ونرقيه بكيفية بربرية ، أن لم تكن فرنسية ، ولا نترك القرآن يثبت فى أوطانهم ، ولقد جعلنا برنامجا التعليم البربرى فى فكرة فرنسية ، وجل المدرسين من القبائليين وذلك من أحسن الوسائل لمصادرة اللغة العربية » .

وهكذا كشف مخطط ليوتى وحلفائه هدفهم فى القضاء على اللغة العربية والاسلام والقرآن أساسا باعتبارها وسائل المقاومة للغاصب ، وقد أشار الجنرال مارتى فى كتابه (مغرب الغد) الى هذا المعنى حين قال « لا حاجة لنا فى تعليم العربية الى المستغنيين عنها ، والعربية رائد الاسلام ، ويجب علينا أن نمدن البربر خارج طور الاسلام ويجب علينا أن نمر من « البربرية » الى « الفرنسية » بدون واسطة ، ولابد لنا من فتح مدارس فرنسية بربرية تتعلم فيها الشبية البربرية اللغة الفرنسية ، ويجب علينا أن نأخذ الاحتياط فى المذاكرة معهم فى شأن الدين ، لأن الاسلام وما وضع على البرابر الا صبغة سطحية » . وصور مارتى هذه المدرسة الفرنسية البربرية فقال أنها فرنسية باعتبار ما يقرأ فيها وبربرية باعتبار تلاميذها فلا حاجة الى واسطة أجنبى حيث أن التعليم العربى ، وتدخل الفقهاء ، وكل المظاهر الاسلامية ستبعد عنها ابتعادا وبذلك نبعدهم قسرا عن

كل ما يطلق عليه لفظ اسلام » وقد أشار فيكتور فيكى الى أنه يهتدى فى ذلك بتعليمات المارشال ليوتى التى تهدف الى مصادرة اللغة العربية وكتابه البربرية بحروف فرنسية ، وأشار جان جيرو فى مجلة المغرب الكاثوليكى الى أن الجنرال ليوتى فهم أن اثارة التناقض بين العنصرين البربرى والعربى هو الكفيل بجلب المصالح لدولة فرنسا وأنه قد اندفع الى ذلك بما له من ذكاء حاد يكشف به جانب المنفعة .

وكما أولت فرنسا الجنرال لافيجرى اهتماما خالدا باقامة تمثاله الضخم فى مدخل تونس ، كذلك أقيم للمارشال ليوتى مدفنا على ربوة تشرف على مدينة رباط الفتح بالمغرب .

وقد أشارت جريدة المقطم الى الرابطة بين اهداف كرومر وليوتى ، فقال خليل ثابت رئيس تحريرها ان كرومر وليوتى كانا يمثلان سياسة من أكبر السياسات فى القرن التاسع عشر فانهما مع عنايتهما بالاصلاح الادارى والمالى والاقتصادى ، لم ينسيا انهما وكيلا دولتين لهما أغراض ومقاصد لابد من مراعاتها والسهر عليها وانهم كانوا من أعظم رجال الاستعمار .

وبعد فقدكان ليوتى عاملا على هدم ثلاث قواعد هامة :

١ — اللغة العربية واحلال اللغة الفرنسية مكانها وتشجيع اللهجة البربرية .

٢ — تحويل التعليم الى اتجاه الفكر التونسى والثقافة التونسية والقضاء على القرآن والدراسات الاسلامية .

٣ — اقامة المحاكم البربرية وذلك للقضاء على النظم القضائية المستمدة من التشريع الاسلامى .

* * *

(٤)
الكردينال لافيجرى

يعد الـــكردينال لافيجرى من أكبر دعاة التغريب والعــاملين على تثبيت قواعد النفوذ الأجنبى فى المغرب العربى كله ، وعندما توفى ١٨٩٢ كان عملا ضخما قد تم فى الشـــمال الأفريقى لتركيز دعائم النفوذ الفرنسى حتى نسب اليه وارتبط به المؤتمر الافخارستى الذى عقـــد فى مدينة تونس ١٩٣٠ بعد أن أقيم تمثال له فى مدخل المدينة عام ١٩٢٥ يمثله وهو آخذ الصليب بيده اليمنى والانجيل بيده اليسرى ، وما زال قائما فى مكانه الى اليوم ، وهو مع الجنرال ليوتى من طلائع الاستعمار فى المغرب أشبه بكرومر ، وزويمر فى الشرق وقد حاول من جاء من بعـــده أن يربطوا بينه وبين لويس وحملته الثـامنة على تونس فقال أسقف قرطاجنـــة « ان الفكرة العظمى التى كانت تدور بين جنبى لوى (لويس التاسع) والتى ورثهـــا الكردينال لافيجرى هى التى تدفعنـــا الى عقد المؤتمر الافخارستى ، أن مؤتمر قرطاجنه سيكون حملة صليبية جديدة أو الحملة الصليبية التاسعة والكردينال لافيجرى هو مؤســـس جمعية الآباء البيض المبشرين فى الجزائر وتونس ، وكان مصدر العمل كله تقرير حقيقة تقول أن الوسيلة الوحيدة لبقاء الاحتلال والنفوذ الفرنسى ودوامه هو تحويل أهالى المغرب الى فرنسيين وتغيير دينهم الى دين الغرب .

* * *

ومن أبرز ضربات الـــكردينال لافيجرى محاضرته المشهورة عن الرقيق فى الاسلام والتى رد عليهـــا المؤرخ العربى المصرى احمد شفيق صاحب الحوليات بكتـــــاب ضخم باللغة الفرنسية ترجمه أحمد زكى باشا الى اللغة العربية .

ومنذ مطالع شباب الكردينال لافيجرى المولود عام ١٨٣٥ كان اتجاهه الى درس العلوم اللاهوتية حتى وصل الى مناصب الاكليروس الى رتبة « الكردينالية » وقد جال جولات واســـعة فى بلاد المغرب وبلاد أفريقيا من اجل تدعيم ارساليات التبشير ، والمعروف أن تونس احتلت ســنة ١٨٨١ وأن عمله كان تمهيدا لهذا الاحتلال الذى كانت فرنسا تتطلع اليه منذ احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠ تم تأكيدا ودعما لهذا الاحتلال .

ومن أهم الأعمال التى وضع لافيجرى أسسها :

(١) اقامة مدارس تبشيرية ومنها مدارس للراهبات استطاعت من بعـــد أن تضم كثيرا من حفيدات البـــاى والمفتى الأكبر وكبار الشخصيات المتصـــدرة للقيـــادات السياسية .

(٢) محاربة اللغـــة العربية والاســـلام والقرآن .
(٣) الدعـــوة الى اعادة الغرب الى أصـــله الرومانى .
(٤) توسيع نطاق التبشير فى أفريقيا كلهـــا واقام جمعية الآباء البيض ذات التاريخ المعروف فى مواجهة انتشـــار الاسلام . وقد خلفه بونس وفوكو وجول سيكار ولهم مؤلفات خطيرة فى الدعـــوة الى تقويض أركان الاسلام والفكر الاسلامى واللغة العربية .

وجملة رأى الكردينال لافيجرى واتباعه أن هـــذه البلاد (المغرب) بلاد رومانية أصلا ، ولابد من ارجاعها الى طابعها الرومانى القديم . وفى نفس الوقت الذى كان المؤتمر الافخارستى يعقد فى تونس على أثر حملة التجنيس بدعوة التونسيين الى الجنسية الفرنسية ، كان الظهير البربرى الصادر فى المغرب (مراكش) يدعو الى فصـــل العرب عن البربر ، وفى نفس العام ١٩٣٠ كان احتفـــال فرنسا فى الجزائر بمرور مائة عام على احتلالها ، واعتباره احتفـــالا بمرور قرن على اقـــرار الكنيســة المسيحية فى الجزائر . وفى هذه الحركات جميعا كان اسم لافيجرى لا يفارق الكتـــاب والمتحدثين متخذا منه نقطة البدء الى توسع نشاط التبشير فى شمال أفريقيا ، ولقد أثار المؤتمر الافخارستى ضجة لا حد لها ، فقـــد اعتمد له مليونا من الفرنكات من ميزانية الحكومة التونسية ، وتقرر عقده فى قرطاجنه ، فلما اقترب موعده قدمت الى العاصمة جماعات كثيفة من الرهبان وأخذت تجول فى الشـــوارع ، صفوفا

متراصة تتقدمها كشافة ترتدى ملابس الحروب الصليبية وهى قمصان بيضاء رسم عليها الصليب من أمام ومن خلف ينشدون الاناشيد الكنائسية ، وكان حديث الرهبان الى العالمين لا يخرج عن أنهم من أرومة مسيحية ورومانية وأنهم لابد أن يعودوا اليها ، وأن هذه البلاد ، ستدخل فى حياة جديدة بعد ليل الاسلام الطويل » .

❋ ❋ ❋

الرقيـــــــق فى الاسلام

هاجم الكردينال لافيجرى الاســـلام فى محاضرة له عن الرقيق ، اثارت كاتبا عربيا مصريا هو المؤرخ احمـــد شفيق صاحب الحوليات الذى كان فى باريس فى هـــذه الفترة :

قال أحمد شفيق باشا فى مذكراته : فى أول يوليو سنة ۱۸۸۸ ذهبت الى كنيسة سان سولبيس لأستمع فيهـــا الى محاضرة عن الرقيق . وهو موضـــوع يهمنى بصفتى مسلما وكان بصحبة الكردينال ســـودانى صغير قال أنه أنقذه من الرق وقد تكلم عن سير الرق فى افريقيا ولفت الأنظار الى انتشاره ومما قال .لقد زاد الرقيق فى أفريقيا منذ عشر سنين وأصبح يقدر بمليون نســـمة فى السنة فاذا استمرت هذه الحال خمسين عاما أخرى فلن يبقى فى تلك الأنحاء انسان حر ، وما يزال الرق زائعـــا عند حدود مصر وفى زنجبار وبلاد العرب ، وعلى ساحل البحر الأحمر ، وبالرغم من رقابة السفن الانجليزية فان النخاسة يعبرون هذا البحر فى جوف الليل فلا يراهم أحد .. ثم تكلم عما يلاقيه الرقيق من المر والذل وتعرض الى الاسلام فى هذه النقطة فقال : ان ســـوء معاملة الرقيق أمر يبيحه الاسلام .

وقـــد عقدت العزم منذ عودتى من باريس على أن أرد بالفرنســـية على المزاعم التى وردت فى محـــاضرة الكردينال لافيجرى .

وقـــد رددت على الـــكردينال سنة ۱۸۹۰ فى مؤلف بالفرنســـية ترجم الى اللغتين التركية والعربية عنوانه « الرق فى الاسلام » وقال شفيق باشا : الذى حملنى على الشروع فى هـــذا البحث على الاسترقاق انما هو الخطأ الشائع فى أوربا بخصوص الديانة الاســـلامية اذ يزعم القوم أن نصوصها تحض على ارتكاب الفظائع الحاصلة فى أفريقيا الوسطى ، فلما أقدمت على هـــذا العمل رأيت الواجب على أن أحيط علم الجمهور بخلاصة تاريخ عن الاسترقاق وموقف الاسلام منه وقال أحمد شفيق : ان الدين الاســـلامى الحنيف لا يبيح فى اى حال من الأحوال معاملة الرق اذا كان ابواه مســـلمين حـــرين ، ولايكون الاســـترقاق الا فى الحرب ومع ذلك فهـــو مقيد بشروط وروابط معلومة منها أن يتم على وجهه المقرر له ، ومنها أن يكون مع أقوام يؤمنون بالله ورســـوله على أنهم اذا رضوا بالاسلام دينا أو دافعوا الجزية تخصوا من ربقـــة العبودية .

ان الشريعة الاسلامية تأمر تابعيها بالتزام الرفق والرأفة مع المملوكين واستشهد على ذلك بالمـــأثور عن النبى فقد قال : «اتقوا الله فى الضعيفين المرأة والمملوك» .. وأمر صلى الله عليه وســـلم ، بأن يلبس المملوك من لباس سيده . وتتغذى من غذائه ، ولا يحمل فوق طاقته وان كان سده مفترا فى معيشته فلا اسرىعليه ذلك .

ان الكتاب والحكم والأحاديث النبوية تبيح للسيد أن يتزوج مملوكته اذا اعتقها وأمهرها .

وقال ان الكردينال لافيجرى واتبـــاعه قد اتهموا الديانة الاسلامية بأنها تدعو الى النخاسة وتوصى أهلها بارتكاب الفظائع والقبـــائح التى يروبها عن أواســـط أفريقيا .

وبلغ من حكمـــة احمد شـــــفيق انه لم يشر الى الكردينال لافيجرى فى كتـــابه الذى لقى بالغ التقدير من الكتا بالغربيين أمثال : مسيو ، رنيو ، اندرى لوبون ، ما سيجلى .

❋ ❋ ❋

وقالت جريدة الربيو بليكان أورليانز الفرنسية أن لافيجرى رغم أن المسلمين يعتقدون أن الزنجى ليس من العامة البشرية والهيئة الاجتماعية الانسانية بل هو واســـطة بين الحيوانات العجم وأنهم يعلمـــون هـــذه المعتقـــدات لأطفـــالهم ويبثونها فى اذهانهم وقد حققنـــا بالبراهين الدامغة أن الكردينال لافيجرى قد استعمل فى دعواه طرق الغش والتدليس لكى يجتذب تعضيد الفرق الدينية ماديا وادبيا قد يرتش رأيه ودعوته بصفة الدين فنهج منهجا مناقضا لطريقة تمثيل الحقائق بالصفة الى من حقها أن كون عليها .

❋ ❋ ❋

(٥)
دنلوب : تغريب التعليم والتربية

يعد « دنلوب » واضع المخطط الأساسى لتغريب التعليم والتربية واقصاء الاسلام عن برامج التعليم فى المدرسة المصرية ، باعتبار ان التعليم والتربية لها أكثر الأثر فى مخطط التغريب والشعوبية والتبشير والاستشراق ان لم تكن هى جوهر هدف الاستعمار الأساسى ، فان خلق طبقة من المتفرنجة الذين ينكرون الدين والخلق معا (الالحاد والاباحة) هو عمل أساسى فعلى هؤلاء يعتمد الاستعمار مستقبلا فى تنفيذ مخططه وتكوين ركائزه التى يعتمد عليها بعد جلاء القوات المحتلة ، وقد قام دنلوب بدور كبير فى تعميق مخطط التغريب وهدم مقومات الفكر الاسلامى ، وكان أبرز ما عمل له : نزع اعتقاد الشباب المسلم فى القرآن وكان مذهبه « متى توارى القرآن ومدينة مكة من بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربى يندرج فى سبيل الحضارة » .

وكان دوجلاس دنلوب قد عين سكرتيرا عموميا للمعارف فى ٨ مارس سنة ١٨٩٧ ثم مستشارا فى ٢٤ مارس سنة ١٩٠٦ ، وقد كان فى أول أمره قسا مبشرا عمل فى وظيفة مدرس اللغة الانجليزية والخط الافرنجى فى مدرسة رأس التين الثانوية ثم لفت نظر كرومر فدفعه الى العمل فى نظارة المعارف فما زال يترقى به حتى أصبح مسيطرا سيطرة كاملة على شئون التربية والتعليم . وكانت أبرز أعمال دنلوب .

١ — العمل على محاربة اللغة العربية والاسلام والأزهر لذلك عمل على اضطهاد معلمى اللغة العربية من الأزهريين .

٢ — نشر لواء اللغة الانجليزية وتأهيلها للسيطرة الكاملة على كل شئون التعليم وبذلك امكنه القضاء على نفوذ اللغة العربية ولقد مضى فى ذلك الى حد أنه جعل تعليم سائر العلوم كالرياضيات والتاريخ والكيمياء والجغرافيا والرسم باللغة الانجليزية ، وضيق على اللغة العربية تضييقا كبيرا .

ومما يذكر انه كان يسافر كل صيف الى بريطانيا ثم يعود فى أول العام الدراسى ، وقد استقدم معه عددا كبيرا من الانجليز جملة الشهادات الأهلية الذين كانوا يعينون بمرتب لا يقل عن ثلاثين جنيها ، وقد اختارهم بنفسه ، وقد كان أبرز كتابات هؤلاء المدرسين الكراهية للغة العربية والعداء للحرية ، ومحاولة تحطيم المجال للأمة العربية وتحصير التلاميذ واتهام تاريخ العرب والمسلمين واثارة الشكوك حوله ، واتهام الحضارة الاسلامية العربية بالاتهامات المختلفة وذلك لخلق شعور عام بكراهية هذه الأمجاد والنفور والسخرية بها ، وكانوا يطعنون روح الوطنية فى الشباب والقضاء على حماستهم تهديدهم ، وكانوا يصفون الأمة بأنها نصف متحضرة ، وقد داسوا على كل عاطفة وطنية واضطهدوا كل شاب أظهر ميلا أو عاطفة نحو دين أو وطن وأنشئوا نظاما من التجسس فى المدارس يطاردون به الشباب الوطنى وكان محرما على كل أستاذ مصرى أن يتحدث عن تاريخ مصر أو تاريخ الاسلام مما يبرز عظمة امتنا ، وكان أهم مايقال اذ ذاك ان مصر بلد زراعى وانها ظلت محتلة طوال تاريخها بالفرس والرومان والأتراك و .. وأنها لن تحكم نفسها أبدا ، وأن جيشها قد هزم فى التل الكبير وأن الجنود المصريين ذبحوا ليلة ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ التى كانت قمرية كما يذبح الخراف وكان محرما أن تقرأ جريدة وطنية او تاريخ الاسلام أو العربية .

وقد قاوم « دنلوب » نشر التعليم العالى فى مصر وقد سجل ذلك كرومر فى تقريره سنة ٦٩٠٧ « أن انجلترا لا تريد نشر التعليم العالى فى مصر ، وأنها لا تريد الا اعداد جمهور عن طبقة الأفندية ليشغلوا الوظائف الثانوية فى الحكومة وأن المصريين لا يصلحون للعلوم العالية وأن زيادة التعليم تصرف عن فلاحة الأرض وتعود على مصر بالأفلاس » .

وقد حرص دنلوب بتوجيه كرومر وبريطانيا على تنفيذ خطة واضحة المعالم للعمل على وقف انتشار

المعتمدة فى ترقيته وسبيلهم الى ذلك تقليل اعتمادات المعارف ، وصرف أغلب المبالغ المعتمدة فى بناء القصور المشيدة واقتناء الأثاث الفاخر للمدارس .

وكان دنلوب منفذ هذه السياسة يقول «ان سياستى فى التعليم هى الجودة لا الكثرة » وهذه مغالطة واضحة .. وكان دنلوب يعمل على قلب المدارس الابتدائية الى أولية راقية الاكتفاء بالمدارس الأميرية فى كل مديرية ، كما شجع انتشار المدارس الأجنبية وفق غايات سياسية تسير فى نفس الاتجاه الاستعمارى ، وهو تحطيم كيان الأمة وافساد معنوياتها .

وحرص دنلوب على معاملة الطلبة الوطنيين بمنتهى القسوة فعدل فى ١٩١٠ المادتين ٨٨ و ١٠٠ من قانون نظام المدارس بفرض عقوبات على التلاميذ ، وفصل كل تلميذ لا يحصل على ٢٠ درجة فى السلوك واتخذ من ذلك القانون سلاحا لخنق الشعور بالحرية .

وقد سجل مسيو « ادوار لامبير » ناظر مدرسة الحقوق فى تقريره الذى نشره فى جريدة الطان ١٩٠٧ بعد أن أبعده كرومر ودنلوب صورة الصراع بين الفرنسيين والانجليز على المناصب الكبرى فى التربية والتعليم وكشف عن الخطة التى رسمها كرومر ونفذها بدلا منهم ، دون أن يكونوا فى مستواهم من الناحية الفنية ، وأنه قد أخرج الأساتذة الفرنسيين من القضاة من مدرسة الحقوق واستبدل بهم شبانا من الانجليز عينوا بمجرد تخرجهم من الكليات البريطانية دون أن يكون لهم أى قدر من الكفاية التى تمكنهم من تدريس القانون .

كما أشار الى الأنظمة الاستبدادية التى اتخذها بالنسبة للطلبة وكيف عاملهم بقسوة متناهية ، واضطهدهم وجرح كرامتهم ، مما أحال مدرسة الحقوق معقلا للوطنية المصرية بحيث أصبح كل طلابها الأربعمائة تابعين للحزب الوطنى .

وأن كرومر حين اضطر تحت ضغط الرأى العام الى تعيين سعد زغلول ناظرا للمعارف ، وعمل على سلب سلطته الفعلية وأشار الى الخطط التى كان دنلوب يدبرها مع نظار المدارس وكبار الموظفين للاتصال به شخصيا وتلقى أوامره وتعليماته قبل أن يكتبوا تقاريرهم الرسمية . وقال لامبير فى تقريره أن الموظف القابض على الادارة الحقيقية لوزارة المعارف هو دوجلاس دنلوب .

* * *

وفى ظل هذه الفترة التى قضاها دنلوب فى وزارة المعارف وقد امتدت الى عام ١٩٣٠ ثم تبعه حليفه له فى تحقيق تنفيذ خطة التغريب الكاملة للتعليم على النحو الذى استمر يشق طريقه من بعد ، وكان هدف هذا المخطط أساسا هو تغريب ثقافتنا ومحاولة تدمير شخصيتنا العربية واحالتها الى مزيج مضطرب من نتف الثقافات المختلفة ومحاولة التشكيك فى عظمة تراثنا الفكرى وأمجادنا العربية وتاريخنا الباهر الحافل بالمواقف الخالدة فى الدفاع عن الحرية ومقاومة الغالب والمشاركة فى الحضارة والمدنية وحماية آثارها والاضافة اليها وكان هدف التعليم أساسا تخريج موظفين ، وأدوات وليس التثقيف العام .

وقد أبطل دنلوب عديدا من الكتب المقررة لأنها تتحدث عن القيم العربية الاسلامية وقد كشفت جريدة المؤيد (٥ ٢يوليو ١٨٩٩) عن نماذج من هذا العمل ، وقالت ان هذه الكتب غير موافقة لهدفه من الوجهتين الدينية والسياسية وذلك بايرادها قواعد الاسلام وأركانه مصحوبة بالحكم والآيات والقرآن والأحاديث التى تحث على حب الوطن والتعاون واصلاح ذات البين وفى سبيل شجب هذه الكتب أعلن دنوب أن مثل هذه الكتب غير وافية بحاجات التعليم وأوغر الى بعض المدرسين الموالين له بأن يضعوا كتبا بديلة لها تضم بعض خرافات لافونتين وفى عبارة سقيمة وأسلوب نازل وأشارت المؤيد الى أن الشيخ حمزة فتح الله ناضل فى سبيل احباط رأيه ، فأعلن دنلوب أن كتب المطالعة يجب أن تكون مجردة خالية من كل ماله مساس بالدين » .

ومثل هذا حدث مع عبد العزيز جاويش الذى عاد من بريطانيا بعد الدراسة وقد ناقش دنلوب فى منهج مدرسة المعلمين وكان رأيه أن يكون المنهج عاما واحدا ، فأعترض جاويش وقال ان فى مدرسة المعلمين بريطانيا برنامجا من أربع سنوات فأشار دنلوب الى أن مدرسة المعلمين تهدف الى تخريج مدرسين يؤدون واجبا محدودا لا يزيد عن اعداد موظفين . كان ذلك متمشيا مع قول كرومر « عقل بريطانى وأيد مصرية » . وقد واجهت مؤلفات عبدالعزيز جاويش نفس مصير مؤلفات على مبارك وعبد الله فكرى فقد أقصيت فعلا وقررت كتبا أخرى بدلا منها تحقق هدف « دنلوب» وهدف التغريب أساسا .

ولم يجد « دنلوب » قبولا لعمله مخططه فقد ظلت الصحف الوطنية توالى مهاجمته وقد تعرضت له اللواء فى ٩ اكتوبر سنة ١٩٠٧ فقالت أن المصريين يعلمون أن دنلوب هو آلة ، وضعها اللورد كرومر لتعطيل التعليم فى

مصر واكبر مقاوم لرقى البلاد من باب المعارف ، ومحاولة سد الطرق التى يرقى بها ،وأنه يستعمل كل ماأوتى من سلطة وقوة لمحاربة المصريين حتى بالسطو على ذمم الموظفين معه لتجد من ضعفها قوة ومن التلاعب بهـا السلاح القاتل للأمة » .

وقد ابطل دنلوب عام ١٩٨٨ كتاب على مبارك وعبد الله فكرى (طريق الهجاء) لأنه تحدث فيه عن الفضائل الاسلامية ، ورأى أن هذا الكتاب غير موافق لغرضه من الوجهتين الدينية والسياسة بايرادة قواعد الاسلام وأركانه بالحكم والآيات والأحاديث التى تحث على حب الوطن وتعاونه واصلاح ذات السنين وكان هذا الكتاب مقررا منذ عام ١٨٩٤ ولكنه بمكره أعلن أن هذا الكتاب غير واف بحاجات التعليم وأوعز الى بعض أوليائه من المدرسين أن يضع كتابايتفق مع المواصفات الاستعمارية فألف الكتاب الجديد حافلا بخرافات لا فونتين فى اسلوب سقيم وعبارة نازلة .

كما الغى دنلوب الباب الوارد فى المنهج تحت عنوان العقائد والعبادات الإسلامية ، وناضل الشيخ حمزة فتح الله فى سبيل احباط رأيه فكان من قول دنلوب أن كتب المطالعة يجب أن تكون خالة من كل ما له مساس بالدين .

* * *

(٦)
أرنست رينان : الإسلام والتقدم

لم تكن خصومة « رينان » للاسلام والفكر العربى الاسلامى الاخصومة للاديان والروحية جميعا ، وقد حمل حملات عنيفة على المسيحية ، ولم تكن آراء « رينان » الا صورة عميقة لشكوك عصره وشبهاته التى صنعها مراحل طويلة من الفكر الغربى .

وقد طعن « رينان » فى الاسلام ووصفه بأنه عدو العلم والعقل، ووصف العرب بأن عقولهم قاصرة بطبعها، غير مستعدة لفهم الفلسفة وماوراء الطبيعة ، ومع ذلك فان آراء رينان حافلة بالتناقض والاضطراب فبينا هو يمقت الفكر العربى الاسلامى ويحمل عليه وينتقده انتقادا مرا يعترف برهبة هذا الدين وعظمته .

وفى دراسة لجرجى زيدان يقول : ان رينان قد اشتهر بمقاومة النصرانية فبينا كان أبواه يعدانه لخدمتها انقلب حتى أصبح من أشد الناس انتقادا عليها ، فألف سلسلة مؤلفات فى هذا الشأن صدرها بكتاب (حياة يسوع) والحقه بأبحاث فى تاريخ الرسل وأصل النصرانية والقديس بولس شدد فيها لهجة الانتقاد حتى أصبح مكروها من كل الفئات الدينية ، ومن مؤلفاته (اللغات السامية) الذى تناول فيه تاريخ اللغات السامية ومقابلتها بعضها ببعض ، وقد بسط تاريخ اللغات العبرانية والفينيقية والآرامية بفروعها ، وقال عن الشعوب السامية أنهم يميلون بفطرتهم الى التوحيد وانهم أول من قال بوحدانية الخالق بينما عبدت الشعوب الاخرى آلهة شتى كاليونان والرومان والمصريون .

ورأى رينان فى النبى محمد رأى متعصب فقد وصفه بالخداع والدجل وقرر أن الذى أسس الاسلام وشيد صرحه هو عمر ، لانه يماثل القديس بولس فى المسيحية ، وقال أن الفلسفة الاسلامية ماهى الا الفلسفة اليونانية مخطوطة بحروف عربية ، ولم يهضمها العرب لان الاسلام دين لا يسمح بحرية الفكر وروح النقد ، كما هاجم ابن رشد وقال انه لايعرف كيف يكتب ولا كيف يفكر ، وأن لغته لغة همجية ، ومؤلفاته لا قيمة لها .

وقال أن الاسلام يعادى العلم والفلسفة ، وانه صارم يتحكم فى العبد وفى دنياه وفى آخرته ، وانه ذلك القيد الثقيل الذى لم تصب بمثله الانسانية فى تاريخها : والواقع أن رينان لم يثبت فى نظر مؤرخيه بأنه بات مستقر الفكر ، بل عرف باضطراب الرأى وقد وصفه بيكافيه أكبر الباحثين فى آثاره : بأنه رجل يقلب أوضاع الاشياء والمسائل وذلك لاختمار النزعة الصليبية فى عقله الباطن وتملكها على أفكاره فى الحكم على من يخالف تعاليم دينه الأول قبل الحاده وكفره . وقال مؤرخوه أنه أفسد الاستشراق الفرنسى بهذه الآراء وقد سار على نهجه (منك) فى كتابه الفلسفة العربية واليهود، وكليمان هور فى كتابه تاريخ العرب ، وكازنوفا فى كتابه محمد ونهاية العالم .

الواقع أن رينان مدان برأيه فى الالحاد والتدين اساسا فهو الذى يقول فى كتابه (مقالات ومحاضرات) أقول دائما، ولست بحاجة الى أن أكرر أن العقل البشرى يجب أن ينزه من كل المعتقدات الدينية وأن يحصر جهوده فى مجاله الخاص وهو اقامة العلم الوضعى . وقد كان كتابه حياة يسوع قد أجج ثورة جامحة فى فرنسا فى القرن الثامن عشر ، وقد انتزعه هذا الكتاب من كرسيه فى كوليج دى فرانس بتهمة الالحاد والكفر ،وكان منذ مطالع شبابه قد أثار حنق الاساقفة ورؤساء الدين عليه ورمى بالزندقة ، حين انتزع نفسه من العقيدة الكاثوليكية وآمن بمذهب الدهريين ، فقد قدس الطبيعة فى كل مظاهرها ، ولرينان محاضرة مشهورة ألقاها فى ٢٩مارس ١٨٨٣ فى جامعة السربون عنوانها الاسلام والعلم . حمل فيها على الاسلام حملة متعصبة عنيفة ، وقال أن الدين الاسلامى عقبة فى سبيل تقدم العلم بسبب التعصب وقال ان فكرته مجدبة كالصحراء التى نبتت فيها وقال انها لاتقوى على التحليل والعمق .

وقد رد جمال الدين الافغانى على هذه المحاضرة فى جريدة الديبا التى نشرت فيها المحاضرة ، غير أن رد جمال الدين فيها يبدو لم ينشر بكامله وانما اجتذئت منه عبارات الدفاع وظهر كأنما هو تأييد لرينان فيما ذهب اليه .

وقـد جاء مصطفى عبد الرازق عام ١٩٢٣ فأثار هذه القصة مرة اخرى فى احتفال اقامة الجامعة المصرية لذكرى رينان وقال واكد ماذهب اليه جمال الدين فى تأييد راى رينان وقال ان فكر جمال الدين تطور فى اقل من ثلاث سنوات . ورد هذا التطور الى سفره الى اوربا واتصاله بكبار الفلاسفة والعلماء وحبه للاستظهار بصداقتهم فى خدمة مراميه السياسية واندماجه فى سلك الحركة الفكرية الحديثة البعيدة عن الدين .

وقد دافع رشيد رضا عن جمال الدين ، وشك فى النصوص التى اعتمد عليها مصطفى عبد الرازق واشار الى أنه لا يعقل أن يؤيد جمال الافغانى راى رينان فى أن الدين الاسلامى كان عقبة فى سبيل ترقية العلوم ويتصل بهذا القول ما اشار اليه رينان نفسه حـين قال : منذ شهرين عرفت الشيخ جمال الدين بفضل مساعدنا مسيو غانم ، وقليل من الناس من تركوا فى نفسى كأثره . أن محـادثاتى معه بينت لى أن الاسلام فى نصفه الأول لم يحارب العلم ، وأن المسلمين لا يحاربون العلم والفلسفة الاعنـدما يبتعدون عن المصادر الأولى لدينهم وعندما تضطرب احوالهم الاجتماعية والسياسية .

وقـد تصدى لهذا الأمر باحث عربى فى السنوات الأخيرة هـو « عباس مكى » الايرانى الأصل ، الذى استطاع أن يكشف الستار عن حقيقة موقف جمال الدين فى هذا الأمر ، فقال ان المحاضرة القيت فى ٢٩مارس ١٨٨٣ وكان جمال الدين فى باريس فلما نشرتها جريدة الديبا فى ٣٠ مارس ١٨٨٣ أرسل مكتوبا الى محرر الجريدة فلم ينشر قبـل ١٨ مايو من هذه السنة ، وانه نشر بغـير اهتمام معلقا على محاضرة رينان ، وجاء فى الديباجة : أن الشيخ جمـال الدين أرسل مكتوبا فى هذا الشأن باللغة العربية يحتوى بعض ما خطـر بباله عند قراءته هذه المحـاضرة ، فبادر الى ترجمة أصح مايمكن لهذا المكتوب لاستفادة قرائنا .وقال الـكاتب أنه لايمكن العثور على الأصـل العربى ، ولا يمكننا أن نعرف هل هو أصيل أم مفتعل ، وقد رأينا أن جواب جمال الدين (كما نشر) فيه تدليسـات وتحريفات من قبل مترجم المـكتوب فى ادارة الجـريدة ولعله هو رينان نفسه ، وكان رينان احـد المحررين الموظفين فيها .

ودليـل ذلك أن المحاضرة نشرت فى أواخر مارس ولم يطبع الجواب الا بعد شهرين تقريبا ، ولا نظن أن مجاهدا مثل جمال الدين مكث الى هذه المدة لتدوين رده . والراجح أن جمال الدين كتب رده فى مدة أسبوع ، وكان يفهم الفرنساوية فقرأ المحاضرة ، فور ما طبعت ولكن لأجل الرد قد طلب من بعض أصدقاء أن يترجم له المحاضرة بدقة واضحة . ومن الراجح أن جمال كتب بالعربية ، لأن رينـان كان مستشرقا يفهم تلك اللغة ، وكان الغرض الأصلى أن يطلع عليه رينان الذى كان صديق جمال الدين وبينهما معرفة قبل هذه المحاضرة ، فلما أرسل مكتوبه الى رينان انتظر حتى يأس جمال الدين من نشر جوابه لأن جمال الدين لو قرأ مكتوبه فى الجريدة ووجد به تحريفا لردها ، ولانعرف اذا كان قد احتج الى محرر الجريدة عن تدليساته وهل أهمل المحرر الرد الثانى .

هذا فضلا عن أن جمال الدين من مجاهدى الاسلام والمدافعين عنه طول حياته وآرائه معروفة وتآليفه بين يدى الأنام متداولة فى جميع انحاء العالم فهل يحق لمثله أن يقول ان مانشر فى الديبا مما نسب له ومنه أن لاسلام اجتهـد لخنق العلم وايقاف حركة النهضة . ولاشك أن محاضرة عبد الرازق كانت سقطة من سقطاته ، وكانت حلقـة من حلقات التغريب فى هذه الفترة فكيف تحتفل الجامعة المصرية برجل اتهم العرب والمسلمين فى دينهم وتاريخهم وفـكرهم . ولقـد رد على مصـطفى عبد الرازق كثيرون وكان النقد الذى وجه اليه ينصب على أنه أيد آراء رينان ولم ينقضها ، وأنه اتهم جمال الدين بأنه قبلها ووافق عليها ، وقد أشار الى ذلك أحد الباحثين فى صحيفة الاخبار (٢٠ مارس ١٩٢٣) حين قال : القاء « مصطفى عبد الرازق » لهذه المحاضرة لم يعن صاحبها بأن يمحص مافيها من الآراء لأن القاء مثل هذا بين جمهور عظيم بدون تعرض لهدم أدلة ساقها رجل فرنسى بالطعن فى الإسلام ، مع أن هدم تلك الأدلة فى نظرنا لايحتاج الى جهد كبير ، دليل ناهض على أن هناك غرضا مخبوءا وراء هذه المحاضرات وكيد يكاد » .

وقد رأينا أن نرسم عن طريق هذه القضية صورة للتغريب وتداخله المعجيب الذى يفرض على جامعة ناشئة أن يحتفل بذكرى رجل هاجم العرب والمسلمين والقرآن وتاريخ الاسلام بينما هى لم تحتفل برجل غيره من اعلام العرب او المسلمين أو حتى من الغربيين الذين انصـفوا العرب والاسلام امثال جوستاف لوبون ، وأن يكون الذى يردد هذه الاتهامات رجل تخرج من الأزهر ، وأن لا يقف الأمر على ترديد الاتهامات بل اتهام جمال الدين الأفغانى وهو الذى يعد فى نظر البـاحثين موقظ الشرق والعرب والمسلمين بأنه قبل رأى رينان وايده فيه ووصل الى حد الانحراف فى عقيدته .

وقد وجه رينـان فى محاضراته اتهامات واضـحة تتلخص فى :

(١) نشأ من التساهل الواقع فى التعبير بعلوم العرب وفلسفة العرب وفنون العرب وتمدن العرب وعلوم الاسلام وتمدن الاسلام آراء فاسدة وخطأ عظيم عمل به (٢) انحطاط بلاد الاسلام فى العالم واضح (٣) سبب هذا الانحطاط هو أن عقول المسلمين بلغت من الحمق غايته حتى كان دينهم صار حجابا على قلوبهم منعها من أن تعى شيئا من العلوم . (٤) العجز عن التقدم ناتج عن دين الاسلام . (٥) دين الاسلام قد نجح ، ولكن لشقائه فانه لما قبل الاسلام الفلسفة قتل نفسه وحكم عليها بالانحطاط التام .

وقد رد على رينان رجال من أبناء جلدته منهم غوستان لوبون الذى أشار الى محاضرة رينان ووصفها بالتناقص وأنه أراد أن يثبت عجز العرب . وقال لوبون : ولكن نزاهته كانت ينقضى بما كان يجىء فى الصفحة التى تليها فبعد أن قال رينان أن تقدم العلوم مدين للعرب وحدهم عدة ستمائة سنة ذكر أن عدم التسامح مما لا يعرفه الاسلام الا بعد أن حلت محل العرب شعوب متأخرة كالبربر والترك ، ثم عاد فادعى أن الاسلام اضطهد العلم والفلسفة وقضى على العقل فى البلاد التى دانت به .

* * *

رد العلامة مسمر

وقد رد مسيو مسمر رئيس الارسالية المصرية بفرنسا على خطاب رينان فقال :

المسألة التى يطرحها للبحث مسيو رينان فى تناقص الاسلام للعلوم هى مسألة معضلة تقتضى زمنا واسعا وتتطلب بحثا كثيرا مع حرية فكر وانصاف .

واذ أردنا أن تظهر الحقيقة ، وبدون مبالغة فى مدح دين الاسلام ، يسهل علينا أن نثبت صواب تفنيدنا دعوى المسيو رينان فان مطالعتنا وبحثنا فيما يختص بهذه المسألة ، وتجاربنا بمعاشرة اهل الشرق مدة طويلة حملنا على أن نأتى فى كتابنا (سوارى دى كونتسانتيول) الذى سبق لنا تأليفه بما يتبين منه رفعة مقام الاسلام فى العلوم ، فاننا نعتقد منذ أربعة عشر سنة ونعتقد الآن أيضا أن دين الاسلام كما ابتدأ وانتشر وعمل به مدة قرون من جبال البرينية لغاية جبال هملايا هو وحده الذى يلتئم كل الالتئام مع التقدم والتمدن ، وهو وحده الذى لايعارض العلم ولعمرى لو احكمت أمور أهل المشرق بآراء سديدة لأنتج الاسلام احياء العلوم والمعارف بعد اندثارها ، كما حصل ذلك فى أوربا فى القرن السادس عشر للميلاد .

جزم المسيو رينان بأن المسلم غير أهل للتعلم ، شديد البغض للعلوم وضرب مثلا للذلك برفاعة بك (يقصد رفاعة الطهطاوى) الذى كان بفرنسا بوظيفة امام للمدرسة المصرية قائلا انه الف بعد عودته الى مصر كتابا يدعى فيه أن العلوم مضادة لدين الاسلام ، فأقول : انى قد تعرفت برفاعة بك مدة وجودي بالقاهرة وقبل وفاته ، وتحادثت معه كثيرا فأتعجب مما أبداه المسيو رينان فى حقه حيث يقضى أوقاته فى ترجمة كتب العلم فنرى كثيرا من الكتب التي تدرس بالمدارس المصرية مترجمة بقلمه أو تحت رئاسته وقد كان لابنه دخل فيما فعله عرابى .

وبالجملة فقد حصل تقدم ظاهر فى مدة عشر سنين ، فمن زمن قليل كان من جملة تلاميذ الارسالية المصرية ثلاثة مشايخ من الأزهر رجع أحدهم قريبا لاتمام تأليفة نبذة فى مقابلة الشرائع ببعضها كى يعرضها على دار علوم مدينة جنيف ويتحصل على درجة الحكمة (الدكتوراه) والثانى : أبو النعمان أفندى معلم اللغة العربية بمدرسة اللغات الشرقية بباريس والثالث : الشيخ حسن جلال الذى يحضر بمدرسة سان لويز التجهيرية للحصول على درجة بكالوريا (أيس سيانس)وزد على ذلك أنه مع قيامه بأداء واجباته فى التعليم حافظ دائما على صوم شهر رمضان فهو حينئذ ليس بفيلسوف ولا من أهل الشك .

أما من جهة ذكاء عقول الشبان المسلمين ونجاحهم فى العلوم فيمكن أن أتكلم فيه بمعلومية ، بما أنى متشرف منذ سبع سنين بتدبير أمور الارسالية المصرية ، ولنذكر مثلين من باب المقارنة والبرهان العظمى وهما (عثمان غالب) ومحمود رياض اللذان مكثا للتعلم بفرنسا سبع سنين ، فالأول رجع الى مصر حائزا على شهادة الدكتوراه فى الطب والدكتور فى العلوم الطبيعية وهو الآن معلم بمدرسة الطب الكائنة بالقاهرة والثانى نال شهادة الدرجة الثالثة فى العلوم وشهادة الأجازة فى العلوم الفقهية وشهادة من دار العلوم السياسية .

فيمكننا الجزم بأن دعوى المسيو رينان بوجود حجاب على قلوب المسلمين باطلة من أصلها وان هذا الحجاب لا وجود له الا فى تصوره .

٣ ــ قال المسيو رينان أن الاسلام غير معين على التقدم بل هو عين نفيه ، نعم يكون ذلك لو اقتصرنا على

مقارنة ما كان للاسلام من البلاد قبل مائة سنة بما هو باق الى الآن ، فانه حصل تغلب على حدوده ، من جميع الجهات ، حتى أن ربع بلاد الاسلام وقع الآن تحت حكم الأجانب . ولا يمكن نسبة تأخر البلاد الاسلامية لعدم قابليتهم للتقدم بل لسرعة تقدم البلاد الأخرى .

٣ — من الغريب انه قبل ان يلقى المسيو رينان خطبته بيومين قد ألقى بعض العلماء الفخام والدكاترة النظام (بياطرة سنتا) امام المحفل بعينه مقالة عن مآثر العرب فى علم الطب درجت فى الجريدة العلمية المسماه (ريفيو ساينتيفك) بتاريخ ٣١ مارس ، وقد اشتملت على ملخص استكشافات العرب فى «علم الحياة» وحيث كانت معرفة هذا العلم موقوفة على معرفة الرياضيات والهيئة والطب والكيمياء . فهذه المقالة توقفنا على حقيقة تمدن الاسلام فى مدة القرون المتوسطة الميلادية ، فلو كان المسيو رينان أطلع على هذه المقالة ، أو على ما كتبه (سيديو) ودوزى فى مؤلفاتهما عن العلوم والآداب والفنون والصنائع المنسوبة الى العرب وعرف بذلك ما عملته هذه الأمة من العلوم مما لا يحصى عدده بينما كانت أوربا منغمسة فى حمأة التوحش والجهالة لما نسب هذه الحادثة الخارقة للعادة لأسباب واهية كالتى أبداها .

وانى لفى غاية العجب من أن أرى رجلا معدودا من علمائنا وفلاسفتنا ينسب هذا التمدن العظيم الذى عم العالم ، وكان الحكم فيه شوريا عادلا لشرذمة يسيرة من النسطورية والمجوس والليهود ، وينسى العرب ودينهم وان كان قد مدحهم ضمنا .

زعم المسيو رينان ان دين الاسلام قتل نفسه بقتله العلوم والحا ل،أن دين الاسلام قد عمر اثنى عشر قرنا ولا يمكن لأحد ان يقول انه مات كما لا يمكن لأى فيلسوف او سياسى تحديد عمره .

وكما احترم المسيو كوزن الفيلسوف مذهب الكاثوليك حيث قال عند كلامه على هذا المذهب أنه باق فى الحياة ثلاثة قرون ، كذلك يجب علينا احترام دين الاسلام والاستعانة به فى كل ما تعود منفعته على العالم كما استعنا فى تقدمنا بجميع القوى الطبيعية بدون أن ننظر الى ما فعله الأقدمون من احتقارهم اياها .

وينبغى ان تقارن أمرين ببعضهما :

(الأول) : ان الدين النصرانى ظهر فى عصر الامبراطور اغسطوس وقتما كان التمدن الرومانى فى درجته العليا وكان منشؤه فى بلاد اليهود وما استطاع أن نيتشر منها بل فى بلاد الأغريق والرومانيين التى كانت أعظم بلاد متمدنة فى ذلك الوقت ، ومنها كان عليه الا أن يحفظ ما وجده فيها من المعارف والتقدم ويستمر عليه .

الثانى : **دين الاسلام كان ظهوره فى زمن لم يبق فيه** اثر لهذا التمدن الرومانى ومهده كان بحيث جزيرة العرب اغنى بلادا قفرة أهلها الى هذا العهد ، أهل خرافات وأوهام وعبدة أصنام جهلة ليس لعقلهم استعداد لهذا التمدن الاغريقى الرومانى ولا براعة لهم الا فى قول الشعر .. ومع ذلك فترى أن الدين النصرانى أطفأ المصباح الذى كان استلمه عباد الأصنام فلما جاء دين الاسلام اضاءة واستنارت الدنيا وكان ذلك أتى تحقيقا لقانون التمدن الذى مقتضاه منع الطبيعة من التقاعد والتقهقر . ان أساس الدين الاسلامى بمقتضى قواعد العلم أرفع من أساس الدين النصرانى بالمسافة التى تفصل الأعقاد باله واحد مخالف للحوادث والاعتقاد باله مركب من ثلاثة آلهة ظهر على الأرض فى هيئة انسان كما أن مبداه كان انفع وأخيرا لمن اتخذه دينا .

فدين الاسلام جاء ليوفق بين جزء عظيم من بنى آدم كان يقاتل بعضهم بعضا بسبب الأديان السابقة وينشر العلوم بين أمم كانت قبل مجيئه غارقة فى الجهل .

ان الدنيا كانت فى هذا الوقت ، أى وقت ظهور محمد (صلى الله عليه وسلم) محتاجة لمن ينقذها من الأهوال التى كانت فيها ، ومن شذ وقال ان محمدا كذاب فقد بت فى المسألة بدون أن يحلها ويبين أسباب نجاح محمد أما نحن معاشر الفلاسفة المحققين فنقول أن الرجال المنسوبين الى العظمة الذين تبقى أعمالهم خالدة مدى الأزمنة هم من أهل النباهة الفائقة يجيئون لاصلاح العالم ولشفاء عصرهم من مرضه ، وما فعله محمد هو أنه لما رأى ضلال الناس ، فى معرفة الحقيقة ، عزم على ارشادهم وتطبيق قوانين الطبيعة على أمور العالم بقدر ما كان معروفا فى ذلك الوقت لذلك أعلن بأن الله واحد ، ثم أن الوحدانية التى هى أساس دين الاسلام هى السبب فى نصره محمد ، ولقد أصاب بعض المؤلفين العظام فى قولهم أن اعلان الوحدانية فى وقت ملت فيه الأمم ـ خرافات علم اللاهوت ، كان من افضل الأشياء ، حتى أنه بمجرد ما نطق بها محمد احرقت جميع معابد الأصنام وانارت بذلك ثلث الدنيا .

فهل يحق لنا جهل حقيقة معنى الاسلام فى زماننا هذا ، أعنى زمن المناقشة بالأفكار والآراء المستجدة

الحرة ، كما يفعـــل الأكثرون ، فان لا نرى الا بونابرت الذى عرف حقيقـــة بقريحته الوقادة معنى الاســـلام فى قوله : «أن النصرانية تهديد والاسلام وعد» ، والكاتب مراشى الذى كان موجودا منذ قرنين فانه مدح محمـــدا بقوله « أن الدين المحمدى حفظ ما كان معقولا من الدين النصرانى وزاد عليه كل ما هو موافق لقانون الطبيعة» .

ومن تأمل كلام «القرآن» راى أن محور «الاسلام» الوحـــدانية وقطبية المواخاه وتحســـين شئون العـــالم بالتدرج بواسطة العلم ، فهذه هى حقيقة أسباب نصرة الاسلام ، وقد حدد رينان لرفعة الاسلام خمسمائة سنة، والحـــال أنها تزيد عن ذلك بكثير ، فانه يعد هبوط دولة بغداد ودولة قرطبة ، جاء السلطان سليمان ورفع عظمة الاسلام الى أقصى درجة اذ عند وفاته كانت دولة الاسلام تحتوى على مائة وعشرين مليونا من النفوس ، يهابهـــا جميع سكان الأرض بقوتها الحربية وحكم نظامها ودراية حكامها وازهار تمدنها وما ابتدأ الاضمحلال الا من بعـــد حصار مدينة (وايانه) سنة ١٦١٣ كما ابتدأ اضمحلال بأسبانيا من بعد واقعة (دوكررا) .

وعلى ذلك يلزمنا الاعتراف بأن عظمة الاسلام تحت الترك كانت كعظمته تحت العرب ، فمن يجهـــل ما كان للترك من الرفاهية والعظمة والمقام فى رفعة الأسلام ، فليقرأ المؤلفات المشهورة كتاريخ الحروب تأليف مونتوكلى وتاريخ الدولة العلية .

وفى سنة ٧٤٣ من الميلاد أى بعد مائة واحد عشر سنة من وفاة محمد (صلى الله عليه وسلم) كانت دولة الاسلام اكبر من دولة اسكندر المقدونى ، وقدر مملـــكة قيصر تقريبـــا ، وفى ١٥٦٦ م عند وفاة السلطان ســـليم كانت اكبر من مملكة الرومانيين ، فبذلك يتضح أن عظمة الاسلام مكثت الف ســـنة ، وكل من يعرف أنه لا يمكن الوصول الى مثل هذه الدرجة العليا فى الأمور السياسية والحربية الا بالعلوم يجزم بأن الاســـلام كان متقدما فى العلوم والتمدن كما أن كل من يعرف أن للاديان والممالك أعمارا كالأشخاص تنمو ثم تهدم ثم تموت ، يعرف أن ما وقع للأديان والممالك أعمـــارا لابد من وقوعه للاســـلام ومملكته ومع ذلك فالإسلام قبل أن يأخذ فى الأضمحلال قد أدى الى ما وجب عليـــه اذ كان الواسطة بين تمـــدن الأغريقيين الرومانيين وزمن احيـــاء العلوم عند ولولاه لوقف تقدم العالم مدة عدة قرون فهذا هو فضل الاسلام وقد سمى العالم الفرنساوى (لتيريه) تمدن العرب بزمن احياء العلوم الصغير والحاصل أن نسبة تقدم العلوم عند المسلمين لن يكن دينهم كنسبة فتح الإسلام فجأة ثلث الدينا للعرب لاغير ، كان سرعة نجاح الإسلام لايمكن توضيحها الا باسلام الأمم الصغيرة التى كانت مجاورة وجميع المذاهب التى كانت توعط بالوحدانية قد تلاشت للعرب .

وجميع المذاهب التى كانت توعط بالوحدانية قد تلاشت فى دين الاسلام كما يتلاشى الغدير فى النهر. اما اسباب احطاط الإسلام فى هذا الزمان فهى عدم الاشغال بالعلوم ،فأن التاريخ يفيدنا حقيقتان (الأولى) ان تقدم العلوم فى وقتنا هذاحصل رغما عن الدين النصرانى أما دين الاسلام فالعكس من ذلك ، ان لا يمكن أن يبقى على قيد الحياة الا بانتشار العلوم وتقدمها ، فان بين الاسلام والعلوم (ربطة كلية) (الثانى) أن النصرانى اذا صار عالما ترك دينه بخـــلاف المسلم فأنه لايترك دينه الااذا صار جاهلا ، فبأى وجه يمكن نسبةالتمدن الحالى الى الدين النصرانى والحال أنه ما جاء الابعد خمسة عشر قرنا من ظهوره .

وبأى وجه يمكن نسبة انحطاط المسلمين الى دينهم ؟ الحال ان السبب الوحيد فى تمدنهم السابق الذى مكث الف ســـنة ، وكان عاما مؤسسا على الشورى هو الأصول المبينة فى « القرآن » فهل مات الاسلام ، لايجيب على هذا السؤال بالاثبات الامن كان قليل العقل . فالدين الذى له ملايين من النفوس مستعـــدون لامدافعة عنه بكل ما يمكنهم . ليس على شرف الزوال وله عمر طويل . ولو نظرنا الى التقـــدم الحاصل فى بلاد الاسلام منذ خمسين سنة ، لاتضح لنا أن المسلمين آخذون فى اليقظة ، كما أن هنالك علامات تدل على اشراف أوربا على الفشل ، وعندنا أنه لا نجاة لبلاد الاسلام الا بتعليم الأهالى كما هو مأمور بذلك فى القرآن .

وقد تصدى للرد على رينان رجل مثل « واصف غـــالى » الذى قال أن الأكثرية العظمى من كتاب أوربا والذين قد جعلوا المسائل الاسلامية مظهر علمهم وعنوان شـــهرتهم ، قد أجمعوا على القول بأن الاسلام هـــو المسئول وحده عن فساد الأمم العربية وانحلالها . أن أن شبه الاجماع هذا مع الحكم على الشعوب العربية على هذا المثال مما يلفت النظر ، على أننا قد نلتمس لهؤلاء الـــكتاب وغيرهم بعض العـــذر لما صادفوه من العقبات التى عاقتهم عن درس المؤلفـــات العربية بتعمق ، لأن الكتب تتابع فى موضوعها وتتشابه فى أغلاطها ، فضلا عن أن بعض الأغلاط التى أتكبت وتقادم العهد عليها قد ألفها الناس واطمأنوا اليها ، من الخطر على الكتاب والباحثين أن يتعرضـــوا لاستئصال شـــأفتها فلا غرابة اذ أتفق

الاباحيون والمتدينون على هذا الحكم القاسى ، الأولون لأنهم تعلموا من الحرية المطلقة الفكر أن يسخروا من المعتقدات جميعا وأن ينتقدوا الاديان نقدا مرا ، والآخرون لأن عقائدهم الدينية قد جعلت نفوسهم جامدة لاتلين .

يقولون أن الإسلام قد حط من قدر المراة وجعلها ملهاة للرجل ، وجهلوا ان محمدا صلى الله عليه وسلم بذل أقصى الجهد فى تحريرها وطمأن مصالحها وتحسين مركزها المادى والأدبى ، وما على المتشككين الا ان يرجعوا الى تعاليم النبى ليعرفوا كيف رفع « محمد » المرأة الى المكان اللائق بها .

ولا شك أن التطبيق الدقيق لأحكام القرآن ونصوصه يكفل المراة المسلمة الحديثة التمتع بالحقوق المدنية التى يمكن فى دائرة المعقول أن تصبو اليها ، فهل يمكن بعد ذلك القول بأن الديانة المحمدية ترمى بتعاليمها الى تحقير المراة وانها تتنافى مع تحريرها فيها .

ومن عجب أن كثيرون كتبوا منصفين لفكرنا العربى الإسلامى ولحضارته غير أن « رينان » بآرائه القاسية المتعصبة كان يجد تقديرا وترديدا فى دوائر الجامعة والصحافة .

وقد تناول رينان العرب والعقلية السامية فوجه اليها كثيرا من التسفيه ، كما تناول الفلسفة العربية ووصفها بأنها فلسفة يونانية كتبت بأحرف عربية .

وقال أن «الوحدانية» هى اية السذاجة والبساطة فى العقل السامى ، والساميون موحدون بالطبيعة ، والتوحيد منشأه البساطةوالسذاجة ، وأن — الساميين والعرب أصفى عناصرهم — ليس لهم علم ولا فلسفة ولا شعور باللونيات ولا خيال خلاق ولا فنون تشكيلية ولا آداب ملاحم ولا أساطير تبنى على التصور .

وقد واجه الدكتور حكمة هاشم أستاذ الفلسفة بجامعة الرباط آراء رينان فقال :

أن أول مانريد بيانه هو وهن الموضوعية الأساسيةالتى اعتمد عليها رينان فى دراسة السيكولوجيا السامية، وقال انه فى آرائه صدر عن نزعة عرقية باطلة لم تعد ترضى العلم الحديث وأن طريقته الاسقرائية غير مستوفاة . وقال ان اكبر ما نأخذه على رينان تعسفه فى التعميمات التى تتجاوز حدود المقدمات ، والحقيقة أنه اجترا على تراكيب فضفاضة فوقع فى مثل ما رمى به أولئك الذين يستهويهم وضع النظريات الكبرى بعد نظرهم نظرا غير مستوى فى كتب اللغة وفى النصوص .

وبعد ، فقد كانت لنا قبل الإسلام شعر ملاحم طويلة النفس كالالياذة ، ولكن ما بالنا لا نقيم وزنا الخيال الا اذا جاء على طريقة الاغريق ، أن ملكة التصور الخلاق تتخذ اشكالا مختلفة والشكل الأسطورى واحد من عديدها .

ثم لقد كان لنا لسان صالح لأن يكون محملا لدين جليل مع ما انبعث عن هذا الدين من عقيدة وشرع وفقه ونحو وحرف وكلام وجدل ومنطق وعلوم عقلية ، فكيف استطاع لسان يعتبر رينان أن أجروميته تمثل طفولة الانسانية أن يقوى على النهوض بكل هذا ، بل لقد اتسع لساننا بالذات لاستيعاب حكمة فارس ورياضيات الهند وفلسفة يونان فبأى لغة ياترى وصلتنا آثار أفلاطون وارسطو وسقراط وجالينوس وأرخميدس .. الخ كيف فهم عنا تراجم العصر الوسيط اللاتينى حكمة اليونان الرفيعة التى تمثلناها أولا فحملوها الى أوربا عن طريق المجال لنمو الصلة بين المسلمين والحضارة الغربية . لساننا ليفنى بها التفكير العربى .

ليس هذا كل ما فى الأمر ، لقد كان لنا فلسفة خاصة يوم لم يكن للافرنج ولا القوط ولا الهون ولا ولا السلت فلسفة ، أفيكفى فى الحط من شأن هذه الفلسفة أن يقال انها دخيلة علينا .

ولم يكن العرب أمة غالبة دائما حتى نقول أن لسانهم انما انتشر بقوة السيف ، نعم لقد امتد ملكهم ذات يوم من جبال البرانس واعمدة هرقل الى الهند والصين ، ولقد كانوا على رأس العالم المتمدن فى عهود زاهرة كحقبة بغداد فى القرن الثامن المسيحى أيام الرشيد والمأمون ويوم اشعت مملكة الأغالبة على سردينية وصقلية ونابولى ، وكمهد قرطبة فى القرن العاشر . ثم فى حقبة القاهرة الفاطمية وفى المغرب الاسلامى على المرابطين والموحدين . ولكنهم واجهوا نكبات ومصائب كان من حقها منطقيا أن تمحو لغتهم محوا كأداة حضارية .

ومع ذلك لا هولاكو البوذى الذى ذبح أهل بغداد ذبحا وجعل مياه دجلة سوداء من مداد ثقافتنا . ولا الحروب الصليبية التى عاشت فى ارضنا قرنين كاملين ، ولا الفتح المغولى ، ولا الغزو الطورانى ، ولا غلبة الأعاجم علينا فى كل ملة ونحله ، لا ولا الاستعمار الغربى نالت من عنفوان العربية .

* * *

لماذا لأن هذه اللغة أثبتت حيويتها أمام الكوارث لأنها وقد لقحتها الثقافات الفارسية واليونانية والبيزنطية والهندية عرفت كيف تصفى عصارة تلك الثقافات فيتمثلها نسقها العربى الأصيل ، أن سر حياتها القوية العنيفة قائمة على مرونتها وقابليتها للتكيف ، ولنقل مع لويس جارديه أن الخميرة العربية العامة فى جوف كل الشعوب التى استهواها الاسلام انما هى هذا اللسان الرائع ذو الأزمنة المركزة حول الذات الالهية ، هذا القرآن المدهش بين آثار عليهــا مسحة الخشونة وبينات تتميز برونق منقطع النظير .

* * *

(٧)
دوق داركور : مصر والمصريون

اصدر دوق داركور كتابا بالفرنسـية عام ١٨٩٣ هاجم فيه الاسلام والثقافة العربية الاسلامية وكان مما قاله أن السر فى تأخر الفكر فى مصر يرجع الى الاسلام .

فالدين هو السبب الأساسى فى التأخير الذى لحظه فى كل بلد اسلامى ، وعنده أن الاسـلام لا يحض على البحث فى العلوم غير الدينية ، لذلك احتقر المسـلمون علوم الغرب ، واعتقدوا أن القرآن قد حوى بين دفتيه علوم الاولين والآخرين وان كل ما عداه باطل ، أنكر دوق داركور أن للعرب الأولين مدنية خاصة وعنده أن المدنية لا تقوم الا على اساس علمى والعلم عندهم لم يكن يخرج عما اتى به القـرآن لذلك أمر عمـر باحراق مكتبـة الاسكندرية ، ثم أن العرب لم يحاولوا استكشاف علوم الدنيا لأنهم تعصبوا لأصول دينهم وآمنوا بالقضاء والقدر لذلك قامت مدنيتهم على قوائم المدنيات العتيقة .

وقد واجه قاسم أمين هذه الحملة بكتـاب رد فيه على الدوق الفرنسى صـدر عام ١٨٩٤ تحت عنـوان « المصريون »

وقد بدأ قاسم أمين فأشار الى أن الاسلام لم يعترض تطور العقل الانسانى ولا تقدم العلوم ولا الآداب ولم يحل دون استكشاف الحقائق العلمية ، وقد مضت فترة كان العلماء المسيحيون ينقلون العلم عن العلمـاء العرب . وفى القرآن آيات تحض المسـلم على أن يفـكر فى خلق السـموات والأرض ، وأن يبحث ماهية هـذه العوالم والعـوالم الاخرى ، وقال : انمـا عاق التقـدم من الجهلة الذين حاولوا تفسير القرآن حسب مايمليه عليهم الهوى ، وعند ذلك تسربت الى الدين فئـة من الأوهام والخرافات هى التى يحسبها السائحين من أصول الدين وليست فى الواقع من الدين فى شىء ، وقال : انه سيأتى يوم تجتمع فيه الانسانية تحت راية الاسلام حينما يتبينون أنه دين العلم ودين السياسة ودين الاجتماع .

وفحص قاسـم فى رده على دار كور ماعرض له من أن الاسلام هو الذى أقام ذلك الاختلاف بين الطبقات وقال قاسم : أن الاسلام قد سوى بين الناس جميعا ، وليس من قواعد الجماعة المسلمة أن يرث الرجل امتيازا خاصا لأنه من أسرة أو من طبقة خاصة ، بل لقد سـبق الاسلام كل النظم السياسية الثورية بألف سنة أو يزيد حين أنكر امتيازات الميلاد أو الثروة . وهو من بين الأديان جميعا يفسح المجال لكل ذى عمل أن يحسن عمله فيرقى من أدنى الدرجات حتى يبلغ أسماها ، ثم ليس فى الاسلام طبقة تمثل السلطة الروحية التى كانت للكنيسة ، وليس فى الجماعة المسـلمة فئة تتمتع بالسـلطة الدينية على حسـاب الآخرين ، وللفقراء والمحرومين حق معـلوم فى أموال الأغنيـاء فلهم جزء من أربعين جـزءا من كل مال متبول ، وقال : لقد انحدر الينا من تعاليم الاسـلام ما يؤيد الاخاء والمساواة . وقال أن ذلك النظام الاجتماعى والسـياسى قد هوى فى حال من الانحلال والتدلى حينما اضطرب المسلمون واصبح الأمر فوضى ليس له أساس من علم ولا من دين ، فقد قام على الجماعات المسـلمة طغاة لا يعرفون الا صالحهم الشخصى .

وقد غبرت مصر قرونا يستغلها وحوش فى صورة ادميين اقبلوا عليها من كل بقاع الأرض ، فكانت مسرحا لفظائع الظلم والقسوة .

واشار الى أن أوربا قـد أقامت العثرات فى طريق التقدم والنهضة فى الزمن الحديث . وأن القناصـل فى بلادنا يكونون ممالك مستقلة تحمى المجرمين واللصوص وسفاكى الدماء من رعاياهم .

***

(٨)
جبرائيـل هانوتو

نشر هانوتو احد وزراء خارجية فرنسا فى الجورنال الفرنسية ١٩١٠ بعض مقالات هاجم فيها الاسلام والثقافة العربية الاسلامية ، وقد ترجم هذه المقالات محمد مسعود فى المؤيد (٢ — ١٥) أبريل ١٩٠٠ وقد نشر الشـيخ محمد عبده على الأثر مقالات رد فيها على اتهامات هانوتو كما نشر فريد وجدى فصلا مطولا .

وقد حملت كلمات هانوتو عبـارات غاية فى العنف والتعصب ، ومن ذلك قوله : الاسلام دين بشرى يثقـل معتقدة دائما ويغريهم بالكسل او التسكع والتبرؤ من شر الفسوق ، وأن السياسة التى تجب على اوربا المستعمرة فى الشرق أن تحتـذيها مع المسلمين هى تلقيح أفـكارهم بجانب من الأخلاق الأوربية وقطع الصلة بينهم وبين كعبة الاسلام .

واشار الى كلمات كيمون ورددها وقال أن كيمون دعا الى نسف الكعبة ونقل قبر محمد الى متحف اللوفر .

وهاجم هانوتو أصول الاسـلام ، ودعا قومه الى قتال المسلمين والقضاء عليهم .

وقال الشيخ محمد عبده فى الرد عليه : لو لم يتعرض مسيو هانوتو الى الطعن فى أصل من أصول الاسلام ما حركت قلمى لذكر اسمه وكان حظى من النظر فى مقاله هو العظة والاعتبار .

يرى الناظر فى كلام مسـيو هانوتو لاول وهلة أنه مقلد فى التاريخ كما هو مقلد فى العقائد وأنه جمع خليطا من الصور وحشرها فى ذهنه ثم هو سلط قلمه بنشرها كما يشـاء القدر ليدهش بهـا من لا يعرف الاسـلام من الفرنساويين .

وقال : يجب على الباحث فى الاسلام أن يطلبه فى كتابه ، كما يجب عليه أن يطلب آثاره ، والاسلام اسلام والمسلمون مسلمون .

لا أنكر ان الزمان تجهم للمسلمين كما كان قد تنكر لغيرهم وابتلاهم بمن فسد من المتصـوفة من عدة قرون فبثوا فيهم اوهاما لانسبة بينها وبين أصول دينهم فلصقت بأذهانهم لا على أنها عقائد ولـكنها وساوس ، قد تهلك الجـاهل وتريك العاقل ، اذا لم يغلبهـا بعوامل الدين الصحيح ، فنشأ الكسـل بين المسلمين يفشـو الجهل بأصول دينهم ، أما لو رجع المسـلمون الى الحقيقة من دينهم لأدو فرضهم واستنبتوا أرضهم واستعزوا من الثروة واعتمدوا فى نجاح أعمـالهم على معونة القدر وأيقنوا فى صولتهم علما أن ليس من الموت مفر ، ثم صال صائلهم على مكان العزة منها ونال ما ينال القوى من الضعيف .

أما لو رجع المسلمون الى كتابهم واسترجعوا باتباعه ما فقدوه من آدابهم لسلمت نفوسهم من العيب وطلبوا من أسباب السـعادة ما هداهم الله اليـه فى تنزيله وعلى لسـان بنية واستجمعت لهم القـوة . ودبت فيهم روح القوة وكان ما يلقـاه هانوتو وكيمون من دين صحيح شرا عليهما مما يخشونه من دين شوهته اليها .

ويرى كيمون أن يخلى وجه الأرض من الاسـلام والمسلمين ويستحسن رأيه هانوتو لولا ما يقف فى طريق ذلك من كثرة عدد المسـلمين وبئسما اختارا لسياسـة بلادهما أن يظهروا ضـغنهما ويعلنـا رأيهما وضـعف حلمهما .

اما فليعلما وليعلم كل من يخدع نفسه بمثل حلمهما ان الاسلام ان طالت به غيبة فله اوبة ، وأن صـدعته النوائب فله نوبة . وقد يقول عنه المصـنفون اليوم من الانكليز مثل اسـحق طيلر وهو قس شـهير ورئيس كنيسة : « أنه يمتد فى أفريقيا ومعه تسير الفضـائل حيث سار ، فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره والشـجاعة والاقدام من أنصاره ، ثم هو لا يزال تنتشر فى الصـين وغيره من أطراف آسيا وسترشـده الحوادث الى طريق الرجوع الى ظهـاره وتثنى به الملمات الى ما كان عليه لأول نشـأته وتدرك عند ذلك الأمم منه خير ما ترجو ان شاء الله .

(٩)
صمويل زويمر

لعب صمويل زويمر دورا ضخما فى حركة التغريب بوصفه رئيس المبشرين فى الشرق الأوسط منذ اوائل هذا القرن واجرأ الدعاة المقاومين للفكر الاسلامى والرجل الذى استطاع أن يقتحم الأزهر ، ويوزع منشوراته ، وقد اتيح له ان يطوف بالصين والهند وافريقيا والصحراء ومدغشقر وأن يكتب دراسات مطولة عن البعثات التبشيرية والارساليات فى هذه المناطق وكيف تحاول أن تنافس الاسلام وتقضى عليه .

وقد راس مؤتمرات التبشير التى عقدت فى القاهرة ولكنو (الهند) والقدس ، وادلى فيها بتقارير اضافية عن الخطوات التى حققتها محاولاته فى تغريب العالم الاسلامى ونزع مقومات فكرة عن طريق التعليم والصحافة والمستشفى . وهو فى تقدير بعض الباحثين اول من قدم من الغرب أوائل هذا القرن من دعاة التغريب ، قدم الى البحرين ، وانتقل الى الحسا ، وتردد بينهما وكان يلقب نفسه « ضيف الله » ، فتح فى أول أمره حانوتا فى السوق لبيع الكتب المخالفة ، ثم تخصص بالتدريج فى بيع الكتب التى تفرق بين الأديان ، ثم لم يلبث أن أسس مدرسة ومستشفى صغيرا للتبشير ، ثم استقدم عددا كبيرا من المرسلين والدعاة الى بلاد البحرين من رجال ونساء أمريكيات ، واستخدم الفقراء من العرب والمسلمين فى العمل معهم ، وادعى انهم قد تركوا دينهم ، قالوا عنه أنه الرجل الذى لا يهزم لأنه درس الفكر الاسلامى سنين طويلة بعد أن عاش سنين أطول فى غمار الشعوب الاسلامية ، وقد ظل ينتقل بين البحرين ومسقط والكويت والبصرة حتى عام ١٩١٣ وكان قد قدم الى القاهرة ١٩٠٦ وأقام مؤتمرا للتبشير فى بيت أحمد عرابى فى باب اللوق ، تحديا لشعور المسلمين ، ثم فى ١٩١١ فى (لكنو) معقل الفكر الاسلامى فى الهند ومقر جماعة العلماء التى يراسها شبلى النعمانى ، ثم راس مؤتمرا فى القدس ١٩٢٤ ثم فى ١٩٢٦ ، وتولى تحرير مجلة العالم الاسلامى التى نشأها مع مكدوبالك ، وله عشرات الكتب عن الاسلام تحمل وجهة نظره منها : داخل عالم الاسلام ، والمسلمون اليوم ، الاسلام فى العالم ، ترجمات القرآن ، أمية النبى ، الحديث القدسى .

وقد أشار نجيب العقيقى الذى ذكره فى كتابه « المستشرقون » وعده واحدا منهم ، الى ان له من المصنفات فى العلاقات بين المسيحية والاسلام ما «أفقدها بتعصبه واعتسافه وتضليله قيمتها العلمية » وقد أشار المقتطف فى باب الكتب (مجلد ٥٠) الى كتابه « صراخ المستغيثين من ابناء الشرقيين » وقال : ان مدار بحثه فى هذا الكتاب عن اطفال المسلمين واحوالهم الصحية وتربيتهم العقلية والأدبية والدينية ، الفه بالانجليزية الدكتور زويمر المراسل الأمريكى فى هذا القطر وعربه الشيخ مترى حبيب الدويرى . وقد نقد محمد محمد سعفان (بالقضاء الشرعى) اهتمام المقتطف بهذا الكتاب وأشار الى ما فيه من تعصب واعتساف على الفكر العربى الاسلامى ، وقد سارع الدكتور صروف فنشر خطابه وعلق عليه مفصلا وقال : اننا مع استحساننا قيام اناس من أصحاب كل دين ومذهب لانتقاد ما يرونه فيه مما يستحق الانتقاد ، نستهجن جدا أن يقوم اناس من غير دينهم ومذهبهم وينقدون ما يعتقدون أنه خطأ فيه ، لأن التنديد بمعتقدات الغير لا يصلحها بل يزيد أصحابها تشبثا بها ، ناهيك أن الخارج على المذهب قلما يفهم حقيقة ما يحسبه خطأ لأنه لا يعرف ملابساته فيخطىء فى حكمه أكثر مما يصيب » .

ومجمل ما ذهب اليه « زويمر » هو اتهام الفكر العربى الاسلامى بأنه لم يؤلف للأطفال وقال : « أن العرب عنوا بفروع العلم والآداب كلها ووضعوا فيها العشر والمئات والألوف من المؤلفات ، ولكنهم مع وفرة ما ألفوا وترجموا أهملوا أطفالهم وصغارهم فلم يضعوا كتبا لتعليمهم » وهذا ولا شك من أكبر مغالطات زويمر وهو ليس صحيحا على اطلاقه ، فان الفكر العربى الاسلامى حافل بما يصلح للأطفال فى باب التربية والتعليم وان أعلام المسلمين ومفكريه قد تناولوا بالبحث شئون

التربية ورسمو لها مخططا ما زال حيا نابضا بالحيــاة وقد شهد بذلك علماء التربية المحدثين .

وقد صور الدكتور زويمر مذهبه فى اثارة الشبهات فى الفــكر الاسلامى على نحــو ماكر ملىء بالتعصــب والكراهية :

* عدم المجادلة بالبراهين العقلية ، بل استجلاب العواطف واستمالة الأهواء .

* ان المسلمين يعتقدون بأن القرآن لم يحرف ، من دون الكتب السماوية كلها ، فيجب علينا أن نثبت لهم أن فيه متناقضات .

* * *

* ان لارساليات التبشــير فى البلاد الاســلامية مزيتين : مزية تشــييد ومزية هدم ، أو بالحرى مزيتى تحليل وتركيب ، والأمر الذى لا مرية فيه هو أن حــظ المبشرين من التغيير الذى أخذ يدخل على عقائد الاسلام ومبادئه الخلقية أكبر بكثير من حظ الحضارة الغربية منه.

* العمل لمنع اتساع نطاق الاسلام بين الشعوب الوثنية .

وقد أشــار (زويمر) فى تقـريره ١٩١١ الى أن الاسلام قد بدأ ينتبه لحقيقة موقفه من الحمــلة عليه ، ويشعر بحــاجته الى تلافى الخطر ، وهو يتمخض الآن بثلاث نهضات اصلاحية (١) اصلاح الطرق الصوفية (٢) تقريب الأفكار من الجامعة الاسلامية (٣) افراغ العقائد والتقاليد القديمة فى قالب معقول ، ومصدر هذا الشعور بالحاجة الى الاصلاح واحد ، وهو التغيير الذى حــدث فى الاســلام عندما اكتســحت أهله الأفــكار العصرية والحضارة الافرنجية ولا يمنع أن يكون الشعور مؤديا الى عاطفة الاحتجاج والحذر ، أو الى التوفيق والتحكيم ، لأن كلا العاطفتين تجتمعان عند جعل الاسلام فى مستوى الأفكار العصرية .

وفى العالم الاســلامى الآن حركتان متناقضتــان : يحمل لواء الحركة الأولى : رجال الصوفية والمشايخ من اليمن والصــومال والبوادى وشــعارهم الرجــوع الى التعاليم المحمدية ، والحركة الثانية يتولى زعامتها أنصار الاصــلاح ومبشرو الدين الجديد فى مصر والهند وجاوه وفارس ، وهؤلاء يبنون أساســهم على رسم الطــرق المعقولة .

ثم يقول زويمــر : ان اشياع الاســلام الجديد يريدون أن يرموا من الســفينة مشحونها لينقــذوها من الغرق . وعنده أن مدينة مكة والطرق الصوفية هما من أكبر العوامل على بث شعور الوحدة بين المسلمين فاذا كان فى افريقيا عوامل اخرى فهى الأحوال المساعدة التى يتصف بها الاسلام ومركز بلاده الجغرافى وارتقاء الشعوب الاسلامية فى السودان ، وقال ان التجارة فى هذه الأصقاع كلها بين القبائل الاسلامية ، ومن المحقق أن التاجر المسلم يبث فى هؤلاء المــواطنين مع بضــاعته التجارية دينــه الاسلامى وحضارته الراقية وللاسلام فى أفريقيا صديق يساعد على انتشاره هو الاســتعمار الأوربى فان الذى يفعله الاســتعمار بعد أن يسلب من الأمراء المســلمين سلطتهم السياسية هو أن يقرر الأمن ويمهد الســبيل للمسلمين فالاستعمار يسلب عن المستعمرات الســلطة الاسلامية السياسية ولكنه يزيد الاسلام نفوذا . وما زال الشيخ والدرويش هما صاحبا النفوذ فى أفريقيا .

ولقــد كانت كتــابات زويمر كلها ترمى الى اثارة الشبهة حول امكانية مجاراة تيار الحضارة مع الاحتفاظ بمبادىء القرآن وتعاليمه ، وكان يرى أن اتســاع نطاق الحضارة من شأنه أن يقضى على مفاهيم الاسلام ، وكان يعلن دائما ان هدف بعثات التبشير ليس ادخال المسلمين فى المسيحية وانما اثارة الشبهات أمامهم فيحتقروا أمتهم، ويتنكروا لقيمهم الاساسية ويصبحوا ملحدين اباحيين .

ومن ذلك قوله : لقد تساءل اللورد كرومر مرة هل يبقى الاسلام اسلاما اذا دخل عليه الاصلاح ، فأنا أقول بصفة قطعية أنه لا يبقى كذلك ، لان الاصــلاحات تجهز عليه فالأركان الأساســية الموجودة فى الاسلام كالحج وتعدد الزوجات والطلاق لا تستطيع الثبات فى وجه تيار المدنية الجارف .

والواقع أن كل ماوصل اليه دعاة التغريب من آراء هى فى أساسها أهواء ، وما وضــعوه منها فى صــبغة « التقرير » قد ثبت بمرور الايام أنه ليس صحيحا ، وأن الفــكر الاسلامى العربى اســتطاع أن يوائم بينه وبين الحضاره والفــكر العصرى ، وقد كان دائما قادرا على التلقى والامتصاص ودوما كان قادرا على الحركة ، مرنا لا يجمد ، وما يزال الاسلام قائما والفكر الاسلامى حيا الى اليوم وبعد أن كتب زويمر ماكتب بنصف قرن .

وفى كتابه «الاسلام : ماضيه وحاضره ومستقبله» أورد معلومات مضللة عن نفوذ المبشرين فى أفكار الاسلام وعن تعداد المسلمين . ومن رأيه عدم مجادلة المسلمين

بالبراهين العقلية بل الدخول عليهم من الجهـــة القلبية لاستجلاب عواطفهم واستمالة أهوائهم .

ومع أنه بروتستانتى فقد كان يستجمع البعثات الكاثوليكية والأرثوزكسية ويدعو الى توحيد العمل فى شن الغارة على الاسلام وانتهاز فرصة الضعف التى مربها العالم الاسلامى بعد الحرب العالمية الاولى .

وقد أولى زويمر اهتمامه بأواسط أفريقيا والنيجر ودعا الى توسع نطاق العمل بها وأبدى تخوفه من اتساع نطاق الاسلام بها . وسجل فى تقاريره تقدم الاسلام فى هذه المناطق ، « من مركزه الواسع فى الشمال ومعاقلة التى فى السواحل الى الجنوب والغرب الافريقى » وقال أن المبشرين قد اخطأو فى تقديراتهم السابقة لانه تبين لهم فيما بعد أن بعض البلاد التى كانوا يحسبونها خالية من الاديان المعروفة ، هى أما اسلامية محضة ، أو أنها على اهبة الدخول فى الاسلام » .

وفى مؤتمر ١٩٢٤ المنعقد فى القدس كشف زويمر عن خطته الجديدة وصاغ خلاصة تجاربه فى عمل جديد ، هو ما المعنـــا اليه من الاتجاه الى التحول فى الأساليب لا فى الغايات ، واخفاء التبشير وابراز التغريب ، والاعتماد على الاساليب الخفية الحتمية عن طريق المناهج الدراسية والصحف واثارة الشـــبهات حول قضايا الدين واللغة والتاريخ والتراث وهذا مجمل خطته :

« لقــد صرفنا من الوقت شيئا كثيرا ، وانفقنا من الذهب قناطـــير مقنطرة ، والفنا ما اســـتطعناان نؤلف وخطبنا ومع ذلك كله فاننا لم ننقل من الاسلام الا عاشقا بنى دينه الجديد على أساس الهوى . . فالذى نحاوله من نقل المسلمين عن دينهم هو باللعب أشبه منه بالجد.

وقال : وعندى أننا يجب أن نعمــل حتى يصبح المسلمون غير مسلمين .. أن عملية الهدم أســـهل من البناء فى كل شىء الا فى موضوعنا هذا، لان هدم الاسلام فى نفس المسلم معناه هدم الدين على العموم .

وأعلن ان الاحـــوال الســـياسية فى جميع البلاد الاسلامية أصبحت ملائمة لاعمال التبشير ، وان العراقيل من بعض الحكومات قد ازيلت ، وان الحـــرب العظمى جعلت العديد من المسلمين على صلة مباشرة بالحضارة الغربية ، وهم يزورون الاقطار الأوربية زرافات ، والوف من الطلاب المسلمين يهاجرون من آسيا ليتعلموا فى أوربا وسيل من العمال والصناع يتدفق من شمال أفريقيا على فرنسا ويبلغ عدد الذين يزورون باريس سنويا أكثر من الذين يحجون الى مكة ، وأنه لابد من عملمجهود لايجاد الاســـتعداد الفكرى والذهنى لقبول جهود المبشرين عن طريق ادارات التربية والتعليم والمعارف والصحفوالكتب والسينما والمسرح . وقد وسعت وسائل النشر الحديثة المجال لنمو الصلة بين المسلمين والحضارة الغربية .

* وقال : ان التطورات الحديثة الحادثة بنطاق واسع فى جميع أنحاء العالم الاسلامى قد دعت بالضرورة لأن يتخذ « التبشير » شكلا جديدا ملائما للحالة الجديدة فى الشرق الاسلامى .

وقد أمكن أن نتبين بدلائل قاطعة أن الاســـلام قد انتقض غزله وحاق به الضعف وتفككت حزمته ، وعلى الاجمـــال أصبحت الروح القومية تدحر روح الجـــامعة الاسلامية وتحل محلها ، فان المسلم التركى على سبيل المثال أخذ ينقلب ليصير تركيا أكثر منه مسلما .

وكان لالغاء الخلافة تأثير عميق ليس فقط فى تركيا بل فى جميع العالم الاسلامى .

وقد أخذت الظواهر تتكاثر فى جميع النواحى لتدل بصفة قاطعة على انحلال الرابطة الاجتماعية فى الاسلام، وأثار هذا الانحلال نراها جلية فى تطور مكانة المرأة وعلى الأخص فى المدن . ومنثمار هذا الانقلاب النسائى العدول عن الزواج المبكر والتوسعة فى الحرية على المرأة .

* أما الانقلاب الفكرى فى الاسلام فظاهر لا يحتاج الى بيان ، فأينما أدار الانســـان وجهه وجـــد تعطش المسلمين للمعارف ، وطلب العلوم ، وتتكون الآن عقلية جديدة فى المسلمين هى نتيجة التحاك والاتصال بالعلوم الغربية والحضارة الغربية ، وفوق كل هـــذا ، الأمر العظيم الذى يقف الانسان عنده حائرا معتبرا هو انحلال العروة الدينية فى الاسلام ، حتى انك ترى من المسلمين من قد أصبحوا فى عماية من أمرهم لايدرون كيف يتقدمون ولا كيف يتأخرون لوقوعهم فى الحيرة .. ا هـ

هـــذه هى أفكار « صمويل زويمر » المبشر الأكبر الذى رسم منـــاهج الدعوة الى تغريب الفـــكر العربى الاســـلامى ، وعمل فى الميدان أكثر من ٣٥ عاما وعقـــد عديدا من المؤتمرات فى الجزائر والقدس والقـــاهرة .. ولكن كيف تبدو آراؤه اليوم بعد أكثر من ثلاثين عاما ..؟

انها فى الحق تبدو مجرد أوهام وتكهنات لم تصدق،

فان الاسلام لم تنحل عروته ، والتجار المسلمون والطرق الصوفية استطاعوا غزو أفريقيا غزوا قويا وبعثات التبشير المزودة بالجاه والمال لم تحقق ازائه تقدما يذكر .

ولم تؤثر القومية على روح الأخوة الاسلامية بل زادتها قوة ، ولدينا فى العالم الاسلامى الآن منظمة القومية العربية ممثلة فى الجامعة العربية ومنظمة العمل الاسلامى الثقافى الموحد ممثلة فى المؤتمر الاسلامى والرابطة ومجمع البحوث الاسلامية والمجلس الأعلى للشئون الاسلامية» وكلها تسير فى هدفها دون تعارض.

ولم تصدق آراؤه التى استقاها من الخبرة الطويلة فى نتائج بث الأفكار المسمومة والمغرضة عن الاسلام واللغة العربية واستطاع العرب والمسلمون ان يكشفوا زيفها ، وأن يردوا عليها وأن يتجلبوها .

والهدف الأكبر الذى سعى اليه وهو اثارة الشكوك عن طريق الطلاب الذين يسافرون الى أوربا قد باء بالخسران ، فان أكثر الذين حملوا لواء الدعوة الى الاسلام والدفاع عنه والذين آمنوا بمقومات الفكر الاسلامى أساسا تعلموا فى أوربا ، ولا زلنا نذكر الدكتور يحيى الدرديرى ، ولطفى جمعة والدكتور غلاب وعلى مظهر ، ومنصور فهمى ، والدكتور هيكل ، وعمر الدسوقى ومالك ابن نبى ، أو ممن تعلموا فى معاهد الارساليات : كالدكتور عمر فروخ والدكتور مصطفى الخالدى فضلا عن أنه قد تحول كثيرون ممن أثرت فيهم خدعة الاستعمار ، والغزو الثقافى ، وبقى الآخرون فى الظل وقد كشفهم العرب المسلمون وتحاموهم ، ولم يضعف الاسلام بانحلال الخلافة بل قامت دولة اسلامية هى الباكستان وزاد عدد المسلمين حتى بلغ الآن ٦٥٠ مليونا . (الآن ألف مليون).

وبذلك سقط منهج الفكر والبحث فى الاسلام عند أمثال هؤلاء الدعاة الذين كشفوا عن هدفهم فى القضاء على روح الاسلام وقيمه ومفاهيمه .

* * *

(١٠)
مرجليوث

يعد مرجليوث منكبار المستشرقينالانجليز ، وكان استاذ الدراسات الاسلامية فى جامعة اكسفورد ، وله اتصال واسع المدى مع المصريين بعد الاحتلال البريطانى .. وقد اتصل به الشيخ عبد العزيز جاويش وهاجمه عندما اصدر كتابة (محمد وظهور الاسلام) .

ومنذ عام ١٩٠٧ تناولت الصحف فى مصر آرائه فقد اصدر فى ذلك الوقت كتابا عن النبى محمد وجعله حلقة من سلسلة عظماء الامم ، وصفه سليمان الندوى فيما بعد بأنه لم يؤلف بالانجليزية كتابا أشد تحاملا على النبى منه حاولفيه مرجليوث أنيشوم كل مايتعلق بالسيرة ، وان يشكك فى اسانيدها ، ولم يال جهدا فى نقض ما أبرمه التاريخ ومعارضه ما حققه المحققون من المنصفين .

وقد أشار الشيخ جاويشالى آراء مرجليوث وقال أنه — أى مرجليوث — حارب التاريخ كما حارب الانصاف وحمل على الرسول حملات منكرة وأشار الى قول مرجليوث « أن المسلم معناه فى الأصل الخائن ، وعلل ذلك بأن هذه الكلمة مشتقة من اسم مسلمه » .

وادعى مرجليوث أن النبى كانت تنتابه النوب العصبية كثيرا ، وزعم المؤلف أن النبى عاشر بعض النصارى فاستفاد كثيرا من القصص واقتبس بعض أساليب التعبير ، وعلل زواجه بخديجة بطمعه فى مالها »

وقد صار آراء مرجليوث مصدرا للمتعصبين من الكتاب الغربيين ومن ذلك ما نقله عنه مستر سكوت واثار كثيرا من الاعتراضات .

* * *

وقد أشار رشيد رضا الى أن السبب فى أكثر غلط مرجليوث وخطاه فى السيرة هو التحكم فى الاستنباط والقياس الجزئى وبيان أسباب الحوادث كما هو شأنهم فى أخذ تاريخ الأقدمين من الآثار المكتشفة واللغات المنسية وأقله عدم فهم توحيد الله تبارك وتعالى .

كما أشار صاحب المقتبس (محمد كرد على) الى كتابه عظماء الأمم فقال أنه لم يؤلف كتاب بالانجليزية أشد تحاملا على النبى مما جاء بهذا الكتاب فقد حاول مرجليوث أن يشوه كل ما يتعلق بالسيرة الشريفة ، وان يشكك فى أسانيدها ولم يأل جهدا فى نقض ما أبرمه التاريخ . ويعارض ما حققه المحققون من المثقفين ، ومرجليوث له فرض فى الشعر الجاهلى نشره فى يوليو عام ١٩٢٥ فى احدى المجلات الاستشراقية ، وفى ١٩٢٦ نقله طه حسين فى كتابه المشهور عن الشعر الجاهلى ، يقول مالك بن بنى : ربما لم يكن فرض مرجليوث ليحتوى على شىء خاص غير عادى لو أنه حين نشر لم يصادف ذلك الترحيب الحار من المجلات المستغربة ، ومن بعض الرسالات التى يقوم بها دكاترة عرب محدثون ، حتى لقد كسب هذا الفرض قيمة المقياس الثابت فى دراسة الدكتور صباغ عن (المجاز فى القرآن) وقد رفض الدكتور صباغ رفضا مقصودا مفرضا الاعتراف بالشعر الجاهلى كحقيقة موضوعية فى تاريخ الأدب العربى » .

ومما يذكر أن مرجليوث هاجم « كتاب مستقبل الاسلام » الذى أصدره السيد توفيق البكرى عام ١٩٠٧ فى عبارات لا تدل على انصاف العلماء فقال : فى القطر المصرى اليوم نهضة جديدة وقوة حية وقد ذهب المسلمون فى مصر الآن لمقابلة مساعى المرسلين ورد دعواهم بدفع التهم التى يوجهونها الى الاسلام .

أما جماعة المصلحين المسلمين فى مصر فانهم ينكرون أن الاسلام فى ذاته هو الباعث على التقهقر ، وأن المسيحية فى أوربا هى مصدر الرقى والتقدم وسخر من قول الشيخ البكرى : ان الاسلام هو دين المستقبل بدليل زيادة انتشاره الواضح فى السنوات الأخيرة .

ومما قاله « ان الاسلام قد منى بالانحطاط لان الأحاديث التى لا يؤمن بصحتها غمرت أوامر القرآن الحقيقية فشوهت الأفهام وأثقلت العقول بما لا يحتمل فهم يطلبون الرجوع الى الوحى الأصلى وهو القرآن ، وقال ان التقهقر الذى منى به الاسلام لم ينشأ من الدين نفسه وانما نشأ من الطرق المختلفة لتفسير معانيه ». والواقع أن التعرض للأحاديث النبوية هو من الشبهات المثارة فى وجه الاسلام والتى تهدف الى التشكيك فيها جملة باعتبارها « المذكرة التفسيرية للقرآن » ونحن نقبل تحقيق الأحاديث والتعرف الى الأكيد منها ولكنا لا نشجبها جملة كما يدعو مارجليوث وغيره ، أما وصفه بالتقهقر الذى يمر به المسلمون فانه ليس قطعا راجعا الى الاسلام الذى اقام النهضة والحضارة الف عام ، وانما يرجع الى التخلف الفكرى عن مفاهيم الفكر الاسلامى العربى وقيمه ، اما الحضارة العربية فلا صلة لها مطلقا بالدين وليس رقيها محسوبا على دين من الأديان ، فانها من الأمور المادية العقلية التكنولوجية المحضة وقد ظهرت بعد المسيحية بألف وخمسمائة عام .

وكان مرجليوث قد نشر عام ١٩٠٤ مقالا عن مستقبل الاسلام ضمنه عديدا من آرائه القائمة على ضعف الاستنتاج ، أو تعصب الرأى ، فردد قول برايس من أن الاسلام لم يبق من عمره الا قرنان كما أعاد ماقاله أحد المبشرين من أن الاسلام لا يلبث ان يذوب ذوبان الثلج بين يدى العلم والتمدن والنصرانية كما نقل رأى الدكتور براوين الذى قال : ان الاسلام يذهب بذهاب الدولة العثمانية ومضى يردد الكلمات التقليدية التى يرددها المتعصبون وخدام الاستعمار من أن الاسلام لن يبقى بعد احتكاكه بالتمدن الحديث ويموت لا محاله كما ردد ما قاله أحد كتاب التغريب من أن الانحطاط الذى يعيشه المسلمون — فى هذه الفترة — يرجع الى أسباب متصلة بالاسلام نفسه ، لأنه لا يوافق روح التمدن .

وهكذا يتكشف فى كتاباته جماع متسق لما تورده حملات التشكيك التى لا يرقى كتابها الى مقام العلماء الباحثين .

* * *

محمد وظهور الاسلام — مرجليوث

نقد العلامة عبد العزيز جاويش هذا الكتاب فقال : كتاب وضعه مستر مرجليوث ، ظهر هذا الكتاب من نحو سبع أعوام ونفوس الانجليز والأمريكيين ترقبه لما لذلك الرجل عندهم من المكانة العلمية الرفيعة ولا سيما وهو مشغوف بدعوى أنه محيط بأكثر لغات العالم ، فتراه يدعى العلم بالأسبانية والفرنسية والايطالية والألمانية والعربية والفارسية والعبرانية ، وقد انتشرت شهرة هذا الأستاذ فى بعض البلاد الأوربية ولقد كنت ابان ظهور هذا الكتاب فى مدينة اكسفورد حيث المؤلف ، فلما ذكرت له رغبتى فى شراء كتابه وعد أن يقدم لى منه نسخة ثم جعل يتباطأ تارة ويتناسي أخرى حتى مللت وعوده ، وظننت أنه لابد لهذا الكتاب من سر يريد اخفاءه عنى ولا سيما والمؤلف يعلم أننى ضعيف الثقة بكثير من المستشرقين سيء الظن بهم وقد كنت فى الواقع كذلك ، ولكن بعد أن خبرتهم وسبرت غور معلوماتهم وتبينت مبلغ كفاءتهم ، ولولا أننى وجدت من بينهم أفذاذا قليلين جدا لما اطمأنت نفسى الى احد منهم فلما حصلت على الكتاب وتصفحته ثم درسته بابا بابا وكلمة كلمة ، حتى جئت على آخره فوجدته عند ظنى به ، وجدته حارب التاريخ كما حارب الانصاف وحمل على الرسول عليه السلام حملات منكرة ، ويظهر أن المؤلف توقع أن لا يقع كتابه الا فى ايدى البله ولا يطلع عليه الا الاغرار ، فلم يبال أن جاء فيه بمحدثات لو أنه تدبر لما اجترأ على الاقدام عليها .

فمن ذلك أنه يقول ان المسلم معناه فى الأصل (الخائن) وعلل ذلك بأن هذه الكلمة مشتقة من اسم مسلمة ، ثم زعم ان المسلمين سموا أنفسهم بذلك من غير تدبر ثم حولوا هذه المادة الى معنى التسليم المشهور اليوم .

وزعم المؤلف أن الرسول عاشر بعض النصارى النوب العصبية كثيرا ، وفسر بذلك ما كان يصيبه صلى الله عليه وسلم من الجهد خلال نزول الوحى مع أنه عليه السلام لم يعرف فى تاريخ حياته أنه كان يصاب بأمثال تلك النوبات العصبية قبل زمن البعثة ومقدماتها .

ورغم المؤلف أن الرسول عاشر بعض النصارى واليهود فاستفاد كثيرا من القصص واقتبس بعض أساليب التعبير التى لم تكن معروفة للعرب مثل (ذاق الموت ، ونفخ فى الصور ، وفى آذانهم وقر) ونحو ذلك .

ولقد كان الأجدر بالمؤلف أن يذكر لقراء كتابه أن ما قدمه لهم ثمنا انما هو من مبتدعاته ، قد سبقته اليه اليه مشركو قريش وانصارهم قالوا : انما يعلمه بشر ، كما كان يجمل به أن يريهم كيف يكتب القرآن ورد زعمهم ذلك بقوله « لسان الذى يلحدون اليه اعجمى وهذا لسان

عرتى مبين » وقوله « ما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون» ولو أن المؤلف فعل ذلك لأبعد نفسه عن التعصب المرذول .

شق على المؤلف أن يرى فى محمد نبيا يوحى اليه بعض الغيب فجاء بمقدمات مهد بها السبيل لاقناع قراء كتابه انه ما كان بالرسول ولا بالنبى ، فزعم أنه كان العرب فى تجسس الأخبار والاسراع تنقلها صراع لم يوفق احد من المتحضرين الآن الى كشف سرها ، وقال ان محمد كان نقادا للرجال صادق الفراسة واذا لقى الرجل انكشف له سره وعرف كيف يستميله اليه ويحتذبه .

جاء المؤلف بتلك المقدمات ليستنبط منها ان ما كان من بلاغ النبى ورسالاته لم يكن وحيا يوحى ، وانما انباء وروايات يجيئه بها جواسيسه وعيونه .

وعلل المؤلف زواج الرسول لخديجة بطمعه فى ثروتها والناس قاطبة يعرفون كيف كان زهد الرسول وأنه لم يورث أعقابه الزهيد مما تركه خلفه بل جعله لعامة المسلمين لقوله (نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقه) . ولما اراد أن يلتمس علة لظهور بعثة النبى على رأس الأربعين سرد لنا قصة مفادها أنه كان لقريش دار ندوة لا يشهدها الا من تجاوز الأربعين وقال ان محمدا والذين آمنوا به قد كونوا جماعة سرية على نحو ما يفعل الماسون ، وأن هذا الجمع السرى قد اتخذ له بضع رموز منها قولهم (السلام عليكم) .

* * *

وللمستر مرجليوث عدا ماتقدم تخريجات وتأويلات من أعجب ما يرى الراءون فمن ذلك ما قاله فى التوحيد الذى هوروح الاسلام ، فلقد زعم أن النبى نظر فى تعاليم النصارى واليهود فأخرج منها مالا يقبله العقل وكان (الله) احد أصنام الكعبة قبل الاسلام فوفق بين اله اليهود والنصارى وجعلهما واحدا ، فكيف يكون التوحيد هو عين التثليث الا فى نظر من يغالطون فى القضايا الحسابية العقلية . ولو أن الكاتب اراد أن ينصف الحق والتاريخ لقال مما قال به القرآن فى أكثر من آية من أن التوحيد هو دين جميع رسل الله وأنبيائه . ومما ورد فى هذا الكتاب فى تعليل اسلام عمر بن الخطاب بأن سر انقلاب عمر من اضطهاد أخته وضربها الى مجاراتها والمبادرة باعتناق الاسلام بأنه تأثر من رؤيتها مجروحة بسبب قسوته وتسرعه فأحب أن يكفر عن سيئته هذه فأظهر اعجابه بالقرآن ورضى الاسلام دينا .

يتصفح الناقد هذا الكتاب فيتمثل صاحبه اذ أخذ يدافع عن اليهود كأنه يهودى المنبت ، واذا كتب للدفاع عن النصارى فكأنه هو نصرانى صميم . واذا ذكر حوادث الوثنيين من العرب ، وأصاب النبى من اذاهم وكيدهم طرب طربه ممن دبر تلك الحكاية وأمعن فى ايصالها الى الرسول .

قد اشتهر مستر مرجليوث بقدرته البليغة وعلمه الواسع باللغة العربية ، وانا لا اريد أن اذكر هنا رأيى فى هذا المستشرق الشهير اكتفاء بحادثة وقعت لنا فى جامعة اكسفورد . ذلك اننى كنت مدعوا معه فى بعض المنازل فلما كنا على المائدة سألنى بعض الحاضرين : هل سبق لى أكل لحم الجزور ، فأجبته أننى لا أذكر ذلك وربما اتفق لى هذا وأنا صغير ، فلما سمع الأستاذ مرجليوث هذا الكلام قال : كيف ذلك ، وعلى كل مسلم فرض أن يأكل لحم الجمال ولو مرة واحدة فى حياته . لأنه من قواعد الاسلام ، عند ذلك أجبته وانا دهش مما قال : يا سيدى اننى أعرف أن قواعد الاسلام خمس ، أما هذا السادس فلا أعرفه ، بيد انى أستميح الأستاذ عفوا ان يذكر لى مأخذ هذا الحكم فقال : أنه ورد فى (صحيح البخارى) أنه قد جاء احد اليهود الى الرسول وقال له انى جئت أشهد أن لا اله الا الله وأنك رسول الله ، فأجابه الرسول وأمر له بلحم جزور ، ومن هنا استنبط مستر مرجليوث أنه يجب على كل مسلم أن يأكل لحم الجزور وأن هذا من العوائد الاسلامية التى ينهدم الدين بانهدامها ، فلما فرغ قلت له : ان صح وجود هذا الحديث فى البخارى فالذى يفهمه المسلم الذى يفقه اللغة العربية منه أحد امرين فأما أن يكون الرسول أراد أن يقدم لذلك اليهودى شيئا من الطعام لأنه ضيفه فى بيته ، وأما أنه أراد أن يمتحن ايمان اليهودى باطعامه شيئا مما حرمه الله على بنى اسرائيل فى التوراة من أجزاء اللحم ، ثم تلوت الأدلة المفيدة لذلك ، فبهت الأستاذ ولكن لم تجسر قوة المكابرة وشدة العناد التى فطر عليها الأوربيون ولا سيما المستشرقون فيهم على أن تحوله عن رأيه .

ويمثل كلام هذا الأستاذ يقتدى واضعوا الكتب التاريخية والقانونية وعن مثله ينقل أمثال مستر سكوت آداب الاسلام ودقائق أسراره .

* * *

(١١)
لورنس : الأعمدة السبعة

ان الجانب الذى يهمنا من دراسة هذا المغامر البريطانى فى هذا المجال هو كتاباته عن العرب فى كتابه (أعمدة الحكمة السبعة) فقد كشف فى كتابه عن حقد وكراهية للعرب والمسلمين ولتاريخهم ، وحاول التقليل من شأنهم ورميهم بالجهل والتخلف . فضلا عن مغالطاته المتعددة وأخطائه التاريخية .

وأبرز ما يؤكد ذلك قوله بالنص :

« لقد كنت اعلم اننا اذا كسبنا الحرب فان عهودنا للعرب ستصبح « أوراقا ميتة » غير أن الاندفاع العربى كان وسيلتنا الرئيسية فى كسب الحرب الشرقية ، وعلى ذلك فقد اكدت لهم أن بريطانيا سوف تحافظ على عهودها نصا وروحا فاطمأنوا الى هذا القول وقاموا بالكثير من الأعمال المدهشة ، ولكنى فى الواقع بدلا من أن اشعر بالفخر لهذا الذى فعلته ، كنت أشعر دائما بنوع من المرارة والخجل ، لقد ذهبت الى الصحراء غريبا لا أملك ان افكر على طريقة أهلها ولا أن أشاركهم معتقداتهم ، ولكنه كان على ان اقود العرب وان استخدم حركتهم الى اقصى حد لصالح بريطانيا فى الحرب واذا لم اكن اقدر على التطبع بطباعهم فعلى على الأقل أن اخفى ما عندى وأن أتسلل بنفوذى بينهم ، ان الرجل اذا ألقت به الظروف الى من لا يماثلونه عاش بينهم ولا ضمير له ، لأنه قد يعمل ضد صالحهم أو يستميلهم الى ليغلب دهاؤهم غير ما يحبون لأنفسهم ، وهو يتحايل بدهائه فيقلدوننى حكاية واقتداء ، وكنت أخرج على مألوف وأتظاهر بمألوفهم .

لقد كان بعض الانجليز وعلى رأسهم كتشنر يعتقدون أن ثورة يقوم بها العرب على الأتراك تساعد انكلترا وهى تحارب ألمانيا على دحر خليفتها تركيا ، اننى لم ابلغ درجة من الحمق تجعلنى لا ادرك أنه لو قضى للحلفاء أن ينتصروا واننا لو كسبنا الحرب فان هذه الوعود سوف تكون حبرا على ورق ، ولو كنت ناصحا شريفا للعرب لنصحتهم بالعودة الى بيوتهم وسرحت جيشهم وجنبتهم التضحية بأرواحهم ودعوتهم الى عدم المخاطرة بحياتهم فى مثل هذه الحرب ، أما الشرف فقد فقدته يوم أن اكدت للعرب بأن بريطانيا ستحافظ على وعدها .

لقد كان قواد الحركة العربية يفهمون السياسة الخارجية فهما عشائريا بدويا ، وكانت طبيعة قلبهم وصفاء نيتهم وانعزالهم عن العالم الغربى تخفى عليهم ملتويات السياسة واخطاءها وتشجع البريطانيين والفرنسيين على القيام بمناورات جريئة يعتمدون فى نجاحها على سذاجة العرب وضعفهم وبساطة قلوبهم . وكانت لهم بساطة فى التفكير وثقة فى العدو .

اننى اكثر ما اكون فخرا ان الدم الانجليزى لم يسفك فى المعارك الثلاثين التى خضتها لأن جميع الأقطار الخاضعة لنا لم تكن تساوى فى نظرى موت انجليزى واحد ، قد جازفت بخديعة العرب لاعتقادى أن مساعدتهم كانت ضرورية لانتصارنا القليل الثمن فى الشرق ، ولاعتقادى انكسبنا الحرب مع الحنث بوعودنا أفضل من عدم الانتصار » ا هـ .

واعتقد أن هذه النصوص كافية لكى تكشفحقيقة لورانس والدور الذى قام به فى الوطن العربى ، وآية خداع لورنس وتآمره على العرب ما سجله « وايزمن » فى كتابه « التجربة والخطأ » قوله : وأود أن أعلن فى هذا المجال تقديرى للخدمات الجليلة التى أسداها لقضيتنا الكولونيل لورنس ، لقد اجتمعت به فى مصر وفلسطين ، وقابلته فيما بعد مقابلات عدة ، أن علاقته بالصهيونية علاقة ايجابية على الرغم من تظاهره بالميل للعرب .

* * *

وقد ظل اسم لورنس يدوى مصورا تلك المغامرة السحرية الجريئة التى قام بها والعمل البطولى الذى

وصـــف من اجله بانه سلطان الصـــحراء العربية وملك العرب غير المتوج حتى توفى فى ١٩ مايو ١٩٣٥ .

＊＊＊

ثم ظهرت بعد ذلك كتابات كشفت وجهه الحقيقى، كتبهـــا أمثال ريتشارد الدنجتون فى كتـــابه « لورنس الدجال » وجان بيروقيـــلار الـــكاتب الفرنسى ، ولويل توماس ، وروبرت جـــرنتر ، والكابين ليـــدل هارت ، فكشفوا عن حقيقته واظهروا مئات المغالطات التى ملأ بها كتابه ، وعزوا سر اندفاعه ومحبته للظهور الى سبب باطنى ، ذلك انه كان ابنا غير شرعى لأمه ، ووصـــفوه بأنه كان متحمسا للقضـــاء على الامبراطورية العثمانية لتأكيد سطوة الاستعمار البريطانى وحده .وأن ما ادعاه من محبته للعرب ومقابلته لذلك البريطانى مع فيصـــل بالعباءة والعقال العربى ورفضه تبول الوسام انما كان هذا كله تغطية لموقفه ، وبلوغا بالمسرحية الى غايتها .

وقد لخص ريتشـــارد الدنجتون فى كتـــابه هذه الأسطورة البطولية ، ليحل محلها انســـان ملىء بالعقد والشذوذ . وعنده أن لورنس هو الذى عمل على اجتماع فيصل وحاييم وايزمان فى باريس ١٩١٩ وهو الذى كتب الاتفاقية التى وقعها كليهما . وكان لورنس يطلق على الثورة العربية « تقطيع أوصال الدولة العثمانيـــة » وهدفه ايقاع الخلاف وتعميقه بين العرب والترك .

وقد عرف أن لورنس لم يصل ابان الحرب العالمية مصادفة ، ولكن العمـــل الذى قام به كان قد بدأ ١٩١٤ عندما وصل الى الشرق ، متخذا من (فن البناء العسكرى الصليبى) موضوعا لدراسته وكان قبل ذلك ملتحقا ببعثة أوفدت الى وادى الفـــرات للبحث عن آثار الحيثيين ، وهكذا كانت خطته فى دراسة الصحراء تختفى وراء عمل علمى بحت ، هو دراسة البادية والمدن العربية والالمام بطبائع ســـكان الأصـــقاع من مدن وحضر ، والالمـــام باللهجات التى يتكلمون بها والوقوف على عاداتهم ، ثم استخدمه الانجليز ، فى ديوان الاستخبارات بعد ذلك حتى وصل جدة ١٩١٦ واتصل بفيصل وعمل معه .

＊＊＊

(١٢)
هنرى لامنس

بعد « هنرى لامنس » من اشد المستشرقين تعصبا على الفكر العربى الاسلامى وقد بالغ فى التعصب على الاسلام حتى أعلن المنصفون شكهم فى أمانته العلمية ، وقالوا انه لا ينسى عواطفـــه فيما يكتـب عن النبى والاسلام ، وانه كان داعية ولم يكن عالما ، وقد عرف بتهكمه على النصـوص العربية ، كما وصف بارهاته للنصـوص وتحميلها اكثر مما تحتمـل ، فاذا وجـد فى الاســلام موضعا للفضل ذهب بنسبه الى مصـدر غير اسلامى .

* * *

ولد ١٨٦٢ فى بلجيكا واتخذ لبنان موطنا ودرس فى الكلية اليسوعية ببيروت ، واشتغل بالتدريس فيها من عام ١٨٨٦ وتخصص فى تاريخ الشرق الأدنى وحضارة اهله ، واتقن اللغة العربية وعين ١٩٠٧ استاذا فى معهد الدراسات الشرقية فى الكلية اليسوعية ببيروت ، وتوفى فى (مايو ١٩٣٧) ووصف بالراهب المؤرخ واخـذ عن جولد زيهر ونولدكه وكينانى وولهوزن وله كتـاب عن حياة محمد لم توافق دوائر الفاتيكان على نشره خشية أن يؤدى ما فيه من طعـن وتهجم الى احتجـاج الأمم الاسلامية ، وله كتاب فاطمة وبنات محمد وكتـابه عن الثلاثة : ابو بكر وعمر وابو عبيدة (ومغزى الربط بينهم هو ادعائه بأنهم تآمروا على الخلافة بعد وفاة النبى دون على) ويقول نبيت ان كتابه عن فاطمة وبنـات محمد يسوده التعصب والاتجاه العدائى .

وقد تعصب لامنس للأمويين ووقف جانبا كبيرا من جهوده العلمية لدرس تاريخهم الســياسى وخلافهم مع العباسيين ، ومصدر اعجابه ببنى امية أن دولتهم كانت فى تقديره ـــ لا دينية ـــ ولأنهم اقاموا ملـكهم فى الشام وتأثروا بالمدينة القديمة التى قامت فى ربوعه .

* * *

(أولا)

يرى الدكتــور زكى محمد حســن ان لامنس غير منصف يقول :

ظـل « لامنس » علمـا من اعلام المسـتشرقين المشتغلين بدراسة التاريخ الاسلامى حتى توفى ١٩٣٧ ومع أن هـذا الراهب المؤرخ اخذ كثيرا من آرائه عن شيوخ المســتشرقين مثل جلدزيهر ونولدكه وكينـانى وولهوزن ، فانه انتحى من البحث ناحيــة ميزته عنهم ، فقد بالغ فى التعصب على الاسلام حتى افسد ذلك علمه فى بعض النواحى ، وجعـل المؤرخين وعلى رأســهم المستشرقون يشكون فى أمانته العلمية ويتهمونه بركوب متن الشطط ، ولن يصعب علينا أن نثبت أن لامنس كان فى ناحيتين من النواحى الثلاثة التى انتطع للكتابة فيهـا محاميا تديرا ، لبنى امية تارة ، ولأعداء الاســلام تارة اخرى ، وانه كان خصما عنيدا للمسلمين عامة وللعلويين والعباسيين خاصة ، وانه كان يسلب العرب الفضائل والصفات الخلقية الجميلة التى اجمع المستشرقون على نسـبتها اليهم ، وانه كان فى خصومته يعتمد فى بعض الأحيان على السفسطة والمغالطة . اما مؤلفات لامنس عن بلاد العرب وجغرافيتها قبل الاسلام وعن جغرافية الشام وتاريخها المســيحى فمراجع ثمينة فى موضوعها ودراسات علمية صحيحة لا يمكن ان يستغنى عنهـا باحث فى هذا الميدان ، ولقد كان هذا الراهب الجليـل عالما تديرا الا عندما كان يكتب عن الاســلام وأبطاله .

اجل ، كان لامنس فى مؤلفاته عن الاسلام داعية ، ولم يكن عالمـا ، وانه لم ينس عواطفه فيما كتب عن النبى والاسلام .

كتب لامنس عن الاســلام وعن اخلاص محمد فى اعلانه الدعوى وكتب عن عمر وكتب عن فاطمة وبنـات محمد ، وقيل انه كتب عن حياة محمد مؤلفـا لم توافق دوائر الفـاتيكان على نشره خشية أن يؤدى ما فيه من طعـن وتهجم على احتجاج الأمم الاســلامية . والأب

لامنس فى جميع هذه المؤلفات يتهم رواة السـيرة بانهم مخترعون ، ولكنه لا يحجم عن الاعتماد على رواية من رواياتهم اذا استطاع أن يلمح فيها مطعنا على الاسلام، وهو حين يرى رواية أو حديثا فيه مصلحة الشـيعة ، اتهمهم بوضـعه ، وحين يرى رواية تعـلى من شأن السـنيين الصقها بكتابهم ، حتى أنك لتراه يضرب كل فريق بالآخر ليتنعك باضطراب كل هذه العنـاصر التى قامت عليها السيرة ، وليخرج عليك هنا وهناك بآرائه المغرضة .

وهو بعد هذا ان وجد الاسلام موضعا للفضـل ذهب بنسبة الى مصدر غير اسلامى ، أو يفسره تفسيرا ماديا يذهب بموطن الخير فيه ، فلا منس لا يستطيع أن ينكر ان الاسلام حرم قتل الذرية ووأد البنـات ، ولكنه يستطيع ان يطلع عليك بقوله أن النبى دفع الى هـذا التحريم بحنينه الى الذرية ، بعـد أن صار (لطيما) فى طفولته وكذلك يستكثر لامنس ان يكون للنبى ما تسيقه اليه السيرة من أبناء وبنات ، فيقول أن كتاب السيرة فعلوا ذلك رغبة فى رفع شأن النبى ، وهو اذا قرأ أن النبى لم برغم بناته على ترك أزواجهـن الذين تأخروا فى اعلان اسلامهم فسره بأن النبى كان يتشرف بهؤلاء الاصهار . ويعمل على الانتساب اليهم ، ويحرص على ودهم .

وهو ان تكلم عن السيدة عائشة لم يجد من مفردات اللغة الفرنسية الا كلمة (Favorite) ليصف بها زوجة النبى ، وأقرب ترجمة لها بالعربية (محظية) وهو يحرص على استغلال بعض الاضطراب فى النصـوص العربية التاريخية ليثبت أن الصحابة كانوا لا يقبلون عن طيب خاطر أن يصاهروا النبى ، ولكنه يذكر فى موضع آخر أن رقية ابنة النبى كانت جميلة وأن عثمان بن عفان انما اعتنق الاسلام ليتزوجها ، وينسى لامنس أن يذكر فى موضع ثالث أن النبى كان يحرص على مصاهـرة ذوى الحسب والنسب من المشركين .

ومهما يكن من شيء فقد كان للأب لامنس طـرق غريبة فى التهكم على النصوص العربية وكان يرهـق النصوص فيحملها أكثر مما تحتمل ويستنبط منهـا أكثر مما تفيد ، بل كان يغض الطرف عنها ان كانت تثبت خطأ آرائـه .

وقد سجـل عليه تعصبه زمـلاء له من أعـلام الاستشراق فى مقدمتهم : بيكرودسو وجوزفروا وبمومبين وماسية وقال (فييت) فى نعى لامنس بجلسة ١٠ مايو ١٩٣٧ أنه من الصعب أن تقبل كتاب (فاطمة وبنات محمد) فى ثقة ودون تحفظ فان التعصب والاتجـاه العـدوانى يسودانه الى حد كبير .

وهكذا ترى أن الأب لامنس كان من أشد المتعصبين على الاسلام ، وكان المستشرقون يعرفون فى لامنس هذا العيب الكبير ويأخذونه به .

* * *

(ثانيـــا)

للأب لامنس المستشرق اليســوعى نظرية غريبة تتعلق بشكل الحكومة الاسلامية التى قامت عقب يوم السقيفة واســتمرت طوال عهد الشــيخين (ابو بكر وعمر) فهو يرى أن تلك الحكومة كانت حكومة ثلاثية من طــراز النظام الثلاثى Trinn.viro المعــروف فى التاريخ الرومانى طوال فترة الانتقال من الجمهورية الى الامبراطورية ، وأن قوام هذه الحكومة ثلاثة من كبــار الصحابة : هم ابو بكر وعمر وابو عبيدة ، وأن هؤلاء الثــلاثة اجتمعت كلمتهم فى أواخر عهــد النبى على أن يحتكروا الحكم بعد وفاته ويتداولوه واحد بعد واحد . وأن اثنين من أزواج النبى ، هى عائشــــة بنت أبى بكر وحفصة بنت عمر مهدنا لهم السبيل الى ذلك وأن هــذه المؤامرة قد نجحت الى حد بعيد .

ويرد الأســتاذ عبد الحميد العبادى على هــذه الشبهة على النحو التالى :

ان نظرية الأب لامنس لا تقوم على أساس تاريخى متين .

* * *

) أولا (لأن المصادر القديمة الموثوق بها لا تذكر شــيئا من هذا القبيل ، فالطــبرى والبلاذرى اللذان استوعبا كل ما أمكنهما استيعابه من الأخبــار المتعلقة بقيام الخلافة العربية ، لا يأتيان بخبر واحــد يؤيد من قريب او بعيد نظرية الأب لامنس .

(ثانيـــا) أن الأحاديث التى يستشهد بها الأب لامنس أغلبها من الأحاديث المروية فى مناقب الصحابة وخصائصهم ، وهذه ينبغى أن تؤخذ بتحفظ ، وربما كان من واجب الباحث الا يستشهد بها فى مقام البحث العلمى الصريح ذلك لأن معظمها ولاشك موضوع ، وأن السبب فى وضعه يرجع الى حاجة الأحزاب السياســية ابان العصر الأموى وصدر العصر العباسى .

(ثالثــا) ان الأب لامنس يهمــل كل الاهمــال الرواية التى تشــير الى الذهول الذى أصاب عمر بن الخطاب عقب وفاة النبى ، وقد لحظ صــديقنا الدكتور السنهورى فى كتــابه (الخلافة) قيمة هــذه الرواية ، ولكنه لا يعلق عليهــا الأهمية التى كنا نعلقهــا نحن . فقد قال عمــر : « والله ليرجعن رســول الله كما رجع موسى فليقطعن ايدى رجال وارجلهم زعموا ان رسول الله قد مات» وقد تصدى له أبوبكر فقال «أيها الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبــد الله فان الله حى لا يموت . هذه الرواية العالية الاسناد فى الأهمية بمكان فهى تتعلق باثبات نص منصوص القرآن اذا كيف توفق بين عمــر المؤتمر على رأى لامنس وعمر الذاهل لموت الرسول كل هذا الذهول كما تدل الرواية المذكورة .

وبعــد فان القول بائتمار أبى بكر وعمر قديم غير حديث ، فقد قال به روافض الشيعة منذ ظهرت الأحزاب السياسية بشكلها التاريخى فى صدر الاسلام ، فزعموا أن أبا بكر وعمر وعثمان (لا أبا عبيدة كما يرى لامنس) قد ائتمروا ببنى هاشم وغصبوهم حقهم فى الخلافة .

فالأب لامنس لم يزد على أن أخــذ وجهة نظــر روافض الشيعة وغلاتهم الى قيام الخلافة وبنى عليهــا بحثه الخاص بشكل الحكومة الاسلامية الأولى ، وهى بعد وجهة نظر ليست لها قيمة علمية على الاطلاق .

* * *

(ثالثا)

أما كرد على فانه قد عارض آراء الأب لامنس فى أكثر من موضع . فهو ينقد كتابه : « مختصر تاريخ سوريا » . ويقول :

مما لاحظناه أن المؤلف يأتى بجمل ينتزعها من عبارات الخلفاء والسلاطين والفاتحين وغيرهم قيلت فى أحوال عامة لا تدرك على جليتها الا اذا ذكرت العبارة من سياقها ، فيأتى المؤلف بجمله من المقول بالعربية ويترجمها بالفرنسية ويستخرج منها موضوعا قد يكون سبة على قائلها ويستنتج منه انها كانت دستورا جرى العمل عليه .

وقد رأينا صاحبنا يحرص كل الحرص على نسبة كل شيء الى سكان البلاد الأصليين ، وقد كرر غير مرة أن عالم قريش (خالد بن يزيد) تلميذ راهب ولم يقل كلمة واحدة فما أفضل فيه هذا التلميذ على الآداب العربية ، وكيف كان أول من ترجمت له العلوم من السريانية واليونانية والقبطية فى دمشق وما هى منزلته فى الخلفاء وهو عالم الأمويين ومحدثهم ومستشارهم وشاعرهم ، ونظن أن عمل خالد بن يزيد هذا من التطورات المهمة فى تاريخ الأمة التى تستحق أن يشار اليها ولو بسطر واحد أكثر من أخذه عن راهب علما لم يكن له به معرفة .

ومما قاله فى شيخ الاسلام ابن تيمية أنه صاحب (المذهب الارتجاعى) وأن عمله مختل ، وأنه كان لايفتر عن مقاتلة البدع وقضى حياته وهو يشوق أبناء دينه فى سبيل التعصب .

ونحن لا نطلب منه أن يعتقد فى دين الاسلام اعتقاد اهله بل نطلب منه ان ينصف ويتجرد من العواطف التى تذهب ببهجة العلم حتى لا يعد من المغالين فى مذهبهم .

وقد قال فى القرآن واعجازه وتفسيره وبلاغته أشياء كان يول بها متعصبة الأديان فى القرون الوسطى .. ثم أن دعواه بأن الفقه الاسلامى قد تأثر بالفقه القديم السابق لا سيما بالفقه اليونانى وذلك بواسطة الحقوق القانونية لكنائس المسيحية فى الشرق هى دعوى أعادها غيره قبله ولم يأتوا بحجة مقبولة معقولة، ولا نرى دحض هذه الفرية الا أن نحيله الى مقالات سعيد الخورى الشرتونى اللبنانى صاحب أقرب الموارد وبذلك يتبين له فساد هذا الزعم وأن مصادر الفقه الاسلامى من الكتاب والسنة والاجماع والقياس ليس الا .

وقد وصف المؤلف «صلاح الدين الأيوبى» بالطماع ولكنه وصف الحروب الصليبية بوقائع البسالة . ووصف جمال الدين الأفغانى بالمهيج الأفغانى وكان الانصاف يقتضى منه أن يصف ملوك الصليبيين بالأوصاف التى تليق بهم ولكنه صورهم كلهم على الغاية من النجدة والعقل ولو أنصف لسمى تلك الحروب بحروب الجنون والطيش كما سماها المنصفون من مؤرخى الصليبيين . ولذكر لبعض أولئك الملوك بعض صفاتهم فى نقض العهود والعبث بالمهادنات وقتل الأسرى وغير المحاربين من الشيوخ والعجزة والنساء والأطفال .

وبعد فان المؤرخ أراد أن ينفى المنقبة التى أتاها صلاح الدين وربما عدت فى نظر الغربيين من أهم أعماله الصالحة وهى ابقاؤه على الصليبيين يوم فتح القدس فلم يضع السيف فيهم كما قتلوا هم المسلمين يوم استيلائهم عليها . وقال ان عمل المسلمين هذا : «عجز وخوف» .

ونفى الأب لامنس ما ثبت من أن الصليبيين يوم فتحوا القدس قتلوا سبعين الفا من المسلمين ، فقال ان هذا القول مما سلم به الباحثون بدون رويه ، واعتذر عن فعله الصليبيين فى بيت المقدس بأن هذه المدينة عوملت بما تقتضى به الأخلاق الحربية لذلك العهد فى معاملة المدن التى تؤخذ عنوه .

وادعى المؤلف أن دار العلم بطرابلس لم تكن مدرسة جامعة بل مدرسة صغيرة لتلقين العلم الدينى ، بيد أن المؤرخين مجمعون على أن طرابلس كان فيها دار حكمة على مثال دار الحكمة فى بغداد وقال الأثرى (فان برشم) فى مفكراته : « لقد ازدهرت طرابلس زمن القاضى ابن عمر وقد أنشأ فيها بيت حكمة جهزه بمائة

الف مجلد من الكتب وكان فيها على عهده مدرسة جامعة ومدارس دينية وخزائن كتب وربما كانت طرابلس قبيل استيلاء الصليبيين عليها أول بلدة علمية فى الشام » .

ومن غرائب أحــكام (لامنس) قوله : ان دور الأكراد الأيوبيين كان قليل البهاء ، وما ندرى لعمر الحق أى بهاء أعظم من كون صــلاح الدين وأسرته يدفعون عادية أعدائهم من الصليبيين على قلة عددهم وأسبابهم ثم تروج العلوم والمعــارف فى أيامهم حتى أنشــئت فى عهدهم معظم الجوامع والمدارس ودور القرآن والحديث والفقه والطب والهندسة الخ .

ومما قاله (لامنس) عند كلامه على الأحزاب التى نشأت فى الشام انهــا لم تلبث أن أصــيبت بالخلاف والمناقشات الشخصية وهو الارث الذى أورثهــا اياه ظلم ثلاثة عشر قرنا . أى أن المــؤرخ لا يعترف بأنه قامت للعدل سوق فى هذه الديار منذ فتحها العرب ونسى أو تناسى على الأقل عهد الرشيد والمأمون ونور الدين وصلاح الدين فقبح الأب لامنس الكل بقوله ، وكنا نود لو خص فى كتابه بضع صفحات بيضــاء فى عدل الروم والرومان فى الشام لنرى الفرق بين السابقين واللاحقين بيد أنه صور العرب انهم سالبة كلية فى هذا القطر وفى غيره ، لا مدنيــة ولا صناعة ولا عــدل ولا نظام وهو لا ينطبق مع ألوف من الشواهد ويكفى بأن نذكره يقول ســيديو فى تاريخ العرب « لا يســع أحدا أن يفكر أن الخلفاء كانوا الى القرن التاسع للميلاد سادة مملــكة عظيمة زاهرة وعجيبة بازهارها ، وأن ملوك بغــداد كانوا يبعثون بالســفارات والهــدايا الى الامبراطور شارلمان والى امبراطور الصــين ، وأنهم كانوا مثال العظمة الحقيقية بما أنشأوه من معاهدهم الرشــيدة ، وما بذلوه من الأخذ بأيدى العلوم ، وأن المدارس التى أنشئت فى واسع ممالــكهم كانت تجدد انارة مصــباح المدنية من أقصى الشرق الى أعمدة هركول تاركة فى كل مكان مصانع مدهشة من آثار الصناعة العربية ومؤازرة على تجديد دم العالم القديم » .

وأصرح من ذلك ما قاله رينان : لم تنج أوربا البتة من العمل العام الذى أثرته اللغة العربية ومعلوم مقدار الكلمات فى كل المطالب التى أخذها الأسبانيون والبرتغاليون من لغــة جيرانهم المسلمين ، وفى اللغــات الرومانيــة الأخرى ، عدد كبير من الكلمات العربية ، وكلها تعبر الا قليلا عن أمور علميــة أو أعمال صناعية وتؤكد مبلــغ انحطاط الشعوب النصرانية فى القــرون الوسطى عــن المسلمين فى العلم والصناعة » .

وقد أفاض المؤلف فى تاريخ لبنان حتى كاد يصبح تاريخيا لهذا الجيل ، والكلام على سائر أقاليم الشام جاء عرضا ، مع أن الوقائع المهمة فى تاريخ البــلاد وقعت فى دمشق وحلب والقدس وحمص وغيرها من الحواضر أكثر من قرى لبنان مثال ذلك : أنه ذكر « فخر الدين المعنى » بتطــويل لم يبلغ شــأن بعض بعضــه صــلاح الدين « الأيوبى » ولم يذكر المؤلف فى المدارس التى نهضت بالبــلاد الا مدارس اليسوعيين ومدرســة الدومنيكيين العالية فى القدس ، والانصاف يقضى بأن يذكر المدارس الأخرى التى كان لهــا شأن فهم فى انهاض البلاد مثــل المدارس الوطنية فى بيروت ولبنان ودمشق وغيرها .

وان من واجب المــؤرخ أن يتجرد عن عــواطفه الخاصة فأما أن يذكر العاملين أيا كانوا أو يتخلى عنهم جميعــا .

* * *

(رابعــــــا)

عرض « كرد على » لمنهج الاب لامنس فى البحث :

قال : أنه عاهد تاريخ الاســـلام على مناقضـــته وتمحض للحط من قدر العرب ، ونشر أخطائه وأكاذيبه فى دائرة المعارف الاسلامية ، ومن عمله تحـــريف آيات القرآن ، وحـــذف مالا يروقه من كتب المسلمين وخلط الآيات القرآنية بأبيات من الشعر ، ويجعل الأحاديث النبوية من كلام بعضهم ، ومن ذلك اقتطاع جملة واحدة من نص طويل وإيراد الخـــرافات المنقـــولة مـــن كتب الوضاعـــين والقصاصين ، مدعين أنها منقولة من كتب الثقـــات الاثبـــات .

وقال كرد على أن « لامنس »الف تاريخا مختصرا للشام لم يذكر فيه للاسلام ولا للعرب محمدة من ثلاثة عشر قرنا ونصف قـــرن . ووصف العـــربى بأنه ليس شجاعا وانه على استعداد للنهب . كما تمدح الصليبيين وهم بشهادة المؤرخين — من أهل الخبث والفجـــور ، وادعى أن الصليبيين عاملوا الأهالى فىالحروب الصليبية معاملة حسنة .

وفى تقدير الباحثين أن لامنس أضعف من شأن أكثر مؤرخى العـــرب أمثال الطبرى والبلاذرى وابن ســعـــد والأصفهانى وابن الاثير وابن خلدون وأبى الفداء ، ووثق بعض القصاص الوضاع ، وقد ذكر أميل درمنجم وهو من كتاب الغرب الأب لامنس باللوم ، وقال ان كتبه قد شـــوهت محاسنها بما بدأ فى تضاعيفها من كراهيـــة الاسلام ورسوله وأنه استعمل فى التاريخ طـــرقا بالغ فيها بالنقد » .

* * *

(خامسا)

عدد « كرد على » أخطاء لامنس فى كتابه الاسلام والحضارة العربية .

لقد نسى لامنس وبعض جماعـــة أمـــورا كان من الحرى بكل مشتغل بالعلم أن يجعلها تيـــد نظره ، هى أمانة العلم فأخذوا منذ ألقوا حالهم فى الشرق ، يحرفون آيات القرآن ويحرفون من كتب المسلمين مالا يروقها ، ويخلطون الآيات بأبيات من الشعر وما تحوجوا تطرهن انقطاع جملة واحـــدة من نص طـــويل ، ليبنوا عليهـــا ما يتخيلونه نافعا لغرضهم ، يوردون الخرافات المنقولة بصيغ التضعيف فى كتب الوضاعين والقصاصين ويدعون أنها منقولة من كتب الثقات الأثبات .

* * *

وقد ادعى لامنس ان العرب لا قابلية فيها لشىء من مشخصات المدينة ، وينقصه فى ذلك شواهد لتاريخ فقد علموا العـــالم القديم ونلوا اليه ما لم يعرفه وهم يتهمون صلاح الدين بأنه لم يبق على الصليبيين الا خوفا منهم وعجـــــزا عن التنـــكيل بها انمـــا كان ذلك من صلاح الدين سياسة منه اقتضاها دينه وبعد نظره .

* * *

(سادسا)

وكتب كرد على معلقا على آراءه فى مبحثه عن مادة عن « الشام » الوادة فى دائرة المعارف الاسلامية فقال : ان بحث الأب لامنس عن الشام قد وقعت فيه هنـــات لا يصح الأعضاء عنها ، فمنها فى فتح الشام أن الأعراب بعد الردة وقيام ابى بكر الصديق تألفوا عصابات عملا باشارة الرسول او بعثه غزو بلاد دخلت من حماتها .. الخ .. ومعنى هذا ان مبدأ الفتح كان بعصـــابات على عهد ابى بكر ، مع ان جميع كتب التاريخ مجمعة على ان صاحب الرسالة انفذ فى حياته الشريفة خمس غزوات الى الشام وهى (دوم الجندل . مؤته . ذات السلاسل .. بتول ، آبل الزيت) وفى عهـــــد الخليفة الأولى ارسلت الجيوش تباعا دراكا بقيادة جلة من الصحابة منهم خالد بن الوليد وكانت وقعة اليرموك هى الموقعة الفاصلة ، ولم يكن جيش العرب اقل من ٣٥ الفا وجيش الروم ٢٠٠ الف انجـــد مرات . واراد الأب لامنس ان يصغر من شأن هذا الفتح فنسبة إلى عصابات مع انه كانت حـــربهم حربا منظمـــة ولم يترك الروم فى قوس المقاومة منزعا وما كان يقصد من الفتح الغزو والغنائم فقط كما قال .

وقال لامنس « ان الحركة العقلية كانت فى العصر الأموى قاصرة على الشعر وفى رأسها الشاعر التغلبى الأخطل النصرانى ، والخليفـــان يزيد الأول والوليـــد الثـــانى مع ان شـــعراء الأمويين عـــدوا بالعشرات ، والحقيقة أن الحركة العقلية لم تكن أدبية فقط فان خالد ابن يزيد الأموى فى دمشق أمر بأن يترجم له كتب الطب والنجوم والكيمياء وجلب فلاسفة من مصر والروم واغدق عليهم الأموال لذلك ، وأنشأ أول خزانة للكتب فى دمشق بل فى بلاد الاسلام ، ثم جاء عمر بن عبد العزيز فأمر ان تترجم الكتب فالحركة اذن لم تكن أدبية صرفة .

* * *

٣ — وقال انه كان فى دمشـــق معمل للورق فى القرن العـــاشر للميلاد مع أن معـــامل الورق كانت فى دمشق وطبرية وطرابلس وحماة وحلب ومنبج منذ أواخر القرن الثـــامن ، وتدل القرائن على أن الوراقة كانت معروفة فى الشام فى أوائل الاسلام .

* * *

اخطاء الأب لامنس فى السيرة

ونقد العلامة : أنيان دينية فى كتـــابه (الشرق فى نظر الغرب) أخطاء لامنس فى الســـيرة قال يدل الأب لامنس فى كل تآليفه على ريبة بالأخبـــار الاسلامية تبلغ الى حد الرعب « لا شىء ادعى الى الخوف والحـــذر من سذاجة الأحاديث الخادعة ، وانك لتقع على أسرار فى تلك الاختلافات الاقـــل خطرا فى الظاهـــر) ورأيه أن السيرة من أولها ليســـت الا مجموعة خدع وتلفيقات ، واذا كان الأمر كذلك فعلام لا يطرح الأخبار والأحاديث الاسلامية جملة ؟ لكنه لو فعل فعلى أى أساس يبنى المصنف تصنيفه ، لقد نهج الأب لامنس نهجـــا لا تحتاج المخيـــلة فيه الى كبير جهد : كلمـــا ذكرت الأحاديث أو الأخبار ، خلة حسنة ممدوحة فى محمد وصحابته رأيته يؤكد أنهم كانوا مصابين بالعيوب المناقضة لتلك الخلال وبكلمة موجزة نقول أن طريقة الأب لامنس تقوم على عكس المنقول عكسا مطردا . ولا يعدل الأب لامنس عن هذا الأسلوب الا حينما يجد اسلوبا أشد مكرا فى سوق الخبر الى معانى السوء .

مثلا : فى الخبر أن محمـــدا لقب بالأمين وأنه كان لا يفر من المخاطر ، وأنه كان يتهجد ويصوم طويلا وقد يقضى ثلث الليل فى الصلوات ، فمثله لنا لامنس فى قوله أنه رجل غير أمين . قليل الشـــجاعة ، أكول ونؤوم (كتابه : هل كان محمد صادقا) .

والأسلوب « العكس » هـــذا شأن وحرمه عنـــد بعض المؤرخين الذين عرف عنهم التجرد من كل تقليد دينى ، وأحر بالنتائج التى يجنيها هذا الأسلوب أن تكون مدعاة للسخرية وليس يجرؤ المســـتشرقون على انكار حقيقة النبى ولـــكنهم سينتهون الى ذلك ، فانهم بدأوا بتجريده من اسمه زاعمين أنه لم يدع محمدا قط ، وأن حقيقة اسمه ســـتظل من الألغاز التى لا حل لهـــا ، وحجتهم أن كلمة محمد نعت ذو معنى خاص .

وقد وصـــف لامنس النبى بأنه ساعى البريد ، مهمته مقصورة على البلاغ أو حمل الرسالة الى محـــل الاقامة ، ووصفه بأنه أسلم نفسه للتمتع بلذات العيش وأنه مصروع ، وأن الافراط قد حطم عزيمته . بهـــذا الأسلوب كتب كل مؤلفاته ، بل كتب بعضـــها بأسلوب ابعد ايضـــا عن اللباقة ، وليس يجرى قلمه بألفـــاظ اللطف والتأديب الا مع خصوم النبى وأعداء الاســـلام وينسج الأب لامنس على هذا النوال من التعصب كلما نعرض للذين أحبهم الرسول أو كرمهم الاسلام فاطمة ، على ، عمر ، وقد أجهد لامنس نفسه فى كتابه (فاطمة) .. ليستنبط من حســـابات غير صحيحة ان فاطمة اذ تزوجت كانت متقدمة فى الســـن ، ويستند بهذا على أن فاطمة لم تكن حســـنة الصورة . وهذا رأى (رومى) بلا جدال ، لأن البنات اللواتى لا يبكون الى الزواج فى المجتمع الاســـلامى يغلب أن يكون الســـبب أنه يطلب بيدهن ثمن غال ، أما لجمال بارع أو لذكاء مفرط أو شرف محتد ، اذلك فاذا وفق الأب لامنس الى اقناعنـــا بأن فاطمة لم تتزوج وهى بعد حدثة السن ، فهو يهدى الينا الحجة القاطعة على فضائلها . ولنا أن نستخرج من هذا الخطأ الجوهرى الذى بنى عليه الأب لامنس كتابا برمته حقيقة لا مراء فيها ، وهى أن المستشرق العلامة ليس يحـــكم على عادات العرب وليس يصـــف احوالهم الا بالقياس على عادات مشارقة النصـــارى الذين يعيش بين ظهرانيهم وبين هؤلاء وأولئك بون كبير .

ووصف لامنس فاطمة بأنهـــا كانت بكاءة هزيلة بليدة الفهم ، وأن عليا كان قبيح الشكل ومن حيث الفكر محدودا ، أما عمر فكان حينئذ مســـكينا أدنى مرتبة من الوسط .

يرى القارىء أن هذا كله من قبيل خطه «العكس» التى يجرى عليهـــا الأب لامنس سواء فى الـــكلام على أصدقاء الرسول ، أما أعداء الاسلام فانه يثأر لهم بأن يذكرهم بالخير العميم ، هؤلاء من خصوم الاسلام يحدثنا عنهم الأب لامنس بغير اللهجة الأولى ، بل أنه يشـــيد بذكرهم ، بالغة منه الحماسة حدا .

ويرفق الأب لامنس تصنيفه باسناد ضخم ، غير أن انتفاعه بعلمه لا يلتئم مع روح الانصاف الهـــادىء المدقق الذى يتصف به العلماء الحقيقيون مثلا ، بلغنـــا من الأخبار عن زهد النبى وتقشـــفه وأنه لم يخرج من

الدنيا ولم يشبع من خبز الشـــعير ، ولكن الأب لامنس يضرب بهذه الأخبـــار ، ولا يسلم قط بزهد مؤســـس الاسلام وتقشفه ، فاذا عثر خلال مطالعاته الجمة بخبر مفرد رواه ابن حنبل وفيه أن محمدا اكل في مادبة أدبها له الانصار كتفي ضأن غلب عليه الفرح الشديد وبادر الى وصف الرسول بأنه رجل اكول ، قائلا ان النبي كان قادرا على التهام ثلاثة من أفخاذ الضأن .

فاذا لم يعثر الأب لامنس رغم الابحـــاث الطويلة بخبر واحد معرفة فى وجوه غاياته استغنى عنه وثبت على مزاعمه الباطلة . مثلا ، لمحمد من زوجه خديجة ثلاثة ذكور وأربع اناث . ومع ذلك ينكر الأب لامنس ان محمد عقب ولدا ذكرا ، ومن التناقض أنه لا يفتأ يدعو النبي بلقبه « ابى القاسم » على حين انه ينكر وجود القاسم هذا انكارا جازما .

* * *

ان الأمثلة على هذا الاسلوب الغريب فى كتب هذا المستشرق كثيرة لا تكاد تحصيها ، ومن شأنها أن تظهر لنا خلو تصنيفه من روح العـــلم رغم غزارة الأسانيد ، ومما يسترعى اليه الأذهان هو أن هـــذه الاستشهادات الكثيرة لايريد بها فى الغالب الا اثبات أشياء تافهة جدا ، بل ان الأب لامنـــس لا يحجم فى درك غاياته عن تأويل بعض الألفاظ العربية تأويلا غير صحيح البتة .

وليس من دليل لغوى يجد له أن يترجم لفظ الردة مثلا بما معناه (الانفصال) أو لفظ المنافقين بما معناه « المشككون الفاترون » وقد انعم الأب لامنس على هذه الألفاظ بمعان لم تكن لهـــا ولن تكون سواء فى العربية الفصحى أو لهجاتها العامية ، يستنتج استنتاجات فيها كثير من التعرض ، محاولات بذلك تكريم المنافقين الذين كانوا يغدرون بالنبى ويمكرون به مقدما اياهم على أنهم ابطال القومية العربية .

اما العرب الذين اعتنقوا الاســـلام فالأب لامنس يبدى لهم من العداء بقدر ما يبدى لنبيهم الذى أوحى اليه بهـــذا الكتاب . وقد يضيف الأب لامنس وجوه أخرى كثيرة كلها حرية بالنقد والتمحيص ، منها انشاؤه الذى ملأه تعبيرات جديدة غريبة تمسخ فى شكل مضحك جميع الأخبار عن الحياة العربية . من هذه الألفاظ ، الحملة الصـــحافية ، الماليون ، مصرف مكة ، مليار النقـــابة القرشية ، ابلاغ الرسالة الى محل الاقامة ، ديوان ذى الجلال أو وزارة الله .. الخ .

وبعد فماذا ينبغى من الأناجيل لو اتبعنا فى درسها طريقة الأب لامنس ، لكنك لن تجد مســـلما يجرؤ على مثل ذلك المسخ أو التشويه لصورة يسوع الجليلة التى يحترمها أتباع النبى العربى العظيم احتراما كبيرا ، بل لن تجد مسلما يتسامح فى شىء من هذا القبيل ، وعلى هذا فنحن نضن بأنفسنا عن مقابلته بمثل سلاحه اتقاءا منه وتؤثر العمل بآلايه « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن » . وقد كشف الأب لامنس فى كثير من أبحـــاثه ذلك الاتجاه الواضح لتعصبه وانحرافه حتى أنه أبدى اعجـــابا كبيرا فى مقال له (نظره فى حاضر الاســـلام) نشره فى المشرق سنة ١٩٣٥ لمـــا بلغ اليه الأمر من أن التعليم القرآنى فى تأخر مستمر مطرد فى البلاد الاسلامية المستقلة ، وان تطور التعليم الرسمى فى المعاهد العالية والثانوية يتحرر شيئا فشيئا من تأثير الدين حتى يصبح لا دينيا محضا ، وأن دعاة التطور قـــد مدوا أصابعهم داخل الجامع الأزهر . والزيتونة ، وأشاروا الى أن ذلك سيؤدى الى اضطراب الشبيبة الاسلامية فى مبادئهـــا وعقائدها وأن ذلك سيؤدى الى صـــدمة قوية يعانيها الاسلام .

* * *

(١٣)
لويس شنجو

يعد لويس شنجو من اقسى المستشرقين على الاسلام والفكر الاسلامى وفى مجلة المشرق التىأصدرها ربع قرن حملات متصلة واثارة مستمرة للشبهات ، وفى مجال دراساته الأدبية لا ينسى خصومته وتعصبه ففى عشرات المجالات والأبحاث يتناول الاسلام والفكر الاسلامى على نحو لا يشرف العالم أو الباحث .

ومن ابرز آثاره رسالة أسماها (خرافات القرآن) ترجمها زويمر عام ١٩١٤ وانتفع بها فى دعاة التبشير فى مصر والبلاد العربية فى الطعن على الاسلام ونشرها فى مجلة العالم الاسلامى .

ولويس شيخو قس يسوعى ولد بماردين وتعلم بمدرسة الآباء اليسوعين فى غزير بلبنان وانتظم فى سلك الرهبانية اليسوعية وتنقل فى بلاد أوربا والشرق ، وقد عهد اليه بتعليم الآداب العربية فى جامعة القديس يوسف وانشأ مجلة المشرق (١٨٩٨) وتوفى فى بيروت (١٨٥٩ — ١٩١٧) وله مؤلفات متعددة أهمها شعراء النصرانية .

وقد وجه اليه النقد من زملائه المستشرقين لتعصبه ومما ذكره أميل درمنجم عنه قوله : « وشيخو مثل لامنس ، لم يأل جهدا فى اثبات دعواه أن العرب قبل الاسلام وبعده لا شأن لهم فى المدنية واذ كان هناك حضارة فان أصحابها هم العرب ، وقد لفق كتابا ادعى فيه أن معظم شعراء العرب قبل الاسلام كانوا نصارى وبراهينه على دعواه واهية » .

وقال كرد على : ان لويس شيخو كاتب معظم مقالات مجلته مدة خمس وعشر سنة ونشر فيها أولا أمهات تأليفه وراعى فى كتبه نظام رهبانيته فجاءت كتاباته الا قليلا أشبه بكتب الدعايات المذهبية ، منها بكتب علمية مشتركة ، وماخالف قط طريقته الدينية الى ما يسمونه الطريقة العلمانية ، ولو خلت من هذه النزعة لكانت فى الغاية من جودة التأليف .

* * *

ولم يرزق ذوقا عاليا فى الأدب العربى ، وظلت كتاباته الى آخر ايامه كما كانت فى اول عهده نمطا واحدا لا تتناسب مع مقدرته على التأليف ووقوفه على ادب العرب والافرنج وعلوم العصر ، وهكذا يقال فى ذوقه فى الشعر ، وقضت عليه الصنعة أو البيئة على ما يظهر أن يغمط حق العرب فى مدنيتهم ، وكان فى الأغلب ينظر اليها من الوجه الذى لا يستحسن ، لذا يعد شعوبيا وشديد الشعوبية بأفكاره وتصريحاته لا صلة بينه وبين العرب الا بما نشره من آثار علمهم وآخر اثر له من هذا القبيل انه ذكر جملة من ادباء المسلمين — وهو مولع فى التفريق بين المسلمين والمسيحيين — فى الربع الأول من القرن العشرين لم يتجاوز فى عدهم العشرات فى البلاد العربية ، مع أن من وضعوا المصنفات والتآليف ولهم مكانة فى الشعر والأدب لعهدنا لا يقلون عن ثلاثمائة رجل ، اعتذر بجهله أسماءهم مع أن من اشتهرت بين قراء العرب مصنفاتهم وفيها الممتع لا يصعب السؤال عنهم ويستغرب أن لا يطلع مثله على أعمالهم .

* * *

(١٤)
لويس برتران

اصـــدر الكاتب الفرنسى لويس برتران عضـــو الأكاديمية الفرنســـية عام ١٩٢٦ كتـــابا بعنوان « امام الاسلام » تناول فيه المصريين والشرقيين والمســـلمين بالهجو واتهمهم بالتأخر ، والتعصب ، وقال انه لا قابلية لهم للتمدن ، وردد العبـــارات المعروفة التى تدعى أن للغرب حق تمدين العالم .

وقد واجه الدكتور هيكل هذا الكتاب وما تضمنه من آراء فقـــال انه « أشد ما ظهر فى الســـنين الأخيرة صراحة فى عدوانه على المسلمين والمصريين وأشـــدها امعـــانا فى الطعن عليهم والنيل منهم ، وهو فوق ذلك صـــيحة لاعلان الحرب بين الشرق والغرب والنصرانية والاسلامية والكتاب لا يشتمل على شىء جديد غير هذه النزعة الرجعية التى ادت الى الحروب الصـــليبية فى القرون الوسطى » .

وقال : ان برتران واحد من اربعين بيدهم قيـــادة الراى والفكر فى فرنسا ، وقد حمل على أهل الاسكندرية لأنه رآهم يبدو عليهم الاعتداد بالنفس والاعتقاد بأنهم مسايرون للأوربى ، وقال : هـــذه هى الجريمة فى نظر برتران .

* * *

وكتابه هو عصـــارة روح الكراهية والحنق ، ثم قال : اذا كان مسيو برتران يريد أن يعتقد أن قومه اكرم عنصرا وأشرف مقاما فى الانســـانية من الشرقيين ومن المســـلمين ، فليعلم أن الزمن الذى أتاح لأوربا أن تحكم العـــالم ردحا من الزمن ، قد أتاح من قبل لأمم آســـيا ولأمم افريقيا ومصر التى نالها المؤلف بحقده وكراهيته أن حكمت العالم عصورا عديدة ، وقد صبغت العـــالم بمدنيتها ، ولعل أهلها يومئذ كانوا يعتقدون أن الأجناس التى تقطن أوربا كلها همج وبرابره متوحشون وأن أمم الاسلام قد نظرت لأمم أوربا ردحا من الزمن على أنهـــا أمم الموت والتقهقر .

* * *

(١٥)

وليم ديلكوكس : الدعوة إلى العامية

فى يناير ١٨٩٣ ألقى المهندس الانجليزى وليم ويلكوكس محاضرة فى نادى الأزبكية (انجلوا اجيشيان كلوب) موضوعها : لماذا لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن ؟ زعم فيها أن قوة الاختراع تأتى من القوة المفكرة ويرثها الانسان من آبائه والقوة الخيالية ويرثها الإنسان من الأمهات . وقال أن أهم عائق يمنع المصريين من الاختراع انهم يؤلفون ويكتبون باللغة العربية الفصحى ، ولو ألفوا وكتبوا باللغة العامية لصاروا مخترعين ، واستدل على ذلك بأن الانجليز كانوا يؤلفون باللاتينية فلم يكونوا مخترعين ، فلما اختاروا لغة الفلاحين الانجليز ، وكتبوا بها صاروا مخترعين ويرجع ذلك الى الزمن الذى نبغ فيه شكسبير وبيكون ... ».

ولم يتوقف ولكوكس عن هذا الحد ، بل اشترى ترخيص مجلة اسمها الأزهر من منشئيها ابراهيم مصطفى وحسين رفقى ، واصدرها بالاستعانة بالشيخ احمد الأزهرى وراح يردد فيها هذه الدعوة .

ومضى فاتجه الى الانجيل فترجمه الى اللغة العامية ، ثم ما كاد يحال الى المعاش وكان من أكبر مهندسى الرى والخزانات حتى عمل مبشرا ، يجادل الناس فى عقائدهم ، ويحمل الى القرى النائية الأدوية والتبشير ، وظل يعمل فى مستشفى مصر العتيقة (هرمل) المعروف ابان حملات التبشير التى أثارت الرأى العام .

وقد كتبت مجلة الطائف عنه أنه اعتكف سنة ١٩٢٦ فى داره بحلوان وخرج منه أخيرا مبشرا بجيد اللغة العربية وبدأ حركة التبشير فى مسكنه الحالى الصغير فى جهة الزمالك حيث وضع كتابين او ثلاثة كتبها باللغة العامية وأطلق على آخرها اسم «الأكل والايمان» ووزع كتبه بنفسه مجانا على العامة فى المدن وسكان القرى وكان ينتقل بينها ويجالس أهلها .

وقد ردد سلامه موسى فى مجلة الهلال دعوة ويلكوكس الى العامية وتحدث معه ، وقال : أن الهم الذى يقلق ويلكوكس هو اللغة التى نكتبها فهو يرغب فى أن نهجرها ونعود الى لغتنا العامية فنؤلف بها وندون بها آدابنا وعلومنا وأن ويلكوكس يرفض التسوية أى قيام لغة مشتركة من العامة والفصحى — ويدعونا الى هجرة اللغة الفصحى هجرة تامة واصطناع العامية .

وقد نشر سلامة موسى ذلك عام ١٩٢٦ أى أن ويلكوكس ظل مقيما على دعوته اكثر من ثلاثين عاما .

ولما توفى فى يوليو ١٩٣٢ أشارت جريدة الأهرام الى دوره هذا فقالت : كان يقوم باستخدام اللغة العامية لأنها أقرب الى الافهام وانه أنشأ لاذاعة هذه الفكرة بمعاونة سكرتيره احمد بك الأزهرى مجلة باسم مجلة الأزهر ولكن الرأى العام قاوم فكرته فأبطل تلك المجلة ولكنه ظل هو ذاته يؤلف باللغة العامية المصرية فكتب فى ذلك حياة المسيح وأعمال الرسل وترجم كتب العهد الجديد الى اللغة العامية المصرية .

***

(١٦)
فنسنك : دائرة المعارف

يعد فنسنك من أبرز المستشرقين وقد ولى تحرير القسم الاكبر من دائرة المعارف الاسلامية . وهو تلميذ « سنوك هيجرونية » سافر قبل الحرب الأولى الى جاوه واعتنق الاسلام ، وما كاد يعود الى بلاده بعد الحرب الأولى حتى ارتد عن الاسلام ومضى يهاجمه فى عنف واخذ طريق مرجليوث ونيكلسون ، والأب لامنس ودى كاسترى وكازنوف .

وقد رشح عام ١٩٣٣ عضوا فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة غير أن الدكتور حسين الهراوى تصدى لكشف مواقفة من الاسلام مما عمل على شطب اسمه واقصائه .

***

وقد اشار الدكتور الهراوى الى أن فنسنك اذا اراد أن ينال من الاسلام فانه يفرض فرضا ثم يبحث عن الآيات التى قد تتناسب مع هذا الرأى الذى فرضه ، فاذا وجد آية تدحض رأيه حذفها ، وانكرها انكارا حتى يخرج بالنتيجة الى تزرع الشك فى فؤاد من يطلع على اقواله من غير تمحيص ، وقال أن هذه هى طريقة المستشرقين الذين يتبعونها فى مباحثهم عن الاسلام أو حياة محمد صلى الله عليه وسلم أو عندما يريدون أن يستقصوا مسألة فى القرآن ، وهذه الطريقة لم يبتدعها فنسنك بل هى طريقة قديمة من اقدم ما ورد فى كتب المستشرقين ، والغرض منها ظاهر جلى ، وهو تزويد جماعة المبشرين والمستعمرين بحجج شبه منطقية يزعزعون بها عقائد المسلم ويوغلون من تمسكهم بدينهم وهى احدى الطرق التى وضعها رواد الاستعمار من زمن قديم ، وكانت احدى وسائلهم مع تقوية اللغات العامية حتى لا يتفاهم المسلمون ولا يفهمون لغة قرآنهم ، وقديما اطلعنا على تقرير لجنة العمل المغربى ، وفيه يقول المستشرق سيكاردا « ان الاسلام فى روحه الخاص قوة مخالفة لاحتياجاتنا ورغباتنا ونزعاتنا » الى أن قال ، « فمن مصلحتنا التقليل منه بين الشعوب الخاضعة لسلطتنا » .

وفى تقرير بورينو الذى يدرس اللغة العربية لفريق من طلبة أوربا :

اننى سأعلمك لغة القرآن ، فهذه اللغة قد ماتت ولا يتكلم بها أحد فهى « لاتينية » العربى ، وهذه اللغة المستعملة فى جنة محمد وسأحبب اليك دراستها فى المستقبل اذا اردت أن تتذوق حلاوة الاجتماع بالحور العين » فأمثال هذه المبادىء هى التى رسمها المستشرقون لدراسة اللغة العربية ، واكثر من ذلك أن بعضهم مثل مرجليوث يغالى فى الطعن فى نسب «محمد» فيقول ان اسم أبيه (عبد الله) معناه أنه (مجهول الأب) وتتمثل لك نتيجة عمل المستشرقين جليا فى كل كتاب علمى او عمرانى او اجتماعى ، يكتب شيئا عن الشرق وعن الاسلام ، فانك لا تكاد تقرأ اى هذه الكتب حتى ترى اجماعا على الجهل بالاسلام ، واجماعا على الطعن فى النبى الكريم ، وقد أنتج ذلك أن بعض المسلمين الذين لم يلموا الماما كافيا بدينهم اخذوا يتبعون خطى المستشرقين ويقتفون أثرهم وقد اخترعوا لنا اسما غريبا لهذه الجهالة هو « حرية الفكر » .

بمثل تلك النواحى اصبحنا لا نقرأ للمستشرقين شيئا الا ونحن نحرص على تفكيرنا وأن نعنى بتعرف الغرض الذى يرمى اليه قبل أن نثق بما يكتب ، وأن نقتفى أثره فيما يبحث وفى مستنداته » .

وقال الدكتور الهراوى أن من أخطر آراء فنسنك رأيه فى كلمة ابراهيم ، ورأيه فى كلمة كعبة (فى دائرة المعارف الاسلامية) .

فقد أشار تحت لفظ ابراهيم : ان الآيات المكية ليس فيها ذكر لنسب اسماعيل لابراهيم ، ويقول أنه لا يعرف شيئا عن شعور محمد نحو الكعبة فى شبابه وبعد الرسالة الا بعد أن هاجر بعام ونصف ، وأن ما لديه من تاريخ حياته لا يصح أن يؤخذ أساسا تاريخيا .

ونسب (فنسنك) الى النبى (محمد) أنه لم يشد عن الجماعة فى العبارة المكية ، اى بعبارة أصرح ، أنه كان وثنيا قبل البعثة وان فنسنك لا يعرف شعور محمد نحو الكعبة ، ويرد الدكتور الهراوى على هذه الشبهة فيقول أن عبادة محمد كما وردت فى كتب السيرة معروفة تماما فقد كان يتحنث فى الغار شهرا ، ثم يطوف بالكعبة ويوزع الصدقات وكان يحترم الكعبة ويتجنب الأصنام وكانت عبادته بالغريزة والوراثة تتصل بعبادة جده الأعلى ابراهيم .

ومما أورده الدكتور الهراوى ردا على رأى فنسنك القائل : بأن الآيات المكية ليس فيها اشارة الى علاقة محمد بالكعبة « قال اننا نذكره بالآية « اذا قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا » الى قوله « ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم » وقال : هلا يفهم فنسنك ان الحج هو استجابة لهذا الدعاء ان لم يكن بناء البيت فى هذا المكان لغرض الحج .

* * *

وفنسنك يعرض بالاختراع فى الدين ويصرح بأن ملة ابراهيم اخترعت ، ويزعم أن محمدا أراد بهذا الاختراع أن يتصل بيهودية ابراهيم والواقع أنه : « ما كان ابراهيم يهوديا ولانصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما»

وأشار الدكتور الهراوى الى أن لفنسنك زميلهواميل درمنجم يزعم أن محمدا كان يتعبد على طريقة اليهودية والمسيحية تمهيدا لدين هو الاسلام ومثله مرجليوث ، ويقول الهراوى : فأنت ترى أنهم اختلفوا فى أسانيدهم التاريخية واتفقوا على أن محمدا كان يخدع ويدس ويطلب علاقات اليهود .

وقد واجهت دائرة المعارف منذ بدأت ترجمتها عام ١٩٣٢ كثيرا من النقد ، لما تضمنته من شبهات واتهامات تناولتها أقلام « رشيد رضا » صاحب المنار و « كرد على » رئيس المجمع العلمى العربى واحد أقطاب دراسات دوائر الاستشراق ، « وفريد وجدى » ، كما تناولها الدكتور « تقى الدين الهلالى » الباحث المغربى المسلم الذى قال : أن دوائر المعارف الاسلامية أخطاء ودسائس ناشئة عن التعصب الأوربى ، وقال أن فى كتابات بروكلمان مثل ذلك وأقبح .

وقد أشار كثير من الباحثين أن أغلب كتاب دائرة المعارف قسس مبشرون يهمهم أن يختفوا الاسلام لا ينصفوه ، وقليل منهم من يتصف بالشجاعة العلمية فيتغلب على عناصر التعصب وضيق الأفق ، وليس كتاب الدائرة وحدهم على هذا النمط ، بل جل المشتغلين بالدراسات الاسلامية وهم لا يتجاوزون صناعة التبشير تعرفهم من لحن القول . ومن هؤلاء توماس باترك هيور صاحب قاموس الاسلام ، وهو مرجع متداول لا تكاد تخلو منه مكتبة أوربية ، وقد قضى القس المؤلف فى وظيفته التبشيرية فى بلاد الهنديين المسلمين والبوذيين والبرهميين أكثر من عشرين سنة ، ونشر معجمة هداية للموظفين الانجليزممن كانوا يتولون الحكم ببلاد الانجليز فى أواخر القرن الماضى ومساعدة للمبشرين بالمسيحية ممن يجادلون علماء الاسلام . وأشار الباحثون الى أن أهم نواحى الخطر فى هذه الدائرة أن ما يترجم منها لا يتعرض بالتحليل والايضاح لما فيها من أخطاء وشبهات . وأنها تسطر البدع الدخيلة على الاسلام باستفاضة مثيرة . وقد أمعن مؤلفوا الدائرة فى تسجيلها وشرحها وكأنها أصول مقررة لا بدع دخيلة .

* * *

١ ــ اخطاء دائرة المعارف الاسلامية : رشيد رضا

هو معجم لفئة طائفة من علماء الافرنج المستشرقين لخدمة ملتهم ودولتهم المستعمرة لبلاد المسلمين بهدم معاقل الاسلام وحصونه بعد ان عجز عن ذلك دعاة دينهم بالطعن الصريح على كتاب الله ورسوله وبعد ان عجز عن ذلك الذين حرفوا القرآن بترجماته الباطلة ، والذين شوهوا تاريخ الاسلام بمفترياتهم ، ذلك بأن هؤلاء الملفقين لهذا المعجم الذى سموه دائرة المعارف لم يتركوا شيئا من عقائد الاسلام ولا من فضائله ، ولا من الشريعة ولا من مناقب رجاله الا وصوروه لقراء معجمهم بما يخالف الصورة الصحيحة من بعض الوجوه اما بصورة مشوهة او بصورة عادية لا مزية لها .

وفى هذه الدائرة عيوب علمية وتاريخية اخرى اهمها انها لم تكتب لتحقيق المسائل التاريخية والعلمية لذاتها بل لأجل بيان آرائهم وأهوائهم والأعلام بما سبق لهم ولعلمائهم فيها من بحث وطعن فى كتبهم ورسائلهم المتفرقة . وكان على الذين شرعوا فى ترجمة هذا المعجم وضع حواشى لتصحيح ما فيها من الأغلاط التاريخية والعلمية والدينية وبيان الحق فيما دسوه فيه من عقائدهم وآرائهم الباطلة ، ونو طهذا وذاك بالعلماء الاخصائيين ، وقد ذيل الجزءان الأول والثانى ببعض الحواشى من هذه التصحيحات والانتقادات الا أنها غير كافية فى موضوعها ثم أعرض المترجمون عن ذلك فيما بعد ، وطفقوا ينشرون الأجزاء غفلا من التعليق على مواردها المشوهة للاسلام وتاريخه بعد ان ظننا انهم سيزيدونه استقصاء وتحقيقا . أقول ولا أخشىء لا آثما ولا مخالفا ان نشر هذا المعجم باللغة العربية كما كتبه واضعوه بدون تعليق على ما فيه من الأغلاط والمطاعن ومخالفة الحقائق هو أضر من شر كتب دعاة المبشرين وصحفهم ، لأن هذه كلها لا تخدع احدا من أعلام المسلمين بما فيها من الباطل ، أما هذا المعجم المسمى بدائرة المعارف الاسلامية المعزو اكثر ما نقل فيه الى كتب المسلمين فانه يخدع أكثر القارئين له ممن يعدون من خواص المتعلمين لأنه يقل فيهم من يفرق بين الحق والباطل مما فيه ويقل فيهم من يعلم أن مؤلفى هذه الدائرة من خصوم العرب والاسلام واللغة العربية .

٢ ــ معلمه الاسلام ــ محمد كرد على

كتبت الى صديقى هوتسى الهولندى رئيس تحريرها ان المعلمة فاتها الكثير من رجال الاسلام المتقدمين والمتأخرين ومن هؤلاء من هم أحرياء أن يترجم لهم بأطول مما ترجموا وأن فى بعض المقالات نزعة من التعصب لا يليق ظهورها على صفحات مثل هذا الكتاب كمقالات البلجيكى لامنس والروسى غرانشكوفسكى ومقالات هوارالوتشى الموجزة ايجازا مخلا اليق بها ان يكون فهرسا من أن تنشر فى معلمه يقصد بها التقصى .

وفات هذه المعلمة كثير من رجال الاسلام منهم عبد الحميد الكاتب وأحمد بن يوسف الكاتب وأحمد بن يوسف (ابن الدايه) وعمرو بن مسعده وعبد القادر الجرجانى وعلى بن عبد العزيز وأبو عبد القاسم بن سلام وأبو هلال العسكرى وأبو احمد العسكرى وصالح ابن جناح وابن الحناط الكفيف وابن خاتمة الأندلسى وابن عنين وابن الصيرفى والوهرانى وملك اليمن المؤلف عمر بن يوسف وعمارة بن حمزة وابن طولون الصالحى وابن عبد الهادى وغيرهم .

فاذا عرضت هذه المعلمة على كبار العلماء منذ الآن سدوا بعلمهم بعضها وحذفوا ما كان فيها نابيا عن الحق مغموسا بالتعصب والرعونة واضافوا الى صفحاتها ما اكتشف من آثار العرب ومخطوطاتهم .

٣ ــ راى فريد وجدى فى دائرة المعارف الاسلامية

ان هذه الدائرة تشمل على الشىء الكثير من التهم الباطلة على الاسلام ورسوله ورجالاته الصالحين ولايدفع ببعض هؤلاء المشرفين الى التورط مع هذه الخطة الحربية الا ما يحملونه فى صدورهم من البغضاء لهذا الدين فلا يصح والحالة هذه أن يحمل المترجمون أنفسهم اثم نقل هذه السفاسف الى لغتهم وبأقلامهم ليقرأها الناس فى جميع بلاد المسلمين فالذى أراه أن يمتنعوا عن ترجمة ما يصادفونه من هذه الأباطيل وأن يكتفوا بالاشارة اليه مشفوعة بما يدحضها ويبين فسادها بكل دليل . أليس من البلاء ان يضطر احدنا أن يصف أطهر نساء العالم وهى فى الوقت نفسه أمة فى الدين بالطيش والفجور ، اى فائدة أدبية ترجى من اذاعة هذه الفرية بين المسلمين فى عبارات وقحة يسمح بها لنفسه رجل أجنبى عن الدين . لذلك أرى الأمتناع عن ترجمتها والاشارة عليها بدلا من ترجمتها على غير وجهها وتلطيفها بما يخرجها عن صيغتها التى أراد لها كاتبها . والملاحظ أن مترجمى الدائرة لم يعقبوا على التهم التى وجهها الكاتب الى خاتمة البنيين .

* * *

(١٧)
جلوب الفتوحات العربية الكبرى

عاش (جون جلبرت جلوب) ثلاثين عاما يجوب الصحارى العربية مختلطا بأهلها ، وتعلم اللغة العربية ولا سيما لهجات البدو فأجادها وعاش مع العرب فى خيالهم ، عاد الى بلاده عام ١٩٥٦ وكان قائدا للفيلق العربى فى الأردن وله تاريخ لا يشرف فى مقاومة الوحدة العربية ومهاجمة الاسلام والعروبة ، وقد كتب بحثا فى تاريخ العرب من الزاوية العسكرية . اطلق عليه اسم (الفتوحات العربية الكبري) وقد استمد الكتاب من سيرة ابن هشام وتواريخ الطبرى والبلازرى .

وقد كتب « خيرى حماد » مترجم الكتاب الى اللغة العربية تعليقات ضافية على الأخطاء والانحرافات ورد على الشبهات التى وردت فيه فقال : « ان أهم ما فى الكتاب هى المحاولة البارزة فى كل ناحية من نواحيه للتشويه والتضليل ورسم الصور الزائفة التى تشكك القارىء فى الشخصيات العربية العظيمة ابتداء من النبى صلى الله عليه وسلم وانتهاء بصغار القادة ، عبورا بأبى بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية وخالد وأبى عبيدة وعمرو بن العاص وسعد بن أبى وقاص .

وقال ان المؤلف قد استند فى عملية التشويه على ذكاء نادر ، وعلى روايات ابتكرها من خياله او وجد اثرا منها فى بعض الكتب الصفراء التى وضعها الشعوبيون فى مختلف العصور .

وقال انه اتضح لنا من قراءة الكتاب ، تشيعه لليهود والصهيونية تشيعا كاملا لاشك فيه . وكانت هذه الناحية خفية على الجميع ذلك ان جلوب كان يتظاهر بحب العرب حبا شخصيا قويا جعل الكثيرين ينخدعون به .

فهو يظهر فى كتابه مؤيدا لليهود كل التأكيد وان لم يعلن تأييده هذا صراحة . فهو يروى قصص اجلاء النبى لليهود من يثرب ومن خيبر كبنى النضير وبنى قريظه وبنى قنيقاع ، دون أن يذكر الأسباب التى دفعت النبى الى اتخاذ هذه الخطوات ، ومنها ، نقضهم لعهودهم معه وخياناتهم لاتفاقاتهم ومحاولتهم طعن المسلمين فى ظهورهم ابان غزوة الأحزاب وحصار المدينة او اثناء معركة احد ، على الرغم من وجود اتفاقات معقودة بينهم وبين النبى او سعيهم الى اغتيال الرسول

* تصوير النزاع فى فلسطين على أنه نزاع دينى بين العرب واليهود . وهى الصورة التى ضللت العرب مدة طويلة وخدمت مصالح الاستعمار ومكنته من أن يقيم قاعدته اسرائيل فى قلب الوطن العربى مع أن مشكلة فلسطين مشكلة استعمارية لا طائفية .

* تعبير « الشعوب الناطقة بالعربية » تعبير استعمارى ماكر يقصد منه تجزئة الأمة العربية الواحدة الى مجموعة من الشعوب تشترك فى لغة واحدة .

* ما يقوم من الجزيرة العربية والشمال الأفريقى من فروق أو تباينات فهو يصفها بأنها كبيرة للغاية ، ولكننا لا نرى أنها تزيد بأية حال على الفروق التى تقوم بين أهل اسكوتلنده مثلا وأهل وايلز ، فاللغة واحدة والعادات واحدة تقريبا . والتاريخ واحد الى حد كبير .

* أراد ان يظهر أن كل من اعتنق الاسلام انما كان بدافع الانتهاز والتقرب من الحاكمين والتساوى بهم وهو قول خطأ كل الخطأ اذ لو صح دافع الانتهاز لانقلب المسلمون على دينهم فى البلاد التى خضعت لهذا الاسلام

* محاولة التفرقة بين العرب والبربر فى المغرب العربى ، وهى تفرقة غذاها الاستعمار الفرنسى طيلة وجوده فى المغرب ، اذ حاول أن يجعل من البربر اقلية مميزة .

* يصر جلوب على اخفاء الدور الذى لعبه الشعوبيون وفى مقدمتهم اليهودى عبد الله بن سبأ واتباعه فى المؤامرة ضد الاسلام .

وقد علق الباحث العربى : محمد عبد الغنى حسن على هذه الدراسة فقال : ان جلوب قد حمل على المؤرخين العرب فى تواريخهم واتهمهم بسوء التقدير ، ونسى أن تواريخ اليونان والرومان القديمة فيها كثير من هذا الذى عابه على العرب وقال أن جلوب قصد الى رسم صورة فيها تشكيك وتضليل ورسم الصورة الزائفة التى تشكك فى النبى وقادة الاسلام .

— ١٨ —

جـــولد تسيهر

اثار جولد تســيهر عدة شبهات وشـــكوك حول السنة والفقه والتشريع الاسلامى فقد حاول التشكيك فى قيمـــة الأحاديث النبوية وذلك بالقول بأن الســـنة بدأ تدوينها بعد وفاة النبى بستين عاما ، وقوله فى كتـــاب العقيدة والشريعة أن التوحيد الاســـلامى ينطوى على غموض فى حين أن التثليث واضح فى فهم الألوهية ومن ذلك قوله من أن الشريعة الاسلامية تأثرت بالقـــانون الرومانى فى بداية عهد تكوينها .

وجولد تسيهر مستشرق يهودى ولد ١٨٥٠ وتوفى عام ١٩٢١ ، ودرس فى مدارس اللغات الشرقية ببرلين وليبزج وفينـــا ورحل الى ســـوريا ١٨٧٣ وتتلمذ على الشيخ طاهر الجزائرى ، ونزح الى مصر وتضـــلع فى الدين على شيوخ الأزهر ، وبدأ حيـــاته بالتأليف عن الظاهـــرية ومذهبهم وتاريخهم وله فى ذلك دراســـات اســـلامية ومحاضرات ، وقد اشتهر بكتـــابه (العقيدة والشريعة فى الاســـلام) الذى ترجمته له دار الكاتب المصرى التى أشرف عليها الدكتور طه حسين ، ولم يعن مترجمو هذا الـــكتاب بالرد على الشبهات التى أثارها المستشرق على نحو يعصم قارئها من الخطأ ، وله كتاب « مذهب المسلمين فى تفسير القرآن » .

وقد واجهت كتاباته المتعصبة كثيرا من المجـــاراة من كتـــاب وأساتذة الجامعات المدنية والأزهرية ، كما وجدت تفنيدا من كثير من الكتاب اليقظين فى مقدمتهم : مصطفى الســـباعى ، ومحمد الغـــزالى ، وســـليمان الندوى .

وقد تابع جولد تسيهر كثير من المســـتشرقين فى آرائه المتعصبة فى مقدمتهم المستشرق اليهـــودى شاخت (جامعة ليدن) بهولندا وقد التقى به الدكتور مصـــطفى السباعى وباحثه طويلا فى تعمده تحريف النصوص التى ينقلها من كتب المسلمين وقد حاول شاخت أن ينكر ذلك فكشف له الدكتور السباعى عن بعض الأمثلة فى هـــذا التحريف الذى تورط فيه .

وجولد تسيهر يحاول فى مجمل رأيه أن يصـــور الفقه الاسلامى بأنه من صـــنع الصحابة والتـــابعين ، ولا شك أن أى رأى مصدره الخطأ الناتج عن قصـــور الاستقصاء ، أو العجز عن فهم أصول الاسلام أمرها يســـير ، ويمكن المراجعة فيه والنظر ، اذا كان صاحبه حريصا على بلوغ الحق ، أما حين يكون الاتهام صادرا عن التعصب أو الخصومة المغرقة فان المراجعة لاقيمة لهـــا . واذا كانت عبارات جولد تســـيهر فى مجموعها ترفض صـــلاحية الاســـلام الفقهية لـــكى يشرع للأمم والأجناس ، فليس معنى هذا هو عجز الرجل عن الفهم ، والافان أمامه ذلك الفيض الضخم من ثقافة الاســـلام وهو قادر على أن يرده عن هذا الرأى ، لو كان منصفا ولكنه هو أساس ليس قابلا للوصول عن طريق البحث العلمى الى الحقيقة لأنه يفترض أســـاسا أن القرآن من وضع محمد نقلا عن غيره ، وأن الســـنة من وضع الصـــحابة والتابعين نقلا عن الشريعة الرومانية . ومن هنـــا فهو يســـد الطريق على كل سلامة فى تقدير ، أو بلوغ وجه الصـــدق أو تقبله .

ولقد واجه اخطاء جولد تسيهر عالم غربى منصف هـــو العـــلامة « فتزجيرالد » فى كتاب عنوانه « الدين المزعوم للقانون الرومانى على القانون الاسلامى» فعرض آراء جولد تسيهر ومن جرى مجراه فقال أنه كان مدفوعا فى كتاباته بغرض سياسى خاص هو اظهار أن التشريع الاســـلامى كان قابلا للمؤثرات الغربية ، وقال أنه أذا أخذت فكرة عند شـــعب الى شعب آخر ، ظهر فى لغة وكتابات الشـــعب لآخر أثر لهذه الفكرة . وهذا واضح مثلا فيما أخـــذ عن اليونانى فى القانون الرمانى ، كما هو واضح كذلك فى شريعة «التلمود » اليهـــودية المـــلوءه بالكلمات والمصطلحات اليونانية واللاتينية .

أما فى الاسلام فانه لا يوجد لفظ واحد مستعار من اللغـــة اللاتينية أو اليونانية فى القاموس الضخم للفقه الاســـلامى وتشريعه ، كما لا يوجـــد فى جميع المؤلفات الفقهية الاسلامية أدنى ذكر لمصدر رومانى علمى ، وهذا

ايضا وحــده مما ينفى فكرة كل استعارة من القــانون الرومانى . لذلك كله نرى انه لا داعى مطلقا الافتراض أن مصـــادر هذا التشريع كانت شيئا آخر غير ما قاله الكتاب المسلمون أنفسهم ، القول بغير هذا يعد افتراضا لاحــقيقة له ، وقولا بغير علم ولا دليل ، ومن ثم يجب رفضه وعدم الاعتداد به . والتشريع الاسلامى يختلف أساسا فى طابعه ومقصده عن القانون الرومانى ، هذا القــانون الذى هو من وضع رجال حذقوا لغة القــانون ومصطلحــاته ، أما الشريعة الاســـلامية فهى نظام من المسائل الفقهية الدقيقة ، وقد نظر اليها من حيث علاقة الانسان بالله أولا ، ولهذا تشمل مايسمى به «العبادات» من صلاة وصوم وزكاة وحج ، وغير ذلك ، وحتى عند ما تعالج المسائل المدنية ، كالبيع والرهن مثلا ، نجد فيها أثر الدين واضحا . » ا.هـ

* * *

الكتـاب الرابـع

شـبهات التغريب

جرت محاولات التشكيك واثارة الشبهات فى خمس مجالات كبرى :

(١) رسول الإسلام (٢) الإسلام . (٣) الفكر الإسلامى العربى . (٤) القرآن واللغة العربية (٥) التاريخ العربى الاسلامى .

وقد ترددت هذه الشبهات فى محاولة لتمييع القيم الأساسية للفكر العربى الاسلامى واتهامها : (١) بأنها قيم دينية صرفه قاصرة فى مجال العقيدة . (٢) قيم تاريخية قاصرة فى مجال الزمن . (٣) اتهام الحضارة العربية الاسلامية بأنها حضارة غير أصلية وذلك فى محاولة لاسقاطها من مجال تطور الحضارة الانسانية وتجاهل فترة الألف عام الاسلامية بين الحضارتين الرومانية والحديثة (٤) ترديد الاتهامات التى تنقض اصالة الفلسفة الاسلامية على أنها فلسفة يونانية مكتوبة باللغة العربية . (٥) اتهام مفهوم الاسلام بأنه لم يعد قوة محركة تهدى الناس الى الوجهة الصحيحة . (٦) جحود التراث . (٧) اثارة الشبهات حول الغيبيات (٨) اتهام الفكر العربى الاسلامى بأنه فكر تجريدى . (٩) الزعم بأن العقلية العربية عقلية سامية قاصرة عن الخلق عاجزة عن استنتاج المعانى المجردة (١٠) القول بأن الفكر العربى الاسلامى يحمل دعوة التزهيد فى العالم الأرضى ويجعل مسألة الموت والتطلع الى الآخرة مسألة رئيسية . (١١) محاولة خلق الفوارق بين الشيعة والسنة وبين العرب والبربر كوسيلة لخلق خلاف جذرى فى العالم الاسلامى والأمة العربية . (١٢) اتهام القرآن بأنه موضوع وليس وحيا من عند الله وأن القرآن مرآة لأفق خاص من الحياة أفق عقيدة صحراوية فى الجزيرة العربية . (١٣) القول بأن شرائع الاسلام اقتبست من شرائع الأديان السابقة له . (١٤) القول باختلاف مفهوم الاسلام باختلاف الشعوب . (١٥) اتهام اللغة العربية بأنها لغة ميتة ، عاجزة عن التعبير غير قادرة على الاستجابة للحضارة . (١٦) الدعوة الى اتخاذ اللهجات العامة لغات محلية اقليمية . (١٧) تزييف التاريخ العربى الاسلامى واثارة الشبهات حوله، واتهامه بأنه ملىء بالثغرات . (١٨) الفصل بين العروبة والاسلام . (١٩) اتهام العرب والمسلمين بأنهم لم يستيقظوا حتى أيقظهم الغرب . (٢٠) القول بأن الاسلام عائق عن التقدم والحضارة . (٢١) ابراز جوانب الانحراف والتأكيد عليها كقضايا الباطنية والشعوبية والاهتمام فى دراسات التصوف بدعاة الحلول ووحدة الوجود .

* * *

هذا مجمل سريع للشبهات التى أثارها التغريب وأثارتها الشعوبية فى الفكر العربى المعاصر ، وقد حاولنا استعراض هذه الشبهات بالرد عليها ، وقد أثار المستشرقون ودعاة التغريب هذه الشبهات ولا يمنع ذلك من وجود كتاب غربيين منصفين من غير هذه المؤسسات قد دحضوا هذه الشبهات وكشفوا عن ثغرات التغريب واتهاماته وما تستهدفه من آثار .

* * *

(١)
شبهات حول « نبى الإسلام »

كانت شخصية النبى محمد صلى الله عليه وسلم « نبى الاسلام » موضع هجوم ونقد شديدين ، من كتاب التغريب والاستعمار ، وكثير من المستشرقين ، وقد يفهم أن يكون كذلك على اقلام المبشرين ، فهؤلاء لايؤخذ رأيهم موضع القدير لأنهم متحيزون بالطبيعة ، أما غيرهم ممن لا صلة لهم بأعمال التبشير فقد كان يمكن أن تكون كتاباتهم موضع نظر لو أنها واجهت شخصية النبى بالنقد على منهج علمى خال من التعصب ، وقائم على الدليل والسند ، ولقد اتفق أن كانت كل الشبهات التى وجهت الى شخصية النبى صادرة عن نصوص غير معتمدة ، أو وقائع لم تقع أصلا ، واذا كانت موسوعة لاروس وهى مرجع ضخم فى الفكر الغربى تصور النبى محمد بأنه كردينال لم ينجح فى الوصول الى كرسى البابوية ، وأن هذا هو ما دفعه الى أن يخترع دينا جديدا لينتقم من زملائه الكرادلة ، فان أى عقل يستطيع أن يصدق ذلك ، وكل جوانب سيرة النبى مبسوطة ومعروفة وليس هناك شبهة حولها أو حول ولادة هذا النبى وبعثه فى جزيرة العرب .

وهناك محاولات أخرى حول اتهام الرسول بأنه تأثر بمن عرفهم من المسيحيين فى دعوته ورسالته ، وهؤلاء ينسون أمرا أساسيا لا علاقة له بمن لقيهم ، وأثرهم فيه ، هو أن الاسلام خلاصة الدين الأول ، الذى مصدر اليهودية والمسيحية ولذلك فلا عجب أن يكون هناك قدرا من التشابه فى المصادر الأساسية .

ويكفى فى هذا المجال أن نجد عشرات من الباحثين الغربيين المنصفين قد استطاعوا أن يهتدوا الى حقيقة « محمد » : انسانا ونبيا وأن يستخلصوا فى كلماتهم جوهر هذه الشخصية الانسانية ، فهذا كارليل يقول : لقد أصبح من العار على كل فرد متمدن فى هذا العصر أن يصغى الى ما يظن من أن دين الاسلام كذب وأن محمدا خداع مزور ، فان الرسالة التى اداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرنا لنحو مائتى مليون من الناس أمثالنا .

وقد وصف بارتلمى سانت هيلر محمد بأنه « اكثر عرب أهل زمانه ذكاء وأشدهم تدينا وأعظمهم رأفة ، وأنه نال سلطانه الكبير بفضل تفوقه ، وأن دينه الذى دعا الناس الى اعتقاده كان جزيل النعم على جميع الشعوب التى اعتنقته » .

أما جوستاف لوبون فقد وعى جوهر شخصية محمد حين قال : كان محمد شديد الضبط لنفسه ، كثير التفكير صموتا حازما سليم الطوبة ، عظيم العناية بنفسه مواظبا على خدمتها بالذات بعد اغتنائه ، وكان صبورا قادرا على احتمال المشاق بعين الهمة ، لين الطبع وديعا ، وكان مقاتلا ماهرا فكان لا يهرب أمام الأخطار ولا يلقى بيديه الى التهلكة ، وكان يعمل ما فى الطاقة لانماء خلق الشجاعة والاقدام فى بنى قومه . ولم أجد فى تواريخ العرب ما يبيح القطع بأن محمد كان مصابا بالصرع ، وكل ما فى الأمر ما رواه معاصروه ، وما روته عائشة من انه كان اذا نزل عليه الوحى اعتراه احتقان فى الوجه فغطيط ، واذا عددت حماسة محمد وجدته حصيفا سليم الفكر ، وكان محمد يعتقد أنه مؤيد من الله ، فلا يرتد أمام أى مانع ، وقد جمع محمد قبل وفاته كلمة العرب وخلق منهم أمة واحدة فكانت تلك آيته الكبرى واذا قيست قيمة الرجال بجليل أعمالهم كان محمد من أعظم من عرفهم التاريخ .

ودافعت الدكتورة لورافيشيا فاغليرى عما وجه الى محمد من شبهات ، فقالت :

لقد حاول أعداء الاسلام أن يرموا نبى الله ببعض التهم المفتراه ، ولقد نسوا أن محمدا كان قبل أن يستهل رسالته موضع الاجلال العظيم من مواطنيه بسبب أمانته وطهارة حياته ، ومن عجب أن هؤلاء الناس لا يجشمون أنفسهم عناء التساؤل كيف جاز أن يتوى محمد على تهديد الكاذبين والمرائين ، فى بعض آيات القرآن اللاسعة بنار الجحيم الأبدية ، لو كان هو قبل ذلك رجلا كذابا ، وكيف استطاع أن يستهل صراعا يبدو يائسا

وكيف وفق الى ان يواصل هذا الصراع اكثر من عشر سنوات فى مكة فى نجاح قليل جدا ، وفى أحزان لا تحصى اذ لم يكن مؤمنا ايمانا عميقا بصدق رسالته ، كيف جاز أن يؤمن به هذه العدد الكبير من المسلمين النبلاء والأذكياء . اذا لم يلمسوا فى كلماته حرارة الصدق .

وقد راع كثير من الباحثين خلق محمد من أمثال لين بول مثلا ، الذى يقول أن محمدا كان يتصف بكثير من الصفات الحميدة كاللطف والشجاعة ومكارم الأخلاق ، حتى أن الانسان لا يستطيع أن يحكم عليه دون أن يتأثر مما تتركه هذه الصفات فى نفسه من أثر ، ودون أن يكون هذا الحكم صادرا من غير ميل أو هوى ، وكيف لا وقد احتمل محمد عداء أهله وعشيرته أعواما فلم يهن له عزم ، ولا ضعفت له قوة وبلغ من نبله أنه لم يكن فى حياته البادىء بسحب يده من يد مصافحة ، حتى ولو كان المصافح طفلا ، وأنه لم يمر بجماعة يوما رجالا كانوا أو أطفالا دون أن يقرئهم السلام ، وعلى شفتيه ابتسامة حلوة ، وفى فيه نغمة جميلة كانت تكفى وحدها لتسحر سامعها وتجذب القلوب الى صاحبها جذبا .

اما وليم موير فانه يصف محمد ، بوضوح الكلام ويسر الدين ويقول انه أتم من الأعمال ما يدهش العقول، ويصل الى النتيجة التى يقرر بها : لم يعهد التاريخ مصلحا أيقظ النفوس واحيا الأخلاق ورفع شأن الفضيلة فى زمن قصير كما فعل محمد .

ويرى تولستوى أن النبى محمد — لا ريب — كان من عظماء الرجال المصلحين الذين خدموا المجتمع الانسانى خدمة جليلة ، وأنه يكفيه فخرا أنه هدى أمة برمتها الى نور الحق ، وجعلها تجنح للسكينة والسلام ، وأنه هو الذى منعها من سفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية وفتح لها طريق الرقى والمدنية .

ويقول كازانوفا : أن كل تاريخ النبى العربى يدل على أن خلته عملى جدى محمود ، أنه حتى حين أعترف الجميع بسلطانه المطلق ، عرف كيف يستمع آراء الغير، أن محمدا وأصحابه قد أوضحوا بعناية تامة الفرق بين آرائه الخاصة وادراكاته للحياة الواقعة من جهة وبين تعاليم السماء من جهة أخرى.

* * *

ومن هذه النصوص كلها تبدو اتهامات بعض متعصبى الغرب وهى هباء ، ونحن لم نرد أن ندفعها بل تركنا لكتاب من الغرب يدفعونها بعد أن استبان لهم الحق ولا نرى ازاء هذا الكلمات الا أن الذين بالغوا فى اتهام محمد بالجنون أو وصفوه بالسحر أو مريضا بالصرع لايصدرون عن رغبة صادقة فى معرفة الحقيقة ، بل عن هوى أو تعصب أو لخدمة غرض معين لا يرى أصحابه أن ابلاغ النبى محمد مكانيه الحقة الصادرة عن نصوص موثقة الا حائلا دون ما يريدون .

وصف برناردشو النبى محمد بأنه يجب أن يدعى منقذ الانسانية وقال أنه يعتقد لو أن رجلا مثله تولى زعامة العالم الحديث لنجح فى حل مشكلاته وأحل السلام والسعادة فى العالم .

وقال لامرتين فى كتابه تاريخ تركيا أن محمدا فيلسوف وداع ومشرع وهو فاتح أفكار ومقيم عقائد معقولة وعبادة بلا صور ، وهو مؤسس عشرين دولة دنيوية ودولة واحدة دينية ، ذلكم محمد الذى كان أعظم منه بكل المقاييس التى تقاس بها العظمة الانسانية .

وقال الدكتور مار دوى المستشرق الفرنسى : أن اكثر الكتاب ارتيابا وشكا قد خضعوا لسلطان تأثير محمد .

وقال جبيون فى كتابه اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها : أن سمو احساس محمد جعله يحتقر بهرج الملك، وكان رسول الله يخضع نفسه لما تتطلبه حياة الأسرة من عمل ، فقد أوقد النار وكنس المنزل ، وحلب الشاه . وخصف بيديه نعله ورقع ثوبه لقد كان قانعا يأكل كما يأكل العربى .

وقال أميل درمنجم فى مقدمة كتابه « حياة محمد » انه لا يوجد واحد فى الدنيا أمكنه أن ينكر وجود محمد ولكنه وجد من ينكرون بعض ما جاء فى ترجمة محمد فى الكتب العربية .

وتساءل دوزى : لو صح ما قاله القساوسة من أن محمدا نبى منافق كذاب فكيف نعلل انتصاره ، وما بال فتوحات أتباعه تثرى وتتلو احداها الأخرى ، وما بال انتصاراتهم على الشعاب لا تقف عند حد ، وكيف لا يدل ذلك على معجزة هذا الرسول .

وهاجم رينان فى كتاباته الأخيرة موقف فولتير من الرسول : دلتنى تجربتى العلمية والتاريخية أنه لا صحة مطلقا لما أريد الصاقه بالنبى محمد من كذب وافتراء مصدرها بعض المباينات العرفية ، والعادات القومية

التى أراد بعض المتحاملين كفولتير أن يتوجهوا بها الى الناحية التى تشفى سقام ذهنيهم الوقحة ، وتعصبهم الذميم ، كقوله أنه يميل الى التسيد والسيطرة ، مع أن محمدا كما أثبتت الوثائق التاريخية وشهادات أكابر علماء التاريخ كان على العكس من ذلك بريئا من روح الكبرياء متواضعا صادقا أمينا ، لا يحمل المقت لأحد ، وكانت طباعه نبيلة وقلبه طاهرا رقيق الشعور .

وقال بارتلمى سانت هيلر فى كتابه تاريخ النبى محمد : انه كان يشك فى صدق النبى فى رسالته حتى قرأ جميع السير انه لما نزلت اية الحفظ ووعد الله نبيه بأنه سيتولى حراسته « والله يعصمك من الناس » بادر محمد الى صرف حراسة والمرء لا يكذب على نفسه لا يخدعها فلو كان هذا الوحى من مصدر غير الله لأبقى محمد على حرسه .

وقد اشار المؤرخ الانجليزى : ريوزند باسورث سميت فى كتابه « محمد والمحمدية » الى الظاهرة الواضحة فى عالم الاسلام وهى وضوح شخصية النبى وتصرفاته ودقائق حياته بينما لا يوجد ذلك فى عوالم اخرى : يقول :

قد لا نعلم كثيراً من سير الأنبياء الأشذرات ، أما الاسلام فأمره واضح كله ليس فيه سر مكتوم عن أحد ، ولا غمة ينبهم أمرها على التاريخ ، ففى أيدى الناس تاريخه الصحيح ، وهم يعلمون من أمر محمد كالذى يعلمونه من امر لوثر وملتن ، وانك لا تجد فيما كتبه المؤرخون الأولون اساطير ولا أوهاما ولا تسجيلات ، واذا عرض لك طرف من ذلك أمكنك تمييزه عن الحقائق التاريخية الراهنة ، فليس لأحد هنا أن يخدع نفسه أو يخدع غيره ، والأمر كله واضح وضوح انهار كأنه الشمس راد الضحى ، يتبين تحت نورها كل شىء .

ويرى بورسورث سميت تعدد جوانب شخصية « محمد » فقد « كان محمد فى وقت واحد مؤسسا لأمة، ومقيما لامبراطورية ، وبانيا لدين ، وهو وان كان أميا فقد أتى بكتاب يحوى أدبا وقانونا وأخلاقا عاما وكتبا مقدسة فى كتاب يقدسه الى يومنا هذا سدس مجموع النوع البشرى ، لأنه معجزة فى دقة الأسلوب وسمو الحكمة وجلالة الحق ، وكان يقول عنه محمد أنه « معجزته الخالدة » ثم يرى رؤياه فى الاسلام فى غد الانسانية ومستقبلها : لم يحرص محمد الى آخر حياته على شىء الا على ذلك اللقب الذى تلقب به من أول أمره وهو لقب اعتقد انه سيأتى يوم ترضى به أرقى فلسفة وتسلم له به ، هذا اللقب هو أنه رسول ، رسول الله حقا .

* * *

— ٢ —

يقول الكاتب البريطانى هـ . ج ولز :

« اذا قيست حياة محمد بالمقاييس الحديثة كانت حياة لا تأخذ بالأبصار » .

ويجيب العلامة « فريد وجدى » على هذه الشبهة فيقول : لا مشاحة انه يريد بهذا القول أن حياته كانت ساذجة ، اى حياة فرد من سواد الناس ليس فيها ما واخذ بالأبصار . كما فى حيــاة الأفذاذ من الرجال اذا قدرت بالمعــايير الحديثة ، لم يكن بالخطيب المفــوه ولا بالشاعر الفحل ولا بالكاتب المبدع .

ونقول . اما أن حياة محمد الشخصية قبل النبوة كانت لا تستلفت الأنظار فصحيح ، لأنه عاش اربعين سنة فلم يشتهر بشىء أكثر من أنه كان قويم الســيرة امينا ، وهذا من اقوى أدلة المسلمين على نبوته ، فان رجلا يمضى زهرة الشبيبة وهى عهد التوثب لبلوغ المجد والتطلع لتحقيق المطامع ساكنا وادعا ، حتى اذا شارف سن الكهولة هب بهمة لا تعرف الملل لجمع البشرية كلها على كلمة جامعة مضحيا فى سبيلها بنفسه وماله وصفاء باله ، واجدا من جرائها الاضطهاد وضروب الأذى ما لا قبل لأحد على احتماله ، فى مدة لا تقل عن ثلاث وعشرين سنة ثم يضطر بعدها لتمضية حياته فى جلاد وجهــاد لتحقيق ما يرمى اليه قلنــا : أن رجلا يكون على هــذه الشــاكلة لا يعقل ان يكون قد صــدر فى التحول الذى حدث فى سيرته عن هوى فى نفسه أو خبث فى طويته ، ولكن عن أمر جلل لا يكون اقل من النبوة .

ولو كان نشــأ محمد على حال يلفت الأنظار من المواهب ، خطيبا مصقعا ، او شاعرا مفلقا أو عالمــا محققا ، لكان المستر ويلز اول من يشك فى نبوته ، فمــا أعجب مستر ويلز وهو يدعى أن محمدا كان مجردا من كل ما يلفت النظر اليه ، أن يسرد أعمــاله — ان كان مؤرخا جديرا بهذا اللقب — من تأليف أمة ، ووضع ديانة وسن قانون وتحطيم وثنية ، ووضع أســس اجتماعية تصلح لايصال امة الى خلافة الله فى الأرض فى ســنين معدودة . ايه ، مستر ويلز ، اين تثبت المؤرخ الناقد ، اين تدقيق الاجتماعى المحمص ، اين تحقيق البسكيولوجى المطلع ، ان نسبة كل هذه الشئون الجسام التى حققها محمد صلى الله عليه وسلم فى ثلاثة وعشرين ســنة ، وعجز عن تحقيق واحد منها فى مثل درجة الكمال التى هى عليه فى الدين الاسلامى أكبر عباقر الأرض ، لايعتبر عملا تاريخيا يوجب الاحترام ، ولكنه يعتبر ثمرة لتعصب دينى ذميم أو لجهل فاضح لا يصــح أن يدرج فى صلب التاريخ .

لعل المســتر ويلز يتمثل محمــدا رجلا دفعتــه وساوسه فى ســن الكهولة الى أن يقوم بتأسيس دين ليعد فى زمرة القديسين فألف مجموعة من عقائد خرافية وآداب سطحية وقام بنشرها بين ظهرانى قومه فاتبعه رجال منهم ، وغاب عنه والهوى يصــمى ويصم ، أن الدين الذى اتى به محمد كله مثل عليا لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وان هذا الدين نفســه قد أودع فيه كل ما يصلح لتطوير المجتمع الذى يقوم فيه ولم يزل به حتى يوصله لزعماء الأرض فى سنين معدودة

* * *

(٢)

شبهات حول الإسلام والفكر العربى الإسلامى

١ — الاسلام والمدنية

لعل اتهام الاسلام بأنه مضاد للمدنية ، أو معوق لها كان من بين الاتهامات الضخمة الواسعة المدى ، التى ترددت على أقلام كتاب التغريب وحاولت أن تثير شبهة قوية وتؤكدها ، بأن الاسلام كان ضد المدنية ومن أجل هذا تأخر أهله وتقدم غيرهم ، ومن هنا فان الوسيلة لتقدم المسلمين وغيرهم من أهل الشرق هو التحرر من الاسلام وقد جرى هذا الاتهام فى دائرة واسعة : شملت العلم والفلسفة وشملت الحضارة وأثارت الشبهاتحول التعصب وحاولت أنتربط ذلك بحريق مكتبة الاسكندرية وغيرها من المواقف التاريخية .

وقد أورد كتاب التغريب والمستشرقين أقوالا كثيرة فى هذا الصدد . ومن ذلك قول رينان ان الحضارة العربية الاسلامية حضارة سطحية ظاهرية ، أنتجتها عقول أريه ومنابع يونانية فارسية هندية غوطية ، وأن كل ظواهر الحضارة فى البلاد العربية يمكن ارجاعها الى عقلية آرية وانتاج غير سامى ، وقال غيره أن الحضارة الاسلامية كانت حضارة مستغلة لا منتجة ، آخذة لا معطية ومقلدة لا مجتهدة ، نقلت اليها الحضارة اليونانية أو التراث اليونانى ووصف الفكر العربى الاسلامى بأنه فكر دينى ، وقيل انه ميال الى الجزئيات وأنه فكر تجريدى ، وأن مدنية العرب وفكرهم قاما بعناصر غير عربية وأن العقلية العربية عقلية سامية قاصرة عن الخلق عاجزة عن استنتاج المعانى المجردة ، غير قادرة على تجاوز الجزئيات المحسوسة .

ولا شك أن البحث المنصف والنظر العلمى الدقيق يدحض كل هذه الاتهامات الصادرة عن التعصب أو الهوى الجنسى أو الرغبة فى تحطيم مقومات الفكر العربى الاسلامى فى نفوس أهله . وليس أدل على كذب هذه الادعاءات من نمو الاسلام وانتشاره الواسع المذهل ، ونقاء فكره وتعمقه ، وتوسع نطاقه عمقا وعرضا ، فقد امتد الاسلام أربعة عشر قرنا ، ولو كان فى قيمه ما وصفه به خصومه لعجز عن هذا الامتداد الزمنى فلقد اتسع نطاقه من الجزيرة العربية حتى سعى بين الصين والأندلس ، ثم ما زال يزداد امعانا فى الاتساع حتى وصل الى أعماق القارة الافريقية وجنوب شرق آسيا وزاد أهله زيادة مذهلة بالرغم من كل عوامل ايقافه ومحاولات القضاء عليه واثارة الشبهات حوله واندفاع قوى التبشير المضادة له مؤيدة بالمال ونفوذ الحكومات المحتلة وقوة السلطة ، ولا يمكن أن ينجح فكر ما هذا النجاح ، مع قدرة على البقاء والامتداد والتعمق ، على امتداد الزمن وامتداد الأرض الا وهو يحمل فى أعماقه قوة ديناميكية ايجابية حية قادرة على البقاء والتلقى والتطور والحركة .

وقد أشار الى هذا « يرنيه ميليه » فى بحثه الذى جعل عنوانه : هل يتفق الاسلام مع المدنية الحديثة فقال . ان خطأ المستغلين منا بالاسلام هو درس هذا الدين مستقلا عن الظروف التى كانت تحيط بظهوره ، فلو عرفنا كيف كانت حالة العالم حين ظهر لوقفنا على أسباب انتشاره المدهش .

وصور « رينيه ميليه » كيف أستخدم أباطرة الرومان السيف لنشر الدين مما أدى الى تضعضع ملكهم وانقراضه ، فضلا عن الدماء التى أهرقت فى سبيل ذلك ثم قال : أما الاسلام فقد استعاض عن تعدد درجات الادارة بسلطة واحدة يرجع اليها الحل والعقد فى كل الأمور ، ولم يقرر شيئا من الوساطة بين الله والشعب ، ولم يسن نظام الصوامع ، وقضى على عادة العزوبة الشاملة والتنسك والخروج من الدنيا فقرر الاشتغال بالدنيا والآخرة معا وبالجملة . فان الاسلام أتى بنظام ملائم لحاجات الناس وكان ذلك سر غلبته . ثم أن الاسلام أرجع الدين الى بساطته الطبيعية ولم يأت بشىء من العقائد الفلسفية . بل قال بكل وضوح « لا اله الا الله » وبذلك خلا الاسلام من الاعتقاد الذى قسم

الدول الأوربية والذى جعل أهل مصر وآسيا الصغرى فى حالة استياء من تسلط الدولة البيزنطية ، وكيف لاتميل هذه الشعوب الساخطة الى أهل الاسلام ، وهم يعلنون انهم اهل التسامح مع مخالفيهم فى الدين .

وصور « اتيـان دينيه » تجربته فى الجامعة حين كان يدرس لهم تاريخ الاسلام فقال : أن الأساتذة كانوا يقررون سرعة انتشاره من غير ايقافنا على أسـبابه ، وغاية ما كانوا يذكرونه هو أن طبيعـة العرب طبيعة حربية وأن خيولهم جيدة تكاد تسـابق ظلالها ، ولكنه تبين الدقيقة فيما بعد حين قال : أن الحقيقة هى ، أن الفتوحات العربية كانت على البغال ، الا أن العرب اتو بعقيدة سهلة التناول لا تثقل الجندى المجاهد ، ثم انهم كانوا متشبعين بروح التسامح وهـذا هو سر الانقلاب العظيم الذى أعطاهم ملك آسـيا وافريقيا ونصـف اسبانيا . لقد اتى العرب بعقائد خفيفة الحمل ، بسيطة المبنى ، واعطوا الحيـاة قسطها من الاعتبـار فترقت العلوم والفنون والآداب ، باجتهادهم الذى عجز عنـه غيرهم من معاصرهم . وجاء المسلمون بمبدأ فى البحث هـو مبدأ يتفرع من الدين نفسـه ، وهو مبدأ التأمل والتنقيب . وقد مالوا الى الاشـتغال بعلوم الطبيعة وبرعوا فيها ، وهم الذين وضعوا أساس علم الكيمياء وقد وجد منهم كبار الأطباء ، ولفرط تقديرهم للحيـاة الدنيا نبغ منهم الشعراء المجيدون الذين قالوا شـعرا اذا وصـفناه بأنه أرضى ، فذلك لأنه قريب من العقول يغذيها . ونذكر من أشعار العرب فى أسبانيا مايدل على درجة ادراكهم للحيـاة الدنيوية الحقة . ولقـد كان الأمراء الفرنجة يستشيرون أطباء المسلمين اذا أصابهم مرض وقد لزم مسلمو الأندلس التسامح مع النصارى ومودتهم حتى فى الدور الذى اضمحلت فيه دولتهم . وفى الفترة التى تعارف فيها المسلمون والمسيحيون من انتهاء الحروب الصليبية الى فتح القسطنطينية كان الاسـلام هو العنصر المؤثر والعالم الأوربى هو العنصر المتأثر .

وقد لبثت أوربا ثلاثمائة سنة تقتبس من الاسـلام اللغة والعلوم ، والحق أن المسلمون الأولون لم يعرفوا الاستسلام للحوادث ، ولا شك أن الصبغة العامة اللينة التى اتصف بها الاسـلام هى التى جعلته يتقبل ضروب المدنية ولا يتنافى معها .

يقولون لمـاذا لا يفنى الاسـلام فى جسم المدنية الغربية ما دام المسلمون يأخذون عنا العلوم ، والعلوم أساس كل مدنية وانى لا أوافق أصحاب هذا الرأى فى رأيهم ، ان للعلم دائرة محدودة ، لا يتعداها ، وما وراء هذه الدائرة توجد أفكار ومعتقدات لهـا تأثير كبير على أحوال الشعب ، وهذه المعتقدات هى دائرة الدين . أنه لا يمكن للعلم أن يمحو سلطان الأديان على النفوس ، ما دام عـالم ما وراء المادة مكتنفا بالمدهشات ، ولا أرى حـدا لبقاء الدين الاسلامى ، ذلك الدين الذى أتى بأحسن العقائد واطهرها وأبسطها والذى كان من سعد حظه أن امتد ظله على ضفاف البحر الأبيض تحت سماء صافية الأديم فظل نوره متلألأ فى تلك البلاد المتنـائية الأطراف ولم تقدر الحوادث على اطفاء ذلك النور .

ان قدرة الاسـلام فى التفـريق بين عالم المـادة وعالم ما وراء المادة وقد تبينه المسلمون فجعلهم يتبلون على علومنا وما يورن فيها ما يناقض دينهم المشـهور بالتسامح .

ويكشف جولد زيهر عن حقيقة الموقف فى العلاقة بين ركود المسلمين الحالى وبين الاسـلام فيقول : ان كثيرين يردون ركود المسلمين الحالى الى الدين نفسـه وهى فكرة خاطئة ، فقد درسنا شئون المسلمين فى أنحاء العالم وفى كل العصور فثبت لدينا أن الاسلام براء من كل عناصر التأخر والركود ، وأن سبب الاضمحلال راجع الى أمور خارجيـة عن الدين نفسـه ، أهمها طبيعة الشعوب التى انتحلته ووراثاتها السابقة فانها لم تتغير ولم يتبدل وبقيت على فطرتهـا ومنها الترف والرفاهية والرخاوة التى اندفع بعض الأمراء فى تيـارها فأهملوا الشـعوب والعدل واكتفوا بالراحة الذاتية وكفوا عن الجهاد والنضـال والمكافحة . ومنها هجوم أوربا على الشعوب الاسلامية بحجج مختلفة واهية منطوية على المصالح .

* * *

٢ ـ هل الاسلام عائق عن الثقافة

يتساءل رينيه ميليه : هل الاسلام عائق عن الثقافة ؟ ويقول :

لقد رفع « محمد » قدر العلم الى أعظم الدرجات وأعلى المراتب وجعله من أول واجبات المسلم وفى ذلك يقول : « اطلبوا العلم ولو فى الصين ، يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدماء الشهداء » وقد نظر المسيو (كازانوفا) احد كبار أساتذة كوليج دى فرانس بباريس فى هذه الكلمات الغاليات كيف يقولها أحد أصحاب الديانات فعلق على ذلك بقوله :

يعتقد الكثيرون منا أن المسلمين لا يستطيعون تمثل آرائنا وهضم افكارنا ، يعتقدون ذلك وينسون أن نبى الاسلام هو القائل بأن فضل العلم خير من فضل العبادة فأى رئيس دينى كبير كانت له الجراة فى أن يقول مثل هذا القول القوى الفاصل المبين . هذا القول الذى هو نفسه عنوان حياتنا الفكرية الحاضرة ، كما أنه سوف يقال انه أوضح مبادىء الحرية الفكرية ، قد كشفها أمثال (لوثير) و (كالفين) وعاد الفضل فيها الى رجل عربى من رجال القرن التاسع . ذلك هو صاحب شريعة الاسلام .

* وعن نفس السؤال اجابت الدكتورة لورا فيشيتا فاغليرى :

كيف نستطيع أن نقول أن الاسلام عاق نمو الثقافة فى القرون السالفة ، ونحن نعلم أن بلاطات الاسلام ومدارسه كانت آنذاك منارات ثقافة للأودية الغارقة فى ظلمات القرون الوسطى ، وأن أفكار فلاسفة العرب بلغت آنذاك منزلة رفيعة جعلت العلماء الغربيين يقتفون آثارهم . وأن هارون الرشيد اصدر أمره آنذاك بأن يلحق بكل مسجد مدرسة يتلقى فيها الطلاب مختلف العلوم ، وأن المكتبات الحافلة بمئات الآلاف من الكتب كانت مشرعة الابواب فى وجه العلماء والدارسين فى طول العالم الاسلامى وعرضه . الم يكن العرب أول من اصطنعوا الطرائق التجريبية قبل أن يعلن « بيكون » ضرورتها بزمن طويل وتطور الكيمياء وعلم الفلك ونشر العلم الاغريقى . وتعزيز دراسة الطب ، واكتشاف مختلف القوانين الفزيائية .

* * *

اذا كان ذلك كذلك فعندئذ لا نستطيع أن نقول أن من طبيعة دينه أن يخلق عقبات فى طريق تقدم العلم فلنقل بدلا من ذلك ، أن الحنكة السياسية اضطرت فى بعض الأحيان من أجل الحفاظ على الأمن فى بعض المناطق ، الى كبت تيارات الفكر التى قد تصبح خطرة على النظام العام ، وأن المنازعات السياسية ، وفى بعض الاحيان الشخصية لا الأسباب الدينية ، هى التى قررت فى الماضى مسالك الفقهاء والمشرعين والمحدثين والفلاسفة : أن من غير الانصاف اتهام روح الاسلام بالتصلب والجمود لمجرد بعض الأحوال الحالية التى ترجع اليوم الى ظروف تاريخية بعينها أو لمجرد التهجم للذين ينكرون عقلية بعض الجماعات الاسلامية . ومن أسف أن الدين الاسلامى ، بعد أن كان كنزا عربيا وبعد أن عرب العلم اليونانى ، سقط فى أيدى من اتخذوا من فكرة الجبرية الالهية وسيلة لحرمان رعاياهم من التفكير ولوضع انفسهم فى مركز منيع يمكنهم من الدفاع عن الفكرة القائلة بأن أبواب النعم الآلية أمست منذ اليوم موصدة فى وجه الوافدين الجدد ، وكيف يمكن أن يكون هذا منسجما مع أصول الاسلام .

وعلى هذا النحو حرم المؤمنون من التفكير ، واكرهوا على اتباع آراء أسلافهم .

ومن حسن الطالع ان الجمود مرض لابد أن يزول، بل انه فى الواقع يمر ويزول فالى الكتاب الغريز الذى لم يحرفه قط لا أصدقاؤه ولا أعداؤه . ولا المثقفون ولا الأميون ذلك الكتاب الذى لا يبليه الزمان والذى لا يزال كذلك منذ اوحى الله به الى الرسول الأمى البسيط ، آخر الأنبياء حملة الشرائع ، والى هذا المصدر الصافى دون غيره سوف يرجع المسلمون . حتى اذا نهلوا مباشرة من معين هذا الكتاب المقدس فعندئذ يستعيدون قوتهم السابقة من غير ريب وثمة بينات قوية على أن هذه العملية قد بدأت فعلا .

* * *

٣ ــ الاسلام والتقدم

أما جورج سارطون فانه يكشف دور الاســـلام فى التقدم فيقول : لقد حمل المسلمون أعباء البشريةالعلمية والفكرية ، فأعظم الفلاسفة : الفــارابى كان مسلما ، وأعظم الرياضيين أبو كامل وابراهيم بن ســنان كانا مسلمين وأعظم الجغرافيين وعلماء الموسوعات العامة : المسعودى ، كان مسلما وأعظم المؤرخين : الطبرى كان مسلما وتعلم أن أصول العلم الغربى (لا أصول الدين والفن فحسب) شرقية مصرية وبابلية وايرانية ، وقد ثبت أن ما وصل اليه المســلمون والعرب من التقدم فى العصور الوسطى كان على غاية من الأهميــة . وابن رشد أكبر فلاسفة الاســلام بلا منازع هو أحد كبــار فلاسفة العالم على الاطلاق .

وأن ابن النفيــس قد اكتشــف الدورة الدموية الصــغرى قبل أن يعرف ذلك (ميخــائيل سرفيت) الأسبانى بمائتين وخمسة وســتين عاما . ولقد عرف العرب لابن النفيس فضــله فى ذلك بينما أحرق سرفيت الأسبانى علنا فى جنيف فى ســويسره عام ١٥٥٣ بأمر المصلح الدينى كلفن ، حيث كانت المسيحية تحظر على رجالها الاشتغال بالطب لأن الطب صناعة المانية لاتتفق مع مقــام رجال الدين . أما التشريح فقد كان فى أوربا ممنوعا البتة . فاذا جئنا الى الاسلام رأينا أن صناعة التشريح قد بلغت فيــه الذروة وخصوصا فى المغرب . وما يقــال عن التشريح والطب عامة يقال عن أمراض العين خاصة فان المسلمين كانوا لا يزالون حتى القرن الثالث عشر قادة العالم فى أمراض العيون .

وقد كانت اللغــة العربية حتى القرن الرابع عشر تحتل مكانا مرموقا فى عالم التأليف العلمى اذ كانت اللغة الثانية بعد اللاتينية من حيث الاتســاع . أما من حيث التأليف فقد وجب أن يكون بلا ريب أرقى من اللاتينية ، يدلنــا على ذلك بكثرة مانقل من كتب العلم والفلســفة فى العصــور الوسطى من اللغــة العربية الى اللغتين اللاتينية والعبرية .

ومع أن دانتى اللجيرى شاعر ايطاليا العظيم لم يكن يعرف اللغة العربية فان كتابه الخــالد الكوميديا الالهية متأثر بالاســلام الى حد بعيد بســورة الاسراء والمعراج وبقصة المعراج .

وقد استمر أثر الفيلسوف ابن رشد بارزا فى القرن الرابع عشر وكان أبرز أتباع ابن رشــد فى باريس فى النصف الأول من القرن الرابع عشر الفيلسوف الفرنسى جان جاندوف .

* * *

وانك لن تدرك عظمة العرب العلمية حتى تدرك الروح التى كافحوا بها فى سبيل العلم لقد عد بعضهم المعارك التى خاضها العرب ضــد الفرنجة فى الأندلس وحدها منذ عام ٧١٠ الى عام ١٤٩٢ م وهو عام مغادرة العرب للأندلس نهائيا ، فكانت نحو ٢٧٠٠ معركة وأن أمه تكون أيديها مغلولة بثلاثة آلاف وسبعمائة معركة تنتهى بزوالها عن أرضها وديارها وأموالهــا ثم لا تنسى رسالة العلم المقدســة بل تبلغ بالعلم والتفــكير ذروة الرقى والتقدم لأمة عظيمة حقا .

* * *

٤ ــ الاسلام وحرية الفكر

ويتساءل ايتان دينيه عن موقف الاسلام من حرية الفكر ثم يجيب ان العقيدة المحمدية لا تقف عقبة في سبيل التفكير فقد يكون المرء صحيح الاسلام ، وفى الوقت نفسه حر الفكر Chibre Pensurr ولا تقتضى حرية الفكر أن يكون المرء منكرا .

وكما أن الاسلام قد صلح منذ نشأته لجميع الشعوب والأجناس فهو صالح كذلك لكل أنواع العقليات وجميع درجات المدنيات . وان تعاليم المعتزلة ذات القرابة المستترة والصلة الخفية بتعاليم الصوفية تجد مكانا رحبا وقبولا حسنا ، ورضاء سهلا سواء عند العالم العربى أو عند الزنجى الأفريقى وهو الذى يصعب على المرء تخليصه من معتقداته الخرافية ومن معبوداته وأصنامه . وبيننا تجد الاسلام يهيج من نفس الرجل العملى فى أسواق لندن حيث يقوم مبدأ القوم (الوقت من ذهب) اذ هو يأخذ باب ذلك الفيلسوف الروحانى ، وكما يتقبله عن رضا ذلك الشرقى ذو التأملات ورب الخيال ، اذ يهواه ذلك الغربى الذى افناه الفن وتملكه الشعر . وللاسلام على النفوس طابع لا يمحى ، حتى أن الكونت دى كاسترى وهو مسيحى متعصب ، أيقن هذه الحقيقة وقال تلك الكلمة الكبيرة فى كتابه الاسلام : « ان الاسلام هو الدين الوحيد الذى ليس فيه مرتدون » .

وفى الحق لا يقام وزن لأولئك الذين ارتدوا عنه تحت تأثير أنواع العذاب التى تقوم بها محاكم التفتيش الأسبانيولية ولا اولئك الذين تركوه لأغراض مادية .

وأن الذين يعتنقون الاسلام فى وقتنا هذا انما هم الخاصة سواء من الهيئات الاجتماعية الأوربية أو الأمريكية ، كما أن اخلاصهم فى ذلك لا شك فيه لأنهم أبعد ما يكونون عن الأغراض المادية .

* * *

٥ — الاسلام والعالم

وليس هذا وحده هو جوهر الدفاع عن ايجـابية الفكر العربى الاسلامى وسلامة العلاقة بين الاسـلام والمدنية ، بل يرى تريتون فى كتابه الاسلام : معتقداته وطقوسه « أن الاسـلام يكبر من شأن العلم اكبـارا لا شائبة فيه فهو فريضة على كل مسلم ، وهناك شبه اجماع على أن العقيدة الاسلامية لا تقف عقبة فى سبيل الفكر يقول : اتيان دينه » أن العقيدة المحمدية لا تقف عقبة فى سبيل الفكر ، فقد يكون المرأ صحيح الاسـلام وفى الوقت نفسه حر الفكر ، وكما صلح الاسـلام منذ نشأته لجميع الشعوب والأجناس فهو صالح كذلك لكل أنواع العقليات وجميع درجات المدنيات .

وعند كريستيان سنوك جرونجيه : أن الاسـلام سيشكل نفسه حسب حاجات العصر الحديث ، ولن يدع الفـكر الغربى يغلبه ويسلـبه ابنائه الذين كسـبهم منذمئات الأجيال ، وقد طبعوا بطابعه وصاروا اجزءا منه وعنده أن المسـلمون يستمرون فى دينهم مهما اتخذوا من الثقافة والمدنية الغربية وسيظل مجرى عقولهم اسلاميا.

ويكذب بول كازانوفا (الأسـتاذ بالكولنج دى فرانس) مايقال عن عجز الفكر الاسـلامى العربى عن تمثل الفكر الغربى الحـديث فيقول : أن الذين يقولون ذلك ينسون أن نبى الاسلام هو القائل بأن فضل العلم خير من فضل العبادة ، فأى رئيس دينى كبير واىقس من القساوسة العظام كانت له الجراة أن يقول مثل هذا القول الفاصل البين .

* * *

ويقـول الدكتور هورين فى كتابه : اسـتعداد الاسلام لقبول الثقافة الروحية : يتميز الاسلام باتحاد الدين والعـلم ، وهو الدين الوحيد الذى يوحـد بين هذين ، ونحن نجد أن الاسلام موضوع بدائرة العـلم ونرى وجهة الفيلسوف ووجهة الفقيه متماشين معـا وهما واحدة ، وواقفتان كتفا لكتف دون نزاع .

* * *

وتتردد شبهة كبرى حول الاسلام والعلم تقول بالنص « أن العلم العربى لايعدو ما ترجمه السوريون العرب ترجمة مشوهه انخدع بها المؤرخون ونسبوها للعرب زورا » .

ويرد (وليم درابر) فى كتابه المنازعة بين العلم والدين . فيقول أما تفوقهم (أى العرب) فى العلوم فكان ناشئا من الأسلوب الذين توخوه فى المباحث . لقد تحقق العرب أن الأسلوب العقلى النظر لا يؤدى الى التقدم ، وان الأمل فى وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقودا بمشاهدة الحوادث ذاتها ومن هنا كان شعارهم فى ابحاثهم : الأسلوب التجريبى والدستور العلمى الحسى .واننا لندهش حين نرى فى مؤلفات العرب من الآراء العلمية وما كنا نعلمه من ثمرات العلم فى هذا العصر ، ومن ذلك أن مذهب النشوء والارتقاء للكائنات العضوية التى تعتبر مذهبا حديثا . وقد شاء العرب الى أن يكونوا أول الواضعين لعلم الكيمياء والمستكشفين لعدة الآت للتقطير والتصعيد والاسالة . هذا بعينه هو الذى جعلهم يستعملون فى بحوثهم الفلكية الآلات المدرجة والسطوح المعلمة والاسطرلابات . وهو الذى هم بهم لاكتشاف علم الجبر ودعاهم لاستعمار الأرقام الهندية .

ويقول وليم دريبر : لقد قال محمد فى حجة الوداع : « أنا لست الا رجلا منكم ويذكر الناس بأنه قال فى وقت مضى لرجل ادركه الوجل من القرب منه : مم تخاف ؟ انى لست بملك ، انى ابن امرأة عربية كانت تأكل اللحم المجفف فى الشمس ، ثم رجع الى المدينة وقد توفى فيها فكان مما قاله فى وداع شعبه : « كل شىء يحدث على ما قضت به الارادة الالهية وفى اليوم المعين لحدوثه ، فلا يستطيع الانسان أن يؤخر ذلك اليوم ولا أن يقدمه ، وانى عائد الى الذى أرسلنى » .

وكان رأسه فى الآونة الأخيرة من دور النزاع الذى وقع فيه مستندا على ركبة عائشة وكان يغمس أصابعه بين آن وآخر فى اناء فيه ماء بارد فيرطب به وجهه ، ثم أقلع عن ذلك وحدق بعينيه الى السماء وقال بصوت خافت : الهى ، ليكن ما أردت فاغفر لى ذنوبى انى عائد اليك .

فهل يصح أن نتكلم بغير احترام عن رجل من هذا الطراز ، رجل يسترشد بتعاليمه الدينية اليوم ثلث العالم الاسلامى .

أن العالم لم ير دينا ينتشر بمثل السعة والسرعة اللتين انتشر بهما الاسلام فهو يسود الآن على البقاع الواقعة بين جبال التابى الى شواطىء المحيط الأطلنطى ومن وسط القارة الآسيوية الى حدود افريقيا الغربية ، وبذلك تكون قد ولدت أقوى امبراطورية لم ير العالم مثلها ، ولادة فجائية ، ناهيك أنها تمتد من المحيط الأطلنطى الى أسوار البلاد الصينية ، ولم تكن قد بلغت غاية امتدادها . فقد حدث بعد هذه المفاجأة أنها طردت خلفاء القياصرة ، واستولت على البلاد الاغريقية ، ونازعت الديانة المسلمة السلطان على القارة الأوربية نفسها ، وبسطت سلطان عقائدها خلال الصحارى البربرية حتى الغابات الوبئية ، وأرسختها من شواطىء البحر المتوسط الى خط الاستواء وليس الذى نجى أوربا من سلطان الاسلام هو سيف (شارل مارتل) ولكن الذى نجاها ما حدث فى باطن الامبراطورية الاسلامية من الخلافات الداخلية ، هذا الملك العظيم كله كان يغص بالمدارس والجامعات ، فكان يوجد منها فى منغوليا وبلاد التتار ومراكش وفارس والأندلس ، وفى أحد أطراف هذه الامبراطورية الضخمة التى كانت تبز فى السعة الامبراطورية الرومانية الى مدى بعيد ، كان يقوم مرصد فى سمرقند وآخر فى جيرالدا بالأندلس .

وقد تفوق المسلمون فى العلوم ، وكان تفوقها ناشئا من الأسلوب الذى توخوه فى البحث ، وهو الأسلوب التجريبى العملى ، ويلاحظ المطالع لكتبهم القدرة فى الميكانيكا وعلم توازن السوائل ونظريات الضوء والأبصار أنهم قد اهتدوا الى حلول مسائلهم من طريق التجربة والنظر بواسطة الآلات .

هذا الأسلوب أداهم ان يكونوا أول الواضعين لعلم الكيمياء والمكتشفين لعدة آلات للتقطير والتصنيع والأماعة (اسالة الجوامد) والتصفية ، وهذا بعينه جعلهم يستعملون فى أبحاثهم الفلكية الآلات المدرجة والسطوح المعلمة والأسطرلابات وهو أيضا الذى دفعهم لاستخدام الميزان فى الأبحاث الكيميائية وهو الذى هداهم لعمل الجداول ، عن الأوزان النوعية للأجسام ، والأزياج الفلكية وهو أيضا الذى أوجد لهم هذا الترقى الباهر فى الهندسة وحساب المثلثات وهو الذى هم بهم لاكتشاف علم الجبر .

ولو أردنا أن نستقصى نتائج هذه الحركة العلمية لخرجنا عن حدود هذا الكتاب ، فانهم رقوا العلوم ترقية كثيرة جدا وأوجدوا علوما لم تكن معروفة من قبلهم .

ويردد أندريه هيرفيه شبهة لقول أن عقائد الاسلام جامدة تتحكم فى كل ناحية من نواحى حياة المسلم اليومية .

ويرد فريد وجدى : كيف يمكن أن يكون جامده هذه العقائد وقد وصلت بالمسلمين الى هذه الآفاق ، وأقامت امبراطورية عظيمة ، وكيف أمكن تأسيسها وحفظها قرونا عديدة وهم يدينون بعقائد جامدة توجب على الآخذين بها الموت والشلل .

وهل يمكن أن يكون دخول مئات الملايين فى هذا الدين وتوالى انتشاره فى جميع قارات الأرض متغلبا دون دعوة على جميع الملل المنافسة له ذات الدعاة الذين يتفقون عشرات الملايين من الجنيهات كل سنة ، هل كل هذا نتيجة تعاليم جامدة لا تدع لأصحابها متنفسا فى الحياة . وفى هذا قول العلامة هويرد : « أثرت الديانة الاسلامية مع المسلمين تأثيرا بدرجة جعلت الأمم الاسلامية أشبه بأمة واحدة مؤلفة من أقطار متنوعة صهرت فى بقعة واحدة عند المسلمين وتصوراتهم الفلسفية كذلك واحدة ، وهم ممسكون تمسكا شديدا باعتقادهم القوى فى سمو العقائد الاسلامية .

٨ — الاسلام والفكر العربى القديم

يقول : أندريه هرفيه :

أن التعاليم الاسلامية ليست بشىء سوى عصارة فكر العرب القديم .

ويرد (فريد وجدى) فيقول : كان العرب وثنيير يعبدون آلهة كثيرة ، وكانوا يجعلون الحق للقوة ، وكانوا لا يعرفون للعدل حدودا الا ما تقرره التقاليد المبنية على أصول مناسبة للحالة القبلية التى كانوا عليها وكانوا لا يقيمون للمساواة وزنا بين الأقوياء والضعفاء ولكن بين البيوتات والجماعات .

فلما جاء الاسلام أمر بتوحيد الله وتنزيهه وأسقط الوسطاء واخلى مابينه وبين خلقه ، ونهى عن التقليد دون نظر ولا دليل ، ودعا الى التفرقة بين الحق والباطل والى العلم والفكر . والى التقيد بنواميس الأخلاق ، والى تجريد العمل لله فى جميع المقاصد ، وحرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وأهاب بالناس الى لزوم النظام فى كل شىء ، والاجتماع والالفة تحقيقا للوحدة الانسانية والى الحياة الحضرية الفاضلة وما تقتضيه من تعاطف واحسان ، والى محو فوارق الجنس واللون واللغة مقررا أن الكل أبوهم آدم وأمهم حواء ، وأنه لا فضل لأبيض على أسود ولا لعربى على أعجمى الا بالتقوى ، ودعا الى العلم والحكمة بأقصى ما تستطيع القدرة البشرية ، والى العدل المطلق بين الناس كافة ، والى القيام بالقسط والشهادة لله والى المساواة بين الخلق مهما كانت نحلهم وبيئاتهم والى تطلب الرقى الصورى والمعنوى فى جميع مظانهما . وعدم الجمود على حال واحدة . ثم دعا الناس الى وحدة عالمية وديانة فطرية

* * *

* * *

٩ — اضطهاد الفكر

يورد كتاب التغريب هذه الشبهة : « ان طبيعة الاسلام تأبى التسامح مع العلم » .

وقد اجاب الأستاذ الأمام محمد عبده عن هذا الاتهام فقال : يقول آخرون ان التاريخ يروى لنا أن بعض أرباب الأفكار قد أخذه السيف لغلوه فى فكره فلم يترك له من الحرية ما يتمتع به الى منتهى ما يبلغ به وليس يصح أن ينكر ما صنع الخليفة المنصور وغيره بالزنادقة .

وأقول أن كثيرا من الغلو اذا انتشر بين العامة افسد نظامها وأضر بأمنها كما كان من آراء الحلاج وأمثاله فتضطر للدخول فى الأمر لحفظ أمن العامة فتأخذ صاحب الفكر لا لأنه يفكر ولكن لأنه لم يرد أن يقصر حق الحرية على شخصيته بل آراد أن يقيد غيره بما رآه من الحرية لنفسه مع غيره فى غنى عما يراه هو حقا ، وتخشى الفتنة اذا استمر مدعى الحرية فى غلوائه . فلهذا يرى حفاظ النظام أن أمثال هؤلاء يجب أن يتقى منهم المجتمع صونا له عما يزعزع أركانه .

وقد ذكر أمام الحرمين فى كتابه (الشامل فى أصول الدين (ان كان بين الحلاج والجبائى رئيس القرامطة اتفاق سرى على قلب الدولة وأن هذا هو السبب الحقيقى فى قتل الحلاج . واذا عد عاد بعض رجال العلم الذين أخذتهم القسوة فى الاسلام وقتلتهم حماقة الملوك باغراء الفقهاء واهل الغلو فى الدين فما عليه الا أن ينظر فى أحوالهم فيقف لأول وهله على أن الذى اثار أولئك عليهم ليس مجردة العصبية للدين وأن ليست الغيرة عليه هى الباعث لهم على الوشاية بهم وطلب تنكيلهم ، وانما تجد « الحسد » هو العامل الأول فى ذلك كله والدين آلة فيه . ولهذا لا ترى مثل ذلك الأذى يقع الا على قاضى قضاة (كابن رشد) ورجوع الحاكم الى العفو عنه وانزاله منزلته دليلذلك ، أو وزير أو جليس خليفة أو سلطان أو ذى نفوذ عظيم بين العامة وهذا كما يقع من الفقهاء مثلا لايذاء الفلاسفة يقع من الفقهاء بعضهم مع بعض لا هلاك بعضهم بعضا كما يشهد به العيان ويحكى لنا التاريخ ، فليس هذا كذلك معدودا من معنى اضطهاد الدين للفلسفة لأن التحاسد أكثر ما يقع بين من لا دين لهم على الحقيقة وان لبسوا لباسه ، وانما ذلك الاضطهاد هو الذى يحمل عليه محض الاختلاف فى العقيدة أو ظن المخالفة للدين فى شىء من العلم أو العمل لضيق الدين عن أن يسع المخالف بجانبه وهذا ما لم يقع فى الاسلام ، اللهم الا أن يكون حادثا لم يصل الينا .

١٠ — الاسلام والفروسية

يردد كثير من كتاب التغريب شبهات حول موقف الاسلام من الفروسية ، وحول نقل الغرب لها ، ويرد (اتيان دينية) على هذه الشبهة فيقول : هذب الاسلام فروسية العرب وطهرها وادخل مبادئها الى أوربا ولم يبق أحد اليوم ينكر نسبة هذه المبادىء الى العرب وقد أشار الى هذه الحقيقة العالم المسيحى بارتلمى سان هيلار فى كتابه عن القرآن الكريم ، وقد ذكر واصف بطرس غالى الشىء الكثير عن تلك الفروسية فى كتابه « فروسية العرب المتوارثة » وجاءت أقوال هذا القبطى المصرى خير رد على ما أبداه بيرون من أوجه التعصب .

والاسلام لم يتمرد على أحكام الطبيعة بل سايرها وعمل على تهذيبها ولذلك لم يوص بالرهبنة بل حرمها ، ولم يشجع على تحريم الزواج بل بلغ به التساهل حد الترخيص بتعدد الزوجات ، ولا يستطيع انسان انكار فضل الاقتصار على زوجة واحدة ، ولكن ما العمل وهذا التحديد يصادم الحقائق ويعارض الطبيعة فى بعض الظروف ، بل اثبتت التجارب استحالة تنفيذه أحيانا ، ولا شك أن تحريم تحديد الزوجات لم يحقق الغرض المقصود منه بل انعكست الآية عندما اصطدمت بضرورات الطبيعة فحققت ثلاث نتائج خطيرة : الدعارة والعوانس من النساء والأبناء غير الشرعيين .

ولا تقف العقيدة الاسلامية عقبة فى سبيل التفكير فقد يكون المرء صحيح الاسلام وفى نفس الوقت حر الفكر ، وكما صلح الاسلام منذ نشأته لجميع الشعوب والأجناس فهو صالح كذلك لكل العقليات وجميع درجات المدنية ، وللاسلام على النفوس طابع لا يمحى ، وقد أيقن هذه الحقيقة الكونت دى كاسترى وهو الرجل المتعصب فى كتابه الاسلام حيث قال : ان الاسلام هو الدين الوحيد الذى ليس فيه مرتدون وينبغى أن لا يقام وزن للذين أرغموا على الارتداد عن الاسلام تحت تأثير العذاب كما فعلت محاكم التفتيش الأسبانية كما ينبغى الا يقام وزن لما تفعله بعض الارساليات الدينية من شراء ولدان العبيد وسلب الأطفال اليتامى عقائدهم منذ الصغر .

وعلينا أن نغض النظر عما يقال من أن الاسلام من عمل انسان ونحن نقول لهم أن جميع الأنبياء والرسل ان هم الا بشر يوحى اليهم من الله ، ومهما بالغنا فى احترامهم فلا يصح لنا أن نرفعهم الى مراتب الألوهية .

* * *

قال اتيان دينيه : أن الفروسية ونبالة قصدها ، لم يكن يعرفا الأقدمون من اليونان والرومان ، ولكنهـا كانت معروفة عنـد العرب ايام جاهليتهم ثم هذبهـا الاسـلام وطهرها تطهـيرا ، وعلى يده دخلت أوربا ووصلت الينا نحن الغربيين ولم يبق أحد اليوم يفـكر بنسبتها الى العرب وأشار العالم بارتلمى سان هيلار فى سـياق حديثه عن القرآن فقال : ان العرب هم الذين يرجع اليهم الفضـل على سادات أوربا وفرسـانها فى القرون الوسطى فى تعديل عاداتهم الخشنة وتلطيفها . ثم تعليمهم رقة العاطفة وتهذيب نفوسهم والرفعة بها الى حيث الانسانية والنبالة . وكل ذلك دون أن يصيبهم ضعف ينتقص من فروسيتهم وشجاعتهم شيئا، ويخطىء من يظن أن هذا راجع الى المسيحية وحدها رغم ما فيها من المزايا والفضائل .

ويقول ايتـان دينيه : وقد حفظ لنا التـاريخ فى سجلاته عن فروسية العرب وروحها العالية جميع أدلة العظمة الموشاة بالرقة والتهذيب .

ويصور واصف غالى موقف الغرب من الفروسية الاسلامية العربية فى كتابه فروسـية العرب المتوارثة ويرد عـلى ما ردده الشـاعر : بيرون من الادعاءات والتعصب .

يقول واصـف غالى « كان محمد يحب النسـاء ويفهمن ، وقد عمل جهد طاقته لتحريرهن وربما كان ذلك بالقدوة الحسـنة التى استنها فوق ما هو بالقواعـد والتعليم التى وضعها » .

وهو يعد بحق من أكبر أنصار المرأة العمليين ان لم يكن أولهم . فلقد كان بهن رحيما وعليهن حليمـا ، وكان لين الجانب كثير العطف عليهن ، عظيم الاحترام والتكريم لهن ، ولم يكن ذلك خاصا بزوجاته ، بل ذلك كان شأنه مع جميع النساء على السواء .

فهل تستطيع أن تقول شيئا من هذا عن الكثيرين من رجال الأديان الأخرى وقد كان أحـدهم (سان بونا فنتور) يقول الى تلاميذه : اذا رأيتم امرأة فلا تحسبوا أنكم ترون كائنا بشريا بل ولا كائنا وحشيا ، وانما الذى ترون هو الشيطان بذاته والذى تسمعون هو صـفير الثعبان » .

هـذا وعند العرب أحسـن قصص الفروسـية والنموذج الطيب لها . تلك قصة « عنترة بن شـداد » والنبى هو صاحب الفضل بالاشارة بها ، ولولاه لذهب العفاة على قصته .

وان محمدا وقد جعل ابن شـداد بطلا للفرسان وضرب به مثلا عاليا للفروسية ، ومما لا شك أن قصة عنترة هى قصة اسلامية فقد وضعها كتاب مسـلمون ومثلوا حوادثها وصاغوا أشخاصها فى حلة باهرة أوحت لهم بها الفضائل الاسلامية العالية .

ومن ذلك يتبين الخطأ الذى وقع فيـه (بيرون) ورينـان من اعتبارهما ان ما جاء فى هـذه القصة هو للعرب قبل الاسلام وأنه ليس من عادات المسلمين ولا من أخلاقهم .

على أن من كتاب الافرنج من أخذت منهم القصـة كل الاعجاب وهذا أحدهم (لامارتين) الشاعر الفرنسى الشهير وهو من ساح فى الشرق وعاش زمانا فى تركيـا وسوريا .

وقد أشار راشد رستم الى ما ذكر عن النبى من أنه قال : ما وصف لى أعرابى وأحببت أن أراه الا عنترة وذلك عندما سمع قول عنترة :

ولقـد أبيت على الطوى وأظـله
حتى أنال به كـريم المطعم

❋ ❋ ❋

١١ ــ الاسلام والتصوير والرسم

تقول الشبهة : ان تحريم الرسم أدى الى عرقلة العلوم جميعا وتحريم الرسم كان فى الأصل مقصورا ، على رسم البشر ولكنه الرسم باعتباره فنا ، كل لايتجزأ فاذا حرمنا رسم البشر وحرمنـا رسم أعضـاء الجسم للحيوان أو النبات وهذا عرقلة للعلم .

وقد أجاب على ذلك العلامة : محمد جميل بيهم : لم يرد أى نص فى الاسلام على تحريم الاسلام تصوير النبات وأعضاء الحيوان ، ولم يثبت أن الاسـلام حرم الرسم والتصوير على اطلاقه وعلى افتراض ثبوته فما كان ذلك من شأنه أن يؤثر فى عرقلة العلم بمقدار ماتوهم وأبرز دليل على أن الاسـلام لم يحرم التصـوير هى النقود المصورة الموجودة فى المتاحف .

وتحريم الاسلام للصور انما قصد مكافحة الوثنية

التى كانت لا تزال فاشية فى عصره فما لا شك فيه أن المسلمين لم يتقيدوا بهذا التحريم بعد أن زال خطر الردة الى عبادة الأوثان وذلك استنادا الى ما قررته الشريعة من تبدل الأحكام بتبدل الزمان .

وترد شبهه تحريم الاسلام للتشريح فتقول : ويعزى تأخر العلم عند العرب الى عقليات نشأت فى الحضارة الاسلامية وعاقت التجربة العلمية مثل ذلك مثل تحريم الرسم وتحريم التشريح (وتاريخ العرب المطول ج ٢ ص ٥٠٧) .

ويرد محمد جميل بيهم فيقول : لايوجد فى الاسلام نص فى صدد تحريم التشريح وما لا نص بتحريمه داخل بالشرع فى نطاق المباح ، على انه اذا ثبت أن فريقا من الجراحين المسلمين تورعوا عن تشريح الجسم البشرى اسوة بغيرهم احتراما للانسانية فالتبعة فى ذلك تقع عليهم وحدهم دون الشرع .

وقد أورد الجاحظ فى كتاب الحيوان تجارب كثيرة كان يقوم بها « النظام » فى تشريح أجسام الحيوانات .. وكتاب الزهراوى فى الجراحة يتضمن صورا ورسوما تتعلق بالتشريح .

وقد عرفت عناية العرب بعلم التشريح وبمعرفة نتائج اختبارات غيرهم الى حد أن حبيش الأعتم ترجم وحده كل التآليف التى الفها جالينوس فى هذا الموضوع .

وكان « الكتاب الملوكى » الذى الفه ابوبكر الرازى مرجعا لأوربا حتى ظهر « القانون » لابن سينا فاذابهم يتحولون اليه وبقى يدرس عندهم الى القرن التاسع عشر .

* * *

١٢ ــ الاسلام ونفسيات الشباب

كان روم لاندو قد زار القاهرة (١٩٣٧) وتحدث الى طائفة من الباحثين وكان من آرائه : أن الاسلام قد انفصل عن حياة الشباب ولم يعد مؤثرا فيها وقد شاركه طه حسين فى هذا الرأى فقال انه يرتاب أشد الارتياب فى تأثير الاسلام فى نفوس الشباب تأثيرا عمليا . وقد واجه هذه الشبهة العلامة فريد وجدى فقال : ولا نرى محلا لهذا الارتياب بعد ما تبين للخاص والعام أن الاسلام مجموعة أصول ومبادىء خالدة هى المثل العليا، فاذا كانت هذه الشبيبة لا تستطيع تكوين عقائد لها فى رعاية المثل العليا وهى تحت ظلال هذه الحرية ففى رعاية آية فلسفة قابلة للتحجر تستطيع ذلك واذا كانت تعجز عن تكوين معتقدات لها تحت ضوء المثل العليا فتحت اى ضوء ينتظر ان لا تعجز اذن .

لم يقل الاسلام منذ وجد الى اليوم وقد مضى عليه نحو اربعة عشر قرنا ، وان مذهبا بعينه يجب الاخذ به دون غيره ، فتركت للعقول حريتها تصل الى أرقى مما يمكن أن تصل اليه فى حدود الأصول الخالدة ، وفى كل زمان ما يناسبه .

والاسلام لا يفرض على الناس فلسفة كلامية غير قابلة للتطور تتحجر وتنحل بمرور الزمان وتغير الأحوال ولم يعين لوضع هذه الفلسفة طائفة تستأثر بالسلطان الروحى على النفوس وتجمع بينه وبين السلطان المادى .. أو تتنازل عنه لبعض المتغلبين ، ولكن الاسلام فرض على الناس اصولا خلقية وآدابا نفسية ومبادىء حيوية وهو اقصى ما يمكن أن يتخيله العقل من الاطلاق والسمو مثلا عليا لا يأتيها الباطل . تؤدى الآخذين بها الى السمو المادى والأدبى معا ، تاركا لهم حرية تكييف احوالهم على موجبها .

ولو كان للاسلام فلسفة معينة غير قابلة للتطور على مثال ما هو موجود منها فى كل الأديان المعروفة لبقيت جماعته الأولية على ما كانت عليه فى عهد مؤسسها الأول ولبادت تلك الجماعةتحت تأثير الصروف المختلفة . ولا نرى محلا للارتياب فى تأثير الاسلام فى نفوس الشباب تأثيرا عمليا ، بعد مابتين الخاص والعلم أن الاسلام مجموعة اصول ومبادىء خالدة هى المثل العليا للايصال الى الحسنيين .

لا أنه فلسفة معينة أو مذهب مقرر يفرض على الناس فرضا ولا يجوز لأحد أن يتخطاه الى غيره . فاذا كانت هذه الشبيبة لا تستطيع تكوين عقائد لها فى رعاية المثل العليا وتحت ظلال هذه الحرية ففى رعاية أى فلسفة قابلة للتحجر تستطيع ذلك .

لم يقل أحد فى الاسلام منذ وجد ، الى اليوم ، وقد مضى عليه نحو أربعة عشر قرنا أن مذهبا بعينه يجب الأخذ به دون غيره ، أو أن ما عمله الأوائل لا يمكن أن يعمل أكمل منه فتركت للعقول حريتها تصل الى أرقى ما يمكن أن تصل اليه فى حدود الأصول الخالدة .. وفى كل زمان ما يناسبه ، اننى منذ أكثر من ثلاثين سنة أعلنت موافقة الأصول الاسلامية لأرقى أصول

الفلسفة الأورباوية . فما وجدت من شيوخ الأزهر الا تشجيعا واعجابا .

وبعد فيرى المستر روم لاندو أن الاسلام لا يصلح مقوما للنفوس الا بعد احداث اصلاح عظيم فيه ، وهو لم يذكر كلمة اصلاح الا لأنه يتخيل أن الاسلام كسائر الأديان يقوم على فلسفة مؤلفة من آراء القدماء ومذاهبهم وشروحهم وتأويلاتهم ، فرضت على عقول أهله فرضا، وحرم عليهم النظر فى ادائها ، وفى مبلغ مناسبتها لأحوال الزمان والمكان ، وفى تعديلها كلما احتاجت الى تعديل ، ولو كان المستر روم يعلم أن الاسلام يقوم على أصول ومبادىء هي نواميس الحياة الانسانية الكاملة التى لا تتبدل ، وأن المسلمين الأولين بنوا آراءهم ومذاهبهم فى حدودها ، وانهم (ولاأقول لم يحرموا نقدها وتعديلها فحسب) بل حرموا على الناس أن يأخذوا بها تقليدا بغير نظر ، وأن يعتبروها نهايات ليس بعدها مذهب ، قلت ، لو كان المستر روم يعلم هذا لما ذكر كلمة (اصلاح) لأنه لا موجب له مع وجود عنصر رئيسى فى تركيب هذا الدين ومعترف به من جميع المسلمين ويعدل عن كلمة اصلاح الى كلمة (عمل) فنصح للمسلمين بأن يعملوا بدينهم .

* * *

١٣ — النفسية العربية

تردد اتهامات كثيرة حول العقلية العربيةوالنفسية العربية ، وقد اتسع نطاق هذه الاتهامات الى أبعد حد، ووجدت من دعوات الاقليمية الضيقة فى مصر فى الأربعينات تشجيعا لها ، حيث كان المفكرون يحاولون الفصل بين المصريين والعرب عقليا . وقد وسع دعاة التغريب والشعوبيون هذا المجال ، ورددوا شبهات متعددة حول نفى صفة الأمة عن العرب ، واتهام العقل العربى ، بأنه يقسم الكل الى أجزاء ولا يضم الأجزاء فى كل واحد ، وانه لا يجمع الحقائق المجردة بل يميل تلقائيا الى تجميع الحقائق التى ترضيه عاطفيا ، وأن الجنس السامى ضيق العطن قصير النظر ، ضعيف الخيال ، راكد الهمة .

وقد ردد هذه الاتهامات طه حسين واحمد امين ومحمود عزمى وحسين مؤنس وسلامة موسى وأورد توفيق الحكيم فى هذا المعنى مقالا مطولا فى ذلك نشره فى الرسالة (١ يونية ١٩٣٣) والحق أن هذه الاتهامات لا تصمد للحقيقة المجردة ، التى تكشف عنها الثقافة الاسلامية العربية ذات الفاعلية الحية القوية التى ما تزال أساسا للثقافة العصرية فى العالم الاسلامى ، ولا شك ان استمرار هذه الثقافة اكبر دليل على دحض كل ما وجه اليها من اتهامات انتقاضها ، ولسنا وحدنا الذين نقول هذا أو ندعيه بل ان كبار كتاب الغرب المنصفين قد قالوه ورددوه وفى مقدمتهم جوستاف لوبون ودوزى وكلودفارير وسوبر ترام توماس .

ويكفى أن ننقل هنا ما قاله اسكندر باول فى كتابه (عرش الطواويس) حين يكشف مدى تعصب الغرب فى الحديث عن العقل العربى : ان الأكاذيب والأضاليل والدعايات التى قيلت عن العرب ظلما وعدوانا لم تكتب عن أى شعب آخر فنحن فى الغرب نطبع العربى بطابع هو منه برىء ، فالنفسية العربية البدوية هى أحق النفسيات بالدراسة ، ليس لطرافتها فقط بل الخير الذى يتدفق منها وللجرأة والاقدام .

وهذا بروترام توماس : الرحالة الانجليزى الذى قام برحلات متعددة فى شبه الجزيرة العربية ، اعتمد على رحلاته فى تصحيح الآراء عن ماضى بلاد العرب فى كتابه (العرب) يقول :

ليس فى العالم أمة تفوق العرب فى الكرم المطبوع، فانهم ليعطون باليدين ، ويعطون عطاء القلب المفعم بأريحية العطاء ، لا يشحون ولا يحسبون حساب المثوية المنفطرة ، وانما يجودون عفو السليقة المطبوعة عن هذه الخصال .

ولقد هزنى الاعجاب عشرين مرة ، لا مرة واحدة أو مرات قليلة بما شهدت من الدلائل الصغيرة العارضة التى كشفت عما جبل عليه رفقائى البدو من اسلجايا الانسانية ، فقد كنت بعد ساعات العطش والركوب المضنى،أخف ، ومعى واحد أو اثنان منهم — الى ماء طال بنا ارتقابه لنسبق الى وروده ، فكان السابقون معى يرقبوننى وعلى وجوههم أمارات الرضى والغبطة اذ أنا مقبل على الماء أطفىء غلتى فى شوق ولهفة ، بيد أن واحدا منهم لايبيح لنفسه قطرة من الماء يبل بها شفتيه قبل أن يصل رفاقه المتخلفون ، ولعلهم لا يصلون الا بعد ساعة طويلة ليشربوا معا مجتمعين ، ولاحظت مرة أن أحدهم قد ادخر كسرة خبز أعطيته اياها ليقاسمها رفيقه .

وندر جدا أن عبرنا بخيمة كائنة ماكانت من الضعة والشظف — دون أن يعدو الينا صاحبها ، ملحا علينا فى

مقاسمته تعب اللبن والتمرات التى عنده ، وربما كان فى اشد الحاجة اليها ، هذا وانت غريب وما رآك من قبل ، ولن يراك بعد ارتحـــالك . ولكن مع هذا يؤثرك على نفسه ويعطيك ما هو فى أمس الحاجة اليه ، وقد كنت آمنا على حياتى مع انى كنت أحمل المـــال الكثير ويعلم رفاقى بما أحمل .

وقال : بروترام توماس ان المسلمين كانوا أصحاب الفضـــل الأول فى تعليم الأوربيين ضـــبط الآلات على حســـاب النسب الرياضية بعد أن كانوا يضـــبطونها بالمرانة والسماع ، وان فلسفة ابن رشد كان لها أثر فى تطور المذاهب المسيحية فوق الأثر المعروف لها فى تطور العلم والتفكير ، وان شعر الأندلســـيين كان له أثر فى الشعر الفرنسى ومن ثم فى معظم الأشعار الأوربية .

ويقول رينهـــارت روزى المستشرق الهولندى فى كتابه (تاريخ مسلمى الأندلس) .

لم يرث أحد على سطح الغبراء نصيبا أوفر عن نصيب العربى فى الحرية ولا قسطا أعظم من قسطه ، فهو يفخر دائما قائلا : « لا اله الا الله » والحرية التى يرتع فى بحبوحتها لا تغلها سوى قيود قليلة ، حتى ان مبـــادىء متطرفى الأحرار تظهر الى جانبها كمبـــادىء استبدادية .

* * *

وفى هـــذا المجال تتحدث الرحالة الانجـــليزية : روزينا فوريس التى قامت برحلة فى صحراء ليبيا ســـنة ١٩٢٦ تقريبا ، والتى اشتهرت برحلاتها فى الحبشـــة واليمن والحجاز والتى حاولت أن تدخـــل مكة متنكرة فى ثياب سيدة مصرية مسلمة ، تقول : فى وسعى أن أؤكد دون أن أتهم بالمبالغة أو الاعجاب بنفسى ، أنه ليس بين بنـــات الشمال من تســـتطيع أن تتكلم عن العرب كما أستطيع أنا ، ولا أدرى ماذا كان هذا من حســـن حظ أصـــدقائى العرب أو من ســـوء حظهم ، واذا ذكرت الشهامة مع المرأة وجب أن نحنى رؤوسنا تحية واجلالا أمام أقل بدوى يقود الجمال فى الصحراء . لقد وقع لى أكثر من مرة ، أن عشت وحيدة الشـــهور الطوال مع هؤلاء الرجال الأشـــداء سمر الوجوه براقى العيـــون رومانى الأنف ، يهتاجنى كما يهتاجهم دفء الصـــحراء ويملأنا نشوة نسيم الليل الجاف ، ويغمرنا القمر بغلالة بيضاء من أشعته السحرية ، ومع ذلك لم يحاول منهم عربى واحد ، منتصب القامة مفتول العضـــل ، مطبوعة على وجهه البرنزى اللامع كبرياء الصحراء والقرون ، أن يتجنب الى او يهمس فى أذنى شعر المجانين وأقول لهم : الا تشتهون المرأة يا عبد الله ، ويقول : نعم ، ولكنا لا نشتهى الا ما ملكت أيدينا » .

وفى هـــذا رد ، ليس فقط على الذين لا يعرفون هـــذه الحقائق من كتاب الغرب وهم معذورون حـــين لا يعرفونها لقلة التجربة ، ولكنها لكتابنا الذين يعرفون ذلك جيدا ومع ذلك يرددون ما يقوله خصـــوم العرب والمسلمين .

* * *

١٤ ـ الفـــكر العربى الاسلامى فـــكر تجريدى

أثار روم لاندو ما ردده كثـــير من الغربيين الذين يزعمون أن فكر العرب فكر تجريدى فقال : « الفـــكر التجريدى غير مجار للحوادث لأنه يتناول كل حادثة كما تعرض له فى حينها وهو من ثم يفرض الفروض النظرية والمباحث الجدلية .

وقد رد على هذه الشبهة لطفى السيد فقال : بل أن الفكر العربى أشـــد ابغالا فى الواقعيات من الفـــكر الأوربى ، وهذه شريعتنا الدينية التى استشهدت بهـــا على نزعته التجريدية تتناول شؤون الحيـــاة اليومية ولا تقتصر على مسائل اللاهوت والأخلاق ، كما هـــو الحـــال فى الشريعة المســـيحية . وان ثمرات الفقـــه والتشريع الاســـلامى تكذب هذه النظرية ، فان هـــذه الأصول ترينا واقعية الفكر العربى وكيف أنه كان يتناول كل حادث يقع فى حينه ثم يضع له الحل » .

وقد كشـــف هذه الشبهة ودحضـــها عشرات من الباحثين ، وهـــذا بارتلمى سانهلير يقول : ان الدين الاسلامى قد أحدث رقيا عظيما جدا فى تدرج العـــاطفة الدينية ، فقد أطلق العقل الانسانى من قيوده التى كانت تأسره حول المعـــابد وبين أيدى الكهنـــة ذوى الأديان المختلفة فارتفع الى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هـــذه الحياة ، ثم ان محمدا بتحريمه الصور فى المساجد وكل ما يمثل الله قد خلص الفـــكر الانسانى من وثنية القرون الأولى ، واضطر العالم ان يرجع الى نفسه وأن يبحث عن خالقه فى صميم روحه .

* * *

١٥ — مدنية الاسلام والعناصر غير العربية

ذكر البارون كراوى دي فو فى كتابه « مفكرا الاسلام » أن معظم الفضل فى مدنية الاسلام لغير المسلمين من الشعوب أو لمن تظاهروا بالدخول فيه . وقال ان مدنية الاسلام قامت بعناصر غير عربية وقد رد عليه « كرد على » فقال : انه اخطأ فى قوله ان مدنية المسلمين قامت بعناصر غير عربية ، وفاته أن الذين دخلوا فى الاسلام من الفرس والقبط والسريان والروم درسوا فى مدرسة العرب وأخذوا لغتهم وثقافتهم ودينهم وعاداتهم ، واذا كان ابن سينا والغزالى والبيرونى والرازى مثلا أعاجم بأصولهم فهم عرب بتربيتهم وثقافتهم ، واذا كان الجاحظ وابن رشد وابن خلدون عربا بأصولهم وثقافتهم فهم لا يزيدون شيئا عمن تقدم ذكرهم من الغناء والمنزلة ولا ينقصون ، وليس فى الغرب اليوم أمم خالصة بعنصرها ، والانسان ابن تربيته ومحيطه على الدوام . وقد أشار احد المفكرين الفرنسيين هذا المعنى حين قال : نحن مدينون بجزء عظيم من تاريخنا وآدابنا وفنوننا لمن كانوا غرباء عنا وليسوا فى الأصل من عنصرنا .

* * *

١٦ — جوهر الفكر العربى الاسلامى

وقد ترددت عشرات الشبهات حول جوهر الفكر العربى الاسلامى فى محاولة انتقاصه ومرجع هذه الشبهات فى الأغلب الى عجز الباحثين المتصدين لهذه القضية عن فهم جوهر هذا الفكر نتيجة لتأثرهم بفهم كلمة « دين » والترجمة اللفظية لكلمة اسلام، وللعلاقة بين الدين والعلم التى عرف الغرب تاريخها ومواقفها ، ومحاولة فهم الاسلام على أنه « دين » فحسب . بينما هو دين ومدنية وفكر ، غير أن بعض الباحثين المنصفين حاولوا تعمق هذه المسائل ، فالفريد كابتول سميث يقول « ما من دين استطاع ان يوحى الى المتدين به شعورا بالعزة كالشعور الذى يخامر المسلم من غير تكلف ولا اصطناع ، وان العربى لا يفهم الاسلام حق الفهم الا اذا ادرك أنه « اسلوب حياة » تصطبغ به معيشة المسلم ظاهرا وباطنا ، وليس مجرد أفكار وعقائد يناقشها بفكره » .

وفى مجال دعوى وقوف (الاسلام) عقبة فى سبيل حرية الفكر يقول اتيان دينيه : أن العقيدة المحمدية لا تقف عقبة فى سبيل الفكر ، وقد يكون المرء صحيح الاسلام وفى نفس الوقت حر الفكر ، وكما أن الاسلام قد صلح منذ نشأته لجميع الشعوب والأجناس فهو صالح كذلك لكل أنواع العقليات وجميع درجات المدنيات .

وفى نفس المعنى يتحدث الجنرال بوهرر : الاسلام يبقى قابلا للتطور حتى فى ظل الدولة المدنية ، أن كل اصلاح يفرض على المسلمين فرضا لابد له من أن ينهار عاجلا أو آجلا .

ويكذب فبلكس فالى المجرى شبهة جمود الاسلام فيقول . ان هذه الدعوى لا دليل عليها ، لقد كان الاسلام فى كل عصوره مثارا للحركة الفكرية فى التاريخ أما الدكتور بول دى ركلا فيرى سعة الفكر الاسلامى وقدرته على استيعاب أرقى نظريات الفكر وتطورات الحضارة فيقول : « لست بمغال اذا صرحت وقلت أن الاسلام مفتوح بابه على مصراعيه ، وهو واسع الأرجاء ليتلقى الرقى الحديث الذى أنتجته الأجيال الطويلة ، وليس كما يزعم البعض بجمود الأطراف وضيق المدخل لأن التعاليم الرفيعة وضعت لكرور الدهور ، وستبقى خالدة وضاءة الأنوار تكشف كل مدنية تتمخض عنها العصور » .

ويرى جب أن الفكر الاسلامى العربى « قد استطاع أن ينشىء خلال السنين الطويلة توازنا اجتماعيا يدعو الى الاعجاب من جميع الوجوه » .

أما مصدر تأخر المسلمين فانه كان موضع النظر الصائب ، وفى رأى جوستاف لوبون « أن تأخر المسلم يرجع الى تركه روح الدين وتشبثه بالعقائد الباطلة فان الدين قوة أدبية لا يستهان بها ، أن الشعب الذى يريد الرقى لا يقطع الصلة التى تربطه بماضيه « ويرى جوستاف لوبون . أن العلوم العصرية لا تفيد المسلمين الا اذا قرنت بتربيتهم الدينية ، وسارت جنبا الى جنب مع أوضاعهم وعقائدهم ، وأن تهذيب المسلمين بالمعارف العصرية الأوربية خارجا عن دائرة تقاليدهم وعقائدهم يزيدهم انحطاطا وفساد أخلاق ، ولن تنفعهم هذه العلوم الا اذا كانت ضمن دائرة عقيدتهم وقوميتهم » .

بل ان جب يرى أن الاسلام كان دائما مصدر النهضة فى العالم العربى فيقول : « لم تقم حركة وطنية فى العالم العربى الا وكانت الروح الاسلامية أساسها ، فالعرب يتمسكون بلغتهم وأدبهم ويتغنون بمجد الاسلام . ويرد على شبهات القول بابدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية فيقول : « هل يفكر العرب

فى ابدال لغتهم بالحروف اللاتينية أو أن يتنحوا عن لغة القــرآن التى تربطهم بالعـــالم الاسلامى كافة . هــذا مستحيل ، وستبقى الروح الاسلامية تســود بلادهم ، وتتقدم ابدا بلا كل ولا ملل ، لن يطرا عليها اى ضعف او اى وهن . أما انصـــاف الفـــكر العربى الاســـلامى وسماحته وانفســـاح آفاقه ، فليس أقوى دليلا عليه وردا على ما وجهه اليه من شبهات من كلمة « جب » :

ان العرب اكثر انصافا فى دراسة الاديان ، فقد نشروا كتبا كثيرة فى فلسفات الأمم الكبرى فى موضوع الأديان البشرية ، فالعرب أول من الفوا فى الملل والنحـــل لانهم كانوا واسعى الصدر تجاه العقائد الأخرى ، وحاولوا ان يفهموها ويدحضـــوها بالبرهان والحجة ، ثم انهم اعترفوا بمـــا اتى قبل الاسلام من ديانات توحيـــدية ، ويخص ابن حزم بالنصيب الأوفر . وقال : ان البيرونى كتب فى اديان الهند فى القرن الخامس من الهجرة ، ولم يمس عاطفة احـــد من أهلها ، وكان اذا كتب فى نحـــلة يوهمك انه هو احد ابناء تلك النحلة لتلطفه فى وصـــف شـــعائرها » والواقع أن العـــرب قد ترجموا لجميـــع مخالفيهم بتسامح شديد ، للنصارى واليهود والسامريين والمجوس ، وفى طبقـــات الأطبـــاء لابن أبى أصـــيبعة وطبقات الحكماء لابن القفطى الأدباء لياقوت ، وفى الوافى بالوفيـــات ، وفى تاريخ حكماء الاســـلام البيهقى أمثلة واضحة لهذا التسامح .

وليس ادل على رحابة آفاق الفـــكر الاسلامى من اهتمام العرب بالشعر ، يقول جب : انه يعطى صورة النفس المتطلعة أبدا الى الآفاق البعيدة . وكان لســـانا للجماعة العربية التى انصهرت فى عملية بناء وانشاء .

أما انصاف الاسلام فواضح فى نظرته الى أتبـــاع الأديان الأخرى :

يقول تريتون : الاسلام ينظر الى اتبـــاع الأديان الأخرى نظرة تسامح ورفق ، وفى العصور الوسطى ، كان اليهود سعداء بالعيش بين المسلمين أكثر مما كانوا بين المسيحيين ، أما سماحة حكم العرب فقد اعترف بها كل باحث غير متعصب . يقول ســـتانلى لين بول : ان سماحة حكم العرب بالأندلس وجمـــال مدنيتهم واتساع مدى ثقافتهم أسمى من أن يصل اليه انكار منـــكر ، أو جحود جاحد ، وان فى آثار قرطبة واشبيليه وغرناطه التى لا تزال ماثلة الى اليوم من معجزات البناء والهندسة ما يخجـــل كل من يدعى أن أمة العرب أمة خـــراب أو تدمير .

١٧ ــ شبهة التعصب

١ ــ كانت تهمة التعصب من اقسى الاتهامات التى وجهت للاســـلام ، ومن أكبر شبهات التغريب للفـــكر العربى الاسلامى ، وعندنا ان كل الاتهامات التى وجهت الى الاســـلام والثقافة العربية الاســـلامية بأنها مدعاة التعصب لم تصدر من أقلام منصـــفة ، وانما جرت على لسان دعاة الاستعمار أو المبشرين او كتـــاب التغريب والشـــعوبية ، تدحض هذه الشبهة كلمـــات المثقفين المسيحيين أنفسهم ، وبعض كتـــاب الغرب المنصفين ، فهذا الدكتور نبيه أمين فارس يرى « أن الاســـلام بعد العـــربية أعظم عامل مشـــترك بين العرب فى جميـــع أقطارهم ، ولقـــد أظهر الاسلام فى المـــاضى من رحابه الصدر وسعة النفس ما يسر المسلم وغير المسلم ، واذا ما استعرضنا التفكير الاسلامى فى العقود الثلاثة الأخيرة ومحـــاولات الأكثرية الاسلامية فى العـــالم للتقرب من اخوانهم غير المســـلمين من العرب نرى فيهـــا مدعاة للطمأنينة الى أن الاسلام وهو دين الأكثرية العربية لن يكون فى المستقبل اداة للتفريق بل للتأليف » .

ومن القضايا الكبرى التى جرى اتهـــام الاسلام والفكر العربى الاسلامى فيها بالتعصـــب فتنة الدروز والموارنة سنة ١٨٦٠ ، وما تزال كتب التاريخ الحديث والبحث الأدبى مشحونة بالاتهامات حول هذه الواقعة بالذات ، ولسنا نحـــاول أن ندفعها الا بما دفعهـــا به دبلوماسى انجليزى هو السير ريتشارد وود قنصل دولة انجلترا ووكيلها السياسى فى الشام فى هذه الفترة وقـــد كشف فى تقريره وجه الحقيقة فى هذه القضـــية ، فهو يكشف عن سماحة الاسلام والمسلمين على هذا النحو الذى تضمه كلماته الواضحة الصريحة :

« من أوهام الناس أن الاسلام يمنع مساواة أهل الذمة بالمســـلمين فيما لهم وما عليهم ويثنيوا عن الأخـــذ بأسباب التقدم والحضارة لأنه لا يجيز انتشار المعـــارف والتحلى بالعلوم ، وانا أعتمد فى رد هذه الأوهام الباطلة على فتوى صدرت من شيخ الاسلام فى المملكة التونسية أتى فيها على بيان ما جاء به الكتاب (القرآن) وأوضحه المفسرون فى حقوق الذمى وحقوق المســـلم ، وما يجب على الأمير لرعاياه من غير تفريق بين مذاهبهم وأجناسهم وما للرعايا الذميين من حـــق الاشـــتراك بالرأى فى كل ما يتعلق بمصالح الوطن .

وهو (أحمد بن الخوجة) شيخ الاسلام فى تونس ، وله سعة علمه بأصول الفقه ، وبعد نظر بمقتضى أحوال

الزمان . قال : ان الأصل فى « الاسلام » قاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومن آكد الواجبـات على الخلق التعاون والتآزر على حفظ المصالح وتأييد الحق وكف النفوس عن شهواتها ، والقرآن يتضـمن أحكام الدين ، وفى الوقت نفسه يشمل الأمور المدنية والأصول السياسية .

ان الشريعة تقيد أوامر الامام بقيد المصلحة العامة وكل تصرف يصدر عن الامام ويكون منافيا للمصـلحة العامة فهو لاغ بحكم الشرع الاسلامى ، ولا يبنى عليـه عمل ، ومن هذا يستنتج أن الانتقاد جائز ، والحاجة الى المشورة ثابتة ، يؤكد ذلك قول الله تعالى « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخـير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » والمراد بالأمة هنا الطائفة أو الجماعة تهدى بقية القوم وترشدهم الى أنفع الوسائل للمحافظة على حقوق الوطن وأحكام الدين ، ومع ذلك فانه لا مانع يمنع الامام — اذا رأى فى أهـل الذمة من يثق بهم ويعتمـد على معرفتهم وأمانتهم واخلاصهم لخدمة الوطن أن يدخلهم فى مستشارى دولته .

ومعلوم أن أهل الذمة لهم ما للمسـلمين وعليهم ما عليهم اذا ثبت أن غايتهم الوطنيـة موافقة لغـاية المسـلمين وأنهم مثلهم فى ايثار مصالح الوطن والخير العـام ، فاذا ما اتفقت كلمة الشـعب فى كل المذاهب واتحدت غاياتهم وقع الاتحاد الوطنى الذى هو الوسيلة الوحيدة لسعادة الأمة وراحتها . ان الحرية التى نحن ملزمون بهـا لمن هم ليسوا على ديننا توجب علينـا ان نستمع لشكواهم وأن نتدارك كل ما يضر بمصالحهم ، وقد نص القرآن وابن حزم على أن من حق حماية أهل ذمتنا ، اذا تعرض الحزبيون لبلادنا وقصدوهم فى جوارنا — أن نموت فى الدفاع عنهم و لايخفى على المتأمل فى هذه الفتوى أنها تفتح أمرين مهمين : (الأول) ان الاسلام يجيز استشارة أهل الذمة فيما يتعلق بالنظامات الدنيوية والثانى أن الاسـلام لا يمنع من استخدام النصـارى واليهود يؤيد ذلك ما قاله العلامة (الماوردى) فى كتابه المترجم الى اللغة اللاتينية : لا مانع فى الشرع يمنع من ان يكون اليهودى عاملا فى منصب ولو كان منصب الوزارة، وللعالمين الشهيرين ابن العربى وسعد الدين التفتازانى كلام فى ذلك ومثل هذا منقول عن كثير من العلمـاء مثل صلاح الدين وعبد الحليم وحجة الاسلام الغزالى وكلهم متفقون على أن اشتراك رأى الأمة فى شئون المملكة ليس جائزا فقط بل هو القاعدة الأساسية فى الاسلام .

وما حدث فى عهود متأخرة فى الاسلام .. يخالف الاسـلام وأن تبادر أنه من الاسـلام لمن لا يعرفونه . والراسخون فى العلم من المسلمين لا ينكرون أن الفوضى والاختلال فى الممالك الاسلامية ناشىء عن تسهيل العلماء على السلاطين المستبدين ما تشـاؤه أهواؤهم ، ومن اغضائهم عن أعمالهم مهما كانت .

والشيخ محمـد بيرم ينسب الفسـاد الواقع الى جهل أدعياء العلم أو تجاهلهم ، لا الى نقص فى الشريعة فيما يتعلق بمقتضـيات الأحوال ، لأن الشرع مداره العدل والانصاف بين الناس ، وأن جهل هؤلاء هو الذى جعل العامة يتوهمون أن الاصلاح والحرية والمساواة والحضـارة ونحوها مخالف للشرع . وأن الذى يدرس نصوص الشريعة الاسلامية ويختبر مقاصدها الحقيقية يجدها بعيدة بمراحل عما ينسـبه اليها ذوو الأغراض وحاشا أن يكون الاسلام غير واف بما تستدعيه الظروف والأحوال من الاصلاح ، وكبار العلماء متفقون على أن ما يتعلق بالعبـادات من أحكام الدين هو الذى لا يقبل التغيير بوجه ، أما ما يتعلق بالسياسة والادارة فليس كذلك ، وقد روى عن عمر بن عبد العزيز أنه كان يقول تحدث للناس أقضية بحسب ما يحدثونه من الفجور . ومثل ذلك ما ينقـل عن ابن عقيل من أن للحـكومة أن توسع مجال نظرها السياسى فيما ليس منصوصا عليه، وأن لا تتوقف فيما لم تقيد الشريعة حكمه .

على أن كثـيرا من مؤلفى الأفرنج يزعمـون أن المسـلمين لا يتسنى لهم التقدم والارتقـاء فى تاريخ الحضارة ما داموا مقيدين بنصوص القرآن التى يقولون أنها لا تلائم المعارف واكتساب الفنون ، وهذا أيضا وهم باطل نشأ عن الجهل بمقاصـد القرآن ، ويكفى برهانا على بطلانه (تاريخ صدر الاسلام) وعناية علماء العرب بالمعارف والفنون ، ودرسهم كتب الحكماء الأقدمين مثل أرسطو واقليدس وأبقراط وبطليموس وغيرهم ، بعد أن نقلوها الى العربية وليس فى نصوص الدين ما يمنع من تدريسها ، وهذا حجة على أن الاسلام لا يقيد للعـلم حدودا .

وأكبر بواعث سوء التفاهم هو انتشـار الظن فى أوربا بأن الاسلام دين القوة والسيف ، ولكن هذا الظن مخالف للواقع ، ومناف لطبيعة الاسـلام « وقاتلوا فى سـبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » .

* * *

تقرير السير ريتشارد

الذى يبحث بحثا دقيقا عن أسباب الفتن التى سفكت فيها الدماء فى الشرق يعلم أن الباعث الوحيد على حدوثها هو اصبع السياسة الأجنبية التى تنتهز الفرص لايقاد نار الفتنة بين ذوى الأحقاد ، ومن هذا القبيل واقعة الدروز والموارنة وواقعة الصقالبة والبلغاريين وقد تبين أن الاعتداء انما كان يبتدىء من جانب النصارى (كان ريتشارد وود قنصلا لدولته فى دمشق ١٨٦٠) وليس مرادنا أن نبرىء المباشرين لتلك الفظائع ، ولكننا نريد أن نقول ان الاسلام لا يجيز القتال الا فى مواقف الدفاع بدليل قوله تعالى (فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين)ومن الخطأ توهم أن المغالاة جاءتهم من تلاوة القرآن ، اذ الحقيقة أن كل المسلمين العثمانيين — الا العرب — سواء كانوا أكرادا أو صقالبة أو روما أو أتراكا لا يعرفون العربية أصلا . وبالتالى لا يتيسر لهم أن يقرءوا القرآن أو يفهموه ، ويؤيد قولنا هذا أفاضل علماء الأفرنج الذين سعوا فى بلاد المشرق ، وهم يشهدون بأن سكان هذه البلاد ميالون الى العناية بالصنائع واكرام الضيف والطاعة للنظام وملاطفة أهل ذمتهم وحسن معاملتهم .

ولكنى أقتصر على ما ذكرت فى رد قول القائلين بأن القرآن مانع للاصلاح الذى تقتضيه الأحوال أو ينهى عن تلقى العلوم والأخذ بالفنون النافعة أو يبيح الفظائع والاعتداء على أهل الذمة بل هو قد سمح الذميين بحرية الدين والتقاليد وأوجب مساواتهم مع سائر الأهالى ولم يمنع استشاراتهم فى مصالح الوطن .

٣ — واشار غير واحد الى تسامح الاسلام ونفى عنه شبة التعصب ، وقد أشار سير توماس أرنولد الى تسامح الاسلام فى كتابه (الدعوة الى الاسلام) فقال : لما كانت نظرية العقيدة الاسلامية تلتزم التسامح وحرية الحياة الدينية لجميع أتباع الديانات الأخرى فقد كان ذلك أقوى منفذ الى القلوب ، وقد ظل أصحاب الأديان الأخرى ينعمون بدرجة من التسامح فى ظل الحكم الاسلامى لم نجد لها مثيلا فى أوربا حتى عصور حديثة جدا . ان التحويل عن طريق الاكراه الى الاسلام محرم طبقا لتعاليم الاسلام « لا اكراه فى الدين » وقوله « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » وان مجرد وجود كثير من الفرق والجماعات المختلفة التى ظلت قرونا فى ظل الحكم الاسلامى لدليل ثابت على ذلك التسامح ، كما يدل على أن الاضطهادات التى كانوا يدعون الى معاناتها بأيدى الطغاة والمتعصبين انما كانت ناتجة من بعض ظروف خاصة واقليمية ، أكثر من أن تكون منبعثة من مبدأ مقررمن التعصب . وان ما حدث من التعسف فى بعض المواقف لم يكن بموافقة الشرع الاسلامى فى شىء ، وقد ورد عديد من الآيات القرآنية التى تنهى عن الاكراه فى الدين ، وتوحى باعتبارها الوسيلة الشرعية الوحيدة لنشر العقيدة وقد أعلن كبير وزراء صلاح الدين « القاضى الفاضل » عبد الرحمن بن على « ان رجلا قد أرغم على الدخول فى الاسلام ، لا يصح شرعا أن يعد مسلما .

ولم يفعل اىحاكم من حكام الاسلام الأقوياء مافعله الأسبان بالعرب ، والانجليز باليهود من استئصال شأفة الرعايا من أصحاب الأديان الأخرى أو نفيهم من بلادهم ، وكان هؤلاء الرعايا فى الأغلب عزلا من اى سلاح وان الذين لم يفعلوا ذلك انما تحروا تسامح الاسلام واقوال الشريعة السمحاء . ويقول مسيو جوتيه
الأستاذ بجامعة الجزائر فى كتابه أخلاق المسلمين وعاداتهم : لقد ثبت أن الفاتحين من العرب كانوا على غاية من فضيلة المسامحة التى لم تكن تتوقع من أناس يحملون دينا جديدا ، وما فكر العربى قط فى أشد أدوار تحمسه لدينه الجديد انيطفىء بالدماء دينا منافسا لدينه.

وليس شىء أدل على التعصب من عبارة مونتسكيو فى كتابه « روح القوانين » : اذا طلب منى أن أدافع عن حقنا المكتسب لاتخاذ الزنوج عبيدا فانى أقول ان شعوب أوربا بعد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين لمتر بدا منأن تستعبد شعوب أفريقيا لكى تستخدمها فى استغلال كل هذه الأقطار الفسيحة . والشعوب المذكورة ما هى الا جماعات سوداء البشرة لا يمكن للمرء أن يتصور أن الله (وهو ذو الحكمة السامية) قد خلق روحا طيبة داخل جسم حالك السواد .

٤ — والأمر بعد ذلك فى « التعصب » هو أمر الغرب ، فان هذا الاتهام يعود اليه هو ، واضحا مؤيدا بالدليل والتاريخ فى كل المواقف . هذا التعصب الواضح بالنسبة للمسلمين من الاصرار على اخراجهم من أوربا اخراجا كاملا . وما عرف من التعصب بالنسبة لحرق كتبهم وتنصيرهم وما عرف من محاكم التفتيش من صور تزرى بالكرامة الانسانية .

ولم تقم حرب دينية قط بين المسلمين ولا فى العالم الاسلامى وكان هدفها ابادة فرقة لأهداء الأخرى ، وذكر ابن عساكر فى سيرة ابن فاتك الذى شهد فتح دمشق أنه تولى قسمة الأماكن بين أهلها بعد الفتح ، فكان يترك الرومى فى العلو ، ويترك المسلم فى أسفل لكيلا يضر

بالذمى ، وروى البلاذرى فى كتاب فتوح البلدان انه لما جمع هرقل صاحب الروم جموعه للمسلمين رد المسلمون ما كانوا قد اخذوه من أهل حمص من الخراج ، وقالوا لهم : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم . فقال أهل حمص : ان ولايتكم وعدلكم احب الينا مما كنا فيه من الظلم . وأشار اتيان دينية الى تعصب الغرب فقال : مما يؤسف له ان أوربا متمسكة بتقاليد سياسية يرجع تاريخها الى عهد الحروب الصليبية ولم تحد عنها الى الآن ، وكلما همت بنسيانها قام فى الحال أعداء الاسلام أمثال غلادستون وكرومر وبلفور مطران كنتربرى والمبشرون فى جميع المذاهب فى وجهها لصدها والعودة بها الى تلك التقاليد العدائية .

٥ ــ أما معاملة المسلمين للطوائف المختلفة التى تعيش فى أفق العالم الاسلامى فهذا كابتن غوردون كانتج يصورها عن دراية وفهم ومشاهدة . « ان الأقليات المسيحية واليهودية كانت تعامل على الدوام خير معاملة فى البلدان الاسلامية الى أن تأتى دولة أوربية وتستخدم هذه الأقليات لقلب الحالة كما حدث فى مسألة الأرمن والأتراك . ان زعماء العرب فى هذا العصر ، وفى العصور السابقة كانوا دائما يعملون على تلافى هذا التنافر واصلاح ذات البين ، فاذا كان التعصب الدينى قد أخذ مجراه فى زمن من الأزمنة فقد كان المسلمون الذين هم على غير مذهب الحاكم ينالهم من الاضطهاد ما ينال المسيحيين ، ومن الواجب أن نتخذ مبادىء نجران كالمثل الأعلى للزعيم المسلم . « ان دم الذمى كدم المسلم » .

وفى اشارة لمستر جب ان التعصب لم يعرف فى محيط الدولة الاسلامية الا فى اليهود التى تولى الأعاجم الحكم فيها ونقول هذا فى الماضى وكذلك كان فى الفترات التى سيطر فيها النفوذ الأجنبى وتولى زمام الأمور فى العالم العربى بعد الاحتلال الغربى للعالم الاسلامى .

٦ ــ وتبقى بعد ذلك وثائق تدين الغرب بالتعصب تتمثل فى عبارة احد الباحثين حيث قال « لقد أهلك تور كمادا الدومنيكى الاسبانى ستة آلاف بالنار ، وأهلكت الامبراطورة تيودورا وحدها نحو مائة الف من المانويين ، وأهلك الكاثوليك من البروتستانت فى مذبحة سانت بارتلمى مئة الف أيضا ، أما ديوان التحقيق فى اسبانيا فقتل وحده نحو مائة الف كما يقول ريناخ فى كتابه تاريخ الأدباء وفى حرب الكاثوليك على البروتستانت المعرضين عن طلب الاصلاح قتل ١٦١ ألفا » .

وفى اشارة اخرى أن الأرواح التى ازهقتها محكمة التفتيش (١٤٨١ ــ ١٤٩٩) فى خلال ثمانية عشر عاما هى عشرة آلاف ومائتان وعشرون شخصا أحرقوا أحياء و ٦٨٦٠ أعدموا شنقا بعد التشهير و ٩٧٠٢٣ حكم عليهم بعقوبات مختلفة .

* * *

(٣)
شبهات حول « السنة »

جرى كثير من المستشرقين وكتـاب التغريب حول شبهة التشكيك فى صحة السـنة « أحاديث النبى » : وحاول وليم موير ، وجولدتسـيهر أن يزعما بأن تدوين السنة بدأ بعد وفاة النبى بتسعين سنة ، وأن السـنة امتداد للاسلام وزيادة عليه وتطور له ، فى محاولة للقول بأن الاسلام لم يتم فى حياة النبى ، وانما أضيف اليه من بعده . وقد جرى فريق من كتابنا وراء هذه الشبهات .

وكان « أحمد أمين » من أبرز الكتـاب المعاصرين الذين رددوا هذا القول ، وسلـكوا هذا السـبيل على نهج دقيق من المواربة والاخفاء واثارة الشبهة ويبدو ذلك واضحا فى فجر الاسلام صفحات : ٢١٢ ، ٣٠٤ ، ٣٣٣، ٣٣٦ ، ٣٣٩ ، ٣٤٢ .

وفى الرد على هذه الشـبهات توجد ثلاثة مؤلفات أساسية يمكن الرجوع اليها :

١ ـ السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى للدكتور مصطفى السباعى .

٢ ـ الرسالة المحمدية : لسليمان الندوى .

٣ ـ دفاع عن العقيـدة والشريعة ضـد مطاعن المستشرقين : محمد الغزالى .

وقد عرف تسـيهر فى رسالته المترجمة « العقيدة والشريعة » بهذا التحامل الواضح ، والتحريف الصريح النصـوص فى محـاولة دعم شـبهاته . ومن هـذه الأمثلة أنه صرف قول الزهرى « ان هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة الأحاديث » الى لفظ (على كتـابة أحاديث) فضلا عن اتهامه الزهرى بأنه واضع حديث فضل المسجد الأقصى ارضاء لعبد الملك بن مروان ضد ابن الزبير ، مع أن الزهرى لم يلق عبد الملك الا بعد سـبع سنوات من مقتل ابن الزبير .

وقد أشار الدكتور مصطفى السباعى الى أن هناك ممن رددوا شبهات المستشرقين من اعتمـدوا على كتب الحكايات لمناقشة السنة والفقه ، وهذه الكتب لم تؤلف لتاريخ الرجال ولم تصنف للتحقيق فى سيرتهم وأحوالهم ، وانما ألفت لجمع النوادر والحكايات التى يتفكه بها الناس فى مجالسـهم ، ويتزيدون بهـا ما شاءت لهم أهواءهم وخيـالاتهم ، ولا يمكن أن يؤخذ منها الأدلة والشواهد لدعوى خطيرة عن السنة ، ومن ذلك أن بعضـهم يكذب « موطأ مالك » ويؤيد كلاما فى كتـاب حياة الحيوان للدميرى . وقال الدكتور السباعى ان علم الحديث لايؤخذ من كتب الفقه ، وعلم التفسير لا يؤخذ من كتب اللغة ، لأن لكل علم مصادره التى تعرف منها حقائقه وقضاياه ، وكذلك علم التاريخ لا يؤخذ الا من مصـادره الموثوقة . وانه من الخطأ فى دراسة السنة الاعتماد على ثمار القلوب للثعـالبى ، ومقـامات بديع الزمان . وأشـار الى أن الاستعمار قد جند بعض المستشرقين لتسميم هذا المنبع الروحى فنصبوا الفخ باسم البحث العلمى والتفكير الحر، فجاء نفر فوقعوا فى الفخ ، وراحوا يروجون بضاعة الغزاة أما عن جهل بحقيقة التراث الاسلامى ، وما عن انخداع بالأسـلوب العلمى المزعوم ، واما عن رغبة فى الظهور بالتحرر العقلى وشجاعة الرأى واما عن انحراف فـكرى ووجدانى بتأثير الاستهواء . وقد كانت محاولة التشكيك فى الحديث النبوى من أحط الشبهات التى حاول التغريب توجيهها الى الفكر العربى الاسلامى ، وقد جرى فى هذا المجرى بعض الباحثين متأثرين بمنهج البحث العلمى وهو منهج يجله الفكر الاسلامى العربى لأنه نشأ فى حضانته وكان أول من دعا اليـه ونادى به غـير أنه اريد أن يصطنع فى سبيل اثارة الشبهات حول الحديث بصـفة عامة ، بغية وصـمه بالاضطراب ، ومن هنـا يمكن أن يتخلى عنه المسلمون ويلجأون الى المصدر الأساسى الذى كان فوق الشـبهات وهو القرآن وربما بدا هـذا الكلام منطقيا فى مظهره ، ولكن حملة هذه الدعوة انما يطمعون فى زلزلة قواعد الأسلام نفسه ، ذلك أن الحديث والسنة من الاسلام هى العامود الثانى من أعمدته أو هى المذكرة

التفسيرية له ، بل هى التطبيق الفعلى للاسلام ممثلا فى الصورة الأولى التى تحراها رسول الاسلام فى حياته لتكون أنموذجا للمجتمع الاسلامى . !!

* * *

١ — راى ليوبولد فايس

يقول العلامة المجرى المسلم : محمد أسد «ليوبولد فايس» فى تصوير موضع السنة من الفكر الاسلامى العربى :

« لقد كانت السنة مفتاحا لفهم النهضة الاسلامية منذ اكثر من ثلاثة عشر قرنا فلماذا لا تكون مفتاحا لفهم انحلالهم الحاضر ، ان العمل بسنة رسول الله هو عمل على حفظ كيان الاسلام وعلى تقدمه ، وان ترك السنة هى انحلال الاسلام . لقد كانت السنة هى الهيكل الحديدى الذى قام عليه صرح الاسلام ، وانك اذا أزلت هيكل بناء ما ، أفيدهشك بعدئذ ان يتقوض ذلك البناء كأنه بيت من ورق .

اننا نستعمل هنا كلمة السنة بأوسع معانيها ، على انها المثال الذى أقامه لنا الرسول من أعماله وأقواله ان حياته العجيبة كانت تمثيلا حيا وتفسيرا لما جاء فى القرآن الكريم . ولا يمكننا أن ننصف القرآن الكريم بأكثر من أن تتبع الذى قد بلغ الوحى . لقد أتى الاسلام بالرسالة الجديدة التى لا تجعل احتقار الدنيا شرطا للنجاة فى الآخرة ، تلك الخاصة الظاهرة فى الاسلام تجلو الحقيقة الدالة على أن نبينا ، الذى كان فى رسالته الدليل الهادى للانسانية ، كان شديد الاهتمام بالحياة الانسانية فى كلا اتجاهيها : فى المظهر الروحى والمظهر المادى ، وانه لمن الجهل بالاسلام أن يحاول أحدنا أن يوفق بين أوامر الرسول تتعلق بأمور تعبدية روحية خاصة ، وبين غيرها من التى تتصل بقضايا المجتمع وقضايا حياتنا اليومية ، وأن القول بأننا مجبرون على اتباع الأوامر المتعلقة بالنوع الأول ولكننا لسنا مجبرين على أن نتبع الأوامر المتعلقة بالنوع الثانى انما هى نظر سطحى ، وهو فوق ذلك مناهض فى روحه للاسلام مثل الفكرة القائلة بأن بعض أوامر القرآن الكريم قد قصد بها العرب الذين عاصروا نزول الوحى لا النتيجة من الأكياس (الجنتلمان) الذين يعيشون فى القرن العشرين . فسنة الرسول اذن تالية للقرآن ، وهى المصدر الثانى للشرع الاسلامى وللسلوك الشخصى والاجتماعى ، وفى الحقيقة يجب علينا أن نعتبر أن السنة انما هى التفسير الوحيد لتعاليم القرآن الكريم ، والوسيلة الوحيدة لاجتناب الخلاف فى تأويل تلك التعاليم وتطبيقها على الحياة العملية . ان التعبير الذى يتردد على مسامعنا اليوم كثيرا « لنرجع الى القرآن الكريم ولكن يجب الا نجعل من أنفسنا مستعبدين للسنة » ، هذا التعبير يكشف بكل بساطة عن جهل للاسلام ، ان الذين يقولون هذا القول يشبهون رجلا يريد أن يدخل قصرا ولكنه لا يريد أن يستعمل المفتاح الأصلى الذى يستطيع به وحده أن يفتح الباب . ولقد أصبح من قبيل الزى فى أيامنا هذه أن ينكر المرء مبدئيا صحة الحديث ، ثم من أجل ذلك ينكر نظام السنة كله . هل هناك أساس علمى لهذا الاتجاه ، أم هل هناك مبرر علمى لرفض الحديث على أنه مصدر يستند اليه الشرع الاسلامى ، ؟ انه على الرغم من جميع الجهود التى بذلت فى سبيل تحدى الحديث على أنه نظام ما ، فان أولئك النقاد العصريين من الشرقيين والغربيين لم يستطيعوا أن يدعموا انتقادهم العاطفى الخالص بنتائج من البحث العلمى . وأنه من الصعب أن يفعل أحد ذلك ، لأن الجامعين لكتب الحديث الأول ، خصوصا الامامين البخارى ومسلما ، وقد قاموا بكل ما فى طاقة البشر عند عرض صحة كل حديث على قواعد التحديث عرضا أشد كثيرا من الذى يلجأ اليه المؤرخون الأوربيون عادة عند النظر فى مصادر التاريخ القديم . ويكفى أن نقول أنه نشأ من ذلك (علم تام الفروع) غايته الوحيدة البحث فى معانى أحاديث الرسول وشكلها وطريقة روايتها . وان رفض الأحاديث الصحيحة جملة واحدة أو اقساما ليس حتى اليوم الا قضية ذوق ، وأن السبب الذى يحمل على مثل هذا الموقف من المعارضة بين كثيرين من المسلمين المعاصرين يمكن تتبعه الى مصدره ، أن السبب يرجع الى استحالة الجمع بين طريقة حياتنا وتفكيرنا الحاضرة المتقهقرة ، وبين روح الاسلام الصحيح ، ولكى يستطيع نقدة الحديث المزيفون أن يبرروا قصورهم وقصور بيئتهم فانهم يحاولون أن يبطلوا ضرورة اتباع السنة ، لأنهم اذا فعلوا ذلك كان بامكانهم حينئذ أن يتأولوا تعاليم القرآن الكريم كما يشاؤون على أوجه من التفكير السطحى أى حسب ميول كل واحد منهم وطريقة تفكيره هو ، ولكن تلك المنزلة الممتازة التى للاسلام على أنه نظام خلقى وعملى ونظام شخصى واجتماعى تنتهى بهذه الطريقة الى التهافت والاندثار ، وان الذين خلبتهم المدنية الغربية لا يجد دون مخرجا من مأزقهم الا برفض السنة على أنها غير واجبة الاتباع على المسلمين ، ذلك لأنها قائمة على أحاديث لا يوثق بها وبذلك يصح تحريف تعاليم القرآن الكريم لكى تظهر موافقته لروح المدنية الغربية أكثر سهولة .

* * *

٢ — ابو الحسن على الحسنى الندوى :

« ان الحديث ميزان عادل يستطيع المصلحون فى كل عصر ان يزنوا فيه اعمال هذه الامة واتجاهاتها ، ويعرفوا الانحراف الواقع فى سير هذه الامة ، ولا يتأتى الاعتدال الكامل فى الاخلاق والأعمال الا فى الجمع بين القرآن وبين الحديث .

٢ — لقد اعتادت الامم القديمة والديانات أن تصور أنبيائها وأن تنحت لهم تماثيل وأصناما تمثلهم للأجيال القديمة ، وتجدد ذكراهم ونشأت عن ذلك الوثنية وعبادة التماثيل ، أما الاسلام فقد استبدل هذا بالحديث النبوى الذى هو مجموع صور ناطقة يتعرف بها الانسان نبيه ويسمع كلامه ويشاهد فعله ويدرس سيرته .

٣ — الحديث يمثل هذه الحياة المعتدلة الكاملة المتزنة ، ولولاه لوقعت الامة فى افراط وفقد المثال العملى الذى حث الله على الامتداد به . والذى يطلبه الانسان ويستمد منه الثقة والقوة فى الحياة .

٤ — الحديث ذاخر بالحياة والقوة والتأثير الذى لم يزل يبعث على الاصلاح ، ومحاربة الفساد والبدع وحسبة المجتمع . والدعوة الى الدين الخالص وقد سمع الصحابة وحفظوا وشاهدوا ، وبداوا يكتبون الحديث فى عهد النبى ومنهم من كانت له مجموعة خاصة اشتهرت عنه « الصادقة : لعبد الله بن عمرو بن العاص » ولعلى ابن ابى طالب صحيفة . وانس ، وعبد الله بن عباس وعبد الله بن منصور وجابر بن عبد الله . وصحيفة همام ابن منبه فاذا جمعت هذه الصحف والمجاميع كونت العدد الاكبر من الاحاديث التى جمعت فى الجوامع والمسانيد والسنن فى القرن الثالث . وقد تحقق أن المجموع الاكبر من الاحاديث سبق تدوينه ونسخه من غير نظام وترتيب فى عصر الرسول وفى عصر الصحابة .

وقد شاع فى الناس حتى المثقفين والمؤلفين ان الحديث لم يكتب ولم يسجل الا فى القرن الثالث الهجرى وأحسنهم حالا من يرى أنه قد كتب ودون فى القرن الثانى وما نشأ هذا الغلط الا عن طريقين :

الأولى : ان عامة المؤرخين يقتصرون على ذكر مدونى الحديث فى القرن الثانى ولا يعنون بذكر هذه الصحف والمجاميع التى كتبت فى القرن الاول لأن عامتها فقدت وضاعت ، مع أنها اندمجت وذابت فى المؤلفات المتأخرة .

الثانى : ان المحدثين يذكرون عدد الأحاديث الضخم الهائل الذى لا يتصور أن يكون فى هذه المجاميع الصغيرة التى كتبت فى القرن الاول ، مع أن عدد الأحاديث الصحاح غير المتكررة المتحررة من المتابعات لا يزال قليلا ، فحديث انما الأعمال بالنيات مثلا يروى من صيغ مائة طريق فلو جردنا مجاميع الأحاديث من هذه المتابعات والشواهد لبقى عدد قليل من الأحاديث ، فالجامع الصحيح للبخارى لا تزيد الأحاديث التى رويت بالسند الصحيح فيه على الفين وستمائة وحديثين . واحاديث مسلم يبلغ عددها اربعة آلاف حديث .

ومعظم هذه الثروة الحديثية قد كتب ودون بأقلام رواة العصر الاول وقد يزيد ما حفظ فى الكتب والدفاتر كتابة وتحريرا فى العصر النبوى وفى عصر الصحابة على عشرة آلاف حديث اذا جمعت صحف ومجاميع ابى هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وانس بن مالك وجابر ابن عبد الله وعلى ، وابن عباس ، وبذلك يمكن أن يقال ان ما ثبت من الأحاديث الصحاح وما احتوت عليه مجاميعها ومسانيدها قد كتب ودون فى عصر الصحابة قبل ان يدون الموطأ والصحاح بكثير (نقلها عن مناظر احمد الكيلانى فى كتابه تدوين الحديث) . وقد قام المحدثون فنقبوا فى البلاد فى البحث عن الروايات المختلفة والأسانيد الصحيحة ، وكان لهم فى ذلك هيام وغرام لم يعرف عن امة من الأمم للعلم فى التاريخ ، يدل على ذلك بعض الدلالة ما يروى عن المحدثين من التجول فى البلاد والسفر فى العالم الاسلامى من اقصاه الى اقصاه . ولم يقتصروا على جمع الحديث وتدوينه بل تعدت عنايتهم الى الوسائط التى وقعت فى رواية الحديث وهم الرواة الذين رووا هذه الأحاديث فعنوا بمعرفتهم ومعرفة أسمائهم وأسماء آبائهم وحوادث حياتهم وأخلاقهم ومكانتهم فى الأمانة والصدق والحفظ ، وهكذا ظهر علم اسماء الرجال الى عالم الوجود ، وكان من مفاخر هذه الأمة التى لا يشاركها فيها امة من الامم ، كما قال الدكتور اسبرنجر فى مقدمته على كتاب الاصابة . وكان هؤلاء المحدثون اقوياء وعلى جانب عظيم من الصبر والجلد واحتمال المشاق وقوة الذاكرة وكانت عندهم نهامة للعلم وحرص زائد على اقتباسه والتقاطه من موضعه .

* * *

٣ — المستشرقون والسنة : مصطفى السباعى

تعرضت السنة فى القديم لهجمات بعض الطرق الاسلامية الخارجة على سنن الحق لشبهات طارئة لم تجد

فى نفوس اتبــاعها ما يدفعها ، كما تعرضـــت فى العصر الحاضر لهجمات بعض المستشرقين المتعصبين ، من دعاة التبشير والاستعمار ، ابتغاء الفتنة ، وابتغاء هدم هــذا الركن المتين من اركان التشريع الاســلامى وتابعهم على ذلك بعض المؤلفــين من ابنــاء امتنا اندفاعا وراء ميول نفسية وشبهات فكرية . والهجوم على السنة الذى يقوم به فريق من المسلمين الذين تعلموا على المستشرقين هو هجوم لا يبدو سافرا واضحا كما بدت آراء المستشرقين من قبل ، بل مقنعا بســتار العلم والبحث ، متجنبــا المصارحة مفضلا المواربة والمخاتلة .

ومن ابرز من سلكوا هذا السبيل أحمد امين خريج القضاء الشرعى وعميد كلية الآداب ومؤلف فجر الاسلام وضحاه وظهره ، وقد تحدث فى فجر الاسلام عن الحديث فمزج سمه بالدسم وخلط الحق بالباطل ، وكان اسماعيل ادهم قد نشر رسالة عام ١٣٥٣ هـ عن تاريخ الســنة اعلن فيها أن هذه الثروة الغالية من الأحاديث الموجودة بين ايدينا والتى تضمنتها كتب الصحاح ليســت ثابتة الأصول والدعائم بل هى مشكوك فيها وتغلب عليها صفة الوضع » .

ويمضى الدكتور مصــطفى السباعى فى تصــوير بواعث هذا الاتجاه ودوافعه فيقول :

لــا هاجمت الجيوش الصــليبية بلاد الاســلام كانت مدفوعــة الى ذلك بدافعــين : الأول دافع الدين والعصبية التى أثارها رجال الكنيسة فى شعوب أوربا ، والثــانى دافع سياسى اســتعمارى ، فقد سمعوا عن ثروتها وارضها الخصبة . فجاءوا يقودون جيوشهم باسم المسيح وما فى نفوسهم فى الحق الا الرغبة فى الاستعمار والفتح والاستئثار بخيرات المسلمين وثرواتهم .وشاء الله أن ترتد هذه الحملات الصليبية كلها مدحورة مهزومة ، بعد حروب دامت مائتى ســنة كاملة . وأن يقضى على الامارات التى استولوا عليها . وقد عادت هذه الحملات تحمل فى قلوبها الحسرة ، ولكنها كانت تحمل فى عقولها شيئا من نور الاسلام ، ورأوا بعد الاخفاق فى الاستيلاء عليها عسكريا ان يتجهوا الى دراسة شئونها وعقائدها تمهيــدا لغزوها ثقافيا وفكريا ، ومن هنــا كانت النواة الأولى لجمعيات المستشرقين .

وقد عمدوا الى محاولة تصوير المجتمع الاسلامى فى مختلف العصور وخاصة العصر الأول بأنه مجتمع متفكك تتتــل الأنانية رجاله وعظماءه ، وتصوير الحضــارة الاسلامية تصويرا سيئا تهوينا بشأنها واحتقارا لآثارها ، مع اخضاع النصوص للفــكرة التى يفرضونها حســب أهوائهم ، والتحكم فيما يرفضونه ويقبلونه من النصوص وتحريف النصــوص تحريفــا مقصــودا واساءتهم فهم العبارات .

يقول جولد تســيهر : ان القسم الأكبر من المدنية ليس الا نتيجة للتطور الدينى والسياسى والاجتماعى فى الاسلام فى القرنين الأول والثانى ، ولا ندرى كيف يجرؤ على مثل هذه الدعوة ، مع أن النقول الثابتة تكذبه ، ومع أن رسول الله لم ينتقل الى الرفيق الأعلى الا وقد وضع الأسس الكاملة لبنيان الاسلام الشــامخ ، بما أنزل الله عليه فى كتابه ، وبما سنه عليه الصلاة والسلام من سنن وشرائع وقوانين شاملة وافية ، حتى قال النبى قبل وفاته « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنتى . وقال لقد تركتكم على الحنيفية السمحة ليلهــا كنهارها » ومن المعلوم أن من أواخر ما نزل على النبى من كتاب الله « اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » .

وذلك يعنى كمال الاسلام وتمامه فما توفى رسول الله الا وقد كان الاسلام ناضجا تاما لا طفلا يافعا كما يدعى هذا المستشرق ، نعم لقد كان من آثار الفتوحات الاسلامية أن واجه المتشرعين المسلمين جزئيات وحوادث لم ينص على بعضها فى القرآن والسنة ، فاعملوا آراءهم فيهــا قياسا واستنباطا ، حتى وضــعوا لها الأحكام ، وهم فى ذلك لم يخرجوا عن دائرة الاسلام وتعاليمه .

على أن البــاحث المنصف يجد أن المســلمين فى مختلف بقاع الأرض التى وصــلوا اليها كانوا يتعبدون عبــادة واحدة ، ويتعاملون بأحكام واحــدة ، ويقيمون أسس اسرهم وبيوتهم على أساس واحد ، وهكذا كانوا متحدين فى العبادات والمعاملات والعادات غالبــا ، ولا يمكن أن يكون ذلك لو لم يكن من قبل مغادرتهم جزيرة العرب نظام تام ناضج وضع لهم أسس حياتهم فى مختلف نواحيها ، ولو كان الحديث أو القسم الأكبر منه نتيجــة للتطــور الدينى فى القرنين الأولين للزم حتما أن تتحــد عبادة المسلم فى شــمال أفريقيا مع عبادة المســلمين فى جنوب الصــين ، اذ أن البيئة فى كل منهما مختلفة عن الأخرى تمام الاختلاف فكيف اتحدا فى العبادة والشريعة والآداب وبينهما من البعد ما بينهما .

أما قيام المذاهب بعد القرن الأول وتعددها فذلك لاشك أثر للكتاب والسنة والصحابة فى فهم كتــاب الله والسنة ، أما الكتاب فقد كان محفوظا متواترا بينهم ، أما

الســـنة فلا ترى قولا لامام من أئمـــة المذاهب فى القرنين الثانى والثالث الا وقد سبقه اليهـــا صحابى او تابعى ، وذلك قبل أن يتطور الذين — كما زعم هذا المستشرق — تطورا بالغ الأثر ، وهـــذا ما يقضى على الشـــبهة من اساسها .

ولا يخـــفى مكانة الســـنن النبوية والحـــديث فى الشريعة الاسلامية وأثرها فى الفقه الاسلامى منذ عصر النبى والصحابة حتى عصور الاجتهاد واستقرار المذاهب الاجتهادية مما جعل الفقه الاسلامى ثروة لشريعة لامثيل لها فى الثروات التشريعية لدى الأمم جميعا فى الحـــاضر والماضى ، ومن يطلع على القرآن والسنة يجد أن للسنة الأثر الأكبر فى اتساع دائرة التشريع الاســـلامى وعظمته وخلوده . وهذا التشريع العظيم الذى بهر أنظار علماء القانون فى جميع أنحاء العالم سو ما حمل ويحمل أعداء الاســـلام فى الماضى والحـــاضر على مهاجمة الســـنة والتشكيك فى صحتها وصدق جامعيها ورواتها من أعلام الصـــحابة والتابعين ، وعلى هذا الغرض التقى أعداء الاسلام من زنادقة الفرس وغيرهم فى عصور الحضـــارة الاسلامية الزاهرة مع أعداء الاسلام اليوم من المستشرقين ومن لف لفهم .

ومن المؤسف أن يســـير وراء أعداء الاســـلام فى الحاضر فئة لاشك فى صدق اسلامهم من العلماء والكتاب ولـــكنهم منخدعون بمظاهر التحقيق العلمى الكاذب الذى يلبسه هؤلاء الأعداء من المستشرقين والمؤرخين الغربيين لاخفاء حقيقة أهدافهم ومقاصدهم والغـــاية هى اضاعة الشك فى الدين الاسلامى وحملته .

* * *

٣ — شبهات حول الشريعة الاسلامية والفقه الرومانى

ردد جولد تسيهر ، ومن بعده شاخت وهم من غلاة المستشرقين ، شبهة تقول ان الشريعة الاسلامية تأثرت بالقانون الرومانى فى بداية عهد تكوينها ، وقبل نشـــوء المدارس الفقهية الكبرى ، أشار الى ذلك جولدتسيهر فى كتابه « العقيدة والشريعة » ، وردده شاخت فى محاضرة ألقـــاها (يولية ١٩٥٦) فى الأكاديمية الايطالية للعلوم بعنوان (القانون البيزنطى والشريعة الاسلامية) .

وقد واجه الدكتور عبد الرازق السنهورى هـــذه الشبهة فقال : لم تسلك الشريعة الاسلامية فى نموها الطريق الذى سلكه القانون الرومانى فان هذا القـــانون قد بدأ عادات ونما وازدهر عن طريق الدعوى والاجراءات الشكلية ، أما الشريعة الاسلامية فقد بدأت كتابا منزلا ووحيا من عند الله ونمت وازدهرت عن طريق القيـــاس المنطقى والأحكام الموضوعة ، الا أن فقهاء المســـلمين امتازوا على فقهاء العالم بعلم أصول الفقه .

ويقول العلامة القانونى محمد الشافعى اللبان : ان ما بين التشريعين الاســـلامى والرومانى القديم من اتفاق لا يكاد يذكر فى بعض الجزئيات ، يجب ألا ينسينا مدى التباين والاختلاف القـــائم بينهما ، ويظهر ذلك فى مسائل الأحوال الشخصية ، وفى أحكام الملـــكية ، وفى مبادىء العقود ، وقواعد تعويض الضرر ، وقد اشتملت الشريعة الاسلامية فتاوى لم تسد حتى ذلك الوقت ولم تتقيد فى القوانين الغربية الا بعد أن تطورت وتقدم بهـــا العهد . ولم يتضح التلاقى فى بعض الأحكام الا بعد أن تطور القانون الرومانى وتحرر من الشـــكلية ، وبعد أن التقى فى تطوره بعوائد وتقاليد شعوب وأجناس مختلفة. فاذا قامت المقـــارنة بين الشريعة والقـــانون الرومانى الحديث فربما وجدت أحيانا فى أحكام هـــذا القـــانون ما يلتقى بما جاءت به الشريعة من أحكام . ولكن ان صح القول هنا بالاقتباس ، فالأولى أن يسند ذلك الى القانون المتبع فى القـــارة الأوربية لتأخره فى التـــاريخ . بل ان البعض قد وصف القانون الرومانى لذلك الســـبب بأنه « فقه اسلامى أخذ من الأندلس » .

* * *

بين الشريعة الاسلامية والفقه الرومانى

يقول « فارس الخورى » ان المقايسة بين الشرع الاســـلامى والشرع الرومانى لا نراها مستقيمة لنـــا بالنظر لاختلاف الهدف والسنن بين الشرعين ، الأول منهما قائم على قواعد العدل المطلق ، ومقتضـــيات العقول ، والثانى : على المصالح والمنافع الدنيوية . فينبنى على هذا التخالف أن الشرع الاسلامى يمثل مصلحة الفرد فى الدنيا والآخرة ، وفى الشرع الرومانى مصلحة الجمـــاعة فقـــط .

مثال ذلك مرور الزمان ، اما أن يســـقط الحق أو تسقط الدعوى ، أما الشرع الاسلامى فلا يمكن ان يقول بسقوط الحق ، لأن الحق يبقى فى الذمة ، والفرد لا تبرأ ذمته الا بالوفاء أو الابراء مهما مر من الزمان على الحق، فلم يكتف الشارع الاســـلامى بتأمين مصلحة الدنيـــا بل اســـتهدف مصلحة الآخرة أيضـــا فى حين أن الشـــارع

الرومانى قد اتخذ الجانب الآخر وقال ان الحـق المتروك يسقط والساقط لا يعود ، لذلك نرى انه ليس من السلامة القول بأن احد هذين الشرعين مأخوذ عن الآخرة .

وقال فارس الخورى : فى الاسلام كثير من الأمور التى تستوقف نظر المطلع فتعجب عندها من فكرة العدل المجرد الراسخ فى نفوس زعماء العرب ، وحرصهم على المنهج القويم والصراط المستقيم فى أفعالهم وصلاتهم مع محاربيهم ومعاهديهم . ومن ذلك الأصول التى وضعت (للنبذ) عند جوازه ، فاذا فسخوا الصلح واصبحوا فى حالة حرب لا يناجزون خصومهم الا بعد اعلامهم بالفسخ ومضى الوقت الكافى ، حتى اذا هاجمهم هؤلاء لا يكونون مأخوذين على غرة وغفلة . وهذه درجة من الانصـاف قصر عنها اهل زماننا ، مع ما عنـدهم من حقوق الدول وقواعد الحرب ، فان دول العصر الحاضر تبدأ بالهجوم وسائر اعمـال الاعتداء حالمـا تعلن الحرب ، حتى ان بعضها تهاجم قبل اعلان الحرب بصفة رسمية .

ومن هـذا القبيل قاعدة عدم اخذ العـامة بجرائر الخاصة ، وهو مستند للآية الكريمة ، « ولا تزر وازرة وزر اخرى » فنهوا عن تحميل المغارم اهل القرى بالجملة لأجل الجرائم التى يقترفهـا افراد منهم ، وأنت ترى ان حكومات هذا العصر تفرض الغرامات على القرى وتأخذ الطائعين بجريرة العـاصين ، ان البون شاسـع بين شريعتى موسى ومحمد عليهما السـلام ، فالأولى تأمر بالتقتيل بلا انذار ولا عهـد ولا صلح ولا دعوة لايمـان والثـانية تأمر بدعوتهم الى الاسـلام فان قبلوا الدعوة عصموا دماءهم واعراضهم واموالهم وان ابوا فالجزية .

٢ ـــ ويقول صالح بن على الحامد العلوى : جاء الاسلام خارقا لقاعدة البيئة والثقافة ، اذ قام النبى ، وهو الأمى الذى نشأ من ابعد الناس عن ان يطلع على قانون رومانى او حكمة معقولة ، واتى بهذا الدين الأقدس مناقضا كل التناقض ما كان عليه قومه ، مبـاينا لهم فى عاداتهم وعقائدهم . ان الشريعة الأسـلامية وجدت كاملة دفعة ، لم يزد فيهـا الفقهاء بعده شـيئا قط الا تصنيفه ونقله ـــ اى الفقه ـــ والنصوص الفقهية كلهـا صريحة ، واضـحة المرمى ، والفقـه غير التفسـير ، والاختلاف فى التفسير هو ما يراه الكاتب من تأثير البيئات والفقه الرومانى حديث ، لم يعمل به الا فى القرن الثانى عشر أو الثالث عشر بعد الميلاد ، أما قبل القرن الحادى عشر فانه لم يكن معروفا حتى عند الرومان أنفسهم .

ولا شك ان الفقه الأسلامى قد قرر وصنف قبل ظهور الفقه الرومانى بقرون ، فكيف يكون متأثرا بشىء لم يوجد بعد ، وعاقبة هذا الزعم بالتأثر بالفقه الرومانى اذا كان مالك والشـافعى واحمد بن حنبل وأبو حنيفة والثورى والأوزاعى درسوا والفوا وصنفوا قبل أن توجد القوانين الرومانية للرومان أنفسـهم . بل ان الأصـح أن الفقه الرومانى هو المأخوذ من الفقه الاسلامى .

ان الفقه الرومانى القديم ، كما يورده تاريخ الدولة الرومانية للعلامة جيبون (جـ ٤ ص ٥٦٧) وقـد ذكر امثلة من معاملاتهم ، يمثل المحاكمات القاسـية . وقد كانت تجرى هذه الأحكام لغـاية القرن الحادى عشر ، ولم تتبدل الا فى القرن الثانى عشر ، ودعوى اختفاء الفقه الرومانى ثم ظهوره بعد ستة قرون أكذوبة لا مرية فيها ، وقد كذبها القانون الشهير سافينيه حين قال : ان القوانين الرومانية لم تختف لأنهـا ظلت معمولا بها الى اليوم من غير انقطاع .

ويتضح من هذا ان القوانين الحديثة ليسـت الا حديثة الوضع ، وضعها بعض علمائهم مقتبسة من الفقه الاسلامى ، والدليل هو ان الفقه الاسلامى قد ألف وصنف قبل ان تبرز القوانين الرومانيـة الحديثة من اختفـائها المزعوم ، وقـد اشار ابو العباس السكركرى من تلامذة بهيمنيار وهو تلميذ الشيخ الرئيس ابن سينا فى رسالته الى مفتى مرو (أحمـد بن عبـد الله السرخسى) ان أبا الوليد محمد بن عبد الله بن خيرة نقل فى تعليقـاته : ان طلبة العلم من الافرنج الذين كانوا يسافرون الى غرناطة لطلب العلم قد اهتموا كثيرا بنقل الفقه الاسـلامى الى لغتهم لعلهم يستعملونه فى بلادهم لردائة الأحكام فيها ، خصوصا فى المائة الرابعة والخامسـة من الهجرة ، وقد برعوا فى اللغة العربية ، ومنهم غوبرت ، والبرت فانهما طلبا مساعدة العلماء لابراز مقصودهما ، وقد ساعدوهما حتى دونوا الفقه كاملا ، وحوروه الى مايوافق بلادهما» .

وتجمع الآراء التى تداولت هذا البحث على انه لم يقم اى دليل علمى على أن الفقه الاسـلامى مأخوذ من الفقه الرومانى ، وان الفقه الرومانى المعروف اليوم هو المقتبس من الفقه الأسلامى ، والدليل ان الفقه الرومانى الحاضر جديد ، لفقه طائفة من العلمـاء بعد أن اندثر الفقه الرومانى القديم .

٣ ـــ وقد اشـار الدكتور معروف الدواليبى الى ادعاءات المستشرقين بأن للحقوق الرومانية تأثيرا عظيما فى الشرق ، وان الحقـوق الرومانية تركت عن طـريق تطبيقها فى الشرق تعاملا حدوديا أصبح من أعراف هذه

البلاد وتقاليدها . وبهذا الراى يقول « دافيد سانتيلانا » الذى قال : ان الاسلام عند فتوح البلدان التى كانت تابعة لدولة الرومان كالشام ومصر وافريقيـة والجزائر ومراكش وجد الشرع الرومانى سائدا فيها فنسخ منه ما نسخ وايد ما ايد ، ولذا كان اغلب قواعد الفقـه الاسـلامى موافقا لقواعد الفقـه العبرى والرومانى فى مسائل المعاملات الدنيوية المعبر عنها بالمسائل المدنية والتجارية والعقوبات .

ودحض هـذه الشبهة هو ان الحقوق الرومانية الأصلية كانت مقصورة على طائفة من الوطنيين من الاسلامى لسورية والعراق قد اتصلوا بمعاهد الحقوق دون غيرهم من ابناء الامبراطورية الأجانب ، وان الحقوق الرومانية اللاحقة لم تطبق فى البلاد ذات التقاليد الحقوقية الراجحة ، وان سوريا والعراق ومصر كانت تحت أحكام وتقاليد حقوقية شرقية راقية : كلدانية ومصرية ، وان الحقوق الرومانية اللاحقـة هى حقوق ذات طابع شرقى تأثرت بتقاليد الشرق دون ان تؤثر فيها . فاذا نظرنا الى هذه الوقائع التاريخية وجدنا عندئذ دعوى المسـتشرقين عبارة عن فرضية مجردة من كل دليل ومتنافية مع الوقائع التاريخية .

ومن هذه الشبهات : الادعاء بأن العرب بعد الفتح الاسلامى لسورية والعراق قد اتصلوا بمعاهد الحقوق المسـيحية الموجودة فى هذه البـلاد وعنها تحقق تأثير الحقوق الرومانية فيهم وفى الحقوق الاسلامية ، غير ان هذا الادعاء انتفى مع الوقائع التـاريخية الصريحة ذلك لأن فتح العرب للعراق وسوريا انما وقع حول سنة ٦٣٥ للميلاد ، وقبل ذلك بأكثر من عصر تقريبا لم يكن فى العالم الرومانى كلـه غير ثلاثة معـاهد للحقـوق فى روما والقسطنطينية وبيروت ، اما مدرسـة بيروت فقد قضى عليها فى ١٦ تموز من سنة ٥٥١ ميلادية ، وذلك على اثر زلزال أرضى هدم مدينة بيروت وذهب ضحيته ثلاثون الف شخص فيهم عدد كبير من الطلاب الأجانب ، وذلك قبـل ميلاد الرسول عليه الصلاة والسلام (٥٧٠) بعشرين سنة .

وقال الأسـتاذ كوللنيه ان مدينة بيروت حتى عام ٦٠٠ كانت خرابا ، وقد سقطت بين ايدى العرب بسهولة سنة ٦٣٥ م دون أن تكون مدرسة بيروت قد عادت الى الحياة ، ومن هذه النصوص التـاريخية يتضح ان حجة تأثر الحقوق الرومانية فى الحقوق الاسـلامية عن طريق معاهد الحقوق التى اوجدها العرب بعد الفتح الاسلامى فى العراق وسورية . هى فرضية أيضا غير قائمة على أساس ، وتتنافى مع الحقائق التاريخية .

٤ ــ وقال الدكتور صليب سامى : من البديهيات القول بأن الشريعة الاسلامية نظام مستقل عن التشريع الرومانى ، لأن القانون الرومانى قائم على أساس سلطة رب الأسرة الذى انزله القانون منزلة الآلهة فجعل له على اعضاء اسرته من زوج واولاد ومن انتسب الى اسرته من نساء بالزواج ومن رزق بهم من حفدة السلطان الكامل بما فيه حق الموت كما جعل له على اموال هؤلاء جميعا الحق المطلق بحيث يصبح المالك وحده لأموالهم يتصرف فيهـا كما يشاء .

أما الشريعة الاسـلامية فأساسها حرية الفرد ، فالابن اذا ما بلغ سن الرشد اصبح مسـتقلا بشخصيته وماله عن سـلطة الأب . واذا كان الابن لا يزال قاصرا فماله وديعة لدى وليه . والمرأة اذا ما تزوجت لا تفقـد حقها فى مالها الخاص ولا يمنع زواجها حق الارث فى أهلها وليس لزوجهـا سلطان على مالها ، بل يظـل ملزما بالانفاق ولو كان لها مال ، وليس لزوجها سلطان عليها سوى ما له عليها من الحقوق المترتبة على الزواج .

ويدعى لو أن الشريعة الاسلامية قد أخذت أحكامها من التشريع الرومانى لكان نظام سـلطة رب الأسرة أول ما تأخذه منه ، ألا ترى أن القـانون الفرنسى الذى نقل أحكامه من التشريع الرومانى لا يزال متأثرا بهذا التشريع. فالزوجة فى حكم القانون الفرنسى لا تزال ناقصة الأهلية لزوجها على اموالها فالولى أو الوصى على أموال القاصر من الحقوق ، وليس لها حق التقـاضى مدعية أو مدعى عليها الا باذن زوجها .

فدعوى البعض أن القـانون الرومانى مصـدر الشريعة الاسلامية دعوى مقبولة أصلا . وتحضر فى هذا المقام مناقشة دارت بينى وبين احد العلماء الفرنسيين فى هذا الموضوع ، وقد تطرق بنا الـكلام الى دعواى بأن بعض العبارات القانونية اللاتينية قد أخذت عن العرب أنفسـهم ، ومن هذه العبـارة قول الرومان بداية والفرنسيين فى اثرهم عن الخطأ فى التفسير

فقلت له أن اللفظ الأول مأخوذ لفظا ومعنى من كلمة « لبس » العربية ، واللفظ الثـانى مأخوذ لفظا ومعنى من كلمة « تلم » العربية ولكن محدثى لم يقتنع بصحة دعواى بحجة أن اللغة اللاتينية أقدم من العربية ، والذى أريد أن أقوله اليوم أن الشريعة الاسلامية كانت مصدرا لأهم فائدة من القواعد الأساسية للقانون الدولى الخاص ، التى تعد فى التوانين العربية ، من أحدث ما وضعه التشريع الأجنبى الحديث فأقول :

لما فتح العرب الأمصار فى صدر الأسلام كان فى

وسعهم ان يخضعوا اهلها جميعا فى أقضيتهم لأحكام الشريعة الاسلامية سواء فى ذلك من اعتنق منهم دين الاسلام ومن بقى على دينه ، لأن من حق الغالب أن يخضع المغلوب لحكمه ، ومن حق كل دولة أن تجعل قوانينها سارية على جميع رعاياها .

ولكن دين الاسلام يأبى التحكم فى عقائد الناس ، ويأمر بتركهم وما يدينونه يحتكمون فى أقضيتهم لقاضى دينهم ، ليحكم بينهم بحكم دينهم ، فقد جاء فى القرآن الكريم فى شأن الذميين ما يأتى « فلن يضروك شيئا وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين» وقال : « ليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه » .

هذه هى السياسة التى جرى عليها الاسلام فى حكم البلاد التى خضعت لسلطانه وقد كانت هذه السياسة الحكيمة التى سار عليها العرب فى فتوحاتهم المصدر الفقهى لاحدى القواعد الأساسية للقانون الدولى الخاص وهى قاعدة « شخصية قوانين الأحوال الشخصية» التىتقررت فى بلاد الغرب لأول مرة فى مجمع اكسفورد سنة ١٨٨٢ وفى مؤتمر لاهاى سنة ١٩٠٤ وأخيرا فى اتفاقية مونترو ١٩٣١ . وعلى هذا فحكم الاسلام يقضى :

أولا : بين القاضى الشرعى يختص بنظر قضايا غير المسلمين ، اذا تراضوا على حكمه ، وبذلك يصبح اختصاصا اختياريا » . أما اذا لم يتراضوا فيكون الفصل فى قضاياهم لقاضى دينهم ا ويصبح اختصاصه بها اجباريا » . ثانيا : ان حكم هذه القاعدة متصورة على المسائل التى لها علاقة بالدين ، وهى المسائل التى نص عليها فى التوراة والانجيل . ثالثا : ان علة هذا الاختصاص وجوب الحكم فى هذه المسائل ، بحكم دين الخصوم ، لأن القاضى الشرعى لا يحكم الا بدين الاسلام .

* * *

٥ ـ شهادات للشريعة الاسلامية

وقد واجهت للشريعة الاسلامية اتهامات كثيرة من ذلك ما ردده هربرت توفين فى كتابه « تاريخ آسيا » من أنها حفظت فى تضاعيفها شرورا اجتماعية ، غير أن هناك عشرات من نصوص كتابات المنصفين من علماء القانون تقول بتقدير الشريعة الاسلامية وتشيد بها . من ذلك قول العلامة سانتيلانا فى كتابه :

الصادر فى سنة ١٨٩٩ حيث يقول : ان فى الفقه الاسلامى ما يكفى المسلمين فى تشريعهم المدنى ان لم نقل أن فيه ما يكفى للانسانية كلها . ومن ذلك قول العلامة (فمبرى) : ان فقهكم الاسلامى واسع جدا الى درجة اننى اقضى العجب كلما فكرت فى أنكم لم تستنبطوا منه الأنظمة والأحكام الموافقة لزمانكم وبلادكم .

ويقول سليم باز القانونى المسيحى اللبنانى : أعتقد بكل اطمئنان ان فى الفقه الاسلامى كل حاجة البشر من عقود ومعاملات وأقضية والتزامات ، وليس بالشاهد على ذلك ما هو ماثل للأنظار فى دار الكتب المصرية وخزائن الكتب فى البلاد الاسلامية فحسب ، بل فى خزائن دور الكتب الأوربية أيضا ، من لندن وهولندا الى روما وبرلين وباريس والمتحف البريطانى ، بل الى المكتبة البابوية فى قصر الفاتيكان ، فان ما فى هذه المكاتب من الكتب الفقهية الاسلامية انما هو ثمرة جهود الألوف الكثيرة من فحول العلماء ، وهى الشاهد الأكبر على أنه لا يوجد معنى من معانى الأحكام المنشود فيها العدل ، الا وتقدم لفقيه مسلم قول فيه حاجة من حاجات البشر فى التشريع .

ويقول العلامة (كهلر) الألمانى : ان الألمان كانوا يتيهون عجبا على غيرهم فى ابتكار نظرية الاعتساف والتشريع لها فى القانون المدنى الألمانى الذى وضع ١٧٨٧ أما وقد ظهر كتاب الدكتور محمود فتحى ، وأفاض فى شرح هذا المبدأ عن رجال الشريعة الاسلامية وابان أن رجال الفقه الاسلامى تكلموا عنه طويلا ابتداء من القرن الثامن للميلاد فانه يجدر بالعلم القانونى الألمانى أن يترك مجد العمل بهذا المبدأ لأهله الذين عرفوه قبل أن يعرفه الألمان بعشرة قرون وأهله هم حملة الشريعة الاسلامية .

ويقول هو كتنج أستاذ القانون بجامعة هارفارد فى مقال مستقض تحت عنوان : مصير الثقافة الاسلامية مع كتابه (روح السياسة العالمية) عام ١٩٣٢ ، بعد أن تكلم عن أصول الفقه الاسلامى والمذاهب الأربعة . قال : ان سبيل تقدم الممالك الاسلامية ليس فى اتخاذ الأساليب الغربية التى تدعى أن الدين ليس له أن يقول شيئا فى حياة الفرد اليومية وعن القانون والنظم السماويةوانما يجب أن يجد المرء فى الدين مصدرا للنمو والتقدم ، وأحيانا يتساءل البعض عما اذا كان نظام الاسلام يستطيع توليد أحكام جديدة واصدار أحكام مستقلة تتفق وما تتطلبه الحياة العصرية فالجواب عن هذه المسألة هو أن فى نظام

الاسلام كل استعداد داخلي للنمو لا بل انه من حيث قابليته للتطور يفضل كثيرا من النظم المماثلة ، والصعوبة لم تكن فى انعدام وسائل النمو والنهضة فى الشرع الاسلامى وانما فى انعدام الميل الى استخدامها وانى اشعر بكونى على حقٍ حين اقرر ان الشريعة الاسلامية تحتوى بوفرة على جميع المبادىء اللازمة للنهوض .

وقال الأستاذ شيرل : عميد كلية حقوق جامعة فيينا فى مؤتمر الحقوقيين سنة ١٩٢٧ أن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد لها اذ انه رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرنا أن يأتى بتشريع سنكون نحن الأوربيين أسعد ما نكون لو وصلنا الى قمته بعد ألفى سنة .

وقال (فاندنبرغ) : لقد وضع للرقيق فى الاسلام قواعد كثيرة تدل على ما انطوى عليه الاسلام من الشعور الانسانى النبيل ففيها نجد من محامد الاسلام ، ما يناقض كل المناقضة الأساليب التى تتخذها الى عهد لاريب شعوب تدعى انها تمشى فى طليعة الحضارة .

ويقول الدكتور صبحى محمصانى فى كتابه « مقدمة فى احياء علوم الشريعة » :

من المعلوم أن الشريعة — واقصد قسم المعاملات منها — ليست للمسلمين فحسب ، بل هى شريعة العرب ، لهم ولغيرهم أيضا ، لأنها فى معظم الوفرة العربية تؤلف جزءا لا يتجزأ من تشريعنا الحالى ولا سيما فى باب الأحوال الشخصية . ويقول : ان الأزدهار الفقهى قد تبعه انحطاط تدريجى أدى منذ أوائل القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى) الى شبه اجماع ضمنى بين فقهاء أهل السنن على سد باب الاجتهاد تخوفا من الجهل والاضطهاد دون الاكتفاء بالمذاهب الأربعة المعروفة أما أهل الشيعة فقد أصابوا بابقاء باب الاجتهاد مفتوحا .

ثم بدات النهضة الفكرية الشرعية العصرية فى القرنين السابع والثامن للهجرة اى الثالث عشر والرابع عشر الميلادى ، ومن اشهر من قام بها الفقيه الغرناطى المالكى ابراهيم بن موسى اللخمى المعروف بالأمام أبى اسحاق الشاطبى مؤلف كتاب الموافقات فى اصول الشريعة ، ومؤلف كتاب الاعتصام والمصالح المرسلة .

وقد جعل مؤلفها مقاصد الشريعة والمصالح التى بنيت عليها أحكامها بصورة لم تصل اليها كثير من الشرائع الغربية الحالية . وتوصل المؤلف الى منع استعمال الفعل المأذون فيه شرعا اذا لم يقصد منه فاعله الا الاضرار بالغير ، وهذا هو عين نظرية التعسف فى استعمال الحقوق التى لم تعرف فى الغرب بمعناها التحليلى الواسع الا مؤخرا جدا . وتوضيح ذلك : اننا عندما نقول ان فعلا من الأفعال مأذون فيه شرعا فهذا معناه أن الشرع سمح لنا فى استعماله ، وان الشرع يحمينا فى هذا الاستعمال ، ولذا قال الفقهاء « الجواز الشرعى ينافى الضمان » بمعنى انه لا مسؤولية على من يستعمل حقه المأذون فيه شرعا ، ولكن هذا الحق أعطى لمقاصد معينة فلا يجوز أن يستعمل بقصد الاضرار بالناس ، فقاعدة « لا ضرر ولا ضرار » الواردة فى الحديث الشريف تقيد هذا الاذن الشرعى وتمنعه عندما ينجم عنه ضرر للغير هذا ما شرحه الشاطبى ، بوجه لم تقرأ مثله فى الكتب الغربية فى زمانه على الاطلاق . ومن أشهر اعلام هذه النهضة : « ابن تيمية » صاحب الفتاوى المشهورة ومن اقواله : تحريم عادات التعجيل والحلف بالطلاق دون سبب شرعى فأفتى بتحريم هذه العادة المستهجنة ، أى الحلف بالطلاق والتعجل فى ايقاعه :

وقال ابن تيمية بتحكيم العقل فى درس نصوص الشرع بعبارته المأثورة : « ان صحيح المنقول فى الشرع الاسلامى موافق دائما لصريح المعقول » ، ومعناها أن يمتنع أبدا أن يكون كلام الله تعالى ، فى كتابه العزيز غير معقول ، فهده القاعدة موافقة صحيح المنقول للمعقول ، قاعدة اولية أصولية صحيحة .

ومن هؤلاء : ابن القيم الجوزية ، فهو مؤلف غزير المادة ، اذكر من كتبه : كتاب « اعلام الموقعين عن رب العالمين » والنظريات الفقهية التى جاهر بها ابن القيم نظريات عديدة ، فقد حمل ابن القيم علي التقليد والجمود وحارب ذلك ونادى بوجوب الإجتهاد ، وتكلم ابن القيم عن مبدأ «سد الذرائع» التى نسميه اليوم بمنع الاحتيال على القانون ، فالذرائع جملة ذريعة ، وهى الوسيلة التى تستعمل للتهرب من احكام الشرع وهى لا تجوز فى عرف ابن القيم ، وقد أفتى ابن القيم بمنع المخارج للهرب من تطبيق أحكام الشرع ومنع الوسائل التحليلية والاحتيالية جميعا بما أسماه مبدأ « سد الذرائع » وهو مبدأ موافق لحكم التشريع الاسلامى وبعد اليوم من اشهر وأرقى المبادىء القانونية العصرية .

* * *

وقد عقدت خمسة مؤتمرات غربية من (١٩٣٢ — ١٩٥١) جمعت الراى على استقلالية الشريعة الاسلامية

وصلاحيتها الكاملة :

١ — مؤتمر القانون الدولى المقارن فى لاهاى (اغسطس ١٩٣٢) :

أعلن الاستاذ لامبير تقديره للشريعة الاسلامية من الناحية الفقهية .

٢ — مؤتمر القانون الدولى فى لاهاى (اغسطس سنة ١٩٣٧) :

اعلن المؤتمر ١ — اعتبار الشريعة الاسلامية مصدرا من مصادر التشريع العام ٢ — اعتبار التشريع الاسلامى قائما بذاته ومستقل غير مأخوذ من التشريع الرومانى .

٣ — مؤتمر المحامين الدولى فى لاهاى (١٩٤٨) :

التوصية بدراسة الشريعة الاسلامية دراسة مقارنة .

٤ — جمعية القانون الدولى العام .

اعتبار محمد بن الحسن الشيبانى صاحب ابى حنيفة الرائد الأول للقانون الدولى العام .

٥ — اسبوع الفقه الاسلامى فى باريس ١٩٥١ .

قال نقيب المحامين : لا ادرى كيف أوفق بين ما كان يصور لنا عن جمود الشريعة الاسلامية والفقه الاسلامى وعدم صلاحيتها كأساس لتشريعات متطورة وبين ما سمعته مما يثبت من غير شك ما عليه الشريعة الاسلامية من عمق وأصالة ودقة وكثرة تفريغ وصلاحية لمقابلة جميع الأحداث .

وقد قرر المؤتمر : ١ — اعتبار مبادىء الفقه الاسلامى ذات قيمة تشريعية لا يمارى فيها ٢ — اختلاف المذاهب يحوى ثروة تشريعية هى مناط الاعجاب ، ومنها يستجيب الفقه الاسلامى لجميع مطالب الحياة .

١٩ — شبهات التمدن ، وما قبل الاسلام ، ومفهوم الشرق

من الشبهات التى ترددت كثيرا فى هذا المجال ثلاث شبهات :

١ — ما يثار من الشبهات حول التمدن الاسلامى وذلك فى محاولة للانتقاص من أثر الحضارة العربية الاسلامية ، أو اتهامها بالعصبية ، أو ايراد المثالب التى عرضت لها الشعوبية أو الاعتماد على بعض الأحاديث الضعيفة أو الاستشهاد بكتب المحاضرات والفكاهات : أو نسبة حريق الاسكندرية الى عمر بن الخطاب ، وقد جرى هذا فى كتابات جرجى زيدان وأحمد أمين وحسين مؤنس وتوفيق الحكيم وغيرهم وقد رد « رشيد رضا » هذا الهدف الى ما ظهر بعد الانقلاب العثمانى ١٩٠٩ من نزعة جديدة تقدمتها نزعة عدت احياءاً لمذهب الشعوبية، وكانوا قد اجتذبوا بعض الكتاب فسافر اليها جرجى زيدان ولقى فيها بعض زعماء جمعية الاتحاد والترقى ، ثم عاد مشبعا بذلك ، وقد كتب فى الهلال ما يشعر بهذه النزعة ، وقد ترجمت جريدة اقدام التركية كتابة «التمدن الاسلامى » ونشرته بالتتابع وقد حوى هذا الكتاب كثيرا من هذه الشبهات . وقد وصف العلامة شبلى النعمانى الذى نقد هذا الكتاب او فند أخطائه وكشف عن الغاية التى توخاها فقال أنها : « ليست الا تحقير الأمة العربية وايذاء مساويها وقال أن معظم ما نقله المؤلف فى اثبات عصبية العرب هى اقوال ذكرها صاحب العقد الفريد فى هذا الباب ، ولكن صاحب العقد حينما ذكر هذه الأقوال صدرها بقوله : قال أصحاب العصبية من العرب وفى العقد حجج كلا الطرفين المتعصبون للعرب ورأى من نقد آرائهم ، أما جرجى زيدان فقد اكتفى بايراد خصوم العرب ، واوردها على أنها حقائق وربما نسب قول رجل معين الى العرب عامة .

كما اخذ عليه رفيق العظم الاجمالى فى الموضوعات التى تقتضى التبسط وأهمها الكلام عن العلوم التى اشتغل بها العرب ابان مدنيتهم مبينا ما كان لهم من اليد الطولى فى الترقى ، وقال فيما قال : ان آرائك فى بنى أمية مهدت الظن بأن منحاز لغير العرب لذا أطريت الدولة العباسية لانها اعجمية أكثر منها عربية وذهبت الى أن الفضل فى رقيها العلمى والمدنى راجع الى غير العرب ، وعندنا أن حملته على بنى أمية قد استمدها من المستشرق المتعصب : « لامنس » اليسوعى .

٢ — عرف عن المستشرقين الاهتمام بالحضارات القديمة وبتاريخ العرب قبل الاسلام وتزعم آراء المستشرقين ومن لها لفهم من ان العرب قبل الاسلام وكانوا قد بلغوا كبرى من الحضارة اصبحت تؤهلهم لما يهم الاسلام من نهضة . وفى هذا القول محاولة للانتقاص من أثر الاسلام ، وقد واجه هذا الرأى العلامة فريد وجدى ردا على ما ردده زكى مبارك من قوله « أن العرب قبل البعثة المحمدية كانت أمة وصلت بعد تطورات عديدة الى الصلاحية للملك فلما جاء النبى عليه السلام نهض بهم فنهضوا ووجههم الى الفتح والسيطرة فوصلوا بعد زمن قليل الى ما كان الذأبى يريد » .

يقول فريد وجدي : ان قريشا وهي ارقى القبائل لغة وفهما ومكانة لم تقبل دعوة النبي الا رجالا ونساء لا يربو عددهم على بضع عشرات وان اتباع النبي الاولين اضطهدوا اضطهادا شديدا حتى هاجروا الى بلاد الحبشة ، وان النبي لبث على هذه الحالة من الاضطهاد ، ثلاثة عشر سنة ، فلما انست قريش من النبي الهجرة اعتزمت قتله وارصدت له ، ولما علم اهل مكة افلاته اقتفوا اثره ، كل هذا ينطق بلسان فصيح أن قريشا وهي مظنة النجابة والفهم من العرب ، في ذلك العهد ، لم تكن قد استعدت للملك ، فان المجتمع الذي يقابل الداعي للجديد والنهوض بهذا النفور ويصر عليه ثلاث عشرة سنة لا يزداد بعدها الا عنادا وتشددا، هذا المجتمع الذي يقاتل الداعي بهذا النفور العظيم وينتهي أمره معه الى الخضوع له كرها . لا يعتبر انه استعد لاقامة دولة ، فلو ترك وشأنه لبقى على ما كان عليه ولو أن قريشا وهي اقرب العرب الى الحضارة قابلت دعوة محمد بصدر رحب واحلتها المكان اللائق بها ونهضت تحت قيادته لجمع كلمة القبائل وابطال وثنيتهم لساغ أن تقول : ان محمداً لم يعمل أكثر مما يعمله البناء وجد احجارا منحوتة ومواد جاهزة ، فأقام بها قصرا ضخما » .

٣ — ويشير الدكتور م. محمد حسين الى احاديث المستشرقين عن النبي ووصفه بالزعامة . ويقول : من المهم ادراك الفرق بين النبوة والزعامة ، والخطورة التي ينطوي عليها القول بزعامته صلى الله عليه وسلم او عبقريته او براعته السياسية مما يفرح به السذج من المسلمين ، ففي ذلك كله نفي للنبوة ، واقرار بأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يصدر عن الفكر والروية ومقتضيات الحال ، لا عن الوحي ، وليس في الأمر معجزة ، فالأمر فيما يزعمون طبيعي ومساير لنواميس التطور ، ومألوف ما يحدث في عصور النهضة الاجتماعية أو الثورة السياسية .

وهناك شبهة أخرى هي القول : ان الاسلام مشابه في اصوله لليهودية والمسيحية والرد على هذا عند الدكتور محمد حسين : ان ما أقره الاسلام مما بقى صحيحا من ملة أبينا ابراهيم عليه السلام هو في نظرهم دليل على ان الاسلام امتداد طبيعي للحياة الجاهلية ، وما جاء به الاسلام من تصورات دينية هو امتداد لما يحويه الشعر الجاهلي من تأثر باليهودية والنصرانية ، وحقيقة الأمر في ذلك كله أن فضائل العرب في جاهليتهم هي البقية الصالحة من ملة ابراهيم عليه السلام ، وما يشترك فيه الاسلام مع اليهودية والنصرانية بل مع أساطير الأولين في الجاهليات الأولى الغابرة ، هو البقية الصالحة الصحيحة في هذه الأساطير الأولى من الوحي الالهي ، لأن هذه الأساطير في حقيقة أمرها أديان صحيحة محرفة .

ويقول الدكتور محمد حسين أن عناية المستشرقين ودعاة التغريب بالحضارة السابقة على الاسلام — ومنها الجاهلية العربية — فرع من دراسة العصور الجاهلية الأولى كوسيلة لخلق عصبية قومية عنصرية تباهى بهذا القديم لتحله محل مفهوم الفكر الاسلامي ووحدة العالم الاسلامي به ، وتستهدف هذه الدراسات تمجيد العرب في جاهليتهم ورفض القول بأن الاسلام هو سبب مجدهم واساس حضارتهم ، وقد بدت طلائع هذه الحركة في كتابات بلنت ولورنس وآثارها باقية واضحة في كتابات الشعوبيين .

٤ — أما مفهوم « الشرق » في نظر كتاب الغرب فقد كان الأغلب يتمثل في سورة البخور وألف ليلة وقد احتفى هؤلاء الكتاب برباعيات الخيام والف ليلة وترجموها واعتبروها مصدرا أساسيا لدراسة المجتمع العربي وحاولوا أن يرسموا من « هارون الرشيد » شخصية خيالية تختلف كل الاختلاف عن شخصيته الحقيقية ، كما رسموا شخصية مهزوزة للقائد «عطيل» تتنافى مع طابع ذلك المغربي المقدام الحاد الطبع الغيور.

ودوافع هذه الصور المغرضة معروفة ، فانها جاءت بعد هزيمة الحروب الصليبية ، في مظهر الحقد والتهوين ومحاولة اسباغ صورة مزرية للشرق من خلال بعض السهرات ومجالس الغناء والخمر والجواري .

ولا ندعى أنه لم تكن هناك مثل هذه الصور في بعض قصور السراة والأمراء ، ولكن أحدا لا يستطيع أن يعتبر أن مثل هذه السهرات أو المجتمعات هي صورة المجتمع كله أو غالبه . وقد كانت كتابات دعاة التغريب في هذا الصدد مغرضة أساسا ، ومستمدة من عقلية مادية صرفة لا ترى في الشرق الا طابع اللذة والمتعة وارضاء الغريزة ، وكانت تحاول برسم هذه الصورة أن تمسخ حقيقة الواقع في المجتمع الاسلامي العربي الذي ظل متماسكا حتى في عصور الضعف والتأخر .

ولا يستطيع أى كاتب منصف أن يعتبر كتب الف ليلة ورباعيات الخيام وقصص المسامرات وكتب المحاضرات وكتاب الأغاني مصدرا أساسيا علميا لرسم صورة للمجتمع ، فان هذه الصور قد رسمت الظرفاء

وأرباب الفكاهة والانحلال ، وهى فى مجموعها كانت قاصرة على طبقة قليلة جدا من أهل الشرق ، ولاتنسحب أبدا على المجتمع كله الذى كان غنيا غاية الغنى وثريا كل الثراء ومتفاعلا غاية التفاعل بجوانب العلم وحلقاته والعباد والزهاد ، والمفكرين والباحثين والعلماء والأسوياء من الرجال والنساء .

* * *

— ٤ —

شبهات حول « القرآن الكريم »

واجه « القرآن » الكريم حملة من أعنف الحملات واثيرت حوله شبهات متعددة ، كانت تهدف فى مجموعها الى القول بأن (١) القرآن من نظم النبى محمد ، وأنه موضوع وليس منزلا من عند الله (٢) انه كتاب مضطرب وغير متماسك وفيه تعارض (٣) انه صعب الفهم وركيك .. (٤) أنه غير منظم أو مبوب (٥) انه العقبه الكؤود فى سبيل ارتقاء الأمم الاسلامية والمسئول عن تقهقرها (٦) أن القرآن مقتبس من التوراة والانجيل . (٧) القرآن مرآة لأفق خاص من الحياة (٨) كتاب مواعظ وحكم وانذارات .

فهذا (رينولد نيلكسون) يقرر ان مؤلف القرآن مضطرب غير متماسك فى معالجة كبار المعضلات وانه نفسه لم يكن عالما بوجود هذا الاضطراب والتعارض ، وأن بيان صحابة الرسول الساذج قد دفعهم الى الايمان بأن القرآن كلام الله . وان الفرق الاسلامية قامت بسبب التعارض الذى يحتويه القرآن .

ويقول (هنرى جونستون) : القرآن ليس سوى مجموعة أقوال مقتبسة من التوراة والانجيل وبعض تعاليم المجوس ، وأنه يحتقر المرأة ، وقد اشتهر الأسلام بكونه غير قابل للتكيف لما يطابق أحوال الزمان والمكان .

وقد أشار مستر جب كبير المستشرقين الانجليز فى كتاب « الأدب العربى » الذى أصدره عام ١٩٦٣ ان القرآن من صياغة محمد .

وقد ردد هذه الشبهات كثير من كتاب التغريب والشعوبية ، ونشرها بيننا عدد ممن يكتبون باللغة العربية فى صحف مشبوهة تصدر فى بعض عواصم الوطن العربى كما حاول آخرون أن يزجوا بهذه الشبهات فى بعض الرسائل والأطروحات والمؤلفات .

وقد كان مصدر هذه الحملة على القرآن الكريم أساسا هو الايمان الأكيد بأن القرآن هو المصدر الأول والأساسى لمقومات الفكر العربى الاسلامى وأن اثارة الشبهات حوله انما هو هدف كبير فى سبيل القضاء على هذه المقومات ، وقد بدأ ذلك فى عبارات الاستعماريين أمثال « غلادستون » رئيس وزراء بريطانيا الذى حمل المصحف أمام أعضاء مجلس العموم البريطانى وقال : ما دام هذا الكتاب باقيا فى الأرض فلا أمل فى اخضاع المسلمين . ويتصل بهذا ما ذكره كرومر من اتهامات للقرآن من انه هو المصدر الأول لتأخر المسلمين ، غير أن هذه الشبهات لم تكن صادرة الا عن تعصب أو خصومة أو دوافع استعمارية ، فانه قد وجد عشرات من المفكرين الذين قالوا فى القرآن كلمة منصفة :

قال (جوستاف لوبون) : ان هذا الكتاب قانون دينى وسياسى واجتماعى وأحكامه نافذة منذ عشرة قرون

وقال (جان جاك روسو) : من الناس منا من يتعلم قليلا من العربية ثم يقرأ القرآن ويضحك منه ولو أنه سمع محمد يمليه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرقيقة ، وذلك الصوت المقنع المطرب المؤثر فى شغاف القلوب ورآه يؤيد أحكامه بقوة البيان لخر ساجدا على الأرض وناداه : ايها النبى رسول الله : خذ بأيدينا الى مواقف الشرف والفخار فنحن من أجلك نود الموت أو الأنتصار .

وقال (توماس كارليل) : ان القرآن كتاب لاريب فيه ، وان الاحساسات الصادقة الشريفة والنيات الكريمة تظهر لى بفضل القرآن ، الفضل الذى هو أول وآخر فضل وجد فى كتاب تبحث عنه جميع الفضائل على اختلافها ، لا بل هو الكتاب الذى يقال عنه « الختام » .

وقال (جبون) : القرآن مسلم به من حدود الأقيانوس الأطلانتيكى الى نهر الجانجس بأنه الدستور الأساسى ، ليس لأصول الدين فقط ، بل للأحكام الجنائية والمدنية والشرائع التى عليها مدار نظام حياة النوع الاسلامى وترتيب شؤونه .

وفى حديث للكاتب الأشهر : هـ . ج ، ولز مع أمين الريحانى قال : فى القرآن أشياء كثيرة حسنة تكاد تهمل فحبذا تجديد الحياة فيها ، ناهيك ان القرآن هو

عروة الاسلام الوثقى او هو على الأقل وسيلة يحسن استخدامها فى تأكيد الرابطة الاسلامية ، ولو لم يكن لدى المسلمين من واسطة الى اتحاد لوجب عليهم اختراعها ولكن كتابهم خير واسطة ، اننى أدعو الى القرآن لتتخذ منه شارة جنسية وعلما وطنيا وعروة شاملة فى الوحدة القومية . ومن رأيى أن يتمسك المسلمون بالقرآن ويتعلموا العلوم الطبيعية .

ويقول أميل درمنجم : انه لأجل بعث حضارة اسلامية جديدة تضاهى حضارة السلف بل تفوقها ، يكون بالرجوع الى القرآن والحديث فما تزال هذه التعاليم السامية حية نابضة متدفقة قوة وحكمة ، فاذا ما استخدمها المفكرون فانهم يقيمون بدورهم صرحا يبعث من جديد حضارة اسلامية تتبوأ مكانها بين حضارات القافلة البشرية .

وقال فولتير فى كتابه معجم الفلسفة : نحن لانجهل ان القرآن يميز الرجل تلك الميزة المطلقة المعطاه له من الطبيعة عن المرأة ، ولكن القرآن يختلف عن التوراة فى انه لا يجعل ضعف المرأة عقابا الهيا كما ورد فى سفر التكوين (٣ : ١٦) ومن الخلط ان ينسب الى شارع عظيم كمحمد ، مثل تلك المعاملة المنكرة للنساء ، والحقيقة ان القرآن يقول : فأن كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ، ويقول : ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم أزواجا لتسكنوا اليها .

ويقول « أتيان دينية » لقد حقق القرآن معجزة لا تستطيع أعظم المجامع العلمية أن تقوم بها . ذلك انه مكن للغة العربية فى الأرض بحيث لو عاد احد أصحاب رسول الله الينا اليوم لكان ميسورا له ان يتفاهم تمام التفاهم مع المتعلمين من أهل اللغة العربية . بل لما وجد صعوبة تذكر للتخاطب مع الشعوب الناطقة بالضاد ، وهذا عكس ما يجده مثلا أحد معاصرى « رابيليه » من أهل القرن الخامس عشر الذى هو اقرب الينا من عصر القرآن ، فمن الصعوبة مخاطبة العديد الأكبر من فرنسى اليوم ، وان لغة القرآن وان كانت تمت فى أصولها الى عصور بعيدة قديمة فهى مرنة طيعة تسع التعبير عن كل ما يجد من المستكشفات والمخترعات الحديثة دون أن تفقد شيئا من رونقها وسلامتها .

وتقول الدكتورة لورافيشيا فاغليرى : أن معجزة الاسلام العظمى هى « القرآن » الذى ينقل الينا الرواية الراسخة غير المنقطعة من خلال انباء تتصف بيقين مطلق أنه كتاب لا سبيل الى محاكاته ، ان كلا من تعبيراته شامل جامع ، ومع ذلك فهو ليس بالطويل اكثر ممايننبغى وليس بالقصير ، اما اسلوبه فاصيل فريد وليس ثمة ايما نمط لهذا الأسلوب فى الأدب العربى الذى ينحدر الينا من العصور التى سبقته ، ان آياته كلها على مستوى واحد من البلاغة وهو ينتقل من موضوع الى موضوع من غير ان يفقد قوته ، اننا نقع هنا على العمق والعذوبة معا ، وهما صفتان لا يجتمعان عادة ، فكيف يمكن ان يكون هذا الكتاب المعجز من عمل محمد ، وهو العربى الأمى ، وعلى الرغم من أن محمدا دعا خصوم الاسلام الى ان يأتوا بكتاب من مثل كتابه ، او على الأقل بسورة من مثل سوره ، فان أحدا لم يتمكن من ان يأتى بأى اثر يضاهى القرآن . لقد قاتلوا النبى بالأسلحة ، ولكنهم عجزوا عن مضاهاة السمو القرآنى، ذلك أن الكتاب الى جانب كماله من حيث الشكل والطريقة قد أثبت انه ممتنع عن التقليد والمحاكاة حتى فى مادته ، فنحن نقرأ فيه ونقع على ثمة ذخائر واسعة من المعرفة تعجز أكثر الناس ذكاء ، وأعظم الفلاسفة ، واقدر رجال السياسة .

* * *

« ولا يزال لدينا برهان آخر على مصدر القرآن الالهى فى هذه الحقيقة ، هو أن نصه ظل صافيا غير محرف طوال القرون التى تراخت ما بين تنزيله ويوم الناس هذا ، وان نصه سوف يظل على حاله تلك من الصفاء وعدم التحريف ، باذن الله ما دام الكون ، ان هذا الكتاب الذى يتلى كل يوم فى طول العالم الاسلامى وعرضه ، لا يوقع فى نفس المؤمن أى حس بالملل ، على العكس ، انه فى طريق التلاوة المكرورة يحبب نفسه الى المؤمنين اكثر فأكثر يوما بعد يوم ، انه يوقع فى نفس من يتلوه أو يصغى اليه حسا عميقا من المهابة والخشية ، ان فى امكان المرء أن يستظهره فى غير عسر ، ان انتشار الاسلام السريع لم يتم عن طريق القوة ، ان الذى أدى الى ذلك الانتشار كون « الكتاب » الذى قدمه المسلمون الى الشعوب المغلوبة مع تخييرها بين قبوله ورفضه ، كتاب الله ، كلمة الحق ، أعظم معجزة كان فى ميسور محمد أن يقدمها الى المترددين فى هذه الأرض » .

* * *

١ ــ ترجمة القرآن : ادوار مونتيه

قام الأستاذ ادوار مونتيه الأستاذ بمدرسة الالسن الشرقية بجينيف بترجمة القرآن وقدم له دراسة صور فيها مفهومة القرآن فقال :

القرآن فى الحقيقة هو ذو قيمة خارقة للعــادة ، فهو بين الكتب الدينية أعظمها شأنا وهو يشتمل على الحياة الروحية لقسم من النوع الانســانى ، والعقيدة القرآنية ذات علاقة وثيقة مع العقيدة اليهودية والعقيدة المسيحية ، والآثار النصرانية المتعلقة بالمســيح ، هى موضوع صفحات عديدة من القرآن ، على انه لا ينبغى أن يفهم من هذا الاتحاد فى اصلى الاسلام والنصرانية ان الاسلام القرآنى فاقد الاســتقلال وأنه ليس ذا صــفة خاصة أصيلة ، فالأمر بالعكس ، والاشلام دين لا يمكن خلطه مع دين آخر من الأديان السامية فهو دين سامى تحت صورة عربية خاصة تتجلى فيه روح اللغة العربية . .وتجد فى القرآن صفحات غاية فىالابداع سواء من جهة الفكر او من جهة القالب الذىوضع فيهالفكر ، وكذلكنجد فيهلآلىء فريدة فى علم الروح معروضة فى آيات هىأعلى ما يمكن من الأسلوب الشعرى وهو اسلوب قائم بذاته ، وفى القرآن منــازع دينية ذات سمة مدهشة لا ســيما بالنسبة الى العصر الذى عاش فيه ذلك المصلح العربى ومما يجعل للقرآن هذه الأهمية أنه الكتاب الدينى للأمم الاسلامية التى تمثل فى شرقى اوربا وفى العالم الأسيوى وفى ماليزيا وفى افريقيا دورا ليس مهما وحســب ، بل دورا ذا صلة شديدة بالأمم الغربية المسيحية . والذى يجعل للقرآن هذه الأهمية هو المستقبل المدخر للشعوب الاسلامية . اذ لا ينكر أن مستقبلا فخما ينتظر هــذه الشعوب .

أما « محمد » فكان كريم الأخلاق حســن العشرة عــذب الحديث صحيح الحكم صــادق اللفظ وقد كانت الصفات الغالبة عليه هى صحة الحكم وصراحة اللفظ والاقتناع التام بما يعمله ويقوله . وأن طبيعة محمــد الدينية تدهش كل باحث مدقق نزيه المقصد بما يستجلى فيها من شدة الاخلاص ، فقد كان مصلحا دينيا ذا عقيدة راسخة ، ولم يقم ــ الا بعد أن تأمل كثيرا وبلغ ســن الكمال ــ بهاتيك الدعوة العظيمة التى جعلته من اسطع أنوار الانسانية فى الدين .

ولقد جهل كثير من الناس محمد وبخسوه حقه . ولقد منع القرآن الذبائح البشرية والخمر والميسر ، وكان لهذه الاصلاحات تأثير غير مباشر متناه فى الخلق ، بحيث ينبغى أن يعد محمد فى صف أعاظم المحسنين للبشرية ، ان حكمة الصلاة خمسة مرات فى اليوم هى ابقاء الانسان من الصباح الى المساء تحت تأثير الديانة ليكون دائمــا بعيدا عن الشر ، وحكمة الصــيام تعويد المؤمن غلبته على شهوات الجسم ، وزيادة القوة الروحية فى الانسان وحكمة الحج هى توطيــد الاخاء بين المؤمنين وتمــكين الوحدة العربية ، فهذا هو البناء العظيم الذى وضــع محمد أساســه وثبته وما يزال ثابتا بازاء عواصــف الدهور .

كما ذكر العــلامة فينى فى مقدمة ترجمــة القرآن لأدوار مونتيه قوله : كان محمد صلى الله عليه وســلم أمينا وأعدل رجل ، وأن مرشــد المسلمين هو القرآن وحده ، والقرآن ليس بكتاب دينى فقط ، بل كتاب علم وادب ، وتجد فيه بيان الحياة الســياسية والاجتماعية حتى انه يرشد الانسان الى وظائفه اليومية ، والأحكام الأساسية التى لا توجد فى القرآن يوجد فى الســنة ، والتى لا تكون واضحة لا بالقرآن ولا بالســنة توجد فى الفقه الواسع الذى هو علم الحقوق .

* * *

٢ ــ القرآن : مارسيل كابى

القرآن كتاب موحى به وهو يفوق ما عرف من هذا النوع كثيرا ، فان العقيدة الروحية التى بينها تصــلح أن ينعكس نورها على الحياة الاجتماعية ، وهذا سر قوة الاسلام وسماحته ووحدته . والقرآن يحمل الى الناس بدون سفسطات بيانية ولا احتيالات غير طبيعية أصول العدالة والنظام الاجتماعي الذى يخضع كل فرد لمراعاة أدب الاجتماع وتعرضه على الجماعة حمــاية الأفراد . وليس فى الاسلام قساوسة ولا رهبان ولكن فيه شراحا ومفسرين لكتابه ، وكتابه قد نظم حدود حيــاة كل فرد وحيــاة المجموع والقرآن لا يعنى كثيرا بالدعــوة الى التحــاب لأن الحب عاطفة مستقبلة ، ولكنه يدعو الى الحق والواجب ويحتفظ بالحب لله وحده ، وهو يعرض على الجماعة البشرية روحا اجتماعية ونظاما سليما من المال ، ولا يوجد نظام اجتماعى سليم الا بقدر ما تتعادل فيه حقوق الفرد على الجماعة وحقوق الجمــاعة على الفرد وفى نظر القرآن أن وجود طائفة موضــوعة فوق الواجبات فى المجتمع وأخرىملفوظة خارج دائرة الحقوق يعتبر انكارا صحيحا للعقد الاجتماعى المقرز .

فلننظر الى الروح الاجتماعية التى فرضها القرآن على أهله .

تأمل فى هذا كذا مليونا من الأنفس تدعى كل خمس مرات فى اليوم لأداء الصلاة فيجيبون داعيها ويتوجهون جميعــا صوب مكة ويقرعون جميعــا عبارات واحــدة ويركعون ويسجدون جميعا على نحو واحد ، ويدينون

جميعا بعقيدة واحدة وشريعـــة واحدة ، معترفين طرا بالعقد الاجتماعى الذى يربطهم ، وفى وسط هذه الوحدة اليومية الهائلة يشعر كل واحد بأنه تحت نظـــر الجميع لأن حارس العقيدة والشريعة والعقد الاجتماعى هـــو الراى العام فى الاسلام والاسلام ليس بمملكة ولم يكنها قط حتى فى عهد عظمته الاولى ولكنه عقيـــدة وشريعة ووحدة اجتماعية ».

* * *

٣ ـــ الدكتور شبلى شميل : القرآن والعمران

كتب اللورد كرومر فى كتابه « مصر الحديثة » أن القرآن هو العقبة الكؤود فى سبيل ارتقاء الأمم الاسلامية والمسئول عن تقهقرها .

وقد تصدى للرد على هذا الرأى كثيرون منهم فريد وجدى ومصطفى الغلايينى وقد اخترنا هنا رد الدكتور شبلى شميل أول داع الى المذهب المـــادى فى العـــالم العربى ومصر .

قال الدكتور شـــميل : ان اللورد لم ينظـــر الى القرآن الا من خلال الذين وقفوا دونه ، ووقفوا به حيث ارادوا ، اللورداخطأ والخطأ تسرب اليحكمه حيث قال أن شريعة القرآن لا توافق الناس فى كل عصر ، وأن وافقته فى بعض العصـــور ونفس قوله هـــذا حجة عليه ، لان العمران لا يتسامح مع شرائعه ، هل يعقل ان القرآن الطامح الى أبعد المرامى الاجتماعية يكون قد اراد بمثل هذه القضايا أن يجعلهـــا غلا فى عنق العمران ، وكيف لا يجوز حملها على محمل المجاز والاستعارة ولا سيما القرآن . اليس قيام نساء المسلمين فى أول عهد الإسلام يخطبن فى القوم حاسرات الوجوه أقوى دليـــل على أن مسألة الحجاب ليست من المسائل الجوهرية فى الدين ، اما مسألة تعدد الزوجات فهى ليست بالاعتراض الوجيه على القرآن ، لأنه منهى عنها صريحا فيه بغرض العدل فيها ، وهى والطلاق ليست فى الاسلام من المســـائل الدينية التى يعتقد بها الاجتماع ولذلك لا يقيد بها حجـــة على القرآن ولا لاعلى سواه اذا تصرف الانسان فيهما بحيث لا توافقان مصلحة العمران .

مما تقدم نرى أن الدين نفسه ليسالعقبة الحقيقية فى سبيل العمران ، والمنصف لا يســـعه أن يلقى على القرآن تبعة تقهقر الأمم الاسلامية ، فاذا ارادت الأمم الاسلامية ان تجارى الأمم المتمدنة فى ارتقـــائها فالقرآن لا يحول دونها . ولا ينكر ان الدين يؤثر فى أخلاق الأمم التى تدين به ولكن هذا التأثير يجب أن يكون واحـــدا فى الجوهر لانها جميعا تصبو الى غاية واحدة هى اصلاح حال الانســـان فى العمران ، ثم ان فى القرآن أصـــولا اجتماعية عامة فيها من المرونة ما يجعلها صالحة للأخـــذ بها فى كل زمان ومكان ، حتى فى أمر النساء وأن القرآن فتح امام البشر ابواب العمل للدنيا والآخرة ، ولترقيـــة الروح والجســـد بعد أن أوصـــد غيره من الأديان تلك الأبواب فقصر وطبقه البشرية على الزهد والتخلى عن هذا العالم الفانى .

* * *

٤ ـــ رد شبهات ويلز عن القرآن

يقول مستر ويلز فى كتابه : مختصر تاريخ العالم : « وقد أملى محمد كتابا فى الأوامر والقصص اسمه القرآن ، زاعما أنه أوحى به اليه من عند الله واذا نظرنا الى هذا القرآن من النـــاحية الأدبية والفلسفة كان غير جدير بنسبته الى الاله » .

ورد فريد وجدى على ذلك فقال :

ان أول ما يجب على مستر ويلز أن يدرس ما كان بين العرب من الأحوال الاجتماعيـــة على ما طرأ عليهم بسبب هذا الدين ، وان يدقق فى معرفة الغـــايات التى قام عليها هذا الاجماع وما يحتمل ان تتأدى اليه الجماعة بالاتجاه اليها ، مع عدم اغفال عوامل التطور المودعة فى هذه التعاليم ، وما عسى أن توصل اليه ، وقيمة ما فيه من الآداب والوصايا وما يتوقع أن يفضى اليه بالســـير عليها ، كل هذا أغفله مستر ويلز ، ولذلك لم يتبين له من أمر القرآن الا ما تلقاه فى المدرســـة الأولية فى أول حياته وهو أنه كتاب لا قيمة له وضعه رجل عربى لتقوم عليه قبائل بدوية . وهذا الضرب من التسرع فى اصدار الأحـــكام ليس من الآداب العلميـــة فى شىء ، اذا كان القرآن متى نظر اليه من الناحية الأدبية والفلسفية يظهر انه غير جدير بنسبيته الى الله ، فلا يوجد كتـــاب فى العالم يستحق هذه التسمية ، ولو أنصف ويلز لقال : ان الانسان ما كان ليستطيع أن يدرك الفوارق السببية المحسوسة بين الكلام الالهى فى روعتهوسموه وروحانيته وبين الـــكلام البشرى فى نســـبته وماديته الا بعد نزول القرآن .

ويدعى المستر ويلز أن القرآن من الناحية الأدبية

والفلسفية غير جدير بنسبيته الى الله ، وانما يصح هذا لو كانت آدابه وفلسفته تنم عن قصور لا تتنزه عنه البشرية ، وقصر نظر ملازم لها . وخاصة فى عهد نزوله .. فى بيئة لا عهد لها بعلم ولا فلسفة .

ماذا عسى أن يتخيل أرفع الناس خيالا من السمو الأدبى فوق قوله تعالى « ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد »وقوله «أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، او آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » . فأنت ترى أن الاسلام يعنى كل العناية بقلب الانسان ويوجه اليه كل اهتماماته ، وهل يستطيع مستمد أن يأتى فى باب العدل بما هو فى درجة قوله تعالى « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » .

ولو شئت استيعاب كل أمهات الآداب التى وردت فى القرآن ، واريد منها نهاياتها البعيدة التى لم يصل لادراكها الانسان الا بعد أن بلغ من التطور العلمى والأدبى الى الحد الذى وصل اليه فى هذه القرون الأخيرة لاستدعى ذلك سفرا كبيرا ، فاذا كانت هذه الأصول قد جاءت منثورة فى القرآن ، وكل منها مظهرا لعبقرية ادبية أو فلسفية أو علمية ، ليست فى راى المستر ويلز ذات شأن يذكر فليس يوجد فى الكون كله شىء يذكر .

* * *

٥ — فريد وجدى : رد شبهات على القرآن الكريم

ردد المستشرقون عددا من الشبهات حول الزيادة والنقص والتحريف فى القرآن وقد واجه فريد وجدى هذه الشبهات فقال :

ان مسألة الزيادة فى كتاب او النقص منه لا يعقل أن يحصل فى كتاب كالقرآن تتعبد أمة برمتها بتلاوته وتصلى بآياته وتفصل فى جميع شئونها بأحكامه ومقرراته ، وليس لديها كتاب غيره ، ولم يوكل أمره الى جماعة أو طبقة من الناس تتحكم فيه برأيها ، ولكنه كان حقا مشاعا للناس كافة يتولونه بالحفظ والرعاية ، فمثل هذا الكتاب ان اعتراه تبديل أو تحريف كانت تنفرد نسخه أو تتخالف آياته ، ولا تستطيع أية حكومة مستبدة أن تبيد جميع ما يخالف هواها من صوره . وقد تداول الخلافة فى صدر الاسلام أربعة رجال اقروا كلهم صورة واحدة من القرآن ولم يرد منهم أن بعضهم أبطل نسخ بعض ولا ورد من آلاف الصحابة أن واحد منهم أبرز صورة زعم أنها أصح من غيرها . فهل تآمرت الأمة الاسلامية كلها على التسامح فى تحريف كتابها الى هذا الحد ومكانه فيها كما عرفت .

واذا وقع التحريف فى كتاب سماوى فلا يمكن أن يكون ذلك الا بأربعة أسباب :

١ — ضياع أصل الكتاب ويمتنع هنا السبب ، فان أصل القرآن كان مكتوبا ومحفوظا فى دار النبى ، وكان مئات الناس يحفظونه فلما أريد جمعه أتوا بهذه المحفوظات وقابلها الكتاب بما حفظوه فى صدورهم وجعلوا ما كتبوه مصحفا .

٢ — أما امتناع السبب الثانى لتحريف القرآن وهو الغلو فى الدين فلا يحتاج لدليل فان نصوص الكتاب تنطق صراحة بالنهى عن الغلو فى الدين .

٣ — السبب الثالث للتحريف هو النص على حصر السلطان الروحى فى طائفة معينة من الأمة أو جعل الحكومة أوتوقراطية تحت تصرف رجال الدين ، وهذا السبب لا ظل له فى الاسلام لأن الكتاب نص على خلافه فى غير موضع منه ، فجاءت حكومة المسلمين ديمقراطية حرة ، وقال النبى : اسمع وأطيع ولو لعبد حبشى فى رأسه زبيبة — والاسلام لا يعترف بوجود طائفة من الأمة يجب أن يودع السلطان الروحى لها دون سائر الطوائف بل ليس فى الاسلام سلطان روحى الا للكتاب والسنة .

٤ — أما السبب الرابع لتحريف الكتب السماوية فهو تعمد افساد الدين بالنقص فى كتابه والزيادة فيه ، فهذا أكثر امتناعا بالنسبة للقرآن الكريم من كل الأسباب السابقة فان الذين جمعوه من المخطوطات وقابلوه على مخطوطاتهم كلهم من المشهود لهم بالتقوى والصلابة فى الدين .

* * *

— ٥ —

شبهات حول اللغة العربية

أثيرت حملات ضخمة حول اللغة العربية وردد كثير من المبشرين والمستشرقين ودعاة التغريب شبهات كثيرة أبرزها :

١ — ان اللغة العربية غير وافية بحاجات العصر .

٢ — انها لغة ميتة كاللغة اللاتينية .

٣ — انها لغة دينية .

وقد أثبت كثيرون فى انحاء العالم العربى منهم المهندس ويلكوكس وولهلهم سبتا والقاضى ويلدور ، فى مصر . وماسينون وكولان فى المغرب وجرت عن طريقهم الدعوة الى اللهجات العامية ومحاولة احلالها محل اللغة العربية ، واستبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية واثارة الشبهات والغبار فى وجه اللغة العربية وتاريخها ومكانها وقدرتها على التطور واستيعاب الفاظ الحضارة .. وجرت فى الوطن العربى وفى مصر محاولات متعددة للدعوة الى العامية كتب بها بعض الفصول والقصص ، وكان معروفا أن الهدف من حملات التغريب حول اللغة العربية هو القضاء عليها باعتبارها الرابطة الاسلامية بين الأمة العربية ولغة الثقافة العربية الاسلامية فى العالم الاسلامى كله باعتبار أن القرآن هو المقوم الأول لهذا الفكر .

وقد انكشفت هذه الغاية ، وبدت واضحة تماما ، ولم تعد تخفى بعد المؤامرة الخفية التى من وراء هذه الحملة على احد . ويكاد ينعقد الاجماع حول أثر القرآن والاسلام على اللغة العربية ، يقول الدكتور عبد الكريم جرمانوس : ان فى الاسلام سندا هاما للغة العربية أبقى على روعتها وخلودها فلم تنل منها الأجيال المتعاقبة والعصور المتباينة واللهجات المختلفة على نقيض ما حدث للغة القديمة المماثلة « اللاتينية » حيث انزوت تماما بين جدران المعابد .

ويقول نولدكه : ان اللغة العربية لم تصر حقا عالميا الا بسبب القرآن والاسلام ، وقد وضع امامنا علماء اللغة العرب باجتهادهم أبنية اللغة الكلاسيكية وكذلك مفرداتها فى حالة كمال تام ،وانه لابد أن يزداد تعجب المرء من وفرة مفردات اللغة العربية ، عندما يعرف أن علاقات المعيشة لدى العرب بسيطة جدا ، ولكنهم فى داخل هذه الدائرة يرمزون للفرق الدقيق فى المعنى بكلمة خاصة ، والعربية الكلاسيكية ليست غنية فقط بالمفردات ولكنها غنية أيضا بالصيغ النحوية ، وتهتم العربية بربط الجمل ببعضها ، ومن ميزة العربية الكبرى أنه لا يغمض فيها أبدا على وجه التقريب ، أين تبدأ جملة الجواب ، ومحاولة التحديد الدقيق للزمن باضافة ظروف أو أفعال مساعدة ، وهكذا أصبحت اللغة البدوية لغة للدين والمنتديات وشئون الحياة الرفيعة وفى شوارع المدينة ، ثم أصبحت لغة المعاملات والعلوم ، وان كل مؤمن غالبا جدا ما يتلو يوميا فى الصلاة بعض أجزاء من القرآن ومعظم المسلمين العرب يفهمون بالطبع بعض ما يتلون أو يسمعون ، وهكذا كان لابد أن يكون لهذا الكتاب من التأثير على لغة المنطقة المتسعة ما لم يكن لأى كتاب سواء فى العالم ، وكذلك يقابل لغة الدين ولغة العلماء ، الرجل العادى بكثرة ، ويؤدى الى تغيير كثير من الكلمات والتعابير فى اللغة الشعبية الى الصحة .

ويقول فينجو : ان على العرب أن يقاوموا الدعاية المؤلمة التى تطالبهم بالتخلى عن شرفهم وتقاليدهم وآبائهم ، وأن لا يستسلموا الى القوى المستعمرة ، وعلى العرب أن يتمسكوا بلغتهم ، تلك الأداة الخالصة من كل شائبة والتى نقلت الانتاج الفكرى العالمى .

ويصف أرنست رينان عظمة اللغة العربية فى عبارة خلابة : فيقول :

ان اغرب ما وقع فى تاريخ البشر وصعب حل سره انتشار اللغة العربية ، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادىء ذى بدىء ، فبدأت فجأة فى غاية الكمال ، سلسة أى سلاسة ، غنية أى غنى ، كاملة بحيث لم يدخل عليها منذ يومنا هذا أى تعديل مهم ، فليس لها طفولة ولا شيخوخة ، ظهرت لأول أمرها تامة مستحكمة ولم يمض على فتح الأندلس أكثر من خمسين سنة حتى اضطر رجال الكنيسة أن يترجموا صلواتهم باللغة العربية ليفهمها النصارى ، ومن أغرب المدهشات أن تثبت تلك اللغة القومية وتصل الى درجة الكمال وسط الصحارى ، عبر أمة من الرحل ، تلك اللغة التى فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها ، وحسن نظام مبانيها ، وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم ومن يوم علمت ظهرت لنا فى حلل الكمال الى درجة أنها لم تتغير أى تغيير يذكر ، حتى أنه لم يعرف لها فى كل أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة — » .

والواقع أنه فى مواجهة الاتهامات والشبهات التى توجه الى اللغة العربية نستطيع أن نقول أن العربية بوصفها لغة عالمية ، ليست هى لغة الأمة العربية وحدها ولكنها لغة العالم الاسلامى ليس هذا مجرد تصور ، بل هو حقيقة قائمة ، قادرة على أن تدخل مرحلة التحقيق ، وفى ضوء القدرة البالغة ، والحيوية

الدافقة ، لهذه اللغة ، وقدرتها فى مجال الفكر والثقافة العربية الاسلامية الواحدة الأساس ، تبدو هذه اللغـة وهى عامل ضخم من عوامل الوحدة والتوحيد والالتقاء . وهذه الغاية قديمة متجددة منذ اخذ العـالم الاسلامى (والأمة العربية جزء منه) تدخل فى مرحلة الوعى الى بيانها ، وتعرف الوسيلة الكفيلة بدفع الروابط فيما بينها فالفكر فى قاعدته الأساسـية هو اللغة . وليس هـذا الهدف منبعث من العالم العربى ، بل من مختلف اجزاء العـالم الاسلامى بوصفه عودة الى الأصـل قبل تمزق وحدتها قبيل الاسـتعمار الغربى ، وخاصة بالنسـبة لمسلمى أفريقيا وآسيا وهم الذين كانت اللغـة العربية قبل مستهل هذا القرن هى اللغة الأولى والأساسية لهم ثم اسـتطاع الاسـتعمار والنفوذ الأجنبى اقصـائها والتغلب عليهـا وايقاف نموها ، وتغليب لغته الأجنبية عليها من ناحية ، وتغليب اللهجات الاقليمية وانمائهـا لتصبح « لغـات محلية » ومع ذلك فقد ظلت « اللغـة العربية » بوصفها لغة الفكر والدين والثقـافة ، هى اللغة الأساسية الضرورية التى لا سبيل الى التخلص منهـا .

ولقد كانت مختلف فنون الفكر العربى الأسـلامى فى أجزاء العالم الأسلامى مكتوبة إساسا باللغة العربية، وما تزال مؤلفات هذا الفكر التى تصدر حتى اليوم تكتب باللغـة العربية . وما تزال اللغة العربية ذات فاعلية ضخمة فى مختلف لغات العالم الاسلامى على الأطلاق ، وهى وان أصبحت لغة العالم العربى أساسا فهى بالحق مؤثرة ومتفاعلة مع مختلف اللغات فى العـالم الاسلامى ذلك أن اللغة العربية سارت مع الدعوة الاسلامية منذ اليوم الأول الى كل مكان بلغة الاسـلام ، ثم لم تلبث بعض اللغـات القومية أن استردت مكانتهـا فتوقفت فتوحات اللغة بينما ظل الأسـلام ينتشر ومع ذلك فقد كان انتشار الأسلام انتشارا للغة العربية فى كل مكان وصل أليه باعتبارها لغة القرآن والثقـافة . ومنذ بدأ الغزو الاستعمارى الغربى على العالم الاسلامى كان من أهم مقرراته ، ايقاف نمو اللغة العربية ووضع القيود والسدود أمامها وذلك بتغليب لغته على مختلف مناهج التعليم والبنوك والمحاكم ومختلف المعاملات ، ومن هنا قامت الثقافات القومية فى اغلب الأقطار على اللغـات الوافدة ، كما حـدث فى الهنـد وجنوب شرق آسـيا وأفريقيا .

وقد دارت معركة مقاومة ضخمة فى هذه الأقطار دون ألاستسلام للغة الغـازية ، ولكن المعركة لم تلبث بفعل الاسـتعمار أن تحولت الى الصراع بين لغـة المستعمر وبين ايجـاد لغة قومية وكان الغرم كله الى اللغـة العربية ذات النفوذ الأول والأساسى فهى التى تقهقرت .

ومن هنا توقف نمو اللغة العربية فى مختلف أقطار آسيا وأفريقيا غير العربية وزاد نفوذ اللغتين الانجليزية والفرنسية ، بل ان نفوذ اللغة الانجليزية قد زاد زيادة كبرى عما كان عليه فى أوائل هذا القرن وذلك نتيجـة تجميد اللغة العربية واقصائها عن مجال التعليم .

ومن هنـا كان نمو الاسلام واتسـاعه فى القرن التاسع عشر (الثالث عشر الهجرى) فى أفريقيا وآسيا وكسبه عددا ضخما من الملايين ، كان هذا النمو قاصرا على الإسلام وحده دون اللغة العربية التى لم تعـد الا لغة الخاصة ، الذين يعملون فى مجال الثقـافة ، وان ظلت العربية بوصفها لغة القرآن مؤثرة كل التأثير فى ثقافات هذه الأمم ، ومعنى هذا أنه اذا كان الاستعمار قد قطع الطريق على توسع اللغة العربية فان الأسلام نفسه قد دعم هذه اللغة وحافظ عليهـا ، وفى ثلاث مجموعات كبيرة فى العـالم الاسلامى اليوم تبدو اللغة العربية ضرورة اساسـية لأن تكون اللغة الأولى وهى المجموعات المسلمة فى شبه القارة الهندية وجنوب شرق آسيا ووسط افريقيا وغربيها . واذا كانت اللغة العربية هى اللغة القومية لمائة مليون عربى ، فانها لغة الفكر والدين ، والثقافة لستمائة مليون ونصف مليون مسـلم حسب آخر تعداد للمسلمين بحسبانها لسـان القرآن والإسلام .

ويصور المستشرق « برون » أهمية اللغة العربية بالنسبة للمسلم حين يقول : نحن نختلف مع المسلمين فى كوننا نعتبر الانجيل انجيلا سواء أقرأناه فى اللغـات الأصلية التى يكتب بها أم فى لغتنا الحالية ، أما المسلمون فيعتـبرون « القرآن كلمـة الله » وأنه تنزيل من رب العالمين ، وان الله هو الذى يخاطبهم منه وليس النبى محمد ، لذلك فان القرآن لا يمكن ترجمته الى لغة أخرى لأن المترجم مضطر أن يورد فى ترجمته قدرا من التفسير يستعين به على اظهار معانيه بالاضافة الى ذلك فان المسلم سواء أكان فارسيا أم تركيا أم هنديا أم أفغانيا ، أم من أهل الملايو فانه يؤدى القرآن باللغة العربيـة ، يضاف الى ذلك أننا نجد أن لغات الشعوب التى اعتنقت الاسلام قد غمرها منذ البداية سيل من الألفاظ العربية يتكون من العبارات الفنية المتعلقة بالدين والفقه .

ولو أن احدا أراد أن يكتب شيئا بالفارسية بحيث

تكون كتابته خلوا من الالفاظ العربية لتعسر عليه الأمر، كما يتعسر على الذى يريد أن يكتب شيئا بالانجليزية بحيث تكون كتابته خالية من كل كلمة يرجع اشتقاقها الى أصل يونانى أو لاتينى ، وقد حاول الأمير جلال مثل هذه المحاولة ولكنه باء بالفشل ، عندما كتب كتابه المسمى (خسروان نامه) أى كتاب الملوك سنة ١٨٨٠م والشاهنامة نفسها وقد ألفها الفردوسى منذ ألف سنة تقريبا وقصد متعمدا — كما تدلنا على ذلك المقارنة بينها وبين الشعر المعاصر لها — أن يصوغها فى أقدم العبارات والأساليب ، لا يستطيع أن يدعى أنها خالية من الألفاظ العربية كما يظن ذلك بعض الناس ممن لاقدرة لهم على التحقيق والتمحيص .. » .

وعلى هذا الضوء نرى كيف كان توقيف الاستعمار للغة العربية عن الانتشار فى أى مكان حل فيه ، انما كان هادفا الى الفصل بين العرب والمسلمين وبين العروبة والاسلام ، وبين لغة القرآن من أن تكون مصدرا أساسيا للثقافة العربية الاسلامية ومحاولة اقامة حدود بين هذه الثقافة الشاملة للعالم الاسلامى كله وبين الثقافات المحلية والقومية ، فضلا عن تعميق ثقافته الغربية بنشر لغته وبذلك يستطيع ان يفرض مفاهيمه الغربية على القيم الانسانية الأساسية التى لها مفاهيمها الأصلية فى فكرنا العربى الاسلامى .

وفى عام ١٩٠٠ تقريبا كتب المبشر « زويمر » كبير دعاة التغريب فى كتابه « جزيرة العرب مهد الاسلام » يقول « يوجد لسانان لهما النصيب الأوفر فى ميدان الاستعمار المادى ومجال الدعوة الى الله ، وهما الانجليزى والعربى ، وهما الآن فى مسابقة وعناد لانهاية لهما لفتح القارة السوداء مستودع النفوذ والمال ، يريد أن يلتهم كل منهما الآخر . وهما العضدان للقوتين المتنافستين فى طلب السيادة على العالم البشرى : أعنى الغرب والاسلام » .

ومفهوم هذا الكلام ان دعوة التغريب التى كان التبشير بعض طلائعها كانت تصدر فى مخططها أساسا عن هدفين كبيرين :

الأول : توقيف اللغة العربية عن النمو فى العالم الاسلامى ، وأيضا توقيف نمو الاسلام نفسه .

الثانى : القضاء على اللغة العربية فى العالم العربى واحلال اللغات الأجنبية واللهجات العلمية والحروف اللاتينية مكانها وعلينا أن نعرف الى حد استطاع التغريب والنفوذ الاستعمارى أن يصل الى هدفه .

— ٦ —

شبهات حول الأدب العربى

من خلال نافذة الأدب العربى حاول التغريب أن يلقى مزيدا من الشبهات ، والحق أن « الأدب » قطاع خطير ، واسع الآفاق ، منطلق غير مقيد ، ومن هنا استطاعت الشعوبية والتغريب أن تجدا فيه مجالا لكثير من الشبهات . ولقد كانت ألف ليلة والرباعيات وكتاب الأغانى من أبرز هذه الجوانب .

والواقع أن تحديد قطاع « الأدب » بالنسبة لدائرة «الفكر» أمر كان مصدر اهتمام كثير من الباحثين وذلك دفعا لما أطلق عليه (فريد وجدى) : « خطر التداخل بين دوائر النشاط العقلى المختلفة . وكف عدوان بعضها عن بعض» يقول العلامة فريد وجدى فى هذا الصدد : للأدب امتياز خطير منحه اياه العرف البشرى منذ نشأته ، ولا يزال يعترف له به الى اليوم ، وهو تركه حرا يحول حيث شاء ويجرى وراء الخيال فى أية ناحية أراد ، فبينما نرى الناس واقفين بالمرصاد للفلاسفة والعلماء يحاسبونهم على الفتيل والقطمير فيما يقولون ويكتبون ، تراهم ازاء الأدباء على أتم ما يكونون من التسامح ، فهم يستسيغون منهم كل المتناقضات ، جدهم وهزلهم ، تصوتهم وتهتكهم ، اعتدالهم وغلوهم ، حتى الحادهم وكفرهم ، ولسنا نميل الى الحد من هذه الحرية ، فان هذا الضرب من الفن لا يمكنه أن يؤتى ثمراته الا فى جو من الاطلاق المحض ، متحللا من جميع القيود الفلسفية والعلمية ، لأن من عناصره الخيال ، والخيال ان حد يحد ضاقت عليه المنادح ، وفقد أخص مزاياه فارتج على الأديب ولم يعد قادرا على الانتاج :

غير ان التواضع على بذل هذه الحرية للأدباء حشر الى زمرتهم كل ثرثارة مغمور ، وكل متكلف مغرور وكل اباحى وممرور ومتهور وعاهر ممن جعلوا الأدب مسرحا لأخس الرعونات النفسية ، وداعيا الى احط الميول والشهوانية ، ولكن هذه الحرية نفسها كفيلة على مر الأيام بتهذيب الأدب وتنزيهه وايصاله الى كماله فى مقتبل الزمان .

ولما كانت الثمرات الأدبية لأنها مظهرا أعلى لما يتطلبه سحر البيان ، وفن الخيال ، وحديث الحياة من الثمرات الشهية الخطرة التى يجب أن تتناول بحذر ، وأى شىء من ثمرات الأفكار غير الأدب تجد نفسك مضطرا لأن تقف حياله ، تنظر ما يسمح به منه لأهلك

ووبعك ، وأى مؤلفات الخيال غير الأدب تستطيع أن تخرج ثلاثة أرباعه بضاعة زائفة ، ظاهرها أنيق وفى باطنها السم الذى لا يبقى ولا يذر ، دفع كاتبيه الى تصيد الرزق بالتحلق لأخس شهوات النفس وتناسى التبعة الملقاة على عاتق كل لعوب بالقلم ، واذا كان كلام لا يجوز أن يقرأ الا بشىء من التحفظ ومراعاة جانب الخيال والتلاعب بالالفاظ فيه فهو الأدب .

وفى رأيى ورأى كل غيور أن الأدب يجب أن يخضع لقانون الأخلاق القائم على حراسة الاجتماع ، ولسنا ننسى ما جره تدخل الأدباء فى ما ليس من اختصاصهم فى السنوات العشر الأخيرة فى المباحث الدينية ، فقد تناولوها على طريقة الماديين وأثاروا فيها شكوكا لامحل لها منها ، ولو كانوا عنوا بدراستها دراسة علمية لما كان من اثر ذلك أن هاجوا الناس عليهم هياجا مشروعا ومعنى ذلك ان الأدب لو تجاوز دائرة اختصاصه كان أداة شر فى أيدى محترفيه .

فما للأدباء وتحليل عاطفة الدين ، وكيف يرجى من أديب كل همه مصروف الى تحليل عاطفة الهوى ، ودرس ثارات الجوى ، وتصوير وقع الوعود الكاذبة وفضول العذال واللاحين ، وعدوان المنافسين والمعاكسين أن يتناول بالبحث أعلى عواطف النفس ، وهى عاطفة الدين ، بمثل أسلوبه الذى مرن به عليه واستولى على شعوره ، وهى تستدعى أسلوبا يجافى ذلك الأسلوب ، ولا يمت اليه بصلة من درس النفس فى حالة عزوفها عن الشهوات وترفعها عن الغرائز ، رأيناهم يثيرون شكوكا لا تتجه الى الدين الذى بين أيديهم ويجرون فى مباحثهم التاريخية والاجتماعية على غير الأسلوب العلمى من التحقيق والتمحيص ، ولو أنهم تركوا هذه المباحث للاخصائيين فيها لكان خيرا لهم ، ولكن الوهم السائد اليوم من أن الأديب له أن يتناول بالبحث كل شىء ، هو الذى يورطهم فى بحوث لو وجدت نقادا أقوياء لألحقوا بمكانتهم الأدبية ضررا بليغا ، ومن الأمثلة الغريبة على ذلك ، ان واحدا من الأدباء انتدب لالقاء محاضرات عن الأدب فى العصر الأموى فكان مما قاله أن الخليفة الوليد ابن يزيد انما قتل لأنه كان يود أن يعيش على ما يقتضيه فن الحضارة ، فكان جزاؤه أن لقى حتفه ، فايراد التاريخ على هذا الوجه جناية على التاريخ ، وعلى حقائق الاجتماع ، ويشين الدين الذى ينتمى هذا الخليفة اليه ، ويسىء سمعة الشعب الذى ينزل هذا العقاب الوحشى برجل لا جناح عليه الا أنه يريد أن يعيش عيشة حضرية ، فالذين لم يدرسوا تاريخ بنى أمية دراسة علمية يصدقون هذا الحديث ويستنكرون ما حدث له ويحكمون على شعبه بأنه وحشى جاهل ، وعلى الدين الذى يأخذ به على أنه خشن قاس ، والحقيقة أن الوليد كان متجرد للهو والبطالة ، شغوفا بالفسوق والاباحة ، مستخفا بالدين مجاهرا بالكفر .

فهل هذه السيرة المعوجة من اهمال الرعية والانقطاع للهو والفسق والفجور ، تعتبر من مقتضيات الحضارة ، وقد استطرد الى ذكر الأمين بن هارون الرشيد فقرنه الى الوليد فى أنه ذهب هو أيضا شهيدا لايثاره الحياة الحضرية ، والواقع أن الأمين هذا كان على مثال الوليد من التجرد للهو والفجور وتعطيل مهام الخلافة ، فهل فى حياة الحضارة أن يهمل الخليفة واجبات الحكومة وينغمس فى حمأة الرذائل ، ويذهب فى الاستخفاف بالأمة هذا المذهب . ان التاريخ الاجتماعى لأمة كالأمة الاسلامية بلغت الى أوج العظمة الاجتماعية فى جميع ضروب الحياة الفاضلة ، وحفظت تراث العالم من العلم والحكمة والمدنية قرونا متوالية حتى أصبحت معلمة العالم لا يصح أن يورد على أسلوب قصصى من هذا النوع ، فهذا الكلام ، ان لم يكن قد سبق به على هذا الوجه بقصد الاساءة لتاريخ المسلمين الاجتماعى فهو يدل على خلو من روح التحقيق العلمى ويقيم دليلا محسوسا على صحة ما نقول من أن الأدب لا يجوز له أن يعدو طوره وأن يتدخل فيما ليس من اختصاصه من المباحث الاجتماعية والدينية » ا . هـ .

— وقد حاول كثير من الأدباء الدفاع عن الاباحية فى الأدب بوصفها منهجا من مناهج الأدب ، ومن هنا استطاعت الشعوبية والتغريب أن تتسلل باسم المذاهب العلمية لترويج الدعوة الى المفاهيم المتصلة بالجنس والمجون والاباحية وظهرت ألوان من القصص تكشف خفايا العورات ، وتغض من شأن الخلق والفضيلة وتصفها بأنها تورث الكبت ، ومن هنا وجد الأدب الهدام طريقة تحت اسم مذاهب فنية أو دراسات علمية ، ومن هنا اهتزت مقاييس الخير والشر ودعى الى وصفها بالفردية ، وبدأت نظرة الى اعادة الرأى فى المواريث الخلقية والاجتماعية .

وقد واجه هذه الشبهات كثير من الكتاب والباحثين من هؤلاء أحمد خاكى الذى يقول أن للجماعة أصولا عامة يجب أن يكون الفن احدى دعائمها ، والفن يجمع نواحيه دعوة عامة للخلق ، وقد ثار تولستوى بآيات الفن التى تحدرت من ثقافة أوربا ، وكل فكرة فنية لا تستقيم مع الشعور الدينى فهى عند تولستوى ليست فنا أصيلا .

١ — نماذج من الشبهات

كتابان يعتمد عليهم الاساتذة والباحثون والكتاب وخاصة اساتذة الجامعات فى العالم العربى هما :

١ — تاريخ الادب العربى لنيكلسون .

٢ — تاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان .

بينما يضم كل من هذين الكتابين الكثير من الشبهات وقد حاول غير واحد من الباحثين التصدى لاخطاء هذين الكتابين وغيرهما .

١ — يقول نيكلسون : فى كتابه تاريخ الادب العربى « وقد حدث كثير من التغيير فى الشعر الجاهلى بسبب الاسلام ، خذ مثلا كلمة « الله » فانها حلت فى كثير من الاحيان بدل كلمة « اللات » المعبود الوثنى » .

وقد رد عليه الأستاذ عمر الدسوقى فقال : معنى هذا فى رأيه أن عرب الجاهلية لم يعرفوا كلمة الله . وانها دخلت الشعر الجاهلى بتأثير الاسلام ، وهذا لعمرى من المزالق الخطيرة التى وقع فيها نيكلسون ، ولقد رد على نفسه بعد أسطر قليلة حيث قال : ولم يكن للدين سوى أثر ضئيل فى حياة عرب الجاهلية ولا ينتظر ان تجد له اثرا كبيرا فى الشعر الجاهلى ، لقد كانوا يعتمدون اعتمادا غامضا فى اله عظيم هو الله وبناته الثلاث : اللات ومناة والعزى التى ساد تقديسها كل الجزيرة العربية والتى كانت شفاعتها مقبولة لدى الله .

ومن المزالق التى وقع فيها نيكلسون ما ورد من قوله : ومن المؤكد انه قد شارك قومه قبل الرسالة عبادة الاصنام وقد اعترف هو بذلك (ووجدك ضالا فهدى) اما كيف ومتى ارتد عن عبادة الأوثان فسؤال لا يمكن الاجابة عليه . ولكن من الطبيعى الظن ان أهم نتيجة قد سبقتها فترة طويلة من القلق وعدم النضج .

ولا شك أن هذا القول من أخطاء القصور فى الفهم والتحقيق ، فان الوثائق والأسانيد والأدلة كلها تؤكد أن الرسول لم يشارك أهل مكة فى هذه العبادات الوثنية وأن معنى « ووجدك ضالا فهدى » الآية القرآنية فتعنى اتجاه النبى الى دين ابراهيم وانه كان فى هذه الفترة يتطلع الى هداية الله ويدحض هذا الخطأ الحقيقة المؤكدة من أن النبى أقام سنوات يعتكف فى غار حراء قبل أن يتلقى الرسالة .

٢ — يقول مسيو مرسيه وبعض المستشرقين : ان العرب لم يعرفوا النثر الفنى معرفة ذاتية وانما نقلوا طرائقه عن الفرس واليونان ، ويرى مرسيه أن ابن المقفع هو أول كاتب فى اللغة العربية ، ويذهب الى ان العرب لم يكونوا يعرفون من النثر غير الخطب واسجاع الكهان ويعلل ذلك بانهم كانوا يحيون حياة أولية بدائية وهى لا تقتضى نثرا فنيا ، لأن النثر الفنى لغة العقل والثقافة ، وانما يلائمها الشعر لانه لغة العاطفة والخيال ، وقد تابعه فى هذا لدكتور زكى مبارك فى كتابه النثر الفنى .

ويواجه الدكتور احمد الحوفى هذه القصة فيقول : ان القرآن الكريم هو المعجزة العظمى فى البيان العربى ، حتى أن الذين لم يسلموا آمنوا بأن القرآن طراز من البلاغة لا طاقة لهم بمثله . واذا كان القرآن ذروة البيان العربى ونزل بلسان عربى مبين فانه من الطبيعى أن يكون العرب قبل الاسلام قد مارسوا النثر الفنى ممارسة اعدتهم لأن يخاطبوا بالقرآن الكريم ، ثم أن الله تحداهم فى عبارات قارعة مجرحة أن يأتوا بسورة من مثله . فعجزوا ، ولو لم يكن القرآن من جنس بيانهم الذى عرفوه وألفوه ما تحداهم هذا التحدى .

٣ — يقول كارل بركلمان فى مجرى حديثه عن الرسول :

١ — ولكنه على ما يظهر اعترف فى السنوات الأولى بآلهة الكعبة الثلاث اللواتى كان مواطنوه يعتبرونها بنات الله . وقد أشار اليهم فى احدى الآيات الموحاة اليه تلك الغرانيق العلى وأن شفاعتهن لترتجى.

(تاريخ الشعوب الاسلامية الجزء الأول ص ٣٧)

٢ — وليس شك أن معرفة مادة الكتاب المقدس كانت سطحية الى ابعد الحدود . وحافلة بالأخطاء ، وقد يكون مدينا ببعض هذه الأخطاء للأساطير اليهودية التى يحفل بها القصص التلمودى ولكنه مدين بذلك دينا اكبر للمعلمين المسيحيين الذين عرفوه بانجيل الطفولة وحديث أهل الكهف السبعة وحديث الاسكندر وغيرها . (ج ٢ ص ٤٣ من نفس المصدر)

يعتبر النبى مشركا ، فى السنوات الأولى من تعبه القرآن من تأليفه وجماعة آخرين من جزيرة العرب وخارجها ، وسجل فى القرآن آية لم يعرفها النبى

(الرد)

ولا شك ان هذه الشبهات قد رددها أغلب المستشرقين والمبشرين والشعوبيين وهى شبهات لادليل عليها ، اما قصة الغرانيق فهى باطلة أصلا ومن دسائس الاسرائيليات ، أما أن يكون فى القرآن ما يشابه ما فى التوراة فهذا طبيعى ، فان الاسلام صادر واليهودية عن أصل واحد ، هو دين ابراهيم ، وأن مصدر القرآن هو نفس مصدر التوراة « الأصلية » أى أنه من عند الله ، أما أن القرآن من تأليفه أو تأليف غيره فهذا من الاتهامات المكذوبة وعليها عشرات الأدلة التى تدحضها ، ولا شك أن اعتماد هذه المؤلفات فى بعض الجامعات والمعاهد كمصادر لدراسة الاسلام يلجأ اليها الأساتذة والباحثين هى من أخطر ما يواجه الفكر العربى الاسلامى .

* * *

٧ ــ ألف ليلة ، الأغانى ، والرباعيات

ردد المستشرقون كثيرا من الشبهات حول كتاب الف ليلة وحاولوا اعتباره ممثلا لحياة العالم الاسلامى ، وقد ثبت أن بعض المرسلين الأجانب فى بيروت هم الذين أعادوا طبعه عام ١٨٨٨ وحفلوا بنشره ، وتوالى نشره عن طريق دور النشر الموجهة من الاستعمار والنفوذ الغربى . ثم جرت أبحاث متعددة محاولة تصوير القصص الذى يضمه الف ليلة بأنه يصور حياة العرب أو المسلمين بصفة عامة ، بينما أن أقل مراجعه لمصادر الف ليلة تكشف عن أن قصصها مأخوذة من المراجع الايرانية قبل الاسلام وأنها لا تمثل بحال مفاهيم الفكر العربى الاسلامى ، وأنها قد نقلت الى العربية للتسلية ، وقد تأثر الايرانيون فيها بأساليب الهنود القدماء ، وأنها فى الأغلب مجموعة أساطير هندية بدأت بحكايات السباع الضوارى ، والمرجع الأول لها « هزار أفسانه » بالفارسية ومعناه الف رواية ، وقيل أن الجشهارى هو الذى ترجمها الى العربية ، وقد حكى المؤرخ الكبير المسعودى المتوفى ٩٥٦ م (القرن الثالث الهجرى) فى كتابه « مروج الذهب» عن وجود كتاب قديم بالفارسية أو بالبهلوية يحكى عن ملك وعن بنت وزيره «شهرزاد» « وخادمتها » دين زاد ، وكذلك أشار النديم مؤلف الفهرست المتوفى ٩٠٥ م عن كتاب الف ليلة مجملا ، وقال أنه كتاب الحماقة والسيئات . وأشار اليه المؤرخ القرطبى وقد كانت كل اشارات الكتاب والمؤرخين العرب والمسلمين اليه اشارات مقبحة وعلى أنه مصدر ساقط فى أنظار البعثات وعلماء العرب على حد عبارة الدكتور سنيتى كمارجترجى .

ومعنى هذا ان كتاب الفليلة أصلا كان سابقا للاسلام وأن مصدره أساطير هندية وفارسية ، وقد ظل العرب يتناقلونه بعد ترجمته كوسيلة من وسائل التسلية ويضيفوا اليه حكايات جديدة ، كما أضيفت اليه فى العهود المختلفة وآخرها عهد دولة المماليك مسامرات أهل بغداد والقاهرة . فهو مجموعة من أساطير فارسية وتركية وهندية ، ومن هنا يمكن تقدير الموقف حين يراد به أن يكون مرجعا من مراجع دراسة حياة المجتمع الاسلامى ، بل المرجع الوحيد الذى اعتمد عليه كثير من المستشرقين والباحثين من تلاميذهم فى محاولة لرسم صورة غير حقيقية .

وقد أشار الدكتور ستينى كمارجرجى الى أن الحكايات الأصلية الواردة فى كتاب ألف ليلة هى التى تكون فى منزلتها أساسية ، هذه الحكايات كانت مستعارة من الهند بواسطة الفرس » .

وعندنا أنه مهما تكن صورة الحياة التى ترسمها ألف ليلة فهى ليست الصورة التى يرسمها المجتمع الاسلامى ، والمرأة التى تصورها الف ليلة ليست قطعا المرأة العربية أو المسلمة ، فقد غير الاسلام نظرة المرأة الى الحياة وواقعها تماما ، فلم تكن أداة جنس ، أو مصدر غايات حسية الا فى مفاهيم المجتمع الجاهلى أو الوثنى ، وحتى بعد أن اضطربت الحياة السياسية فى العالم الاسلامى فقد ظل هناك فارق واضح وحاجز كبير بين ما كانوا يسمونه « الغانية » وبنت الأصول .

والواقع أن الأدب العربى يحوى عددا من مثل كتاب الف ليلة كالأغانى وكتب المحاضرات والمسامرات ، وهذه كلها كتب لم تكتب أساسا للتاريخ وانما لجمع الأسمار وقصص الظرفاء والندماء .

ولذلك لا يمكن أن تصبح مصدرا تاريخيا ، بل مصدرا تاريخيا وحيدا كما يحاول الشعوبيون ودعاة التعريب ، ولا مانع من أن نعين الباحث على استخلاص صورة قطاع من المجتمع هو قطاع المترفين وأصحاب القصور وهم طائفة قليلة لا يمثلون المجتمع كله ، ولاشك قد أثيرت حول الرواة والقصاص شبهات كثيرة تتعلق بأخلاقهم وضمائرهم وباضافاتهم التى تتجاوز الحق .

واعتقد أنه قد صار فى اعتبار الباحثين منذ وقت بعيد أن كتب الأدب التى يقصد بها عادة الى الفكاهة والسمر وكتب المحاضرات لا يجرؤ باحث وعالم على أن يعتبرها ميزانا يوزن به رجال التاريخ أو يؤخذ منه تراجم العظماء ، أو ترسم منه صورة الحياة الاجتماعية

للأمم . واذا كان مفهوم التـاريخ فى أحدث مذاهبه هو اعتبار الوثائق مشكوك فيها وباطلة أساسا حتى يثبت صحتها ، فما القول فى هذه الصور الأدبية المروية بغير توثيق أكيـد ومن خلال اسماء كلها موضـع التجريح والاتهام فى سلامة خلقها أو ايمانها بالتحقيق العلمى أو اتصالها بالشعوبيين أو الباطنية أو الزنادقة .

واذا كان كتاب الأغانى يقصر حياة الترف والمجون على طبقة معينة أو مجموعات من الناس فانه أقل خطرا من كتـاب الف ليلة الذى يصور المجتمع كلـه على هذا النحو من الانحراف والتحلل . وقد كان لألف ليلة أثر جد مرير فى رسـم صورة مشـوهة عن المجتمع العـربى الاسلامى ، وقد أضاف المترجمون الغربيون الى بشاعة الصورة التى يحملها الكتاب اضافات زادته فسادا فقد اشار (غالان) المستشرق الفرنسى الذى ترجم الف ليلة لأول مرة عام ١٧٠٤ م بأنه « فرنج » الكتاب ليلائم ذوق قرائه ، وانه ركز صـوره على رفاهية الشرق وترفه ، ورسم صورة الشرق الحيوانى .

وكان من نتيجـة ذلك أن كتب كثيرون فى مقدمتهم المشرق (لين) كتابا عن المجتمع الأسلامى اعتمادا على الف ليـلة ، واشار ريتشرد بيرتون (الانجلـيزى) فى مقـدمة ترجمته أنها ترجمة تهـدف الى أن يتعرف أهل موطنه بما فيه الكفاية على طبـاع المسلمين وعاداتهم واخلاقهم ليكون لديهم الحنكة الضرورية ليحكموا على المسلمين الواقعين ضمن امبراطوريتهم .

وقد تابعت بالبحث تطور اعادة الف ليلة منذ أوائل هذا القرن فوجدت أن اليسوعيين فى بيروت هم أول من أعادوا طبعها وتابعتهم فى ذلك دار الهلال فى مصر ١٩٠١ ومن عجب أن مجلة الهلال (يونيو ١٩٠٣) تذكر أن الف ليلة « تمثل أحوال العصور الاسلامية الوسطى وتمثل عادات أهلها على اختلاف طبقاتهم مع بيـان أخلاقهم ، وأدبهم فى مجالسهم ، وأحاديثهم » ولا شك أن جرجى زيدان كان جاريا فى هذه الشبهة مع دعوة التغريب كما عرف عنه فى مختلف كتـاباته فى أدب العرب ، والتمدن الاسلامى ، وقد أشار الدكتور صروف الى مدى اهتمام المرسـلين به فقال (يوليو ١٨٨٨ — المقتطف) هـذا الكتاب أشهر من نار على علم ، ولذلك طبع فى مطابع مصر والشـام وراجت بضاعته ولم يدر فى خـلدنا أن الخزويت يزاحمون أبناء البلاد على طبعه واكتسـاب أرباحه وهم يدعون أنهم انما أتوا البلاد لتنوير أهلهـا وتحسين أحوالهم ، ألم يكن الأولى بهم أن يطبعوا لهم كتابا فى الطبيعيات أو الكيمياء أو الصناعة أو الفلاحة ، أو نحو ذلك من العلوم والفنون .

ولا يقف الدكتور صروف عند هذا الحـد ، ويعلم انه ليس اكتسـاب الربح وحده هو هدف طبع هـذا الكتاب ونشره ، بل يقول « ولو أننا نحب أن يظن الناس شيئا لقلنا أن هذا الكتاب وأمثاله من كتب الأدب ما اعتنى أولئـك الأدباء بنشرها الا ليزاحموا أبناء البلاد عليهـا ويسـبتوهم الى الربح منها ويلهو بهـا القراء من أهل الوطن عن طلب ما ينفعهم نفعـا حقيقيا ، كما أدلى المرسـلون فى بيروت اهتمامهم بالأغانى فقد عنى الأب أنطون صالحانى فى ديسـمبر ١٩٠٩ باسـتخراج ما فى روايات الأغانى وعلق عليهـا حواشى . وأصـدرها فى كتاب باسم «رنات المثالب والمثانى فى روايات الأغانى» .

أما رباعيات الخيـام فقد تردد أنها مدخولة على عمر الخيـام فلقد أعطيت هذه الرباعيـات أهمية غير عادية ، وحمل الانجليز لواءها ، فنشروا هذه الرباعيات الى أوسع مدى ، وترجموها ، وخلقوا جوا من التنافس بين الأدباء فى ترجمتها والحق انه لم يعرف فى ترجمة الخيام انه شاعر ، بل عرف فى تاريخه المدون بانه رجل رياضى عالمى ، برز فى الفلك والرياضـيات والجبر ، ويبدو أن هذه الرباعيات المنسوبة اليه لم تظهر الا بعد أن انقضى أكثر من قرنين على وفاته ، بدت قليلة ، ثم أخذ حجمهـا يتزايد مع الزمن على حد قول الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده ، الذى قال أنه ليس لدينا ما يثبت نسـبتها للخيام اثباتا يقينا .

وقال الدكتور أبو ريده : « أنه نظرا لأن المؤرخين المعاصرين لم يذكروا للخيام رباعيات فان من العلماء من يشك بحق فى نسبة الرباعيات اليه ، ولا أحد منهم أشهر غلوا فى حكمه من المستشرق الألمانى (هـ . هـ شيدر) فى بحث ألقاه فى مؤتمر المشرقين بمدينة (بن) بالمـانيا عام ١٩٤٣ ويعتمد شيدر على رأى معاصرى الخيام فيه وصمتهم عن أمر الرباعيات وعلى التراجم التى كتبت عنه فى تتابعها التاريخى ، ويستند فوق ذلك الى مؤلفـات الخيام العلمية المعروفة من روح اليقين العلمى ، فيرى ذلك معارضا كل المعارضة لمـا فى الرباعيـات وينكر بذلك كل علاقة بين الرباعيـات وبين الخيـام . ويعد الخيام من كبار المتمكنين فى العلم الاسلامى ومن ممثـلى العلم الحر ، ويلاحظ أن الهجوم على الخيام بدأ من دوائر الصوفية فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى والسابع الهجرى . . وقال أن ما ذكر من وسم الخيام بالالحـاد والزندقة ليست من ترجمة الخيام فى شىء ويصل القول بأن الخيـام التاريخى يجب أن يمحى اسمه من الشعر الفارسى » .

* * *

٣ — القصة

القصة فن من فنون الأدب الانسانى ، وهى ليست حديثة فى الأدب العربى ، بل قديمة وتتمثل فى عشرات من القصص العربية القديمة . وفى العصر الحديث عندما بدأ الأدب العربى يقظته ، كان لابد أن يبرز فن القصة مترجما أول الأمر من اللغــات الأوربية ، ثم مؤلفـــا . وقد بدأت الترجمة منذ وقت باكر ، فى ظل المؤثرات والضغوط التى فرضها نفوذ الفكر الغربى على الأدب العربى الحديث ، ومن هنا فقد تطورت الترجمة من الاتجاه العلمى الذى بداه «رفاعة الطهطاوى » الى ترجمــة القصص الفرنســية المكشوفة ، وشارك فى هذا الاتجــاه كثير من الصحفيين السوريين ، ثم شارك فيها الدكتور طه حسين حيث عنى بالقصــص المكشوف ونشر فصــولا متوالية فى جــريدة السياسة سنة ١٩٢٣ .

وقد شهد مستر « جب » بأن القصص التى ترجمت الى اللغة العربية فى هذه الفترة لم يراع فى اختيارها حالة مصر الاجتماعية ولا حالة الثقافة العامة ولا الذوق الأدبى للبلاد . وقد أشار المازنى الى مدى خطر طه حسين فى ترجمة القصة الفرنسية المكشوفة حين قال : انمـــا كان همه مدح الخيـــانة والاعتذار للخونة وتصـــوير الخلاعة والمجون فى صورة جذابة ليقضى بهذه الترجمة حق الاباحة لا حق اللغة ولا حق الفضيلة ، وكان شعار طه حسين فى هذه القصص انه يقدمها الى « من خلق الله لهم عقولا تجد فى الشك لذة والقلق والاضطراب رضا » .

بذلك تحول هدف ترجمة القصة من الثقـــافة الى التسلية ، وبذلك قدم نجيب الحداد ونقولا الحداد والياس فيـــاض وطانيوس عبده والياس فيـــاض وخليل بيدس وغيرهم قصصا أختاروها مليئة بروح الأثارة للطبقـــات المتوسطة وكان نوع القصص نازلا وأســلوبها ركيكا ، وكان هدف التغريب من وراءها الاثارة ، وتدمير القيم فى النفس العربية ، وقد عجز هؤلاء عن ترجمـــة الروايات العالمية الممتازة لضعفهم فى الترجمة ، ولرغبتهم فى ارضاء غرائز الجماهير ، ثم كانت صيحات جب وغيره الداعية الى انشاء القصة المصرية أو العربية الحديثة التى لم تكن فى أول أمرها الا قصـــصا غربية مترجمة ، غيرت فيهـــا الأسماء والأماكن وبقيت كماهى تصور مجتمعا غريبا عن مجتمعنا . ومن عجب أن هذا الاتجاه ما زال مستمرا . وقد أشـــار جب الى خطر بعيد المدى فى طريق القصـــة المصرية ذلك هو :

« أن المجتمع متى بقى تطوره وتقدمه محصورا فى المبادىء الاسلامية أو فى التقاليد التى كانت أثرا لهــذه المبادىء فان ذلك سيحول دون ظهور القصة الحديثة » ومعنى هذا هو أن القصة لا توجد الا فى مجتمع مختلط ، تقع فيه الأزمات وعمليات الصراع بين الرجل والمرأة . فقد كانت القصة فى عرف الفكر الغربى هى علاقة ما بين الرجل والمـــرأة ، تتم فى ظل الغرائز ودوافع العـــاطفة وتجرى الى نهايتها دون أن تقف فى وجهتها حدود أو قيم ويبدو هذا واضحا فى طابع القصـــة الحديثة المــكتوبة باللغـــة العربية على العمـــوم ، حيث لا ترى فى الأغلب مشاعر نابعة أساسا من مجتمعنا ، وانما تجـــد مشـاعر غربية ، فكل المشاكل والأزمات والقضايا التى تعرضـــها القصة العربية الحديثة بعيدة جدا فى التماس حلولها فى مقومات فكرنا العربى الاسلامى الأصيل ، وانما تســـتمد حلولها من طبائع أخرى مختلفة كل الاختلاف عن طبيعة النفس العربية الأصيلة . فالحياة الانسانية لها فى عالمنا العربى الاسلامى طابع يختلف اختلافا بينا عن الحياة فى الغرب ، فالعقليـــة العربية الاســـلامية عقلية توحيدية لا تسرف فى الفلسفة ولا تسرف فى التصوف ولا تسرف فى الاباحة ، وليست الخيانة فيه طابعا ولا ظاهرة ، ومن هنا كانت مصادمتها للواقع حين تعرض القضـــايا التى ليست من مجتمعنا أو الحلول التى ليست من طوابع فكرنا فضلا عن أن التسلية وارجاء الفراغ قد حالت بينها وبين هدف التســـامى . ويرجع ذلك فى الأغلب الى أن هـــذه القصص تترجم أولا ثم تحول الى قصـــص عربية بتغيير الأسماء والأماكن ووضع بعض التوابل .

ومن الخطأ — على حـــد تعبير زكى مبارك — أن يقاس ادبنا على ادب الانجليز والفرنسيس أو الالمـــان ، وانما يقاس الأدب على مزاج الأمم التى تصدر عنها يقول : « وملاك الأمر أن يعبر الأدب عن عقول اهله وأحلامهم وشهواتهم وما يجرى فى خواطرهم ، ونحن أحفاد العرب واسباطهم ، من واجبنا أن ننظر الى ماضيهم حين نفكر فى حاضرنا ، وقد كان العرب تكفيهم اللمحة والاشـــارة فى أشعارهم ورسائلهم حتى عرفوا بين الأمم بقوة الايحاء» .

ولاشك يختلف طابع القصة العربية عن القصـــة الغربية التى استمدت مصدرها الأول من الفن الوثنى ، وادب الثلوج وتمجيد الأبطال الخرافيين ، وفى المنـــاطق البـــاردة كان طابع الكشف والجنس اكثر بروزا ، بينما لا يوجد هذا فى الشرق ، ذى الشمس المشرقة .

ولا توجد فى مجتمعنا مشاكل المجتمع الغربى الفردى ولا تستطيع النماذج التى نقدمها لقصص دافيد كوبرفيلد لدكنز ، أو البؤســـاء لهيجو وتابيس لأناتول فرانس أو

غيرها أن توجد فى مجتمعنا ، وما تزال القصـــة الغربية خلال السنوات المتوالية منذ الحرب العالمية الأولى واقعة تحت عوامل النفور من الحروب والذرة ، ومايتصل بانهيار روابط الزواج والأسرة وانتشار ثقافات الاباحة . واعتقد أن مراجعـــة شاملة للقصة الغـــربية تكشف عن خـــلاف جذرى بين صورة المجتمع العربى ومشاكله وحلول القصة لهـــذه المشاكل ، ولو وضعت هذه الصـــورة والمشاكل والحلول فى ضوء العقل العربى لأنكرها انكارا واضحا .

وفى أحدث كتاب عن القصة الغربية

لبودفورد يذكر كيف قامت حركة تحرير الأدب من سلطان الأخلاق ، واعطاء الكاتب الحق فى الاستقلال عن نواميس الأخلاق الشاملة ، مما دفع الأدب الى اطلاق الوجدانات والعواطف من عقالها وظهر على أثر ذلك الدادا والسريالية ، التى أزالت ألوان الحـــرام الاجتماعيـــة والأخلاقيـــة ، وكيف فتح « فرويد » مجـــالا هائلا من اللاشعور ، وكيف عاش جيل الثلاثين يصور الأشخاص فى صراع مع القدر الاجتماعى ، ثم برز طابع البطل المغامر المتمرد المنشىء ، ثم كانت تجربة اليأس والقلق واللامعقول بعد الحرب العـــالمية الثانية ، وكيف قاد سارتر وكامى هذا التيار فالانسان لا فائدة فى حياته . وما هو الا ميت تأجل تنفيذ حكم الموت عليه ولا أمل فى انقاذه ، والعالم لم تعد ثمة ضرورة لوجوده ، انه لا معقول وأينما وجـــه المـــرء نظره الفى اللامعقول . ومداه عدم تقـــديره النفس الانسانية » .

ولا شك أن هذه الصورة تختلف اختلافا واضـــحا عن صورة النفس العربية وعن القيم الانســـانية للفكر العـــربى التى تؤمن ايمـــانا قويا بالتوحيد وســـيادة الانسان تحت حكم الله وايجـــابية النظرة الى الحياة ، وحيث تجد فى تراث فكرها الغزير الايجابى الحى القادر على الحركة والواضح التقدمية حلولا لكل ما يواجهها من مشاكل بعيدة عن العدم والضياع واللامعقول .

٤ ـــ الفلسفة الاسلامية فى مواجهة اليونانيات

هناك شبهة ضخمة ودعوى عريضـــة تقول : ان التراث اليونانى هو الذى نهض بالقصة العربية ولولاه لظل العرب على ما كانوا عليه من بداوة وسذاجة ، وان « الفلســـفة الاسلامية فلســـفة يونانية مكتوبة باللغة العربية » وان البيـــان العربى قد نســـجت خطوطه من البلاغتين الفارسية واليونانية وان العرب والمسلمين لم يكونوا منشئى حضـــارة ، وانما مجرد نقـــلة لتراث من ســـبقهم من الامم ، وان التراث الاغريقى كان الأساس الذى تشكلت وفقا لمقتضياته الحضارة العربية الاسلامية وتدحض هـــذه الشبهات حقيقة واحدة أساســـية مقررة يسيرة قبل أن ندخل فى التفصيلات هى أن الثقافة العربية الاســـلامية كانت قد تشكلت وقامت دعائمهـــا ورسمت مقوماتها قبل ترجمة التراث الهلينى ، ومن هنا فقد أخذت هـــذا التراث على قاعدتها وهى التى ترجمتهـــا بمحض رغبتها .

فلما قامت أسس الثقافة الاسلامية على التوحيد وعبادة الاله الواحد وعلى المزج الدقيق الخصـــب بين الروح والمـــادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة ، وكان من أقوى دوافع قوتها وحيويتها أن تفتحت على الثقافات المختلفة القديمة والمعاصرة لها ، من تراث الهند وفارس واليونان والرومان . وقد قام الفكر العربى الاســـلامى على أســـاس النظر العقلى أساسا وتوجه الى النظـــر للوجود ، وقد أشارت الأصول والجذور الأصلية له الى فضـــل العلم على العبـــادة وما لكلمة التوحيد من القوة الفاعلة الأساسية للفكر العربى الاسلامى فقد كان هـــذا مصدرا أساسيا واضح الدلالة عند ترجمة اليونانيات ، وكما كانت آراء الفـــكر العربى الاســـلامى فى التوحيد والنبوة مما لم تعرفه الفلســـفة اليونانية . وقد واجه الشـــيخ مصطفى عبـــد الرازق هذه الشـــبهات فقال : للفلسفة الاسلامية كيانا ممتازا عن الفلســـفة اليونانية والفلسفة الاسلامية لا يمكن أن يقال أنها مجهود العلماء المسلمين فى دائرة التفكير اليونانى ، بل هى هيكل خاص له مميزاته وخصـــائصه ، ومهما يكن من أثر الفلســـفة اليونانية وغير الفلسفة اليونانية فان له حظا عظيما من الشخصية والابتكار » .

ويقول ســـيد أمير على « القـــاضى الهندى » أن الغرض الأكبر الذى ينشـــده فلاسفة المســـلمين هو أن يزودوا العـــالم بنظرية تامة عن وحـــدة الكون ترضى (الذهن) كما ترضى (الدين) وحاولوا أن يوفقوا بين الجانب الأخلاقى والروحى للعلم وبين جانبه الفلسفى ، وقال أن أول علامات الفلسفة الاسلامية هى : (التوحيد) و (التنزيه) فالاســـلام فى جوهره اقـــرار الله بالتفـــرد والوحدانية والهيمنة على الكون . والاسلام لا يعرف الا مرتبتين من مراتب الوجـــود فوق الانســـــان : مرتبة (الألوهية) وهى مرتبة الله تعالى ومرتبة (النبوة) التى يهبها الله لمن يشاء من عباده ، وفيما عدا هاتين المرتبتين يستطيع الانسان أن يبلغ درجة الكمال حسب طاقته دون أن يعوقه عائق . فليس لله شركاء فى حكمه وملكه ، ومن يقول غير ذلك يدعو الى الوثنية ، والعقيدة التى آمن بها

جميع الفلاسفة المسلمين مستوحاة من « القرآن » .

كما يشجع الاسلام الدعوة الى التوفيق بين الفلسفة والدين ، وانهما فى المسائل الاسلامية متناصران، وقد كشف ابن رشد فى كتابه « فصل المقال بين الحكمة والشريعة » ان الاسلام يشجع المسلم على النظر العقلى ويدعوه الى التأمل الفلسفى ، وان القرآن يحث على توجيه نشاط الانسان الى طلب المعرفة ، والبحث عن الحقيقة ، مما يؤدى الى بلوغ الكمال فالاسلام دين يخاطب العقل والضمير على السواء » .

وهناك اجماع من الباحثين على ان للفلسفة الاسلامية رسالة هى فهم الكون ومعرفته لذاته بحيث يدع لضميره أمر تدبير سلوكه ويستشعر فى جوانبه ثقة الله وفى ثقة فى نفسه ، عندئذ يستطيع ان يمارس حرية ارادته ممارسة تامة ، فيمضى فى الحياة مطمئن النفس ، متفتح الوعى ، مبتهج القلب وأنها هى النظر العقلى فى الله والانسان والكون ، وقد عارض الفلاسفة المسلمون تلك الثنائية التى ضمنها ارسطو مذهبه التى يتقابل فيها الله والمادة الأزلية عنده ، وأعلنوا وحدانية الله وتنزيهه عن ملابسة المادة ، وعلى الجملة لم يكن اتصال الفلسفة الاسلامية بفلسفة أرسطو وحدها ولا بمذاهب اليونان وحدها .

* * *

ولم يقف الاسلام امام حرية الفكر بل أعطاها المدى أما أولئك الذين قتلوا فانما قتلتهم السياسة ولم يقتلهم العلم ، فقد كانوا ينتمون الى دعوات هدامة للدولة والنظام العام ، ولو اقتصروا على اعلان رأيهم ملحدا أو منحرفا فى مجال الفكر الخالص لما نالهم سوء . وقد أثبتت اللغة العربية فى مجال ترجمة الفكر الانسانى قدرتها على الشمول والاستيعاب ، وقد استطاع الاسلاف احراز تقدم واسع فى مجال المصطلحات التى فتحت الطريق اليوم لنقل العلوم الحديثة .

ولاشك كانت ترجمة التراث اليونانى للحضارة الاسلامية من أبرز مفاهيم الحرية والتفتح فى الفكر العربى الاسلامى فقد استدعى هارون الرشيد العلماء الذين يجيدون اللغات ، وكون منهم هيئة علمية مهمتها تقدير التعويضات التى تدفعها الشعوب المغلوبة على أن تكون هذه التعويضات كتبا ، فلما جاء المأمون كون مجمعا علميا وكل اليه أعمال الترجمة وبرز فيه أبناء موسى ابن شاكر الفلكى الثلاثى . وكانوا لا يقدمون على الترجمة الا بعد الحصول على ثلاث مخطوطات على الأقل من الكتاب المراد ترجمته فيقابل بينها ويقوم نصها ويصحح

ويرى العلامة محمد رضا الشبيبى أن الباعث على نقل الفلسفة اليونانية فى أول عصر العباسيين له علاقة بالدين ، فقد عنيت برد الشبهات التى كانت تثار ضد العقيدة الاسلامية على طريقة الفلاسفة ، وقال أن وجهة نظر المسلمين الى الفلسفة اليونانية أنها كانت آراء نظرية بحتة بينما كانت رسالة الاسلام عملية بعيدة عن المسائل النظرية ، ومن هذا كان أعضاء النقدة المسلمين عن نقل الأدب اليونانى مثل الاليـاذة والأوديسـا ، لأن ما فيها من أساطير وخرافات كانت تعتبر ولا زالت مبنيةعلى الشرك لذلك .

وقد أشار الشبيبى الى خطأ القول بأن العرب لم يعنوا الأدب اليونانى ، وقال أن « الفارابى » بحث عن الشعر اليونانى بجميع أقسامه وهو ينقله بالمصطلحات التى كانت معروفة فى ذلك الوقت ، وقال ان المسلمين كذلك عنوا بنقل كتب كثيرة لها اتصال بالأدب والشعر اليونانى ومنها كتاب الشعر والخطابة لأرسطو .

وقال الشبيبى : ان الآداب اليونانية تحتوى على مسائل صبيانية غير جديرة باهتمام كبار العقول فى وقت اقبل فيه رجال العلم على الجديات من العلوم ، أما هذه الصبيانيات من أن ظواهر الطبيعة من مطر وعواصف وبرق ترجع الى خصام الآلهة مع بعضها ، والى انقسام بعضها من بعض ، مع نزول الآلهة الى الأرض وتزوجها بالانسيات الى غير ذلك فالذوق العربى يرفض ذلك .

* * *

— ٧ —

شبهات حول التاريخ العربى الاسلامى

تعرض التاريخ العربى الاسلامى لحملات عنيفة منوعة ، قوامها اثارة الشبهات حول حياة الرسول ، وحياة الخلفاء ، وعديد من المواقع والمواقف المختلفة ، مستهدفة الغض من قدر تاريخ الاسلام والأمة العربية .

وقد عمل النفوذ الاستعمارى بالاشتراك مع دعاة التغريب والشعوبيين على اثارة الشبهات بغية تشويه التاريخ الوطنى والعربى والاسلامى جميعا ، حتى يروى الدكتور محمد صبرى أن مستر بلنت كان يقول أن المصريين أجهل الناس بتاريخ بلادهم ولهم العذر ، فلقد

كان هم الاحتلال منذ عام ١٨٨٢ اى منذ ستين عاما نشأ فيهـا جيلان او جيل ونصف محو آثار ذلك التاريخ وشواهده فى الكتب المتداولة ، وما تحدثت الى اجنبى فى مصر الا وآلمنى جهله بالتاريخ ان ينسب الى الانجليز كل ما تتكون فى شخصية مصر الحديثة .

وأشار لطفى جمعة فى ذكرياته عن التعليم انهم كانوا يعلمونه تاريخ مصر والاسلام باللغة الانجليزية فى بضع صفحات أولها ان مصر لم تحكم نفسها ابدا ، واخرها « وقد هزم الجيش المصرى فى التل الكبير وذبح الجنود المصريون فى ليلة ١٤ سبتمبر التى كانت قمرية كما تذبح الخراف السمان وفر قائدهم عرابى باشا » .

وفى مختلف المدارس والجامعات فى العالم الاسلامى والعواصم العربية كانت الكتب المشهورة فى التاريخ خلال فترة الاحتلال الأجنبى تفرض على الشباب ، تعلم تاريخهم على هذا النحو ، شبهات مثارة حول رسولهم ودينهم وقرآنهم ، واتهام لتاريخهم ووقائعه وبطولاته وفى التاريخ الوطنى اتهام لشخصية الأمة ووصف الأوطان بأنها عاشت محتلة طوال الدهور .

ومن المغرب العربى نجد صورة أخرى يرسمها أحد الباحثين الجزائريين : يقول احتلت قوات الغزو الاستعمارى أرض بلادنا ١٨٣٠ صار تاريخ الجزائر من اختصاص المؤرخين الفرنسيين . فلا نكون مطلعين على ماضينا القومى الا من خلال ما كتبه المؤرخون الأجانب . وقد كانت السلطات الاستعمارية تمنع منعا باتا تدريس العلوم الاجتماعية من تاريخ وجغرافيا ، وكل ما له صلة بتراثنا الفكرى أو الأدبى والغرض الكامن من وراء هذا الخطر هو ايهام الجزائريين بأن تاريخهم يبدأ عام ١٨٣٠ فقط ، اى فى السنة التى احتلت فيها القوات الفرنسية بلادنا ، كانت فرنسا تمنعنا من تعلم التاريخ على أيدى الوطنيين ولكنها كانت تشجع الدراسات التاريخية التى من نمط معين ، وقد يغتر القارىء بالجهد الذى بذله المؤرخون الفرنسيون فى جميع المعلومات وتتبع الحوادث ولكن القارىء الواعى يستطيع بسهولة أن يكتشف وراء هذه المحاولة طريقة ترمى الى تشويه الحقائق الناصعة وطمس معالم التاريخ القومى . ان الهدف الذى يرمى اليه جوليان ونموتيه ولو تورنو وغيرهم من المؤرخين الفرنسيين هو خدمة الأغراض الاستعمارية بايجاد مبررات لتركيز قواعد الاستعمار وتصوير الماضى بشكل يجعل القارىء يكره تاريخ ماضيه ويستسلم للحاضر .

ومنذ دخول الفرنسيين الى الجزائر ، حاولت أبواق الاستعمار أن تطمس معالم حضارتنا وأن تقضى على التراث الفكرى الذى خلفه لجدادنا الآباء ، ومن أجل ذلك رأينا السلطات الفرنسية فى الجزائر تمنع تدريس تاريخ العرب والاسلام لكى تقطع كل صلة بين الشعب الجزائرى والشرق العربى . وكانت الكتب الفرنسية تحاول عبثا ان تقنع الجزائريين انهم احفاد شارلمان وجان دارك وان أجدادهم هم الغول وان فرنسا هى الوطن الأم .

وقد صوروا تاريخ المغرب العربى على انه منازعات دموية تغذيها العصريات القبلية والمصالح العائلية . وقد أظهر المؤرخون الفرنسيون اهتماما كبيرا بسكان شمال افريقيا الأصليين .

كما ينكر النقاد الفرنسيون على المؤرخين العرب — باستثناء ابن خلدون — قلة تجردهم العلمى ، واتباعهم الخيال ، وتصديقهم للقصص والأساطير ،التى تتنافى مع الحقيقة والتاريخ . ولكن هؤلاء الفرنسيون لا يورعون عن استخدام هذه الأساطير عندما تخدم غرضا استعماريا ، فهم يروون قصة احراق مكتبة الاسكندرية من قبل العرب وهم يصدقون هذه القصة لانها تبرهن حسب ادعائهم بأن العرب قوم لا يحبون الثقافة بل يكرهون المدنية والعلم وهم يحاولون أن يصوروا سكان المغرب بأنهم طوائف ، لا يؤلفون فى نظرهم مجموعة متجانسة من المواطنين الذين تجمع بينهم التعاليم والعادات واللغة والدين والأزمنة ، وكم يحلو للمستشرقين ان يفيضوا فى القول عن هذه الفروق ، وان يظهروا جدلهم العقيم فى مثل هذه الاسناد التى تخطاها الزمن بمراحل » .

وقد حاول المؤرخون الفرنسيون فى دراساتهم عن تاريخ المغرب تشويه سمعة المرابطين وتصويرهم بصور الوحشية والغلظة والبعد عن المدنية . ذلك لأن المرابطين كانوا أول من أعطوا للمغرب العربى بما فيه الأندلس أول قوة عظيمة يرهبها الأعداء وأشاعوا الأمن والرخاء ، وأتاحوا الفرص ، وقد أشار العلامة عبد الله كنون فى دراساتهم الى هذه الشبهات وكشف أسباب الطعن فيهم ودافع عنهم دفاعا حارا وأبرز أن المرابطين كانوا كرماء حلماء مع أعدائهم » ا . هـ .

وان الشبهة الكبرى التى توجه الى تاريخ العرب والمسلمين هى رميه بالضعف ، وهى فرية باطلة ، فقد عمد المؤرخون العرب الى منهج علمى دقيق ، أشبه بطريقة المحدثين فى التنقيب والدقة والتحرى ،وحاولوا

— على حد قول الدكتور أسد رستم — أن يستفيدوا من قواعد علم الحديث التى وضعها علمائه فى الجرح والتعديل ونقد النص ، ويفاخر الدكتور رستم بسبق المحدثين الى هذه القواعد الجليلة التى تفوق دقة وضبطا ما وصل اليه أساطين علم التاريخ ونقدته فى أوربا وأمريكا ، وذلك وفق طريقة جمع الأصول ، ونقدها ، وتبسيطها ، وتفسير النصوص ، والتدليل والايضاح والعرض .

وقد أشار « نللينو » الى مدى دقة العرب فى كتابة التاريخ ، وانهم اتخذوا لذلك طرقا بالغة الحيطة (أولاها) ذكر السنين ، سنة فسنة ، ورواية اخرى من الحوادث فى كل منها مهما كانت البلاد التى وقعت فيها كما فعل الطبرى وابن الأثير وأبو الفداء وذلك بخلاف القدماء من اليونان الذين جعلوا غاية التاريخ فى حكاية الحوادث .

(ثانيا) والعناية برواية الحوادث باعتبار سياقها على قدر الاستطاعة كما فعل المسعودى فى مروج الذهب وابن خلدون وابن القفطى . وقد حاول (فيليب حتى) اتهام المؤرخين العرب بأن كتابتهم للتاريخ شيدت على أسس الطريقة الفارسية ، غير أن المثقفين من الباحثين أمثال الدكتور عبد العزيز الروى ، والعلامة محمد عبد الغنى حسن وغيرهم اكدوا بأن هذا العلم عربى النشأة والأصول ، وأن خطوطه الأساسية تحددت قبل الترجمة عن الفارسية ، ولذا فان قول فيليب حتى بأن المثال الذى احتذاه المؤلفون كان فارسيا فى الأصل على طريقة (حذاينامه) مردود ، لاننا نعرف أن كتابة التاريخ على أساس السير ، وعلى أساس الأسر الحاكمة عرف قبل ترجمة (الحدانيامة) وقد بدأ علم التاريخ عند العرب من أصول متصلة بدراسة الحديث (المغازى) من جهة وبمتابعة الأهتمام الموروث من الجاهلية بالأيام كما ظهر لدى الأخباريين .

ويرجع اضطراب فهم الغربيين للتاريخ الاسلامى — فيما عدا الهوى والتعصب — الى جوهر الخلاف بين المفاهيم الأساسية بين حضارة الغرب وحضارة الاسلام، ومن المعتقد ان فهم المؤرخين الغربيين للتاريخ الاسلامى تحتاج الى نظرة تختلف كل الاختلاف عن نظرتهم الى التاريخ الغربى الذى يمارسونه ، وان المقاييس التى يتبعونها فى فهم التاريخ الغربى قد تختلف اختلافا واضحا فى التطبيق على التاريخ الأسلامى وتأتى نتائج قاصرة او مختلفة تماما ، وانه لابد فى دراسة التاريخ الاسلامى من مفاهيم مختلفة ، باعتبار أن التاريخ الاسلامى صورة من النفسية العربية الاسلامية التى صاغته .

وقد تنبه الى هذا مستر « جب » حين يقول : ان التاريخ الاسلامى سار فى وجهة معاكسة للتاريخ الأوربى ، على نحو يثير الاستغراب ، كلاهما قام على انقاض الامبراطورية الرومانية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ولكن بينهما فرقا أصيلا ، فبينما خرجت اوربا على نحو متدرج لا شعورى وبعد عدة قرون من الفوضى الناجمة عن غزوات البرابرة ، انبثق الاسلام انبثاقا مفاجئا فى بلاد العرب واقام بسرعة تكاد تعز على التصديق فى أقل من قرن من الزمان ، امبراطورية حديثة فى غربى آسيا وشواطىء البحر الأبيض المتوسط » .

٢ — وواجه هذا المعنى الأستاذ تريتون فى كتابه « الاسلام عقائده وعباداته » حين قال : اذا صح فى العقول أن التفسير المادى للتاريخ يمكن أن يكون صالحا فى تعليل معظم الظواهر التاريخية الكبرى وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها ، فان هذا التفسير المادى يفشل فشلا ذريعا حين يرغب أن يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم وقيام حضارتهم واتساع رقعتهم وثبات أقدامهم ، فلم يبق أمام المؤرخين الا أن ينظروا فى العلة الصحيحة لهذه الظاهره الفريدة ، فيروا أنها تقع فى هذا الشىء الجديد وهو الاسلام » .

والواقع أن التاريخ العربى الاسلامى لا يؤخذ بالتفسير المادى وحده ولا بالتفسير الجغرافى ، أو المادى او البيلوجى ولكن بهذا كله جميعا .

٣ — وقد حاول دعاة التغريب أن ينكروا على العرب والمسلمين أن يكونوا قد بلغوا مستوى اليونان وبالتالى مستوى الأوربيين الحديثين فى ادراك فكر الانسانية .

وليس شك أن فكرة الانسانية ليست واضحة فى أمة ولا حضارة ولا دين وضوحها فى الاسلام ، وقد تنبه لهذا المعنى « ولفرد كانتول سميث » الذى قال أن المسلم يحس احساسا جادا بالتاريخ ، أنه يؤمن بتحقيق ملكوت الله فى الأرض ، ويؤمن بأن الله قد وضع نظاما عمليا واقعيا ، يسير البشر فى الأرض على مقتضاه ، ويحاولون دائما أن يصوغوا واقع الأرض فى اطاره ، ومن ثم فهو دائما يعيش كل عمل فردى أو جماعى ، وكل شعور فردى أو جماعى ، بمقدار قربه أو بعده ، من ذلك النظام الذى وضعه الله ، والذى ينبغى تحقيقه فى واقع الأرض ، لأنه قابل للتحقيق ، والتاريخ فى نظر المسلم سجل المحاولة البشرية الدائمة لتحقيق ملكوت الله فى الأرض ، ومن ثم فكل عمل وكل شعور فرديا كان أو

اجتماعيا ذو أهمية بالغة وان الحاضر هو نتيجة الماضى، والمستقبل متوقف على الحاضر » .

ويرى الدكتور اليان واين غراى فى هذا الموقف فى كتابه « تفسيرات التاريخ) ان نظرة المسلمين للتاريخ نظرة بناءة ، فهم يرون أن البشرية اذا اعتنقت تعاليم الوحى (القرآن) فان ارادتها حينذاك تتطابق وارادة الله ولا يعود يوجد من يعصى أوامره ، ويعم الأخاء بين البشر ، ومن صفات المؤمن أنه صابر ويعلم ان الأمر لارادة الله ، وقد قدموا أفضل فيلسوف للتاريخ ممثلا بالفيلسوف ابن خلدون ، وكان أول فيلسوف حلل درجات تأثير المحيط والدوافع النفسية التى تعمل عملها فى الحياة الانسانية والكسب كنشوء الحضارات وانقراضها .

ومن الأمور التى يضطرب فيها رأى المؤرخين الغربيين « العلاقة بين التاريخ والأسطورة » يقول العلامة محمد فريد وجدى :

كان القائمون بتمحيص التاريخ فى الثلاثة القرون الأخيرة من الملحدين الذين لا يؤمنون بخالق الكون ولا بالنبوات ولا بالوحى ، فانهم نظروا الى التواريخ المقدسة باسم « الميثولوجيا » أى (علم الأساطير) وذهبوا فى تحضير هذه الميثولوجيا كل مذهب غير مفرقين بين ما يصح أن تطبق عليه هذه الكلمة من العقائد الوثنية والتقاليد الخرافية وبين الحوادث النبوية القيمة .

وجاءت الأجيال الحديثة فرات بنفسها من اخبار الأمم حيال تاريخ وميثولوجيا ودربت أن تعتبر الأول خلاصة محصية من حوادث الشعوب الماضية وأن تعد الثانية حكايات خيالية تدلت من عقول ساذجة اخترعها رجال مدلسون ، فالقوا أنفسهم متحللين من كل ما حمل الأقدمون أنفسهم من تكاليف عقيدية وتقاليد وهمية ، معتبرين كل ما يوجد فى تاريخ الأديان وكتبها المقدسة من أخبار وحوادث وانقلابات لا تفق والتاريخ المبتور ، خرافات لا أصل لها فى الواقع وكان انكار المعجزات التى أيدت المرسلين فى دعواتهم الدينية باعتبار أنها تناقض العلم وتخالف قوانين الطبيعة . وان تعتبر كل هذه الأمور من الخرافات التى اساس لها فى التاريخ وقد نوه الكتاب الكريم (القرآن) بأمم ماضية ومرسلين وقص من اخبارها واخبارهم ما فيه موعظة للتالين والسامعين ، فلاحظ بعض المستشرقين وكلهم من غلاة الماديين أن من هذه القصص ما لم يرد فى التاريخ وبعضه يعتبر من الخرافات .

بالجملة فقد بحثوا التاريخ على ضوء المبادىء المادية البحتة ، التى لا ترى وجود الخالق والروح .

شبهات التاريخ : ١ ـ مرحلة الضعف والتخلف

فى مجال التاريخ العربى الاسلامى شبهات متعددة، عرضنا لأكثرها فى الفصول المختلفة ، ونحن هنا نعرض لأهم هذه الشبهات .

١ ـ مرحلة الضعف والتخلف .
٢ ـ تحامل الغرب على تاريخ العرب والاسلام .
٣ ـ التاريخ والحضارات .
٤ ـ معركة بلاط الشهداء .
٥ ـ حريق مكتبة الاسكندرية .
٦ ـ فلسفة التاريخ ونقد كتاب فيليب حتى .

ولاشك أن من أبرز قضايا التاريخ العربى الاسلامى « مرحلة الضعف والتخلف » وأسبابها وعواملها ، وقد اقتضت هذه القضية بحوثا مسهبة ، وحاول المستشرقون وكتاب الغرب من غير المنصفين أن يغزوا هذا التخلف الى الاسلام والفكر العربى الاسلامى .

وقامت الشبهة فى هذا على وصف الاسلام بما وصفت به المسيحية الغربية التى كانت عائقا للتمدن والنهضة فى الغرب فى عهد النهضة « الرينسانس » ، ومن هنا نقلت نفس عبارات الاتهام الى الاسلام بوصفه دين وعلى شبهة أنه هو مصدر التخلف الذى أصاب المسلمين فى القرون الثلاثة السابقة لهذا القرن ، والواقع أن الاسلام بوصفه دينا ومدنية لم يكن عاملا من عوامل الضعف والتخلف بل كان الانفصال عن مفاهيمه وقيمه، والجمود عن آفاقه الواسعة الفسيحة هو فى الأغلب مصدر ما أصاب العالم الإسلامى من الاضطرابات .

وقد ذهب بعض الغربيين الى وصف هذه المرحلة بأسماء كثيرة كان اقساها وأشدها امعانا فى التعصب ، تسميتها باسم « مرحلة الانحطاط » والواقع ان هذا الوصف لتلك المرحلة ليس منصفا ، وان كل الأسماء التى يمكن أن تطلق : كالتأخر والانحدار والتخلف والضعف ، ربما كانت كافية لوصف هذه المرحلة ، دون أن توصف بالانحطاط الذى يتمثل فى حالة سقوط النهاية، والواقع أن الجماعة الاسلامية بالرغم من أزمة الضعف الشديدة التى مرت بها فانها لم تسقط وكانت أزمتها قد وقعت فى ظل مؤامرة كبرى استطاع النفوذ الأجنبى أن ويحكمها أكثر من ثلاثة قرون ، واذا كانت الرابطة السياسية الاسلامية ممثلة فى السلطة العثمانية قد

سقطت ، فان الفكر العربي الاسلامي لم يسقط وظل حيا قائما متفاعلا مع (عالم الاسلام) الذي لم ينفصل عن جذوره ، ومقوماته ، هذا بالاضافة الى ما برز فى فترة الضعف هذه من مواجهة للتحدى ورد الفعل المتمثل فى القدرة على حضانة التراث والفكر والمخطوطات واللغة والعلوم عن ثلاث طرق هامة . (أولهما) المعاهد والجامعات الاسلامية الكبرى التى ظلت حية قائمة تؤدى دورها بالرغم مما أصابها من الجمود كالأزهر والزيتونة والقرويين ومعاهد النجف الاشراف والشام والمسجد الأقصى ومكة والمدينة وزوايا صحراء ليبيا وخلاوى السودان . (ثانيهما) هذه الحركة الضخمة لتأليف الموسوعات وضم مختلف فنون الفكر العربى الاسلامى اليها مجمعا من نحو وأدب ولغة وفقه وتشريع وفلسفة ونصوص (ثالثهما) الحركة الصوفية ممثلة فى تجمعاتها الواسعة وتحركاتها الضخمة فى افريقيا وهجرات العرب فى جنوب شرق آسيا وما كان لهاتين الحركتين من أثر فى نشر الاسلام والثقافة العربية الى ابعد مدى فى ظل هذه الفترة التى وصفها بعض كتاب الغرب بفترة الانحطاط ظلما .

وقد عرض لقضية التأخر والتخلف كثير من الباحثين واعلام الفكر العربي الاسلامى المعاصر ، وفى مقدمتهم الأمير شيكيب ارسلان الذى تلقى فى هذا المعنى خطابا من « محمد بسيونى عمران » من مسلمى بورنيو احدى جزر الهند الشرقية فأجاب عنه فى رسالة مطولة نشرت فى المنار ثم طبعت من بعد .

وقد أشار الأمير شكيب فى رسالته الى أن فى العالم الاسلامى حركة شديدة ومخاضا عظيما شاملا للأمور المادية والمعنوية ، وان هذه الحركة لم تصل بالمسلمين حتى اليوم — وكان ذلك فى الثلاثينات — الى درجة يساوون بها أمة من الأمم الأوربية أو الأمريكية ، لهذا وجب أن نبحث فى الأسباب التى اوجدت هذا التقهقر فى العالم الاسلامى بعد ان كان منذ الف سنة هو الصدر المقدم والسيد الموهوب المطاع بين الأمم شرقا وغربا ، وعنده أن ابرز اسباب الانحطاط هى « التخلى عن أسباب الارتقاء » فقد صير الاسلام أهله الى العزة والمتعة والثروة ، وان القرآن قد انشأ العرب نشأة مستأنفة وخلقهم خلقا جديدا . فقد اتى على العرب حين من الدهر سادها الغرباء فى ارضهم ، كالفرس فى اليمن وعمان والحيرة ، وكالحبشة فى اليمن ، وكالروم فى أطراف الحجاز ومشارف الشام ، فلم يستقلوا استقلالا حقيقيا واسعا الا بالأسلام ولم تعرفهم الأمم البعيدة وتخضع لهم الممالك العظام ، ولم يقعدوا من التاريخ المقعد الذى أحلهم فى الصف الأول من الأمم الفاتحة الا بمحمد ، فهو السبب الذى به نهضوا وشادوا ، وبلغوا هذه المبالغ كلها من المجد والرقى ، وقال الأمير شكيب : اننا اذا فحصنا عن ذلك وجدنا أن السبب الذى ساد به السلف قد أصبح مفقودا بلا نزاع وان بقى منه شىء ...

اليوم فقد المسلمون او اكثرهم هذه الحماسة اللتى كانت عند آبائهم ، وانما تخلق بها أعداء الاسلام ، وان أكثر الأمم الاسلامية تريد حفظ استقلالها دون مفاداة ولا تضحية ولا بيع أنفس ولا مسابقة الى الموت ولا مجاهدة بالمال ، وتطالب الله بالنصر على غير هذا الشرط الذى اشترطه الله للنصر « ولينصرن الله من ينصره » لقد ظن كثير من المسلمين انهم مسلمون بمجرد الصلاة والصيام وكل ما لا يكلفهم بذل دم ولا مال ، وانتظروا على ذلك النصر من الله ، وليس الأمر كذلك فان عزائم الاسلام لا تنحصر فى الصلاة والصيام ، ولا فى الدعاء ممن قعدوا وتخلفوا ، وقد كان فى وسعهم أن ينهضوا ويبذلوا ولو كانت الآمال تبلغ بالأدعية والأذكار دون الأعمال والآثار لانتقضت سنن الكون وبطل التشريع ولم يقل الله تعالى « وان ليس للانسان الا ما سعى » .

والمسلمون يريدون سلطانا يشبه سلطان الأوربيين بدون ايثار ولا بذل ولا فقد شىء من لذائذهم .

ويتعرض الأمير شكيب لأهم اسباب تأخر المسلمين ويلخصها فى العلم الناقص الذى هو أشد خطرا من الجهل ، وفساد الأخلاق يفقد الفضائل التى حث عليها القرآن ، وبنوع خاص فساد أخلاق أمراء المسلمين ، والعلماء الذين اتخذوا العلم مهنة للعيش وجعلوا الدين مصيدة للدنيا فسوغوا للفاسقين من الأمراء أشنع موبقاتهم .

ومن اعظم عوامل تقهقر المسلمين : الجبن والهلع بعد أن كانوا أشهر الأمم فى الشجاعة واحتقار الموت ، وقد انضم الى الجبن والهلع ، اللذين أصابا المسلمين : اليأس والقنوط من رحمة الله . وفقدهم كل ثقة بأنفسهم حتى أصبح المسلمون فى الأعصر الأخيرة يعتقدون أن ما من صراع بين المسلم والأوربى الا سينتهى بمصرع المسلم ولو طال كفاحه ، وقر ذلك فى نفوسهم ، لا سيما هذه الطبقة التى تزعم انها الطبقة المفكرة العاقلة المولعة بالحقائق الصادقة عن الخيالات بزعمها . ولم تقتصر هذه الفئة على القول بأن حالة المسلمين الحاضرة هى متردية متدنية ، بل زعمت أن التعب فى مجاراة المسلمين للافرنج من علم او صناعة أو كسب أو تجارة او حرب أو

مســلم او اى منحنى من مناحى العمران هو ضرب من المحــال ، وكان المســلمون من طينة والأفرنج من طينة اخرى ، ونحن نريد أن نقول ان كل من سار على الدرب وصل وان المسلمين اذا تعلموا العلوم العصرية استطاعوا ان يعملوا الأعمال العمرانية التى يقوم بها الأفرنج وأنه ليس هناك فرق بين القابلية البشرية ، ولكن على شرط ان ينفض المسلمون عن انفسهم غبار الخمول ويلغوا هذه القاعدة التى قد كانت اسباب شقائهم زمنا طويلا وهى ان كل عمل عمرانى فى الشرق لابد أن يستعار له شركة أوربية لتقوم به والا فلا يستطاع عمله .

وتحدث عن البطولات الحربية لأسلافنا ، وقال من السخف أن يقال نعم قد كان ذلك ، لكن قبل أن تخترع آلات القتال الحديثة وقبل أن يصير الأفرنج الى ما صاروا اليه من القوة المبنيــة على العلم ، على أنه ليســت الدبابات والطيارات هى التى تبعث العزائم ، بل الحمية والعزيمة والنجدة هى التى تأتى بالطيــارات والدبابات والقنابل ، يقولون : ان هذا العلم مفقود عند المسلمين والجواب أن العلم الحربى يتوقف على الفكر والعزيمة ، ومتى وجــدت هاتان وجد العــلم الحديث ، ووجــدت الصناعة الحديثة ، وكل أمة من أمم الاســلام تريد أن تنهض وتلحق بالأمم العزيزة ، يمكنها ذلك وتبقى مسلمة متمسكة بدينها ، قالوا أن أمة من أمم الاسلام ارادت أن تتسامح لوجدت السلاح الحديث اللازم بأنواعه واشكاله فى ثانى يوم ، ولكن اقتنــاء السلاح ينبغى له ســخاء الأموال لا يوهم انهم يريدون أن يبذلوا ولا أن يقتــدوا بالأفرنج فى البذل بل يريدون النصرة بدون سلاح وعتاد أو السلاح والعتاد بدون بذل اموال .

واشــار الى ضياع الاســلام بين الجــامدين والجــاحدين ، أما الجاحد فهو الذى يأبى الا أن يفرنج المسلمين وسائر الشرقيين ويخرجهم من جميع مقوماتهم ومشخصاتهم ويحملهم على انكار ماضيهم ويجعلهم أشبه بالجزء الكيماوى الذى يدخل فى تركيب جسم آخر كان بعيدا ، فيذوب فيه ويفقد هويته ، وتساءل لماذا لا يقال على أوربا المسيحية المفتخرة بمسيحيتها انها رجعية كما يريد الجاحدون من المسلمين أن يصفوا سائر المسلمين لانهم يريدون أن يتجردوا من دين الاســلام ، وكل قوم يعتصمون بدينهم ومقومات ملتهم ومشخصات نفوسهم الا المســلمين ، فانهم اذا دعاهم داع الى الاستمساك بقرآنهم وعقيدتهم ومقوماتهم ومشخصاتهم ، وباللسان العربى وآدابه والحياة الشرقية ومناحيها ، قامت قيامة الذين فى قلوبهم مرض وقالوا : كيف تريدون الرقى وأنتم متمسكون بأوضاع قديمة بالية من القرون الوسطى .

ثم قال : والمســلم الجامد ليس أخف ضررا من الجاحد ، وان كان لا يشركه فى الخبث وسوء النية انما يعمل ما يعمله عن جهل وتعصب ، فالجامد هو الذى مهد لأعداء الاسلامية الطريق لمحاربة هــذه المدنية محتجون بأن التــأخر الذى عليه العالم الاســلامى انما هو ثمرة تعــاليمه ، والجــامد هو سبب الفقــر الذى ابتلى به المسلمون لأنه جعل الاسلام دين آخرة فقط ، والحال أن الاسلام هو دين دنيا وآخرة ، وان هــذه مزية له على سائر الاديان ، والجامد هو الذى شــهر الحرب على العــلوم الطبيعية والرياضية والفلســفية وفنونها وصــناعاتها بحجة أنها من علوم الكفــار ، وقد تسبب الجامدون بموقفهم من أمور الدنيــا فى أن يصف الأفرنج الاسلام بأنه « جبرى » لا يأمر بالعمل لأن ما هو كائن هو كائن ، عمل المخلوق أم لم يعمل ، ولا شىء أدل على فساد هذا الزعم من أن القرآن ملآن بالحث على العمل واســتنهاض العزائم ونوط الثواب والعقــاب والفوز والفشل الذى يعمله المكلف .

وكل آيات العمل فى القرآن ناطقة بأن الاسلام هو دين العمل لا دين الكسل ولا هو دين الاتكال على القدر المجهول للبشر . على أن هذا لا ينفى الاعتماد على الله ، وأن الاسلام فى أصله ثورة على القديم الفاسد وقطع كل العلائق مع غير الحقائق ، وأن الذين يفهمون الاســلام حق الفهم يرحبون بكل جديد لا يعارض العقيدة .

والعالم الاسلامى يمكنه النهوض واللحــاق بالأمم الغالبة اذا أراد المسلمون ذلك ووطنوا أنفســهم عليه ولا يزيدهم الاســلام الا بصيرة وعــزما . ولن يجدوا لأنفسهم حافزا على العلم والفن خيرا من القرآن « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » وليس العلم هنا هو العلم الدينى وانما كل ما ورد فى القرآن عن العلم ممــا يقصد الى الســير فى الأرض والنظــر والتفــكير ويعلم أن المراد هنا هو العــلم على اطلاقه متناولا كل شىء .

ومن هنا فان المسلمين ينهضون بما نهض به غيرهم ويمكنهم اذا أرادوا بعث العزائم وعملوا بما عرضه عليه كتابهم أن يبلغوا مبالغ الأوربيين من العلم والارتقاء وأن يبقوا على اسلامهم كما بقى أولئك على أديانهم .

وجملة راى الأمير شكيب فى قضية تأخر المسلمين انما يرجع الى العوامل الآتية :

* ترك المســلمين عزائم القرآن التى قام بهــا سلفهم .

* اعراض علماء المسلمين عن العلوم الطبيعية وفقدهم أعظم قوة مادية .

* الاكتفاء من الدين بالرسوم الظاهرة واللهو بالقشور عن اللباب .

* اليأس فى رحمة الله وفقد الثقة فى النفس .

* استخذاء المسلمين امام الأوربيين وفقد أكثرهم عزة الاسلام القومية .

* مواطأة المسلمين للأوربيين على اخوانهم وخدمتهم اياهم .

* فقد روح التضحية التى سادت بها الأمم الأوربية .

* فساد اخلاق الأمراء والحكام .

* فساد العلماء الذين هم القوة المراقبة للحكومات

* خصومة دول الغرب للعالم الاسلامى واصرارها على السيطرة عليه .

* تخييم الجهل على الأمم الاسلامية .

* عدم تجدد برامج التعليم واستيلاء الجمود على الفقهاء .

* كثرة الكلام عن الآخرة مع أن الاسلام دين دنيا وآخرة .

* الدعايات الاستعمارية والتبشيرية .

* تجمع قواعد الاستعمار الغربى على خصومة الاسلام .

* * *

ويرى الأستاذ الشيخ محمد عبده أن الانحطاط الذى اصاب الخلافة زمن العباسيين كان نتيجة لتسرب العناصر الأجنبية الى جهاز الأمبراطورية الاسلامية ، وأن انحطاط العالم الاسلامى ووهن السلطة السياسية الاسلامية ليسا ناشئين عن فساد الاسلام ذاته بل عن تقاعس المسلمين واغفالهم لتعاليم دينهم .

وقد دافع « نبيه أمين فارس » وهو من كتاب الاستشراق عن الاتهام الذى رمى به الاسلام والفكر العربى الاسلامى من أنه مصدر التأخر فقال :

اذا حسبنا أن الاسلام هو سبب تأخر الأقطار الاسلامية فبماذا نعلل تأخر اقطار نصرانية فى البلقان وفى امريكا الوسطى والجنوبية وفى أوربا نفسها وقال : ان ما قدمه المسلمون فى القرون الوسطى من مآثر فى شتى ميادين العلم والفكر يثبت انه لم يكن فى الاسلام — آنئذ — وليس فيه اليوم شىء أساسى معاد للتقدم ، لا بل ان الأدلة تثبت عكس ذلك ، اى أن الاسلام موآت للتقدم ، هى أكثر عددا واقناعا ولسنا هنا فى موقف الدفاع عن الاسلام أو النيل منه .

لقد حمل المسلمون تحت لواء الاسلام وفى نطاق نظمه اعباء البشرية العلمية والفكرية فى ميادين مختلفة ، وطوال مدة غير يسيرة ، ولم تقم أمامهم اى صعوبة ، الا عندما ابتدأوا تدريجيا يشعرون بالقناعة بما صنعت أيديهم .

وقال : ان الكتاب المسلمون يصرون على أن الاسلام كان ولا يزال خير وسيلة للتقدم البشرى وأن الأسباب التى دفعت المسلمين الى التخلف انما تعود الى وقوع الأقطار الاسلامية تحت السيطرة الأجنبية .

٢ — التاريخ بين منهجين وفهمين

الرد على ارنولد توينبى

ويراجع بعض الباحثين موقف المؤرخ توينبى من الحضارة الاسلامية وتاريخ الاسلام ، يقول الأستاذ أحمد نصيف الجنابى ان توينبى لم يتناول الحضارة الاسلامية والتاريخ الاسلامى وحدة حضارية متكاملة ، بل عزل حوادث التاريخ الاسلامى عزلا وخالف المنهج العلمى الذى يفسر التاريخ على أساسه . كما أنه انتخب من الحوادث ما يروق له . ويتضمن كلام توينبى ١ — ان مبدأ الوحدانية فى الاسلام مأخوذ من الروم ٢ — ان مبدأ النظام والقانون نقله محمد عن الدولة الرومانية . ٣ — ان هجرة النبى وصحابته الكرام كانت خروجا على مبدأ الاعتكاف والعودة .

أما مبدأ الوحدانية فى الدين فهو بعيد جدا عن روح الحضارة الرومانية التى تعبد آلهة متعددة بعيدة عن مبدأ التوحيد . أما القول بأن مبدأ النظام والقانون فى

الاسلام منقول عن الدولة الرومانية فان هذا الزعم يبدو متهافتا اذا اثبتنا أن النبى كان أميا وأن مرد التشريع فى الاسلام الى الله ، ومن الأمور المسلم بها أن كان النبى أميا ، لحكمة تتمثل فى سد الطريق أمام المتشككين فى الوحى والظانين أن النبى أخذ من أهل الكتاب . ومن أهم ما ينقض هذا الزعم الطريقة التى ظهرت بها قواعد التشريع الاسلامى ، فقد كان التشريع الاسلامى فى حياة الرسول يعتمد على مصدرين هما : القرآن والسنة . وقد اشتمل القرآن على القواعد الاقتصادية والتشريعية وعلى القواعد المتعلقة بالعقيدة الدينية والأخلاقية .

كما أن القواعد القانونية فى الاسلام تكونت تدريجيا وبمناسبة وقعت فعلا ، ولم تكن هناك قواعد قانونية شرعت لحالات افتراضية كما أمكن تبنى بعض التقاليد العرفية التى سادت المجتمع العربى ، وتعديل بعضها لتلائم روح التشريع الاسلامى وهذا كله تعبير عن كل تأثر بالقانون الرومانى . أما ما يتصل بأن هجرة النبى وصحابته كانت خروجا على مبدأ الأعتكاف والعودة فهو زعم متأثر بالنظرة الغربية المسيحية . ولاشك أن وجود تونينى « الانسان المؤرخ » فى مجتمع مسيحى غربى يؤثر فى نظرته الى الاسلام حتى فى الكلمات التى يستعملها . وبناء على نظرته المسيحية الغربية يرى أن سيرة النبى فى الفترتين «المكية والمدنية» متناقضة ، لأن النبى شغل فى الفصل الأول برسالته الدينية بطريقة سلمية من الدعوة والتبشير ، وشغل فى المرحلة الثانية ببناء سلطة عسكرية وسياسية . والنظرية المسيحية الغربية هنا واضحة ، اذ أنها ترى أن ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، والصريح فى تعاليم يسوع وحياته نبذه الأخذ بالسيف أو استخدام القوة . وهذه النظرة تختلف عن النظرة الاسلامية أساسا ، اذ أن الدين والدولة لم ينفصلا فى الاسلام وليس فى الاسلام نبذ الأخذ بالقوة .

وخير ما يستشهد به فى هذا المجال ما قاله توراندريه فى كتابه عن حياة محمد عن ودعوته حيث قال : اننا معشر الكتاب المسيحيين الغربيين نقيس حياة محمد عن شعور وغير شعور بحياة المسيح ووفق المبادىء الموجودة فى الكتاب المقدس وهى نظرة مخالفة على كل حال للنظرة التى يراه أصحابه ومعتنقوا دعوته بها .

ويضيف أحمد نصيف الجبابى أن السر فى عجز المؤرخين الغربيين عن فهم تاريخ الاسلام هو اختلاف وجهة النظر الأساسية بين الثقافتين : يقول ان التاريخ الاسلامى يجب أن يفسر على أساس النظرة الاسلامية للحياة الانسانية ، وكل تفسير يقوم على غير هذا الأساس ضرب من الخطأ العلمى لا يجوز أن يرتكبه باحث جاد أو مؤرخ يبتغى وجه الحق وحده . وأن كل مؤرخ غير مسلم يفسر التاريخ الاسلامى وفق منهج غربى يقع فى أخطاء أصيلة ناتجة عن تطبيق « منهج بحث » وضع فى الأساس لغير التاريخ الاسلامى ، وطبيعة المناهج الغربية « تجزئة الكون والطبيعة » أو الفصل بين (الله والطبيعة) و (العلم والدين) يبرز ذلك فى مؤلفات مشاهير الغرب (مثلا ، كولن ولسن : سقوط الحضارة) أما روح الثقافة الاسلامية وحضارتها فقائمة على أساس وحدة الكون وانسجام قوى الطبيعة واتساقها ، وأن الاسلا مهو النظام الوحيد الذى يحقق هذا الانسجام لأنه يجمع بين الروح والجسد فى نظام الدين ، والسماء والأرض فى نظام الكون ويسلكها فى طريق واحد وهو الطريق الى الله . وأن الاسلام — الاسلام وحده — هو الذى يجمع بين العلم والدين فى وحدة تامة غير متنافسة ، والتاريخ الاسلامى حافل بأسماء الألوف من الأفذاذ الذين كانوا منارا فى العقيدة ومرجعا فى البحث العلمى ولا نجد مثل هذه الكتب فى تاريخ غير المسلمين .

ويكشف الباحث الأوربى : ليوبولدفايس « محمد أسد » عن الفرق بين وجهة النظر الاسلامية والغربية فيقول : ان وجهة النظر الاسلامية مخالفة على كل حال لوجهة النظر الغربية الآلية : اذ أن الاسلام يعتبر وجود الامكان الروحى لمجموع البشر صفة كامنة ، أى أنه شىء وضع فى بناء الطبيعة البشرية ، ولا يسلم أبدا — كما يفعل الغرب — بأن الطبيعة تخضع لعملية تبدل ارتقائى كالذى يحدث للشجرة فى نموها ، ذلك لأن أساس تلك الطبيعة « أى النفس الانسانية » ليس كمية عضوية فحسب ، والخطأ الأساسى فى التفكير الأوربى الحديث ناتج عن اعتبار التزايد من المعرفة المادية ومن الرفاهية مرادفا للترقى الانسانى الروحى والأدبى ، وذلك يقوم على جحود الغربيين لوجود نفس مفارقة للمادة منفصلة عنها ومخالفة لها . أما الاسلام الذى بنى على أوجه من الادراك المطلق فانه يعتبر وجود النفس حقيقة لا تقبل النقاش .

والسبب فى هجر الأوربيين للأفكار المطلقة ، ان الفكر الأوربى فى هروبه من الكنيسة ورغبته الخفية والظاهرة فى خلع نيرها قد مال الى نفى فكرة الثبات على الاطلاق واستعاض عنها بفكرة التطور على الاطلاق ، وفكرة التطور المطلق لكل الأوضاع ولكل القيم ولأصل

التصــور الذي ترجع اليه القيم فكرة تناقض الأصــل الواضح في بنــاء الكون وفي بناء الفطرة الانسانية فمادة الكون سواء كانت الذرة أم الاشعاع البســيط المنطلق عند تحطيمها او اية صورة أخرى ثابتة المــاهية تتحرك حــول محور ثابت لا يتغير مطلقــا . ولمــا كانت الأمة المسلمة ذات حضارة خاصة ناتجة عن نظام خاص بحياة المسلمين ومشاعرهم ومعتقداتهم والوان سلوكهم ، أمة ذات (ايدلوجية) خاصة في نظرتها الى الكون والحياة والانسان ، ولمــا كان من المستحيل تصور امكان دراسة الحياة الاسلامية والتاريخ الاسلامي دون ربطهما بالعقيدة الاســلامية ، لأن الحياة الاسلامية والتاريخ الاســلامي انبثقا عن هذه العقيدة ادركنا بعد الشــقة بين مناهج البحث الغربية والاسلامية .

ويظهر اهم اوجه الخلاف بين المنهجين في ابعــاد الجــانب الروحي عن مفهوم الفــكر الغربي ، واختلاف زاوية النظر تبعــا لذلك بالاضــافة الى أن الغــربيين يعتبرون أوربا محور العالم فكل ما هو غير غربي فهــو غير جدير بالأعتبــار وليس بذي قيمــة وليس له من « الأصالة » في شيء وهذه النظرة المتحيزة ذات أثر بعيد في بحوث الغربيين في التاريخ .

ولمــا كان كتاب الغرب ومستشرقوه لا يمكن أن يستوعبوا خصائص التصور الاسلامي ومقوماته الانسانية فهم لا يستطيعون أن ينفذوا الى اعماق الحياة الاسلامية وبالتالي فهم لا يدركون الأمور ذات الطابع العقائدي التي أثرت في سلوك المسلمين فيشوهون تفسيرها » ا . هـ .

* * *

٣ ــ تحامل الغرب على تاريخ العرب والاسلام

في محاولات متعددة لكتابة تاريخ العرب والمسلمين نجد ان المتصدرين لها من غير المتخصصين ، أو من كتاب اتصلوا بدوائر الاستشراق قد حاولوا اثارة الشبهات عن طريق كتب المحاضرات وبعض المؤلفات التي كتبت للترف والتســلية وكتب الادب وهي جميعهــا لم تكتب للبحث العلمي الخــالص وفي مقدمتها (الأغاني) يبدو ذلك في كتــابات : فيليب حتي ، بروكلمــان ، والاس اوليري وغيرهم ، وهناك من يمر على مرحلة المدنية الاسلامية خلال الف سنة دون ان يذكرها بكلمة واحدة ، وقد سجل هذا المعنى المؤرخ العربي المصري «محمد عبد الله عنان» حين قال :

لا تكاد الثقــافة الأوربية الحديثة تعرف شيئا عن تاريخ العرب والاســلام في أوربا ، ولا عن تلك الدول الاســلامية الباذخة التي ازدهرت قرونا في أســبانيا وايطاليا ، ولا عن تلك الآثار الفــكرية والمعنوية التي طبعت الحضارة الأوربية في جنوب أوربا بطابع عميق ، ما يزال أثره ماثلا في كثــير من نواحي التفــكير والآداب والتقاليد الاجتماعية ، بل أن الأمم الاوربية التي قامت في مهادها تلك الأمم الاسلامية (يقصد اسبانيا الحديثة) لا تكاد تفســح في تاريخها كبير مجــال لتلك المرحلة من التــاريخ القومي ، وتؤثر دائما أن تمر عليهــا بمنتهى الايجاز والأغضاء وقد كانت اسبانيا حتى فاتحة القرن الماضي ما تزال تعتبر تاريخ اسبانيا المسلمة (الأندلس) وآثارها وذكرياتها رجسا يجب أن يطهر منه تاريخهــا القومي ، مع انه ليس في تاريخ أسبانيا أبهى وأمجد من هذه الصفحة ، بيد أن البحث الحديث استطاع أن يتحرر نوعا من مؤثرات هذه النزعة القومية المغرضة . واخــذ بعض علمــاء الغرب منذ القرن الماضي يدرســون هذه الناحية من تاريخ اوربا والحضــارة الأوربية وينوهون بأهمية الآثار الباقية التي خلفتها الحضارة الاسلامية من تراث الغرب الحديث الفكري والأجتماعي . وقد يدهش جيلنا المثقف اذا تليت عليه بعض هذه الحقائق والتفاصيل ويكاد يحسب انه يســمع تاريخ أمة اخرى ، ذلك أن القومية الغربية قد اسبلت منذ بعيد على هذه الحقــائق حجابا كثيفا من النسيان والأغضاء فاضحت تبدو في لون الخيال والقصة . وانقطع بهــا عهد البحث في الرواية العربية منذ أعقــاب بعيدة . أن العــوامل والنزعات الدينية والقومية قد تصوغ (هذه الحقائق التــاريخية) في معظم الأحيان في صور من التحريف والتحامل تسبغ على قيمتها واهميتها وآثارها في ســير التاريخ الأوربي وتكوين الحضارة الأوربية سجبا من الريب . أن الرواية الغربية تنتقص في أحيان كثيرة من قيمة الفتوحات الغربية والاسلامية في أوربا ، وتصورها كما تصور غزوات الدول البربرية ، حملات ناهبــة مخربة غير أن البحث الغربي الحديث يبدي بالعكس في تقدير الحضــارة الاسلامية وآثارها في بناء الحضارة الأوربية كثيرا من الانصــاف والتقدير .

* * *

٤ ــ التاريخ والحضارات

اخطــر ما يتعرض له تاريخ العرب والمســلمين «التفسيرات الخاطئة» ، سواء عن عجز عن الاستقصاء أو عن التعصب لوجهة نظر مسبقة ، ويعرض الأستاذ عبد الفتــاح عويس ملاحظاته بعد قراءة كتــابين عن الجاحظ وابن المقفع لحنا الفاخوري : يقول :

يعرض تاريخنا فى الأعوام الأخيرة لتفسيرات مريبة تدخل ضمن الاطار الفكرى الذى يحاول سدنته ادخاله على كل مقومات حياتنا وعناصر وجودنا . ويخيل للممعن أن هذه التيارات مهما اختلفت صورها تنطلق عن بؤرة واحدة . وتتحرك فى اطار فلكى واحد ، دفعنى الى هذا ما قرأته فى كتابين عن الجاحظ وابن المقفع صدرا فى بيروت لمؤلفهما « حنا الفاخورى » .

وفى الكتابين لا تجد أثرا للمنهجية ، وتجد الحضارة الاسلامية وكأنها عالة على الحضارتين الفارسية والرومانية ، وكأن المجتمع الاسلامى ذيل لكل عادات وثقافة الفرس والروم ، والعابثين والقارىء لكتب التاريخ والحضارة لاشك أنه يقف مشدوها أمام هذه الافتراءات التى يطلع بها أصحاب النزعات المتعصبة ويتخذون الأسلوب العلمى وسيلة للوصول الى أغرضهم المشبوهة .

والسؤال هو : هل حضارتنا الاسلامية ثوب خيوطه من الأغريق والرومان .

وابدأ قبل الرد على هذا السؤال فأقرر حقيقتين هامتين : أولهما : ان التزاوج والتلاقح بين الحضارات أمر لا محيص عنه وفرق كبير بين التزاوج وبين النقل المباشر ، فان أية حضارة لا يمكن أن تنهض على فراغ ، وشأن البناء الحقيقى أن تتصل المادة الجديدة فيه بالمادة القديمة ، لا أن ينسف الحاضر الماضى نسفا تاما ، وهذا شأن الحضارات على اختلافها .

ثانيا : أن ثمة حقائق انسانية عامة مشتركة بين الحضارات ، ولا تمتلك اية حضارة أن تغير فيها أو تبدل وظهور هذه الحقائق فى حضارات لاحقة لا يعنى أنها مأخوذة من حضارة سابقة بل يعنى أنها حضارات سليمة البناء واكتملت لها عناصر النهوض .

ويقول بعد هذا : أن الحضارة العربية الاسلامية حضارة أصيلة لم تتم على أنقاض غيرها بالمقدار الذى قلناه ، والذى لابد منه فى كل الحضارات ، بل أن الحضارة الاسلامية على العكس من ذلك قد ابتلعت حضارات شتى وطبعتها بطابعها ، واذا كانت الحضارات السابقة على الاسلام حضارات ذات سمات خاصة ، مادية — كاليهودية والمأثونية — أو روحية كالمسيحية والبوذية ، فان الاسلام قد أتى بحضارة خاصة لها سماتها الخاصة ، هى مادية وروحية معا . ثم أنها حضارة ذات جذور سماوية تخضع لدين الهى ، والقول بعدم أصالتها جهل لحقيقة الدين ، وهى كذلك قد أعطت الانسانية مفهوما جديدا عن الكون والحياة والانسان وأصول الحضارة الحقة والعقل ومدى قدراته .

وتمتاز الحضارة الاسلامية بالعرض الزمانى والمكانى ، ومن هنا جاءت كل قوانينها هامة وشاملة وباقية ، ومعنى هذا أن هذه الحضارة تنبع من مجرى نفى أصيل ، وأن هذه الحضارة لم تأخذ عن الحضارات التى اندثرت ، وما أخذته كستة من روحها برداء القرآن . واذا كان القرآن منبعا صافيا ، واذا كان القرآن هو « أب » الحضارة الاسلامية الشرعى . فذلك باعتباره كتاب دين ودنيا ودستور حياة ، واشترك المستشرق الفرنسى (جاستون كارمن) يحدثنا فيقول : أن القرآن هو منبع الدين العقلى ودستوره قد احتوى على أسس تستند اليها حضارة العالم ، ففى امكاننا أن نقول أن هذه الحضارة نشأت من امتزاج الأسس التى نشرها الاسلام .. ان الحضارة وان خمدت قليلا ، فانها لم تمت ولن تموت ، بل أن أقطاب الحضارات الحاضرة يترقبون يوم يقظتها ويعملون لهذا اليوم الف حساب وكل الدلائل تشير الى أن ذلك اليوم قريب ، وقريب جدا .

* * *

٥ — معركة بلاط الشهداء

تعد معركة «بلاط الشهداء» من المواقف الحاسمة فى تاريخ الشرق والغرب ، فهى المعركة التى توقف عندها التوسع الاسلامى العربى فى أوربا . وقد رصدت كتب التاريخ الغربية هذا الموقف وحاولت أن تصوره أنه انتصار على العرب والمسلمين الذين حاولوا السيطرة على أوربا وأنه ايقاف لنفوذهم ، وهذه وجهة نظر قومية لها وجاهتها بالنسبة للأوربيين أنفسهم من خلال ثقافتهم، ولكن ما هو موقف الفكر الانسانى بعامة فى هذا الموقف .. ويحاول العلامة الفرنسى « هنرى دى شامبون » تصوير هذا الموقف كمؤرخ عالمى فيقول :

لولا انتصار جيش (شارل مارتل) الهمجى على تقدم العرب فى فرنسا لما وقعت فرنسا فى ظلمات القرون الوسطى ، ولما اصيبت بفظائعها ولا كابدت المذابح الأهلية الناشئة عن التعصب الدينى والمذهبى ، ولولا ذلك الانتصار البربرى على العرب لنجت اسبانيا من وصمة محاكم التفتيش ، ولولا ذلك لما تأخر سير المدنية ثمانية قرون ، ونحن مدينون للشعوب العربية بكل ضمان حضارتنا فى العلم والفن والصناعة ، مع أننا نزعم اليوم أن لنا حق السيطرة على جميع الشعوب العريقة فى الفضائل . وحسبها أنها كانت مثال الكمال البشرى فى

مدة ثمانية قرون بينما كنا يومئذ مثال الهمجية وانه لكذب وافتراء ما ندعيه من أن الزمان قد اختلف وأنهم صاروا يمثلون اليوم ما كنا نمثله فيما مضى» .

ويقول الكاتب الفرنسي كلود فارير مصوراً وجهة نظرة في معركة بلاط الشهداء :

« أناخت على الانسانية في السنة الثانية والثلاثين بعد السبعمائة للميلاد كارثة لعلها أسوأ ما شهدته القرون الوسطى ، تخبط من جرائها العالم الغربي — سبعة قرون أو ثمانية قرون بل تزيد — في لجة من الهمجية ، ثم بدأت النهضة تقشع ظلماتها فعادت حركة (الاصلاح) تبرز من جديد .

هذه الكارثة التي اريد ان يحتقر ذكراها ، هو ذلك النصر الهائل الذي أحرزته غير بعيد من بواتيه جماعات الهركاس المتوحشين من مقاتلة الفرنك يقودها شارل مارتل على فرق العرب والبربر وقد فشلت لأن الخليفة عبد الرحمن أخطأ فلم يحشدها أكثر مما كانت عددا .

في هذا اليوم المشؤوم تقهقرت الحضارة ثماني مائة سنة وحسب الانسان أن يكون قد تنزه في جنائن الأندلس او خطر بين اطلال لا تزال بعد تبهر الأبصار من عواصم اشبيلية وغرناطة وطليطلة ليتراءى له في شيء من الدوار العجيب ما كان يمكن أن تصل اليه فرنسا لو أن الاسلام النشيط الحكيم الحاذق الرصين المتسامح — اذ الاسلام هو كل هذا — استطاع أن ينتزع وطننا فرنسا من فظائع لا تجد لها اسما ، اجتاحت بعد ذلك الغول القديمة (الغال Etanle) استعبدها بادىء الأمر الأوسترازيان ثم اقتطع القرصان النورماند أول قسم منها ثم تجزأت وتمزقت وغرقت في بحور من الدماء والدموع ، واخلتها الحروب الصليبية من السكان وملأتها الحروب الخارجية والأهلين جثثا ، كان ذلك يوم كان العالم الاسلامي يتمتع بلذة السلم من نهر (الوادي الكبير) الى نهر الهندوس في كنف الخلافات الاسلامية الاربع . الأموية والعباسية والسلجوقية والعثمانية .

ويقول العلامة جيمس بريستد : ان العصر الاسلامي في اسبانيا كان أكبر عامل من عوامل المدنية في أوربا وان انخذال المسلمين في اسبانيا كان بمثابة انهزام المدنية أمام الهمجية . ويقول المؤرخ مارك سمنوف في كتابه Fistcire de Fissie « لو لم يوقف شارل مارتل العرب عن السير في فتوحهم سنة ١١٠ هـ فان الثقافة العالية التي امتاز بها من كان يدعوهم الصليبيين بالكفار والوثنيين احتقارا لهم ، كانت أثرت قبل الوقت في أوربا الغربية وفي المدنية الافرنجية الرومانية . ويقول : العلامة لافيس : كم من الأحزان والآلام والجنايات كان يمكن انقاذ الانسانية منها لو لم يقف شارل مارتل العرب عن السير في فتوحهم سنة ١٩١٠ .

ومن هذه النصوص وغيرها يكاد ينعقد الاجماع على أن انتصار شارل مارتل على تقدم الاسلام في فرنسا هو الذي أخر سير المدنية ثمانية قرون وأنه هو الذي أوقع أوربا في ظلمات القرون الوسطى ومكابدة المذابح الأهلية الناشئة من التعصب الديني والمذهبي » .

* * *

٦ — حريق مكتبة الاسكندرية

ما أظن ان هناك قضية اتهام للاسلام والفكر الاسلامي العربي عولجت بمثل التعصب الذي عولجت به قضية حريق مكتبة الاسكندرية في محاولة لالصاق هذا العمل بالمسلمين واستخلاص نتائج ذلك من اتهامات لا نهاية لها . ولقد أثار جرجي زيدان هذه القضية في كتبه واتهم العرب والمسلمين ، كما أثارها المؤرخ الياس الأيوبي ، وأثارها أيضا الدكتور طه حسين عام ١٩٢٤ في جريدة السياسة تحت عنوان « خزانة الكتب بالاسكندرية وتحريق العرب اياها » مترجما رأى أحد المستشرقين ومؤيدا لرأيه في ذلك بقوله :

« أرى ان تحريق مكتبة الاسكندرية ليس من شأنه أن يوقف دورة الفلك ولا أن يغير في حياة العرب قليلا ولا كثيرا » وقد تصدى له أحمد زكي (باشا) وغيره من الباحثين . وقد وجد الكتاب الغربيين أنفسهم من أنصفوا العرب في هذه القضية وفي مقدمتهم العلامة جيبون في كتابه : سقوط الدولة الرومانية حيث قال : ان هذه الفرية لفقها على المسلمين « أبو الفرج العبري » في كتابه مختصر الدول وقد ترجم الى اللغة اللاتينية فتلقفها أهل الغرض من الفرنجة فأذاعوها » . وأشار جيبون الى براءة عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص من التآمر على حرق مكتبة الاسكندرية وأثبت أن الذي أحرقها انما هم الرومان بمراكبهم الحربية في حصارها لجيوش كليوباترة بقيادة يوليوس قيصر .

قال جيبون : تأكدت أنها أحرقت قبل الاسلام بمائتي عام ، وأن أبو الفرج بن العبري لفق هذه الفرية

بعد الاسلام بنحو ستمائة سنة ، ولم يتعرض قبل أبى الفرج مؤرخ واحد لذلك ، حتى أن بطريرك الاسكندرية (افتيكيوس) مع توســعه فى الــكلام على اســتيلاء المسلمين على ثغر مصر لم يذكر كلمة واحدة عن حريق عمرو بن العاص لهذه الخزانة .

وكان الرحالة البغدادى قد زار مصر فى عهد الملك الكامل فنقل هذه التهمة ، وقد طبعت رحلته فى اكسفورد سنة ١٨٠٠ وهى محشوة بالخرافات والاكاذيب ، وقال لطفى جمعة انه كان أفاقيا (Encnturier) فظنه ينتمى الى حلب ويسمونه « التيس الملتحى » . وقد نقض هذه الرواية واشنطون ارفنج ، وفليه وغيرهم كما نقضــوا ارنست رينان الذى قال فى خطاب له فى المجمع العلمى الفرنسى : انه لا يعتقد ان عمر هو الذى أحرق خزانة الاسكندرية لأنها احرقت قبله بزمن طويل .

قال رينان : ان هذه الدعوى من الأغلاط التاريخية العظيمة اذ لم يكن لهذه الخزانة التى قيل انه كان بهــا نحو ٧٠٠ الف مجلد عندما فتح العرب مدينة الاسكندرية عام ٦٤٠ ميلادية فعلى عهد البطالسة قبل الفتح العربى اصبح أمر هذه الخزانة الى ضعف ، قسمت شطرين ، جعل كل شطر منها فى مكان مستقل فحرق الأول قضــاء وقدرا عندما استولى الامبراطور الرومانى يوليوس قيصر على الاسكندرية عام ٤٧ قبل المسيح ، وذهب القســم الثانى ، وكان جعل فى معبد سيرابيس على يد الأسقف توفيل بعد هذا التاريخ بأربعمائة سنة بنــاء على الأمر الصادر من الامبراطور الرومانى ثيودسيوس (٣٧٩ — ٣١٥) بالقضاء على جميع المعابد الوثنية » .

وكتب العلامة البر ســيم (١٤ اب ١٩٠٨) فى خطاب الى الأستاذ كرد على « لشد ما استحكم الوهم التاريخى زمنا بشأن عمر وخزانة الاسكندرية ، أما أنا فكنت من العــاملين على مكافحة هــذا الوهم ، واثبت بالبراهين التى وصلت يدى اليها ، ما أعتقــد أنه هو الحقيقة » .

وفى كتابه « Lelinre » قال : « ولم تحرق خزانة الاسكندرية التى قال بعضهم انه كان فيها سبعمائة الف مجلــد على يد الامام عمــر ولا بأمره كما جاء فى بعض المصادر ، فان هذه الدعوة من الأغلاط التاريخية العظيمة اذ لم يكن أثر لهذه الخزانة عنــدما فتحت العرب مدينة الاسكندرية سنة ٦٤٠ ، وعلى عهد البطالسة أصبح أمر الخزانة الى ضعف فقسمت شــطرين جعل كل منهما فى مكان مستقل فحرق القسم الأول قضــاء وقدرا عندما استولى يوليوس قيصر على الاسكندرية سنة ٤٧ قبــل الميلاد ، وذهب القسم الثــانى وكان وضــعه فى معبد (سيرابيس) على يد الأسقف نيوفيل بعد ذلك التاريخ بأربعمــائة سنة عقيب الأمر الصــادر عن ثيودسيوس بالقضاء على جميع المعابد الوثنية وجعل عاليها سافلها وقد شهد بذلك (١) فوت واهلرير فى كتابهما خيــانات الأوربيين (٢) مســبرك : كتابه الاذاعات الــكاذبة (٣) ستيفونس ــ فى كتابه التفكير والأديان (٤) غريفتنى من علماء الشرقيات فى ايطاليا (٥) بونه مورى : الاســلام والنصرانية فى افريقيا . وقد حاول بعض البــاحثين عقد المقارنة بين هذه الفريه المنقوضة على العرب والمسلمين وبين الحقيقة التاريخية التى لا تقبل النقض وهى حرق الكردينال (كســيمنس) لكتب العرب والمســلمين فى ســاحات غرناطة (فى القرن الخــامس عشر) وكانت ثمانين الف مجلد ، أما الكتاب الأوربيين فيحاولون تبرئة الكردينال ويقللون من شأن خزائن الكتب التى أحرقت ويقول : جورج سارطون فى هذا الصدد :

« لابد لاثبــات ان العرب حرقوا هذه المــكتبة فى القرن السابع الميلادى من اثبات أولا أنها كانت موجودة فى هذا القرن ، وهذا الموجود فيه شك عظيم ، فأغلب الظن أن المسيحيين اتلفوا على الأقل جانبا كبيرا منها قبل أن يحتلها المسلمون وقبل ذلك بقرون ، فعلى أحســن فرض لا يكون أتى عليها القرن السابع يوم غزاها العرب الا وهى صغيرة ضئيلة حقيرة بالنسبة لمــا كانت عليه فى غابر القرون » .

* * *

شهادة الدكتور غريفتنى استاذ جامعة فلورنسا

« أسس بطليموس الأول مكتبته فى الاســكندرية وخلفه ابنه بطلموس فلادلفوس بعده فوسع دائرة هذه المــكتبة واكمل نواقصها ، ووكل أمر ادارتها الى أحــد فلاسفة اليونان المسمى « ديمترى الفاليرى » وبقيت هذه المكتبة الى عام ٤٨ قبل الميلاد المسيحى فأحرقها يوليوس قيصر ، بايعــاز الأسقف (ثيوفيلوس) عمــلا بأمر الامبراطور (ثيودسيوس) فلما جاء الفتح الاسلامى لم يكن فى الاسكندرية مكتبة تسمى مكتبة الاسكندرية ومن راجع المعاجم الأثرية الخاصة بتاريخ هــذه المدينة فى دورى البطالسة والرومان تحقق صــدق هذا القول . وبعد أن فتح عمرو بن العاص الاسكندرية (٢١ للهجرة الموافقة ٦٤١ م) مرت ستة قرون كاملة لم يســمع فى خلالهــا قول لمؤرخ مسلم أو غير مسلم أن يذكر أن عمرو ابن العاص أحرق مكتبة فى الاسكندرية .

ثم انه بعد ستة قرون من فتح الاسكندرية ، جاء عبد اللطيف البغدادى الى مصر ، وكتب فى آثارها تاريخه المسمى (الافادة والاعتبار) وقال فيه : انه شاهد عمود السوارى ومن حوله أعمدة اخرى .. الى ان قال : « أرى انه هو الرواق الذى كان يدرس فيه ارسطو طاليس ، وانه دار العلم التى بناها الاسكندر وفيها كانت خزانة الكتب التى حرقها عمرو بن العاص باذن عمر بن لخطاب » .

وكانت وفاة البغدادى سنة ٦٢٩ وبعد نحو عشرين سنة قام المؤرخ (على بن يوسف القفطى) المتوفى سنة ٦٤٦ للهجرة فوضع كتابه المسمى (تاريخ الحكماء) فذكر عبارة البغدادى التى زعم فيها أن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الاسكندرية باذن الخليفة عمر ، لكن عبارة البغدادى كانت كسدى الثوب ، فجاء القفطى وجعل لها لحمة وذيولا وأهدابا . فذكر انه كان بعد عمرو ابن العاص فى الاسكندرية أسقف اسمه «يحيى النحوى» وانه كان نصرانيا ثم لما قرا كتب الحكمة ارتد وانكر التثليث ، وانه صار صديقا لعمرو وطلب منه الكتب المخزونة فى مكتبة الاسكندرية لينتفع بها فاستشار عمرو الخليفة فى امر المكتبة فأمره باحراقها .

وجاء بعد ذلك مؤرخون آخرون فكان بعضهم يقتبس عبارة البغدادى كالمقريزى او عبارة القفطى كابن العبرى . وأن تهمة عمرو باحراق مكتبة الاسكندرية يناقضها ما اشتهر به من سياسة التساهل التى جرى عليها وشهد له بها اشهر المؤرخين المسيحيين الذين كانوا فى عهده كيوحنا النيقيوسى فى كتابه (تاريخ مصر) الذى وضعه باللغة الحبشية القديمة وعاش فى خلال ستة القرون بين فتح الاسكندرية (٢١ هـ) وبين زمن عبد اللطيف البغدادى (٦٢٩ هـ) مؤرخون كثيرون مسلمين وغير مسلمين ، وما أحد منهم ذكر التهمة ولا اشار اليها فى مصنفه ، فمن المؤرخين المسلمين : ابن عبد الحكم ، ابن قتيبة ، البلاذرى ، اليعقوبى ، الطبرى محمد بن موسى الكندى ، الصيرفى ، محمد بن يوسف الكندى ، أبو عمر الكندى ، عمر الكندى ، ابن ذولاق المسيحى ، القضائى ، ابن الصيرفى ، سعيد بن البطريق والمسعودى ، أبو صلاح الأرمنى ، ابن مماتى ، ياقوت الحموى ، أبوالفرج الأصفهانى ، الواقدى ، عماد الدين الأصفهانى ، محمد اسحق النديم .

أما غير المسلمين فهم يونان وأقباط وسريان وارمن ويهود وافرنج ، وكل هؤلاء عاشوا قبل عبد اللطيف البغدادى ولم يذكروا فى مؤلفاتهم شيئا عن حريق مكتبة الاسكندرية باشارة الخليفة عمر . فمن هذا جميعه استنتج المستشرقون ان هذه الرواية لا تقوم على اساس تاريخى . أما يحيى وصداقته لعمرو فهى باطلة ، لأن يحيى المذكور ويسميه اليونان (حنا فيلوبولوس) فقد كان قبل الفتح الاسلامى بقرن ، وهذا ما حققه المستشرق الدكتور يوسف فورلانى أستاذ اللغة العربية فى المدرسة الطليانية ببولاق ، ولهذا نقول انه لا يمكن ان يكون (يوحنا) عاش كثيرا بعد سنة ٥٥٠ للميلاد . وقد كان فى هذا السن شيخا كبيرا فكيف يعيش الى فتح الاسكندرية الواقع فى ٦٤١ م وبين الحادثيين (٩١ سنة) .. وربما كان بعض الأدلاء من العامة قد أفضى الى عبد اللطيف البغدادى بهذه العبارات فى زيارته للديار المصرية فتلقفها منه دون تدقيق أو تمحيص . وقد جاز على البغدادى — على علمه وفضله — ما ليس صحيحا من الأخبار كزعمه أن ارسطو كان يدرس فى رواق الاسكندرية .

* * *

الرد على جرجى زيدان

كتب العلامة شيلى النعمانى يرد على خطأ جرجى زيدان فى اتهامه للعرب بحرق مكتبة الاسكندرية قال : أن فن التاريخ له أصول ، وما لم تكن الرواية مطابقة لهذه الأصول الفنية فلا نلتفت اليها اصلا . منها أن الناقل للرواية لابد أن تكون شهد الواقعة فان لم يشهد فليبين سند الرواية ومصدرها حتى تتصل الرواية الى من شهدها بنفسه ، ومنها أن يكون رجال السند معروفين بصدقهم وديانتهم ، ومنها لا تكون الرواية تخالف الدراية ومجارى الأحوال ، ولذلك اهتم مؤرخى الاسلام كلها او اكثرها كتاريخ البخارى وسيره والبحث عن سيرهم واحوالهم وديانتهم ومحلهم من الصدق فدونوا كتب أسماء الرجال وكابدوا فى ذلك محنة يضيق عنها النطاق البشرى فعملوا كتبا غير محصورة منها الكامل لابن عدى والثقاة لابن حيان وتهذيب الكمال للعزى وتهذيب التهذيب لابن حجر وطبقات الصحابة لابن سعد وتهذيب الأسماء للنووى وميزان الاعتدال الذهبى ولسان الميزان لابن حجر وتجد كتب القدماء من الاسلام كلها او اكثرها كتاريخ البخارى وسيره ابن اسحق وتاريخ الطبرى وابن قتيبة وغيره مسلسلة الاسناد مبينة الأسماء لتمكين نقد الرواية ومعرفة جيدها من زيفها ، واول شىء يهمنا فى هذا البحث أن نرى : هل ذكر القفطى والبغدادى هذه الرواية مسندة وذكرا مصدر الرواية واسماء رواتها ام لا . وانك تعلم أن البغدادى والقفطى من رجال القرن السادس والسابع فأى عبرة

برواية تتعلق بالقرن الأول يذكرانها من غير سـند ولا احالة على كتـاب ، أما كتب القدماء الموثوق بها فليس لهـذه الرواية فيها أثر ولا عين ، هـذا تاريخ الطبرى واليعقوبى والمعـارف لابن قتيبة والأخبـار الطوال للدينورى وفتوح البلدان للبلازرى والتـاريخ الصغير للبخارى وثقاة ابن حيـان والطبقات لابن سـعد ، قد تصفحناها وكررنا النظرة فيها ، ومع ان فتح الاسكندرية مذكور فيها بقضـها وقضيضها ، فليس لحريق الخزانة فيهـا ذكر . وعلاوة على ذلك فان فى فتح مصر كتبـا مختصـة بذلك مثل خطط مصر للكندى وكشف المماليك لابن شاهين وتاريخ مصر لعبد الرحمن الصوفى ، وتاريخ مصر لابن بركات النحوى وتاريخ مصر لمحمد بن عبد الله وغيرها مما ذكرها صاحب كشف الظنون والمقريزى جمع واوعى كل ذلك ، ولم يترك رواية ولا خبرا يتعلق بمصر الا وذكره عند تفصيل الفتح ولم يذكر هذه الواقعة عند ذكر فتح الاسكندرية .

ان مسألة احتراق خزانة الاسكندرية موضوع مهم عند أهل اوروبا ، وقد أطال البحث فيه اثباتا ونفيـا ، وممن الم بهذا البحث اجمـالا وتفصيلا المعلم (وايت) والمعـلم (دساس) الفرنسى فى ترجمة كتـاب الافادة والاعتبار و (واشنكين أدونك) ودربير الأمريكى صاحب كتاب الجدل بين العلم والدين وكرجين وسيديو الفاضل الشهير الفرنسى فى تاريخ الاسلام والمعلم رينان الفيلسوف الفرنسى فى خطبته الاسـلام والعلم واتركلين والمعـلم كريل الألمـانى رسالة مستقلة فى هـذا البحث تقدمها فى المؤتمر الشرقى الذى انعقد سنة ١٩٢٨ أورد فيهـا كل ما كتب الباحثون فى هذا البحث نفيا واثباتا وقد طالعت كل هذه المباحثات والمقالات وعملت رسالة فى اللسـان الأردى وترجمت الى الانكليزية ثم الى العربية ترجمهـا احد أهل الشام وطبع شطر منها فى مجلة ثمرات الفنون ومجلة المقتبس .

والحاصل ان محققى أهل أوربا قضوا بأن الواقعة غير ثابتة أصلا منهم (جبين) — يقصد جيبون — المؤرخ الشهير الانجليزى ودربير الأمريكى وسـيديو الفرنسى وكريل الالمانى والمعلم رينان الفرنسى ، عمدتهم فى انكار ذلك أمران (الاول) أن الواقعة ليس لها عين ولا أثر فى كتب التاريخ الموثوق بها كالطبرى وابن الأثير والبلاذرى وغيرهم ممـا مر ذكرهم ، اول من ذكرها عبـد اللطيف البغـدادى والقفطى وهما من رجال القرن السـادس والسابع ، ولم يذكرا مصدرا للرواية ولا سندا (الثانى) ان الخـزانة كانت ضاعت قبل الاسـلام ، اثبتوا ذلك بدلائل لا يمكن انكارها .

٨ — مناقشة الكتب والمؤلفات

١ — آثار جرجى زيدان التاريخية
(تاريخ العرب قبل الاسلام ، تاريخ التمدن الاسلامى)

يعـد جرجى زيدان احد الكتـاب الذين تابعـوا المستشرقين وكتـاب الغرب فى الغض من شأن العرب والاسلام والتاريخ العربى الاسلامى والحضارة الاسلامية وقد وجهت اليه نقدات كثيرة وفى مقدمة منذ تناولوا آثاره العلامة شبلى النعمانى يقول :

١ — تاريخ العرب قبل الاسلام

كان هذا الفاضل يؤلف الكتب الروائية ويأتى فيها بالممكن والمستحيل والمستملح والمستنكر ، فكنا لانتعرض لها بمسـخ لعلمنا أن الذى قاده الى هـذه المواقف هو استرسال الخيال ، وهو قد يفضى بصاحبه فى النثر الى ما يقضى به فى الشعر فيكون أعذبه أكذبه . على أن ما من كتـاب وضعه بشر الا وكان فيـه لهوى النفس والسـخائم الدينية والعصبية الجنسـية بله والخطأ والغفلة أثر أى أثر ، الا ما شـذ وندر ، كتب صاحب تاريخ العرب قبل الاسلام تمهيدا فى مصادر تاريخ العرب قبل الاسـلام وهى العربية وغير العربية من اليونانية والرومانية والنقوش الأثرية ، وقد تحـامل على العرب ما شاء ان يتحـامل مما يظن معه قارئه ابتداء أن أكـثر مصادر الكتاب أثرية أو يونانية قديمة او أوربية حديثة ، فاذا هو قرأ الكتـاب وجد نحو أربعة أخماسـه غربى المصدر ، وأن لا ذكر لهذه الكتب والمعاجم الا نزرا يسيرا فى ذيل الكتاب .

الأمور التى تؤخذ على المؤلف : (١) انكاره بعض الحقـائق التاريخية البديهة فى موضـع وتشبثه بتحقيق بعض الظنون فى موضع آخر اعتمادا على أوهام وتخيلات قامت فى ذهنه . ومما يؤخذ على المؤلف جسارته فى وضع الاسماء والتقسيمات التاريخية مع ضعف الاستظهـار كتقسيم أدوار تاريخ العرب وتسميه الأمة التى سـماها استرابون اليونانى جرهنين بالتربيين نسـبة الى قرية وهى اسم اليمامة قديما .

والأمر الرابع فى الأمور التى تؤخذ عليه إرتيـاب القارىء فى تهجينه أخبار العرب فى حوادث الفخر والغلبة وتصديقه خرافات استرابون وهيردوت مع أنهما لم يدخلا بلاد العرب ولم يرياها . والأمر الخامس : سوء التعبير من الوجهـة الدينية فى عبارات الكتـاب كقوله « أتدم

المصادر العربية المعروفة عن تاريخ العرب واقربها الى الصحة : القرآن » .

* * *

الأمر السادس : من الأمور التى تؤخذ على المؤلف أنه أغفل مدة حكم الفرس فى اليمن بعد ذى يزن ، والأمر السابع كثرة شكه وتردده وتناقضه فى أكثر الحوادث حتى لا يرى المطلع على كتابه خبرا مبرهنا على صحته بدليل مقنع ، يظهر ذلك ظهورا بينا فى آرائه الخاصة واجتهاداته التاريخية . الأمر الثامن تخريجه الاعلام تخريجا غريبا ، قال أن امرىء القيس يظنه محرفا عن مرقس ، والأمر التاسع اختصاره التاريخ جدا وهو احد العيوب التى عليها على مؤرخى العرب فلم يسلم هو منها .

٢ — كتاب « تاريخ التمدن الاسلامى »

من احدى عجائب الدهر أن رجلا من رجال العصر (جورجى زيدان) يؤلف فى تاريخ تمدن الاسلام كتابا يرتكب فيه تحريف الكلم وتمويه الباطل ، وقلب الحكاية، والخيانة فى النقل ، وتعمد الكذب ، ما يفوق الحد ويتجاوز النهاية ، وانتشر هذا الكتاب فى مصر وهى غرة البلاد وقبة الاسلام ومغرس العلوم ، ثم يزداد انتشارا فى العرب والعجم ، ومع هذا كله لا يفطن أحد لدسائسه لقد تدرج الى ذلك شيئا فشيئا ، فانه أصدر الجزء الثانى من هذا الكتاب وذكر فيه مثالب العرب دسيسة يتطلع بها على احساس الأمة وعواطفها ، ولما لم يتنبه لذلك احد ارخى العنان ، وأسرف فى النكاية فى العرب عموما وخلفاء بنى أمية خصوصا .

انك قد نوهت بى فى كتابك وجعلتنى موضع الثقة منك واستشهدت بأقوالى وبنصوصى ، ووصفتنى بكونى من أشهر علماء الهند ، مع أنى أتلهم بضاعة ، ولكن مع كل ذلك هل كنت أرضى أن تمدحنى وتهجو العرب ، فتجعلهم عرضا لسهامك ودريه لرمحك ، وهل كنت أرضى بأن تجعل بنى أمية لكونهم عربا بحتا من أشر خلق الله وأسوئهم ،

وهل كنت أرضى أن تنسب حريق الخزانة الاسكندرية الى عمر بن الخطاب الذى شهدت بعدله الأرض والسماء ، وهل كنت أرضى بأن تمدح بنى العباس فتعد من مفاخرهم أنهم نزلوا العرب منزلة القلب ، حتى ضرب بذلك المثل ، وأن المنصور بنى القبة الخضراء ارغاما للكعبة ، وقطع الميرة عن الحرمين استهانة بهما ، وأن المأمون كان ينكر نزول القرآن ، وأن المعتصم بالله أنشأ كعبة فى سامرا وجعل لها مطافا واتخذ منى وعرفات .

وهب أنى افتخرت كصنيع بعض الأجانب بأنى فلسفى بحت عادم لكل عاطفة ووجدان ، فهل كنت أرضى أن تشوه وجه التاريخ وتدفع الحق ، وتروج الكذب وتفسد الرواية وتقلب الحقيقة وتلفق التهم ، وتعود الناس بالخرافة ، أن فى الناس بقايا ، وأن الحق لا يعدم أنصارا ، أن الغاية التى تؤخاها المؤلف ليست الا تحقير الأمة العربية ، وابداء مساويها ، ولكن لما كان يخاف ثورة الفتنة ، غير مجرى القول ، ولبس الباطل بالحق ، وبيان ذلك أنه جعل لعصر الاسلام ثلاثة أدوار : دور الخلفاء الراشدين ، ودور بنى أمية ، ودور بنى العباس، فمدح الدور الأول وكذلك الثالث ، ولما غر الناس بمدحه الخلفاء الراشدين ، وبمدحه لبنى العباس وهم أبناء عم النبى ، وبهم فخارنا فى بث التمدن وأبهة الملك ، ورأى أن بنى أمية ، ليست لهم وجهة دينية ، فلا ناصر لهم ، والحماية لهم ، ولكن كل ذنبهم « أنهم العرب » على صرافتهم ما شابتهم العجمة مطلقا . والمؤلف على انفاق باطلة أطوارا شتى ، منها تعمد الكذب وتعميمة لواقعة جزئية والخيانة فى النقل وتحريف الكلم عن موضعه . ومنها الاستشهاد بمصادر غير موثوقة ، مثل كتب المحاضرات والفكاهات .

ولا مدافع عنهم ، تفرغ لهم ، وحمل عليهم حملة شنعاء، فما ترك سيئة الا وعزاها اليهم وما خلى حسنة الا وابتزها عنهم ، ثم لو كان هذا لأجل انهم من آل مروان أو لكونهم من سلالة أمية لكنا فى غنى عن الذب عنهم ،

وغير خاف على من له المام بتاريخ الفرس والعرب أن الفرس كانت قبل الاسلام تحتقر العرب ، ثم جاءت الشريعة الاسلامية ماحية لكل فخر ونخوة . وقال الرسول فى خطبة الوداع : ان لا فضل للعربى على العجمى ، ولا للعجمى على العربى ، حينئذ ارتفع التمايز وتساوى الناس ، ولكن مع ذلك بقيت فى بعض النفوس من كلا الطرفين حزازات كامنة فى صدورهم سببا لحدوث حزبين متعاملين يسمى أحدهما « الشعوبية » وهى التى تحتقر العرب وترميه بكل معيبة ، حتى أن أبا عبيدة صنف كتبا عديدة يطعن فيها على أنساب كل قبيلة من قبائل العرب ، والثانى المتعصبون للعرب .

وقد عقد العلامة « ابن عبد ربه » فى كتابه « العقد الفريد » بابا فى حجج كان الطرفين وأقوالهما . ومعظم ما نقله المؤلف (جرجى زيدان) فى اثبات عصبية العرب هى أقوال ذكرها صاحب العقد فى هذا الباب واذا صنفت

الكتب يظهر لك أن الأقوال التى نسبها الى العرب عموما انما هى أقوال شرذمة خاصة موسومةبأصحاب العصبية وصاحب العقد حينما ذكر هذه الأقوال صدرها بقوله « قال أصحاب العصبية من العرب » وأنت تعلم أن هذه العصبية ليست كافة العرب ولا أكثرها ، بل ولا عشر معاشرها ، ثم أن المؤلف ما اقتنع بذلك بل ربما نسب قول رجل معين معلوم الاسم الى العرب عامة .

والمقصد الذى جعله المؤلف نصب عينه ومرمى غايته هو أن الأمة العربية اذا بقيت على صرافتها فهى جامعة لجميع أشتات الشر ، ولكن لما كان لا يقدر على أظهار هذا المقصد تصريحا احتال فى ذلك ففحص المذهب وجعل الكلام طيب الظاهر ، بأن قسم عصر الاسلام الى ثلاثة أدوار ، فمدح سياسة الخلفاء الراشدين وقال بعد مدحها « على أن سياسة الراشدين ليست على الاجمال مما يلائم طبيعة العمران أو تقتضيه سياسة الملك وانما هى خلافة دينية توفقت الى رجال يندر اجتماعهم فى عصر ، فأهل العلم بالعمران لا يرون هذه السياسة تصلح لتدبير الممالك فى غير ذلك العصر العجيب وأن انقلاب تلك الخلافة الدينية الى الملك السياسى لم يكن منه بد » فأثبت بذلك أن سياسة الخلفاء الراشدين ليست فيها أسوة للناس ، وأنها من مستثنيات الطبيعة، أما دور العباسيين فمدحه ، لا لأجل أنها دولة عربية ، بل لكونها فارسية مادية وقواما ، ومؤتلفا ونظاما وصرح بذلك فقال « دعونا هذا العصر فارسيا ، مع أنه داخل فى عصر الدولة العباسية لأن على كونها « عربية » من حيث خلفائها ولغتها وديانتها فهى فارسية من حيث سياستها وادارتها ، لأن الفرس نصروها وأيدوها ثم هم نظموا حكومتها ومنهم وزراءها وأمراءها وكتابها وحجابها .

ثم أشار فى غير موضع الى أن الدول العربية الساذجة انما هى دول بنى أمية ، فقال : « وجملة القول أن الدولة الأموية دول عربية .. » وظل العرب أيام بنى أمية على بدواتهم وجفائهم ، ولما أثبت أن علافة الراشدين لم تكن تلائم النظام الطبيعى ، وأن دول بنى العباس دولة فارسية وأن الباقية على صرافتها هى الدولة الأموية ، أخذ يعدد مثالب بنى أمية تحت عنوانات مستقلة منها :

١ ـ الاستخفاف بالدين وأهله . ٢ ـ الاستهانة بالقرآن والحرمين . ٣ ـ الفتك والبطش . ٤ ـ قتل الأطفال . ٥ ـ خزانة الرءوس ، وأتى فى مطاوى هذه العنوانات من الأفك والأختلاق والتحريف والتبديل بما تجاوز الحد وخرج عن طور القياس .

وبالجملة فان المؤلف قد تعمد التحريف والكذب لأجل تحقير العرب الكتاب .

نقد تاريخ آداب اللغة العربية للأستاذ احمد السكندرى

المؤلف كثير النقل من مستعربى الافرنج من غير تمحيص لدعواهم ، فيه كثير من صور فلاسفة اليونان ونقله السريان وصور خيالية لخرافات أهل القرون الوسطى من الافرنج وأهم الأمور التى تؤخذ على الكتاب ١ ـ الخطأ فى الحكم الفنى ، أى أنه يقرر غير الحقيقة العلمية سواء كان ذلك بقصد من المؤلف أم بغير قصد . ٢ ـ الخطأ فى الاستنتاج ، وهو ما يعذر فيه المؤلف لأنه اجتهاد من عند نفسه ، فان أصاب فله الشكر وان أخطأ فمن الذى ماساء قط ٣ ـ الدعوى بلا دليل وهو مايقرره المؤلف من غير التدليل عليه وقد يكون فى ذاته صحيحا ، ولكن فى سوقه ساذجا مجالا للشك . ٤ ـ الخطأ فى النقل فى عبارات المؤلفين بقصد اختصارها أو من يشرعه فى الجمع وقلة مراجعة الأصول . ٥ ـ قلة تحرى الحقيقة بمراجعة الكتب المعتبرة ، والتواريخ الصادقة ، ووزن كل عبارة بميزان العقل والانصاف وقياس الأمور بأشباهها بل كثيرا ما تروج عند المؤلف أقوال الخصوم من خصومهم وأقوال الكتب الموضوعة لأخبار المجان أو لذكر عجائب الأمور وغرائبها . ٦ ـ الاستدلال بجزئية واحدة على الأمر الكلى وهو كثير الحصول فى جميع كتب المؤلف. ٧ ـ تقليد المستشرقين فى مزاعمهم أو نقلها عنهم عن غير تمحيص . ٨ ـ اضطراب المباحث وصعوبة استخراج فائدة منها لاختلال عبارتها أو لعدم صفاء الموضوع للمؤلف .

٣ ـ ونقد « تاريخ التمدن الاسلامى » ـ العلامة رفيق العظم .

١ ـ أخذك بعض الأحاديث الضعيفة معتمدا منها على ما نقله المؤرخون وقلما تعتمد على ما ينقلون من الحديث بغير سند صحيح لتفشى الموضوعات فى كتبهم لندرة من اشتغل منهم برواية الحديث ، على أن عذرك فى هذا واضح ، وهو أنك مؤرخ وأكثر ما تعتمد على كتب المؤرخين واللوم من سبق فى نقل الضعيف أو الموضوع فى الحديث .

٢ ـ اجمالك فى بعض المواضع التى تقتضى البسط وأهمها عند كلامك على العلوم التى اشتغل بها العرب فى أبان مدنيتهم وما أخذوه منها عن غيرهم ، فقد كان بودى أن تتبسط فى هذا الباب بأكثر مما تكلمت عليه مبينا ما كان لهم من اليد البيضاء فى ترقى العلم وحل بعض

مسائله التى اليهم مرجع حلها ولهم الفضل فى السبق اليها على أسلوب مطول شاف كما فعل المؤرخ سديو عند كلامه على مدنية العرب ، على انك تفضله بانك تعزو الى مآخذك من كتب العرب وانه لا يعزو فانت تفضله فى هذا .

٣ — اكثارك من جمع مثالب الأمويين ودولتهم العربية لا سيما فى الجزء الرابع من التاريخ ، حيث يرى القارىء أن القسم المختص منه يبنى أمية عار عن مآثر القوم الا فيما لا يشكرون عليه كأنما هو خاص بمثالبهم فقط ، على أنه اكثر ما جاء فى هذا البـاب ، وان كانت التبعة فى نقله على من سلف من نقله المؤرخين لا عليك فهو أن صـح كله فليس من العدل أن ننسى أن الدولة بدوية لا تخلو من شائبة الغلظة ، وان الخلق الطبيعى فى الانسان لايؤاخذ عليه بقدر مايؤاخذ على الخلق المكتسب فغلو بنى امية بالعصبية للعربية مثلا ، انمـا هو خلق طبيعى فيهم متأصل فى العرب بتأصـلهم فى البداوة ولم يستأصل الاسـلام جذوره من نفوس القوم الا بعـد اختلاطهم بالأمم اختلاط مصاهرة ونسـب . يضاف الى هذا أن الدولة يومئذ كانت دولة فتح وتأسـيس ، وان آرائك فى بنى امية مهدت للظن بأنك منحاز لغير العرب ، لذا أطربت الدولة العباسية لأنها أعجمية أكثر منها عربية وذهبت الى أن الفضل فى رقيها العلمى والمدنى راجع الى غير العرب ، وأمثال هذه الشوائب تأتى متفرقة فى تاريخ الدول والشعوب التى يتخلله كثير من المآثر المشـكورة والأعمال الجليلة .

* * *

٢ — نقد كتاب تاريخ العرب « فيليب حتى »

ما يزال كتاب تاريخ « العرب » الدكتور فيليب حتى مرجعا من المراجع الهـامة التى يعتمد عليها البـاحثون وأساتذة الجامعـات والكتاب ، كمصدر سهل ميسـور بالرغم مما يحمل فى تضاعيفه من أخطاء وشبهات ، وقد حاول الدكتور عبد العزيز الدورى مواجهة انحرافات هذا الكتاب فى دراسة شاملة فأشار الى أن تسمية مؤلفة له (تاريخ العرب) تشعر وجهة نظر مؤلفه الخاصة ، فلم يسمه تاريخ الاسلام مثلا ، وهى تسمية تبـاين الكتاب فى استعمالها بحسب تقديرهم لطبيعة هذا التاريخ ، ومع أن نظرته لدور العرب الحضارى فيها مجال لاعادة النظر الا أنه يشعرك بأن العرب هم محور هذا التاريخ وقاعدته أما مادة الكتاب فلا تشعر بوجهة نظر تاريخية ، ولكنـا نشعر أن مؤلفه وقع تحت تأثير مصادره أكثر مما نشعر بوجهة له ، ونحن نرى فى بعض نواحى الكتاب تلخيصا لآراء حديثة لبعض المستشرقين أوردها لبعضهم تبين أنها واهية . لم يحاول المؤلف وضع مفهوم جديد للفتوحات ولم يخرج عن هيكل نظرية « كايتانى » رغم ما تعرضت له من هزات .

وتحدث المؤلف عن مناحى الحياة الفكرية فى العصر الأموى وردد مع غيره أن العرب الفـاتحين لم يكن لهم « اى ثقافة أو تراث فكرى » وأنهم تعلقوا بحضارة الأمم التى غلبوها فنقلوا عنها ، وكانوا مهرة فى النقل واظهروا قابلية للغذاء العقلى . ويرى أن شجرة الفكر (العربى) التى ازدهرت فى العصر العبـاسى تأصلت جذورها فى ثقافات العهود السابقة فى الاغريق والفرس واليونان . ونحن نعرف النشاط الفكرى فى العصر الأموى كما بان فى عرف المؤلف نفسه — فى الدراسات العربية والاسلامية وظهـر فى مراكز عربية صرفه وهى المدينة والـكوفة والبصرة ، وأن الخطوط العامة لهذه الدراسات وضعت فى العصر الأموى ، أما الأخذ عن الحضـارات القديمة فكان فى حقل الادارة (خاصـة الضرائب) وان تسربت بعض الآراء فقد كان ذلك عرضـا وبطريق الاتصـال الشفوى . ولم يحصل الأخذ المنظم الا فى زمن العباسيين وهذا يصـدق على « علوم الأوائل » ولا يمكن تعميمه على نواحى الفكر المختلفة .

ويتابع (فيليب حتى) نفس الوجهة حين يتحدث عن « الأندلس » فهو يرى أن سبب تأخر اسـبانيا فى نشوء فقه اللغة العربية والعلوم الدينية وكتابة التاريخ « لأنه لم يكن عند الأسـبان أهل البلاد من العلم والفن ما يفيـدون به العرب بخلاف ما كانت عليه الحـالة فى الشام والعراق حين دخلهما الفاتحون » ، ونسى المؤلف أن مراكز الدراسات العربية الاسـلامية كانت فى المدن العربية الخالصـة وليس فى المـدن القديمة كدمشـق والاسـكندرية ، وانها كانت على يد العرب ولم يشارك فيها غير العرب جديا الا بعد أن تعربوا . وبعد هـذا يحق لنا أن نتساءل : هل أن العرب خرجوا من الجزيرة وهم دون أى ثقافة أو تراث فكرى ؟ وماذا حـل بعرب المدن فى جنوب الجزيرة وشـمالها . ان النقوش تكشف لنا تدريجيا عن نواح حضارية كانت مجهولة لدينا ، كما اننا تحت تأثير مصـادره — لم نعن بدراسـة أثر عرب الجنوب فى الحضارة العربية ، واذا كانت معلوماتنا الآن محدودة فان هذا لا يجيز لنا الحكم السلبى .

* * *

ويذهب (فيليب حتى) الى أن لكتابه التاريخ عند العرب أصول شيدت على أسس الطريقة الفارسية . ويقول الدكتور الدورى : وقد تبين لى من دراسة نشأة علم التاريخ عن العرب أن هذا العلم عربى النشأة والأصول ، وأن خطوطه الأساسية تحددت قبل الترجمة عن الفارسية ، ولذا فان قوله بأن قول فيليب حتى بأن « المثال » الذى احتذاه المؤلفون فارسيا فى الأصل على طريقة (خد اينامه) مردود ، لأننا نعرف أن كتابة التاريخ على أساس السير وعلى أساس الأسر الحاكمة عرف قبل ترجمة « الخد اينامه » وقد بدأ علم التاريخ عند العرب من أصول تتصل بدراسة الحديث (المغازى) من جهة ، وبمتابعة الاهتمام الموروث من الجاهلية بالأيام كما ظهر لدى الأخباريين .

* * *

١ — « الدين والضمير »

وفى كتاب الدين والضمير يرى مؤلفه : أن الدين للعوام ، ولا لزوم له عند المثقفين ، ويرى أن الانسان متى عنى باصلاح ضميره فلا عليه بعد ذلك ان هو أهمل العبادات اذ هى فى نظره الأشكال والرسوم ، وهناك من يحاول أن يطبع الاسلام بطابع البوذية ويتخذ من طابع الروحية الخالص عند تولستوى أو غاندى أو من بعض عبارات السيد المسيح السمحة دعوة الى شجب جزئية من جزئيات الاسلام وسبيلا الى تجريد الاسلام من مقوم من مقوماته كالطعن فى آيات الجهاد ، أو التشريع أو تعطيلها ، أو اخضاع القصص فى القرآن للفن القصصى واتهامه بالاضطراب التاريخى ، أو وصف الاسلام بأنه دين روحى لا صلة له بالمجتمع أو المدنية أو الفكر . وقد ظهرت طوائف من هؤلاء فى تاريخ الاسلام الطويل أطلق عليهم لقب « المعطلة » .

ولم تبق هذه الشبهات قائمة ، بدون تفنيد أو كشف لزيفها .

فى مسألة الدين والضمير يقول « عبد المنعم خلاف » : شاعت فى هذا العصر خاصة الدعوة الى الاستغناء عن الأديان ذات العقائد المرتبطة بالكون وخالقه والانسان ووضعه ومصيره وذات الرسوم والشعائر والعبادات ، اكتفاء بالضمير الانسانى الوازع الى فعل الخير والبر وحسن المعاملة والتماسك أمام الشهوات . وفى راى أصحاب هذه الدعوة أنها جديرة اذا اعتنقت أن تمحو كثيرا من أسباب الخلاف والنزاع والحروب التى تنشب بين الناس بسبب اختلاف العقائد والأفكار حول الكون والخالق والنبوة والرسالة وتفسير الحياة والموت . وبيان وضع النفس ومصيرها فى الكون. وقد ذهب أصحاب هذه الدعوة قدماء ومحدثين الى أن الصفوة الممتازة من ذوى العقل والعلماء المنتهين لاتحتاج الى الدين ، وانما تحتاج اليه جماهير الناس من صغار العقول والجهلاء والدهماء ومن يلهيهم السعى لسد حاجات عيشهم المادى فى ادوار حياتهم الى نهايتها عن التفكير فى مسائل العقائد الدينية ، كما ذهبوا الى القول بأن الفضيلة ثوابها وقيمتها فى ذاتها لا فى جزائها التى تعد به الأديان ، وأن فعل الخير وترك الشريعة ذاتها بل والجزاء عليها لا يفيد تهذيبا ولا فضيلة . وأن الاعتقاد فى هذه الرغبات من الخير ، ومن الزواجر عن الشر ، ليس خرافة ووهما ضارا فقط ، بل هو مفسدة للعقول ، وخاصة عقول الأطفال .

وراى القرآن قاطع فى أصحاب الفضائل والأعمال النافعة ممن لا يؤمنون بالله وحده . فقد قضى أن من يخرج على ذلك تهدر قيمة فضائله الذاتية وأعماله الخيرة .

ويجب التفرقة بين وظيفة العقل ووظيفة الضمير ، ومجالات كل منها ، فالضمير حساسية بالخير والشر ، والمعروف والمنكر ، وهو الذى وضع قائمة الأخلاق والفضائل لحل مشكلة التعايش بين الناس هنا فى الدنيا، أما العقل فمجاله البحث عن الأسباب والأسرار لحل مشكلات الفكر والاعتقاد ، ومنهنا يثبت القصور والعجز لدى المذاهب المادية الالحادية المعاصرة التى تحاول حبس التطلع العقلى الانسانى فى البحث عن حلول لمشكلة العيش وحدها بدون نظر لما وراء العيش المادى الموقوت المحدود من مسائل عقلية حول الكون وما وراءه وعلاقة الانسان به ومبدأ كل منهما ومصيره .

نعم ، ان حياة الضمير الوازع الى الخير والزاجر عن الشر هى خلاصة حياة التدين العملى وهى التى تعنى المجتمع ، ولكنها ليست كل شىء فى حياة التدين على اطلاقه بل ليست أهم شىء فيه ، ولابد لها من اطار عقلى صحيح أن الناس تعودوا الا يفرقوا بين الايمان والعمل عند الحكم على دين الأشخاص ، لأن العمل هو جسم الايمان والايمان هو روح العمل ، غير أن ذلك لا يبيح لنا أن نقول أن العمل الصالح هو كل الدين ، وأنه يعفى صاحبه من اعتناق العقيدة الصحيحة التى تنسجم مع بناء الكون ومنطق العقل ، ومن اتباع الشعائر والمراسم

التى وضعتها تلك العقيدة للعبـادات تنظيما وتنسيقا وعلامات فى حيـاة المؤمنين وطابعـا وشعارا لمناسكهم وتدريبـا لهم على فضـائل معينة ، وليست الشـعائر والمراسـم الا لتدريب النفـوس على التلاقى فى نظـام وتناسق جمـاعى على مظهر من مظاهر العبـادة ، والا اخضاعا لقواعد عامة لتلك الأفراد وتنتظمها جميعـا ، كذلك لا يعنى احدا أن يكون فاضلا صالحا ذا ضمير حى وعمل نافع عن أن يؤدى الشعائر والعبادات التى وضعها ونظمها الدين ليؤديها الأفراد والجماعات . كذلك لايغنيه عمله الصالح وفضله الذاتى عن أن يقدم الاعتراف بسيد الكون أولا . ورأى القرآن فى هذا وهو الرأى الحاسم . « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شىء » .

٢ ـ شبهة مفهوم الجهاد والدعوة الى ايقاف آياته

كانت (آيات الجهاد) فى القرآن تلقى من الاستعمار فى فترة احتلال الوطن العربى حربا عنيفة ، فقـد كانت الدعوة الى جهاد المستعمر عن طريق مفاهيم الاسلام من أخطر الاسـلحة التى قاومت بهـا البلاد العربية النفوذ الأجنبى ، حتى حـرم المحتلون الفرنسـيون فى الجزائر تدريس الجهاد فى آيات القرآن أو فى أبواب الفقه .

يقول الدكتور ... عام ١٩٣٣ فى رسالة الى مجلة الفتح :

ان هؤلاء الأوربيين الفاتحين المتعصبين ، ما زالوا يخوفون عبيدهم من كلمة الجهاد ويعدون ذكره ـ فضلا عن فعـله ـ من أعظم الذنوب ، وانه هو آية الهمجية والتعصب الدينى المقوت ، وبلغ ببعضهم الأمر أن حرموا على المسلمين تفسير آيات الجهاد فى كتب الفقه ، وبعينى شاهدت صحيفة الاذن (بالتدريس) « Permoton » التى حصل عليها شيخنا : محمد بن حبيب الله الشنقيطى رحمـه الله فى مدينة المشرية من قسم وهران فى الجزائر وفيها « ان الاذن بتدريس علوم الدين مقيد بأن المدرس لا يفسر اى آية أو حديث يدل على الجهاد ، وأن لايدرس شيئا من أبواب الجهـاد فى كتاب الفقه » ولمـا راجت دعاية هؤلاء فى الشرق صار المسـلمون ينفرون من لفظ الجهاد ، مع ان الجهاد موجود فى شريعة موسى ، وهم يدرسون فى كتبهم وقصصهم الدينية الجهاد المحمدى على أنه أرحم جهاد وقع على وجه الأرض » .

وهكذا كان الغربيون ومن تبعهم من كتـاب العالم العربى يضيقون بكلمة الجهاد ، الذى كان عنصر مقاومة فعال خلال احتلال ارض العرب والمسلمين بالعدو ، أما بعد أن سقط النفوذ الاستعمارى وأحرزت أمم العـالم الاسلامى حريتها وقامت فيها حكومات فان أمر الجهاد قد اصبح موكولا الى الجيوش الرسمية التى تقوم بسـد الثغور وحمايتها من العدو .

وقد اعتبر كثير من الفقهاء « الجهـاد » : الركن السادس للاسـلام ، فقد أمر الشارع بالجهاد صـونا لكيان الأمة الاسلامية من أن يعتدى عليه ، وحفظا لحدود الدول الاسلامية من أن يخترقهـا العدو ، وقـد قام به المجـاهدون فى فترة الكفاح الوطنى لمقـاومة الاحتلال والاستعمار ثم اصبح بعد موكولا لجيش كل امة ، ولن تموت كلمة الجهاد فى كل عصر ، فان العالم العربى اليوم يواجه خطرين كبيرين : ١ ـ خطر الصـهيونية ٢ ـ خطر عودة النفوذ الأجنبى ، ولذا فان كلمة الجهاد ستظل باقية قائمة فى حدود هذا المضمون ، فاذا وقع العدوان على الوطن ، كان فرض عين على كل مواطن أن يحمل السلاح ويجاهد فى ظل التنظيم الذى تقيمه الدولة لذلك .. وقد عرض الاسـلام لهذا المعنى فأشـار الى أن الزوجـة تخرج اليه بغير اذن زوجهـا والعبد بغير اذن سـيده ولذلك فان شبهه الـكلام عن توقف الجهـاد واستسلام الأوطان باسم الدعوة الى التولسـتوية أو أو غيرها من الدعوات فهو قول مردود . يقول الأسـتاذ محمـد اسماعيل ابراهيم فى كتـابه : « الجهـاد ركن الاسلام السادس » فى المعنى الفقهى للجهاد : «الجهاد» بمعنى القتال وهو الذى حث عليه الدين لاعلاء كلمة الله والجهاد بمعنى مجاهدة النفس لعلاجها وتقويمها والسمو بها ... وقد جاء فى حديث النبى صلى الله عليه وسلم ان الجهاد بمعنى القتال هو الجهاد الأصغر وأن جهـاد النفس هو الجهـاد الأكبر ، وقد اختار الاسـلام كلمة « الجهاد » بدلا من القتال والحرب لمـا فى لفظ «الجهاد» من دلالة على سمو الغـاية ونبل المقصد من القتـال فى سبيل الله ونصره الدين . وتدل كلمة الجهـاد على أن الانسـان وهو يعد نفسه للقتـال ونزال الأعداء انمـا يجاهدها ويروضها دائمـا على أن يكون قتالا خالصـا لوجه الله . ولا فرق بين الجهاد لحمـاية الدين واعلاء كلمته والجهـاد لحماية الوطن من مستعمر ومغتصب . فاذا جلا المستعمر ، كان الاستعداد للجهاد فرض كفاية يقوم به رجال الجيش وحدهم ، وفى القرآن الكريم آيات كثيرة وصريحة فى الدعـوة الى الجهـاد واعداد القوة الحربية لصد الأعداء وارهابهم .

ويجب أن لا يفهم من فرض الجهاد فى سبيل الله من أجل قتال غير المسـلمين ظلما وعدوانا ، أو اكراها

على أن يكونوا مسلمين ، أو من أجل مطمع في غزو أو توسع ، أو حصول على غنائم ، فذلك ابعد ما يكون عن رسالة الاسلام .

والاســلام قد استبدل لفـظ الحرب وغيرها من الكلمـات التى تؤدى معنى القتال واسـتبدل بها كلمة الجهاد التى تؤدى معنى « بذل الجهد والسعى به لأنهـا ابلغ اثرا » .

* * *

٣ ــ شبهة تجزئة مفهوم الاسلام

حاولت النظرية التغريبية ان تفرض على الاسلام مفهوم المسيحية الغربية فى الفصل بين الدين والمدنية ، أو بين العبـادات والمعاملات أو بين الجوانب الروحية والجوانب الاجتماعية والتشريعيـة . وحاولت ذلك فى مناسبة عرضت لذلك ، كانت هـذه المناسبة سياسية وتتعلق بالخلافة . ونحن لا نعرض هنا لموضوع الخلافة الا من حيث أنه حقيقة تاريخية أى من ناحية قيام الخلافة الاسلامية فعلا بعد النبى وامتدادها وتلك حقيقةتاريخية لا سبيل الى الشك فيها أو انكارها ، ولقد كانت حركة الخلافة عام ١٩٢٤ فرصة لبروز تيار فكرى يحمل لواء الدعوة الى تجزئة مفهوم الاسلام كما فعل مؤلف كتـاب الخلافة وأصول الحكم . وبعض من جاء بعده من الكتاب العرب والمسلمين وقد كان ذلك من أهداف التغريب التى يسعى اليها ويحـاول أن يمكن لها بغية القضـاء على وحدة مفهوم الفكر الاسلامى الجامع بين المـادة والروح والدين والدنيا والعقل والقلب .

وقد حاول الشـيخ على عبد الرازق تجزئة مفهوم الاسـلام حين وصف الشريعة الاسـلامية بأنها شريعة روحية محضة ، لا علاقة لهـا بالحكم والتنفيـذ فى أمر الدنيا وعبارته (ص ٨٥) ان كل ما جاء به الاسـلام من عقائد ومعاملات وآداب وعقوبات فانمـا هى شرع دينى خالص لله تعالى ولمصلحة البشر الدينية لا غير .

ثانيا : ان ما جاء به الاسـلام انما هو للمصلحة الأخروية لا غير أما المصلحة المدنية أو المصلحة الدنيوية فذلك مما لا ينظر الشرع السماوى اليه .

ثالثا : الشريعة الاسلامية شريعة روحية محضـة جاءت لتنظيم العلاقة بين الانسان وربه فقط . أما مابين الانسان من المعاملات الدنيوية وتدبير الشئون العـامة فلا شأن للشريعة به وليس من مقاصدها .

رابعـا : ان جهاد النبى لم يكن فى سبيل الملك بل فى سبيل الدين ولابلاغ الدعوة الى العالمين .

خامسا : ان نظام الحكم فى عهد النبى كان موضع غموض أو ابهام أو اضطراب وان ولاية محمد كانت ولاية الرسـالة غير مشوبة بشىء من الحـكم وأن مهمة النبى كانت بلاغا للبشرية مجردا عن الحكم . (وهذه الدعاوى الخمس باطلة بهذه ويعد عرضها بهـذه الصورة تحريف لمفهوم الاسلام وتجزئة له) .

وقد لخص السيد رشيد رضا هذه الشبهات فقال : ان الدين الاسلامى باجماع المسلمين هو ما جاء به النبى محمد صلى الله عليه وسلم من عقائد وعبادات ومعاملات لاصلاح أمور الدنيـا والآخرة والخلافة معناها رئاسـة الحكومة الاسلامية الجامعة لمصالح الدين والدنيا ، وقد أشار العلامة السعد التفتازانى فى كتابه « متن مقاصـد الطالبين فى علم أصول عقـائد الدين » ان الامامة هى رئاسة عامة فى أمر الدين والدنيا خلافة عن النبى. وقال العلامة الفقيه أبو الحسن الماوردى فى كتـابه « الأحكام السلطانية » الامامة موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا وكلام سائر علماء العقائد والفقهاء من جميع مذاهب أهل السـنة لا تخرج عن هذا المعنى ، الا أن الامام الرازى زاد قيدا فى التعريف : فقال : هى رئاسـة عامة فى الدين والدنيا لشـخص واحد من الأشخاص .

وواجه العلامة فريد وجدى هذا المفهوم الذى جرى عليه صاحب « الاسلام وأصول الحكم » فقال ان قاعدة فصل الدين عن السياسة هى قاعدة أوربية محضة سبب حدوثها أن الدين فى أوربا توصـل الى تكوين سـلطة مستبدة تادت العامة والملوك فصـبرت الحكومات قرونا تحت نيرها ثم بدأت فى القـائه عنها ، ونشأت من ذلك حروب حتى تغلب الآخرون . وقرروا فصـل الدين عن السياسة فهل تنطبق هذه القاعدة على ديانتنا الاسلامية فى شكلها الخالص .

ليس فى كتابنا « أى القرآن » ان يكون لنـا هيئة رئاسة دينية بازاء هيئة رئاسة دنيوية ، بل ان الاسلام رمى الى هدم ما كان يسمى بالسلطة الدينية وقوض كل أساس يمكن أن تبنى عليه تلك السلطة ، والاسلام قانون عام للأفراد والأمم على مثال القوانين الأخلاقية المعروفة

ولكن مع هذا الفارق الكبير ، وهو ان الاسلام قانون شامل لجميع مطالب الروح والجسد وقابل للانطباق على كافة الأمم بتوحيد مراميها ومقاصدها . معنى فصل الاسلام عن السياسة فصل الأخلاق عن السياسة ولا يقول بهذا عاقل .

وقد رد الدكتور منير العجلانى على كتاب على عبد الرازق فى كتاب صدر ١٩٤٩ « عبقرية الاسلام فى أصول الحكم » .

جاء به : نشر قاض مصرى منذ سنوات كتاب اسماه « الاسلام وأصول الحكم » زعم فيه ان أصول الحكم ليست من الدين فى كثير ولا قليل ، فللمسلمين ان يختاروا لأنفسهم نوع الحكم الذى يرضى أذواقهم ، والأمر متروك لجهادهم الخاص لا يلزمهم فيه الدين بشىء ولا يحاسبهم منه على شىء ، فان أصول الحكم كانت أهون عند محمد صلى الله عليه وسلم من جناح بعوضه .

وقال ان هذه المزاعم واضرابها هى التى حفزتنى الى الكتابة فى تاريخ الحكم الاسلامى ، ذلك أنى التمست جوابا عليها من الكتب التى تداولتها الأيدى فى هذا الفن فلم أجده ، وانما وجدته متفرقا فى كتب الأدب والتاريخ والتفسير والحديث والسير .

وقال الأستاذ الامام محمود شلتوت :

خلاصة الحكم على الكتاب أنه كتاب وضعه صاحبه بحكم العاطفة التى من شأنها أن تسير خلف خيال الشعر وروعة الخطاب لا بحكم العقيدة التى تقتفى قوة الحجة والبرهان ، قال الأستاذ : أن مركز الخلافة منذ أبى بكر الى يومنا هذا كانت دعامته التى ترتكز عليها القوة وسياجه الذى يصونه القهر والغلبة ، وقد فاته أن يكلف نفسه عناء البحث عن الأمثلة والنظائر فى قريب التاريخ وبعيده وأن يفرق بين أخذ الخلافة بالقوة والقهر وبين احاطتها بعد تشييدها بالمتابعة الاختيارية . بما يبعث الرهبة فى نفوس الرعية حتى تأمن غائلة البغى والخروج عليها وحتى تكون على استعداد تام لجهاد الأعداء فى حدود الشريعة ولهذا السر وحده وجدت القوة ولم تكن لأخذ الخلافة واعتلاء عرشها . بل كل خلافة ظهرت فى العالم وكانت دعامتها القهر والغلبة لغالب أهل الحل والعقد من الأمة فهى خلافة باطلة شرعا .

وقال حافظ عوض صاحب جريدة كوكب الشرق : نحن فى مقدمة الذين ينصرون حرية الرأى ويدفعون عنها بكل ما يملكون من حجة وقوة ، واذا كان من حق الانسان ان يبدى رأيا فى مسألة اجتماعية أو قضائية فليس من حقه أن يعمد الى هدم عقيدة وأمر أجمع عليه المسلمون منذ ظهور الاسلام ، واذا كان الشيخ على شجاعا فليست الشجاعة أن يخرج على الاجماع فى مسألة دينية ، واذا جاز لمجتهد البحث فى المسائل الاجماعية فلا يجوز له أن يخرج عما آمن به أهلوه وسلفاؤهم من عقائد الدين .

وخلاصة ما ذهب اليه الشيخ على عبد الرازق هو :

« جعل الشريعة الاسلامية شريعة روحية محضة لا علاقة لها بالحكم والتنفيذ فى أمور الدين » والحق أن الدين الاسلامى باجماع المسلمين هو ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم من عقائد وعبادات ومعاملات لاصلاح أمور الدنيا والآخرة ، وأن كتاب الله وسنة رسوله مشتملة على أحكام كثيرة فى أمور الدنيا وأحكام كثيرة فى أمور الآخرة .

وواضح من وجهة نظره أن الشريعة الاسلامية عنده شريعة روحية محضة جاءت لتنظيم العلاقة بين الانسان وربه فقط ، أما ما بين الناس من المعاملات الدنيوية وتدبير الشئون العامة فلا شأن للشريعة به وليس من مقاصدها . وبذلك شطر الدين الاسلامى شطرين والغى منه شطر الأحكام المتعلقة بأمور الدنيا» .

وليس شك أن هذا المفهوم مخالف أساسا لجوهر الاسلام ، أما الخلافة نفسها كنظام حكم فليست موضع النظر فى هذا البحث .

٤ ــ شبهة تحرير البحث الأدبى من الدين والقومية

من الشبهات التى لقيت رواجا واسعا محاولة فصل البحث الأدبى عن مقومات الدين والقومية يقول طه حسين : نحن حين نستقبل البحث فى الأدب العربى وتاريخه علينا أن ننسى قوميتنا وكل مشخصاتنا وننسى ديننا وكل ما يتصل به ، وان ننسى ما يضاد هذه القومية وما يضاد هذا الدين ، يجب الا نتقيد بشىء ولا نذعن لشىء الا مناهج البحث العلمى ، ذلك اننا اذا لم ننس قوميتنا وديننا وما يتصل بهما فستضطر الى المحاباة وارضاء العواطف » ويرد على هذه القضية : ثلاثة من اعلام الرأى والفكر والبحث :

* * *

٢ — محمد فريد وجدى

اصبح يعز على المعـــاصرين ان يحصلوا للدين او لمـــا يتصل به سلطانا على مناهجهم العلمية ، واضحى من لا يكون على اقصى حد من حدود الحرية الفكرية غير جدير بالثقة لتقيده بآراء يعدها مقدسة ، ويحـــاول ان يخضع كل حقيقة لســـلطانها ، ونحن نعذرهم فى هـــذا

١ — محمد الخضر حسين

كان ينبغى على الباحث أن يقول « وننسى الأديان » لأنه يريد أن يضع فى أذهان القراء أنه أصبح عن الدين فى ناحية والاضافة فى قوله « ديننا » يقتضى أن يكون قد أثبت لنفسه دينا ولا يتجاوز هـــذا لغة الاضافة فى قوله « قوميتنا » . .

ولو نسى المؤلف قوميته ودينه لمـــا تطوع فى البعد عن الحقائق هذه الغاية ، ولكنه ربط قلبه بعواطف هذه القومية وهذا الدين ، فاضطر الى محاباتها وارضائها .

لقد كان القدماء يستقبلون البحث بعقولهم ولم يروا أنفســـهم فى حاجة الى التجـــرد من دينهم لأن حقـــائقه الناطقة لا يعترضها العلم فى كبير او صغير ، ولو فرضنا ان انقـــان البحث يتوقف على التجرد من الدين وصنفوا ما صنع المؤلف لعـــادت بهم أحلامهم الراجحة الى لباس التقوى ولم يرزاهم العلم من دينهم شيئا . ولم يرزاهم دينهم من العلم نقيرا .

الشعور ، لأنهم لا يعرفون الاسلام ، ولا يدرون أنه سن منهاجا للبحث عن الحقائق ، ليس وراءه مرمى ، وان كان المانع الأنفة من الاتباع ، فالاتباع حاصل لديكارت ، وهل فرق فى التبعية بعد أن يقال هذا قرآنى وهذا ديكارتى .

أما أنا فلا أجـــد محلا للأنفة من اتبـــاع المذاهب الاصلاحية على الاطلاق ، وان كنت أجد فرقا بين اعلان تبعيتى لمذهب ديكارت وتبعيتى لمذهب القرآن ، أما القرآن فهو كتـــاب الأمة التى أنا منها وبينى وبينـــه كل أنواع الصلات المعنوية التى تربط الانسان بشىء من الأشياء ، وقد ســـبق ديكارت بعشرة قرون ، وأســـلوبه أدق من أسلوبه وأجمع لوجوه الاحتياط منه . فالقرآن يؤيده فى مذهبه هذا حين ينعى على المســـتأثرين بالأهواء ، وفى نسيان قوميته وكل مشخصاتها . ويزيد القرآن على هذا التوصية بعدم الخوض فيما لا نعلم ، ويقرر بأن الانسان مسئول عن اعتمال حواسه وقلبه فى معالجة البـــاطل ، وقد تجاوز القرآن حدود كل مذهب فلسفى فعد الانسان مســـئولا حتى عن الخواطر ، فاذا كان لديكارت منهج فى البحث عن الحقائق عرف بالمنهج الديكارتى . فان للقرآن منهجا نسميه بالمنهج القرآنى وقد قابلناه بمنهج ديكارت فبزه وزاد عليه ، فيكون لا محل لطلب الدكتور أن ينسى المسلم دينه فى أثناء البحث عن الحقيقة ، فان دينا يخوله كل هذه الحرية فى البحث ويهديه لهذا المنهج من التثبت جدير أن يجعله دستوره فى كل ما يتصدى له من أنواع العلوم . انما يخشى من تأثير الدين على مثل هذا البحث وهو « الأدب » واذا كان من الأديان التى تعاكس حرية البحث فى أصول الجماعات وفى درجاتها من الارتقاء وفى مكاناتها بين الأمم وفى تأثيرها العالى وفى مصادر لغاتها وفى قيمة آدابها . ولكن اذا كان الدين الاســـلامى ينص على أن الأمم كلهـــا سواء ، وأنه لا فضـــل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى أو بعمل صالح وعلى أن الباحث يجب أن يتبع الحق حيث كان ، وعلى أنه يجب أن ينظر فى مصادر المعرفة ليتصـــيد الحق فى جميع مظانه ، وعلى وجوب الحكم بالعدل ولو على النفس والأقربين ، وعلى أن كل الأمم ســـواء فى تحمل تبعـــة أعمالها فلا محاباة ولا استثناء ، وعلى أن الانسان يجب أن يخضع لسلطان الدليل لا للموروثات ولا للأوهام ، قلنا ولكن اذا كان دين كالدين الاسلامى ينص على هذا كله فكيف يجب نسيانه فى أثناء البحث ، وأكمل دستور عرف عن الباحثين فى الحقائق الى اليوم . وبأى مرجح نجعل الأســـلوب الديكارتى نصب أعيننا فى أثناء بحث ما نريد بحثه ونفخر بالانتماء اليه ولا نجعل الأســـلوب القرآنى نصب أعيننا فى البحث ونباهى بالجرى عليه . وهل لى وأنا أرى فى كتاب الدكتور طه أخطاء كثيرة ، أن أرفض الجرى على مذهب ديكارت وعلى تناسيه وتجاهله لأن الدكتور أعلن أنه من أخص أشياعه فلم يحسن الجرى عليه باعتماده على حكايات كتب المحاضرات التى لا يقوم على ثبوتهـــا شبه دليل بل التى يقوم ألف دليـــل على مناقضتها للواقع .

* * *

يقول الدكتور طـــه : لنجتهد فى أن ندرس الأدب العـــربى غير حافلين بتمجيـــد العرب أو الغض منهم ، ولا مكترثين بنصر الاســـلام أو النعى عليـــه ولا معنين بالملائمة بينه وبين نتائج البحث العلمى والأدبى .

نقول أن هذا الكلام لا غبار عليه وهو مذهب كل طالب لتحقيقه الا قوله « ولا مكترثين لنصر الاسلام أو النعى عليه » فان مثل هذا القول لا يصح اطلاقه على دين لا مرمى له الا ايصال الانسان الى الحقيقة ، وهو لذلك ينهج له مناهج بز بها الفلاسفة وفيهم ديكارت .

والدكتور طه ان كان يعرف مكان الاسلام من هذا المنهج كان الأولى به أن يقول أن المتقدمين ارتكبوا ما ارتكبوه من افساد الأدب والعلم بعدم جريهم على المنهج الذى يحضهم عليه القرآن وأنه سيجرى على ذلك المنهج الذى يوافق ما جاء بعده بألف سنة كمنهج روجر بيكون وديكارت . واذا كان لا يعرف الاسلام كان يجب عليه الا يخط حرفا واحدا فى الأدب العربى فان علاقته بآداب هذه الأمة وعقليتها وتأثيره منها مما لا يمكن انكاره وعدم الاعتداد به على آية حال .

٣ ــ محمد أحمد الغمراوى

انه ذهب الى أن نسيان القومية والدين شرط أساسى من شروط البحث العلمى ، ان كان أراد بذلك أن على الباحث ألا يخفى بعض الحق أو يتراخى فى استيفاء الدليل العلمى محاباة لقوميته ، أو ارضاء لعاطفته الدينية ، فقد أصاب ، أما اذا كان أراد أن الانسان لا يستطيع أن يكون ذا عاطفة قومية أو دينية قوية من غير أن يحابى أو يداجى فى العلم ، فقد أخطأ ولم يصب . أن الانسان يستطيع أن يراعى الدقة العلمية التامة فى البحث وهو متذكر لدينه كل التذكر ، ويعتقد بصحته كل الاعتقاد ، غير مجوز على قرآنه خطأ أو على توراته ، بل أن التدين الصحيح يزيد الباحث المخلص أن أمكن حرصا على الحق واستمساكه به اذا وصل اليه ، أن الباحث المتدين بين محبين فى الحق ، دينه وعلمه ومبغضين فى الباطل : دينه وعلمه كذلك ، ولا خوف عليه مطلقا أن يخفى بعض الحق ، أو يدلس فى البحث محاباة لدينه اذ ليس الحق يخاف على دينه ولكن الباطل ، وهو يعلم أن دينه حق ، يعلم ذلك علم مستيقن ، ويعلم أن العلم قائم على قاعدة استحالة التنافى بين أجزاء الحق ، فهو لا يخشى أبدا أن يكشف البحث الصحيح عن حقيقة تنافى دينه ، ولذلك يمضى فى أبحاثه مطمئنا متبعا أقوم الطرق فى البحث والتفكير ، لا لأن هذا هو الطريق الوحيد للوصول لنتائج صحيحة فحسب ، ولكن لأن هذا فى اعتقاده هو الطريق الوحيد الذى لا يؤدى الى تخالف بين العلم الذى يبحث فيه والدين الذى يؤمن به . فالتدين الصحيح والتفكير العلمى الصحيح ممكن اجتماعهما اذن ، وكثيرا ما اجتمعا ، كما أن العاطفة العلمية القوية والعاطفة الدينية القوية لا يتعارضان بل يتضافران على خدمة العلم وتبعثان على الاخلاص فى البحث » .

٥ ــ شبهة الخلاف بين التاريخ والقصة فى القرآن

قال مؤلف « الفن القصصى فى القرآن » أن قصة موسى فى سورة الكهف لم تعتمد على أصل من واقع الحياة ، بل ابتدعت على غير أساس من التاريخ . وأن ما تمسك به الباحثون من المستشرقين ليس سببه « جهل » محمد بالتاريخ بل قد يكون من عمل الفنان الذى لا يعنيه الواقع التاريخى ، ولا الحرص على الصدق العقلى ، وانما ينتج من عمله ويبرز صورته بما ملك من الموهبة الفنية والقدرة على الابتكار والاختراع والتغيير والتبديل .

وأشار الدكتور أحمد أمين الى مفهوم رأى صاحب « الفن القصصى فى القرآن » فقال : انه يلمح بتكذيب النبى فى القرآن موحى به من الله موهما أنه من تأليف محمد ، وأن ما فيه من القصص خاضع لما يخضع له الفن من خلق وابتكار من غير التزام بصدق التاريخ والواقع . وأن محمد فنان بهذا المعنى . وأن الأنبياء أبطال ولدوا فى البيئة وتأدبوا بآدابها وخالطوا الأهل والعشرة ، وزعم أن القرآن متناقض ، ويرى الكاتب أن القصة فى القرآن لا تلتزم الصدق التاريخى ، وأنها تتجه كما يتجه الادب الى تصوير الحادثة تصويرا فنيا بدليل التناقض فى رواية الخبر الواحد ، كما أن الاجابة على الأسئلة التى يوجهها المشركون للنبى ليست تاريخية ولا واقعة وانما هى تصوير للواقع نفسى من أحداث مضت أو اغرقت فى القدم » .

وقد رد الفكر العربى الاسلامى هذه الاتهامات وكشف دوافعها ، وصحح أخطائها فى عديد من الأبحاث والمقالات التى دحضت هذه الشبهات التى هى أصلاً شبهات لكتاب الغرب والمتعصبين نقلتها أقلام عربية ورددتها .

٦ ــ جذور الشعوبية

كان موضوع الشعوبية من الموضوعات التى اختلفت فيها الآراء وتنوعت واضطربت ، وقد عالج كثير من الكتاب «مفهوم» الشعوبية فى الفكر العربى وكشفوا عن جذورها . ومن هؤلاء الدكتور عبد العزيز الدورى ، والعلامة محمد جميل بيهم ، وكثيرون ...

١ ــ يقول الدكتور الدورى أن « الشعوبية » : حركة شاملة وجدت أنصارها اذ وجدت دعاتها ، وهى حركة يتضح فيها العداء للعروبة حينا وللاسلام حينا ، وترى جهدها فى كل حقل لاضعاف الاسلام الذى حمل العرب رسالته قبل غيرهم . ويتميز بنبرة عنصرية ، وبالعودة الى احياء التراث القديم (قبل الاسلام)

للشعوب الأخرى ، فى حين أن حملة الراية العربية الاسلامية أنكروا كل نظرة عنصرية .

ولما كانت الأصول الثقافية العربية من لغة وشعر وأمثال وثيقة الصلة بتكون العرب وبحياتهم ، فانهم دافعوا عنها وعنوا بها حين حاولت الشعوبية قطع الجذور .

كما أن حركة الغلو تكون جانبا آخر للنشاط الشعوبى فى الحقل الدينى ، لأن الغلو ينطوى فى أساسه على عقائد وآراء غير اسلامية مزجت ببعض المفاهيم الاسلامية ليتسع المجال لها للظهور احيانا . وقد نشطت الشعوبية فى دور عز العرب وفى فترة سيادة الخلافة فلما تشقق سلطان العرب ، وتضعضعت الخلافة بالحركة الانفصالية ، هدأت سورة الشعوبية ، وخففت هجماتها ، ومن الطبيعى ان تنشط الشعوبية فى دور نهضة العرب وتوشع الاسلام .

وسلكت الشعوبية سبلا عديدة من ظاهر ومستور وكلها لها اثرها وخطرها فهى تريد أن تربك العقائد وتشوه المفاهيم الاسلامية لتزعزع قاعدة المجتمع وأساسه ، وهى تنفذ باسم العقل والمنطق الى تحوير معنى النصوص والمفاهيم الاسلامية اذ تنقل الى التأويل الذى يخرج النصوص عن معانيها الاسلامية الى مفاهيم غريبة بعيدة عن الأسلام .

ونحن نحس تشدق الكتاب الشعوبيين بالثقافات الأعجمية ، وتمجيدهم لكل ما هو خارج نطاق الثقافة العربية الاسلامية ، ونرى تهكمهم على هذه الثقافة وسخريتهم بأصولها وترى أن هذا الموقف يرافقه جهل بأصول الثقافة العربية الاسلامية ، وتعصب أعمى للثقافات الأعجمية وهم يفعلون ذلك باسم الحرية الثقافية وتحت ستار الفكر المتحرر ، والشعوبية تندد بالمثل الخلقية وبالقيم العربية الاسلامية ، وتذهب الى التحلل وتنزع الى المجون وتدعو الى أن نظرات اجتماعية وخلقية تتعارض كليا مع القيم العربية الاسلامية ، والشعوبية تفعل ذلك باسم الظرف والحضارة . وتتبجح به بدعوى الحرية الاجتماعية وهى تدرك أن هذا سبيل فعال لتفكيك الروابط ولاضعاف الكيان الاجتماعى . وتحاول الشعوبية طمس الذات العربية وقطع الجذور تاريخيا وثقافيا ، وتفتيت الوحدة ، وتتهجم العرب القدامى وتظهرهم بمظهر التأخر والهجمية وتسخر من ثقافتهم وتشكك فى شعرهم بما تدخله فيه من انتحال ، وتهاجم العربية ، وهى بعد ذلك تهاجم المروءة العربية القديمة بما فيها من فروسية وكرم ووفاء وفصاحة . وتنكر دور العرب فى حمل الرسالة الانسانية وتحاول طمس دورهم الحضارى فتدعى أن الحضارة العربية الاسلامية أن هى الا اقتباسات من الأعاجم ، وتريد بذلك زعزعة الثقة بالذات ، وصرف الانتباه الى الثقافات الأعجمية وهى تفعل ذلك فى وقت تحاول فيه احياء التراث الأعجمى وتمجيد الآثار الأعجمية وتعمل على بثها فى المجتمع العربى الاسلامى وعلى تحويله عن ذاته . واذا كان لنا من التاريخ خبرة فانها تشير الى رسوخ الذات الحضارية العربية وانتصارها والى اجتيازها المحنة وهى أقوى جذورا وأكثر وشمولا . ولكن هذا لا يعنى زوال الشعوبية .

يقول العلامة محمد جميل بيهم : (لقد) وضع الشعوبيون كتبا طافحة فى المثالب ضد العرب ، وتسرع بعضهم الى المغالاة فى نقدهم وذلك بتشجيع من خاصتهم والف (علان) الشعوبى كتابا فى مثالب العرب . فقد برزت الشعوبيات العربية على شكل واضح حينما انبرت الوحدة العربية بأحلى مظاهرها الى اثبات وجودها من المحيط الأطلسى الى الخليج العربى ، والى الاعراب عن تصميمها على التحرر من الاستعمار .

٧ — دور الشعوبية فى التاريخ

من القضايا التى آثارها بعض الذين يكتبون باللغة العربية جريا وراء نظريات التغريب ومتابعة لمناهجه ، قضية التاريخ العربى فى محاولة اتهامه وانتقاصه ، وقد عرض الدكتور عبد العزيز الدورى لهذه القضية قال : ركز الشعوبيون قسطا كبيرا من اهتمامهم على تشويه التاريخ العربى والدرس عليه ومهاجمته . ومن هنا قام المؤرخون بدور حيوى فى الرد على الشعوبية ردا مباشرا من جهة وغير مباشر من جهة أخرى ، فراحوا يفسرون دور العرب فى التاريخ ، وراحوا يتبعون دسائس الشعوبية ، ونشطوا بصورة عامة وبروح جديدة فى حقل التاريخ العربى ، ليوضحوا أن العرب أمة ذات تاريخ يكون سلسلة متصلة الحلقات قبل الاسلام وبعده وان العرب حملوا الرسالة الحضارية لغيرهم فى التاريخ .

وللتمثيل على ذلك نذكر أن البلاذرى ألف فتوح البلدان وعبر فيه بوضوح عن دور العرب كأمة فى نشر لواء الاسلام وفى خلق دار الاسلام وفى موقفهم من الشعوب الأولى التى دخلت الدين فيما بعد . وكتب (أنساب الأشراف) ليبين دور الرؤساء والزعماء فى التاريخ العربى وأثرهم فى تكوين الدولة العربية الكبرى ،

والف ابن قتيبة (المعارف) ليبين اتصال حلقات التاريخ العربى والثقافة العربية ، وليبين اهمية التاريخ لكل مثقف ، والأصمعى ألف فى تاريخ العرب قبل الاسلام ليبين أنهم اناس لهم ماض حضارى . أن تاريخنا يلعب دورا كبيرا فى حياتنا وأن بعض أحداثه لا تزال حية فى تفكيرنا وتصرفاتنا . وأن فهم الأمة لذاتها ومجابهتها المعضلات القائمة والاستعداد للمستقبل الذى تنشده لنفسها يعتمد الى حد كبير على فهمها لتاريخها فهما صحيحا ويستند الى دراستها لهذا التاريخ .

٨ — فلسفة التاريخ

حاولت كثيرا من الدراسات الغربية الانتقاص من قدر فلسفة التاريخ العربى الاسلامى والغض من قدره ، ومحاولة اثارة الشبهات حول مواقفه ، ومواقعه وغاياته وهذه محاولة لمواجهة هذه الشبهات :

١ — يقول (البيان وايد غراى) : أما وجهة نظر المسلمين للتاريخ فانها نظرة بناءه ، فهم يرون أن البشرية اذا اعتنقت تعاليم الوحى (القرآن) فان ارادتها حينئذ تتطابق وارادة الله ، ولا يعود يوجد من يعصى أوامره ، ويعم الاخاء بين البشر ، ومن صفات المؤمن أنه صابر ويعلم أن الأمر لارادة الله . وقد قدموا أفضل فيلسوف للتاريخ ، ممثلا بالفيلسوف « ابن خلدون » وكان أول فيلسوف حلل درجات تأثير المحيط والدوافع النفسية التى تعمل عملها فى الحياة الانسانية وتسبب نشوء الحضارات وانقراضها ، ونشاهد بوجه عام تيارين يتنازعان السيطرة على أفكار فلاسفة التاريخ المسلمين ، المفهوم الحركى والمفهوم القدرى ، وكلها تظهر بوضوح فى تفسير تقلبات القوى الاجتماعية . وعلى العكس من ذلك كان الفلاسفة الهنود قد قطعوا كل صلتهم بكل ما هو وقتى وفورى وقدموا تعاليم انهزامية وانعزالية ، والتاريخ بالنسبة للبوزية والهنود ليس الا وهما .

٢ — يقول العلامة تريتون : فى كتابه : « الاسلام عقيدته وعبادته » .

« اذا صح فى العقول أن التفسير المادى يمكن أن يكون صالحا فى تعليل بعض الظواهر التاريخية الكبرى ، وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها ، فان هذا التفسير المادى يفشل فشلا ذريعا حين يرغب فى أن يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم ، وقيام حضارتهم واتساع رقعتهم ، وثبات أقدامهم ، فلم يبق أمام المؤرخون الا أن ينظروا فى العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة ، فرأوا أنها تقع فى هذا الشىء الجديد الا وهو الاسلام » .

٣ — ويقارن العلامة ولفرد كانتول سميث فى كتابه « الاسلام فى التاريخ الحديث » بين احساس الهندى والمسيحى والمسلم والماركسى تجاه التاريخ فنقول : ان الرجل الهندى لا يأبه للتاريخ ولا يحس بوجوده ، لأن التاريخ هو ما سجله البشر من أعمال فى عالم المادة وعالم الحس ، والهندى مشغول دائما بعالم الروح ، عالم اللانهائية ، ومن ثم فكل شىء فى عالم الفناء المحدود لا قيمة له عنده ولا وزن . والتاريخ بالنسبة اليه شىء ساقط من الحساب . ما المسيحى فيعيش بشخصية مزدوجة أو فى عالمين منفصلين لا يربط بينهما رباط ، فالمثل الأعلى عنده غير قابل للتطبيق ، والواقع البشرى المطبق فى واقع الأرض منقطع عن المثل الأعلى للمنشود ويسير هذان الخطان فى نفسه متجاورين أو متباعدين ولكن بغير اتصال ، والتاريخ فى نظره هو خط ضعف البشر وهبوطه وانحرافه . أما التاريخ فى نظر الماركسى : فهو الايمان بحتمية التاريخ بمعنى أن كل خطوة تؤدى الى الخطوة التالية بطريقة حتمية ، ولكن لا يؤمن الا بهذا العالم المحسوس ، بل لا يؤمن فى هذا العالم الا بالمذهب الماركسى وحده ، وكل شىء عداه باطل ، والماركسى يتبع عجلة التاريخ ولكن لا يوجهها ، ولا يقيسها بأية مقاييس خارجة عنها ، أما المسلم ، فانه يحس بالتاريخ احساسا جادا ، أنه يؤمن بتحقيق ملكوت الله الأرض ، يؤمن بأن الله قد وضع نظاما عمليا واقعيا ، يسير البشر فى الأرض على مقتضاه ، يحاولون دائما أن يصوغوا واقع الأرض فى اطاره ، ومن ثم فهو دائما يعيش كل عمل فردى أو جماعى ، وكل شعور فردى أو جماعى ، بمقدار قربه أو بعده من واقع الأرض لأنه قابل للتحقيق .

والتاريخ هو فى نظر المسلم سجل المحاولة البشرية الدائمة لتحقيق ملكوت الله فى الأرض ، ومن ثم فكل عمل وكل شعور فرديا كان أو جماعيا ذو أهمية بالغة لأن الحاضر هو نتيجة الماضى والمستقبل متوقف على الحاضر .. فالمفهوم الاسلامى واضح الايجابية ، فبينما غير المسلم يضحى بنفسه لأنه لا يريد أن تمر عجلة التاريخ الخاطئة وهو حى وسامح لها بالمرور ، فهو يقف فى طريقها حتى تدوسه وتقتله ، ويكون ذلك أغلى قربان يتقدم به الى الله فان المسلم حين يضحى بنفسه ، ففى حسه أن هناك نظاما الهيا يراد أن يطبق فى واقع الأرض وفى حسه وهو يضحى أنه يدفع عجلة هذا النظام خطوة الى الأمام .

٤ — ويرى هاملتون جب : أن التاريخ الاسلامى سار فى وجهة معاكسة للتاريخ الأوربى على نحو يثير الاستغراب ، كلاهما قام على انتقاص الامبراطورية البريطانية وفى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ولكن

بينهما فرقا أصيلا ، فبينما خرجت أوربا على نحو متدرج لا شعورى ، وبعد عدة قرون من الفوضى الناجمة من غزوات البرابرة انبثق الاسلام انبثاقا مفاجئا فى بلاد العرب واقام بسرعة تكاد تعز على التصديق فى اقل من قرن من الزمان امبراطورية جديدة فى غربى آسيا وشواطىء البحر الأبيض المتوسط الجنوبية والغربية . وقد اقام الاسلام نظاما سياسيا شمل جميع المناطق المتسعة ، ومن بينها فارس ، وواجه مهمة أخرى وهى ادخال هذه المناطق فى نظام ثقافى دينى مشترك قائم على مفهومه العالمى الشامل ، فكان عليه من أجل تحقيق ذلك ان يقاوم تأثير المفهوم العالمى السابق له فى غربى آسيا والنصف الجنوبى من حوض البحر المتوسط ويضعفه الى اقصى حد ممكن ويحطم الذرادشتيه والديانات الثنوية فى فارس وبين النهرين ويقيم حاجزا فى وجه انتشار البوذية فى اواسط آسيا . ا . هـ .

* * *

* * *

المراجع والمصادر

- **العلامة محمد فريد وجدى** : دائرة معارف القرن العشرين
- **الدكتور محمد حسين هيكل** : حياة محمد ، فى منزل الوحى
- **السيد محب الدين الخطيب** : مجلدات مجلة الفتح . ومجلة الزهراء
- **الدكتور حسين الهراوى** : المستشرقون والاسلام
- **الدكتور مصطفى السباعى** : السنه ومكانها فى الفقه الاسلامى
- **العلامة محمد المبارك** : الأمة الذاتية فى معركة تحقيق الذات
- **الأستاذ احمد حسين** : الأمة الانسانية
- **الدكتور احمد الحوفى** : تحت راية الاسلام
- **الدكتور محمد محمد حسين** : الاسلام والحضارة الغربية
- **الدكتور عمر فروخ** : التبشير والاستعمار

وذلك بالاضافة الى المــراجع الواردة فى هوامش الكتاب ولاستكمال البحث فى مجال الفكر العربى الاسلامى وما وجه اليه من اتهامات يمكن مراجعة آثار المؤلف :

※ اضواء على الفكر العربى الاسلامى (المــكتبة الثقــافية) .

※ صفحات من أمجادنا (سلسلة كتب اســلامية للمجلس الأعلى للشئون الاسلامية) .

※ الفــكر العربى المعــــاصر فى معركة التعريب والتبعية الثقافية .

※ معالم الفكر العربى المعــاصر .
※ الثقافة العربية فى معركة التعريب والشعوبية. } فى مجــلد واحد

فهرس الكتاب

الموضـــــــوع | صفحة

الموضـــــــوع | صفحة

الموضـــــوع	صفحة

دار العلوم للطباعة
القاهرة ٨ شارع حسين حجازى . قصر العينى .
ت. ٣٥٥١٧٤٨

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٨/٦٠٠٧

الترقيم الدولى ٩ — ٠٠١ — ٢١٧ — ٩٧٧